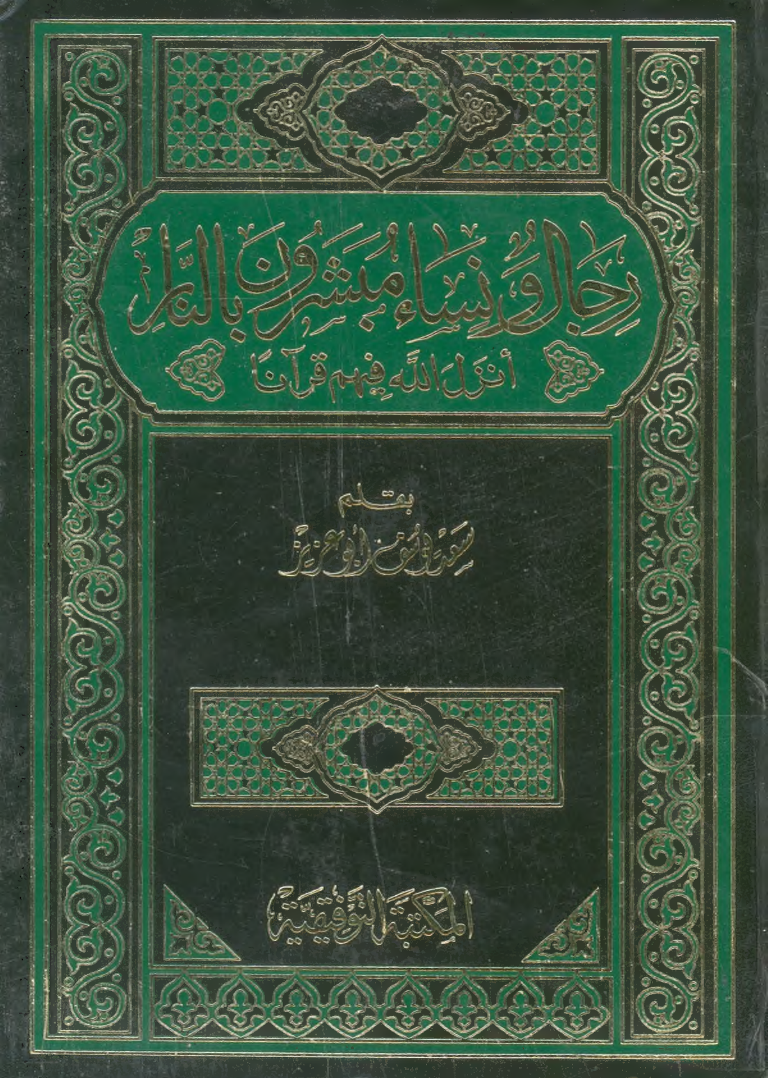

رجال ونساء مبشرون بالنار
أنزل الله فيهم قرآنا
بقلم
سعد يوسف أبو عزيز
المكتبة التوفيقية

رجال ونساء مبشرون بالنار
أنزل الله فيهم قرآنا

بقلم:
سعد يوسف محمود أبو عزيز





﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

[سورة النحل: ٢٦ - ٢٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

الحـمد لله رب العـالمين.. والعاقـبة للمـتقين.. ولا عـدوان إلاّ على الظالمين. وأشهـد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين.. وخالق الخلق أجـمعين. وأشهد أن محمداً عبـده ورسوله.. سيّد الأنبياء وإمام المرسلين.. اللهم صلٍّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وسلّم أجمعين..

وبعد:

فهذا الكتاب «**رجال ونساء مبشّرون بالنار أنزل الله فيهم قرآنًا**» يحكى قصصًا واقعية.. حدثت فى تاريخ البـشرية.. لقوم: ﴿ **جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾[1].

فسلط الله عليهم سيف انتقـامه.. فأرداهم.. وأخزاهم.. وأبعدهم.. وأشقاهم.. وجعل النار مثواهم..

دَكَّ فى الدنيا عـروشهم.. وحطم غـرورهم.. فخوت مـنهم البلاد.. واستراح منهم العباد ﴿ **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾[2]. فيا شدة حسرتهم.. ويا عظَم مصـيبتهم ﴿ **لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ** ﴾[3]. فرحم الله عبـدًا نظر فأبصر.. وتذكر فاعتبر.. والسعيد من وُعظ بغيره.

جعلنا الله من عـباده الصالحين.. ونجّـانا برحمتـه من القوم الظالمين.. وأعاذنا من سوء المصير.. وأجارنا من عذاب السعير.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

كتبه/ **سعد يوسف محمود أبو عزيز**

---

(١) سورة هود: ٥٩.

(٢) سورة هود: ٦٠.

(٣) سورة الزمر: ١٦.

مدخل هام إلى موضوع الكتاب

لا يستريب عاقل فى أن المعاصى والذنوب هى سبب هلاك الأمم والشعوب.. وهذا الكتاب «**رجال ونساء مبشّرون بالنار أنزل الله فيهم قرآنًا**» يضم مجموعة من «الأشقياء» الذين هتك الله أستارهم بنزول القرآن فيهم.. يكشف حالهم.. ويُحدِّد مآلهم.. تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد.

هذا، وأنبه القارئ الكريم إلى عدة أمور:

الأمر الأول: أننا لم نلتزم بالتسلسل التاريخى.. عند ترجمتنا للشخصيات الواردة فى هذا الكتاب.. وإنما التزمنا بالترتيب القرآنى.. ليسهل على القارئ متابعة الأحداث عند تلاوته للكتاب العزيز.

الأمر الثانى: ذكرنا عند كل شخصية ورد ذكرها فى هذا الكتاب:

- الآيات التى نزلت فيها.
- ترجمة للشخصية الوارد ذكرها.
- أسباب النزول.
- دروس وعبر من أسباب النزول.

هذا فيما يتعلق بمن عاصروا الرسول -ﷺ-.. ونزل القرآن بشأنهم.. أمّا الذين سبقوا الرسالة المحمدية.. ونزل القرآن بشأنهم.. فلقد اكتفينا بذكر:

- الآيات التى نزلت بشأنهم.
- ترجمة لشخصياتهم.
- ذكر بعض الفوائد والدروس المستفادة من قصتهم.

الأمر الثالث: ذكرنا بعض الشخصيات مع علمنا بضعف السند الوارد بشأن نزول القرآن فيهم. . وإنما ذكرناهم لإجماع المفسرين أو جلّهم على أن سبب النزول فيهم. أو لاشتهارهم بالكفر والنفاق عند جميع الأمة وكيدهم للدعوة إلى أن لقوا حتفهم، مثل الأسود العنسى وغيره.

الأمر الرابع: استبعدنا قصة «ثعلبة بن أبى حاطب» وقصة «الوليد بن عقبة» و«عبد الرحمن بن أبى بكر» وذلك لما يلى:

أولاً: بالنسبة لثعلبة بن أبى حاطب:

فالخبر الوارد بشأنه، وفيه:

أنه جاء إلى رسول الله -ﷺ- فقال:

ادع الله أن يرزقنى مالاً.

فقال له: **«قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه»**.

وألح على الرسول -ﷺ- فدعا له بالغنى، فلما أغناه منع الزكاة، وترك الصلاة، فأنزل الله عز وجل:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(١).

وفيها: أن ثعلبة لما علم بذلك جاء تائبًا يعرض صدقته على الرسول -ﷺ- فرفضها، فجاء إلى أبى بكر فى خلافته، ثم عمر، ثم عثمان -رضي الله عنهم- لكنهم رفضوا قبول صدقته وأخبروه: أن الله لم يقبل توبته. حتى مات فى خلافة عثمان!!.

فهذا الخبر ليس صحيحًا. . على الرغم من وجوده فى بعض كتب التفسير. . وإليك أقوال العلماء عليه:

---

(١) سورة التوبة: ٧٥-٧٧.

● قال ابن حزم فى «المحلّى»[١]:

«هذا باطل بلا شك لأن ثعلبة بدرىّ معروف»[٢].

● وقال الحافظ ابن حجر فى «تخريج أحاديث الكشاف»[٣]: هذا إسناد ضعيف جداً.

● وضعفه الحافظ العراقى فى «تخريج الإحياء»[٤].

● وضعفه الهيثمى فى «مجمع الزوائد»[٥].

● وقال الإمام البيهقى: هذا حديث مشهور فيما بين أهل التفسير، وإنما يُروى موصولاً بأسانيد ضعاف[٦].

● وقال الشيخ الألبانى -رحمه الله تعالى- فى «ضعيف الجامع الصغير وزيادته»: ضعيف جداً[٧].

● وقال صاحب المنار:

«وفى الحديث إشكالات تتعلق بسبب نزول الآيات، وظاهر سياق القرآن: أنه كان فى سفر فى غزوة تبوك، وظاهره: أنها نزلت عقب فريضة الزكاة، والمشهور أنها فرضت فى السنة الثانية. وبعدم قبول توبة ثعلبة. وظاهر الحديث ولا سيما بكائه: أنها توبة صادقة، وكان العمل جاريًا على معاملة المنافقين بظواهرهم، وظاهر الآيات: أنه يموت على نفاقه، ولا يتوب

(١) المحلى (١١/ ٢٠٨).
(٢) بدرىّ: أى: شهد بدراً.. وفى الحديث: «لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية» رواه مسلم بنحوه، وحكى ابن حجر عن أصحاب المغازى والسير: أن ثعلبة بن حاطب عداده فى البدريين.. ودافع عنه.. فأجاد -رحمه الله- وأفاد. الإصابة (١/ ٤٠١).
(٣) تخريج أحاديث الكشاف ص ٧٧.
(٤) الإحياء (٣/ ٢٧٢).
(٥) مجمع الزوائد (٧/ ٣٢).
(٦) دلائل النبوة (٥/ ٢٩٢).
(٧) ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٤/ ١٢٥) رقم (٤١١٦).

من بخله وإعـراضه، وأن النبى -ﷺ- وخليـفتيـه عامـلاه بذلك، لا بظاهر الشريعة وهذا لا نظير له فى الإسلام»[١] ا.هـ.

والحق أن سبب نزول قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ إلى ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٢]، ما رواه الطبرانى: بإسناد رجاله رجال الصحيح.

كما قال الهيثمى فى مجمع الزوائد[٣] - عن ابن مسعود، قال:

اعتبروا المنافقين بثـلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر. فأنزل الله تصديق ذلك فى كتابه:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ إلى آخر الآية[٤].

وعن سعيد بن ثابت قال: قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ الآية، قال: إنما هو شىء نووه فى أنفسهم ولم يتكلموا به، ألم تسمع إلى قوله:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٥][٦]؟.

وهذا التفسير ينسجم مع الآية أتم الانسجام والله أعلم.

ثانيًا: بالنسبة للوليد بن عقبة:

فقد روى بعض المفسرين أن الله سمّاه فاسقًا فى قوله تعالى:

﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾[٧].

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٤٨٤).
(٢) سورة التوبة: ٧٥-٧٧.
(٣) (١/ ١٠٨) ورواه الطبرى فى تفسيره (٦/ ٤٧٩) وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده.
(٤) انظر: كشف اللثام عما فى كتب التفسير من الأوهام. د. أبو عمر نادى الأزهرى (٤١).
(٥) سورة التوبة: ٧٨.
(٦) تفسير الطبرى (٦/ ٤٨٠).
(٧) سورة الحجرات: ٦.

فإنها -فى قـولهم- نزلت فيه، أرسله النبى -ﷺ- إلى بنى المصطلق، فأخـبر عنهم أنهم ارتدوا، فـأرسل رسول الله -ﷺ- إليهم خـالد بن الوليد فتثبت فى أمرهم فبين بطلان قوله».

وللعلماء على سبب نزول هذه الآية فيه أقوال منها:

١- قال الإمام الفخر الرازى:

«بل نقول: هو نزل عامًّا لبيان التثبيت، وترك الاعتماد على قول الفاسق ويدل على ضعف قول من يقول: إنها نزلت لكذا، أن الله تعالى لم يقل إنى أنزلتهـا لكذا، والنبى -ﷺ- لم ينقل عنه أنه بيّن أن الآية وردت لبـيان ذلك فحسب.

غاية ما فى الباب أنهـا نزلت فى ذلك الوقت، وهو مثل التاريخ لنزول الآية؟ ونحن نصدق ذلك.

ويتأكـد ما ذكـرنا إطلاق لفظ الفاسق علـى «الوليد» شىء بعـيد، لأنه توهم وظن فأخطأ والمخطئ لا يسمى فاسقًا، وكيف والفاسق فى أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الإيمان»[(١)].

٢- وقال الإمام الخازن:

«وقيـل: هو عام -أى سـبب نزول الآية- نزلت لبيـان التثـبت، وترك الاعتماد على قـول الفاسق، وهو أولى من حكم الآية على رجل بعينه؛ لأن الفسـوق خروج عن الحق، ولا يظن بالوليد ذلـك إلا أنه ظن وتوهم فأخطأ. فعلى هذا يكون معنى الآية:

﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ أى: بخبر ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وقرئ «فتثـبتوا» أى: فتـوقفوا، أو أطيلوا بيـان الأمر وانكشاف الحـقيقـة، ولا تعتمـدوا على قول الفاسق»[(٢)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٦٩/١٤، ٣٧٠).

(٢) تفسير الخازن (١٦٧/٤).

٣- قال الإمام ابن عاشور:

«لو كان الوليد فاسقًا لما ترك النبيُّ -ﷺ- تعنيفه واستتابته... ثم يستطرد ابن عاشور فيقول:

وإنما تلقف هذه الأخبار الناقمون على «عثمان» -رضي الله عنه-؛ إذ كان فى عداد مناقمهم الباطلة؛ أنه ولَّى «الوليد بن عقبة» إمارة الكوفة، فحملوا الآية على غير وجهها، وألصقوا بالوليد وصف الفاسق، وحاشاه منه لتكون ولايته الإمارة باطلاً» ا.هـ[1].

٤- قال العلامة الشيخ محب الدين الخطيب:

«كنت فيما مضى أعجب كيف تكون هذه الآية نزلت فى «الوليد بن عقبة» ويسميه الله فاسقًا، ثم تبقى له فى نفس خليفتى رسول الله -ﷺ- أبى بكر وعمر المكانة التى سجلها له التاريخ[2]... إن هذا التناقض بين ثقة أبى بكر وعمر بالوليد بن عقبة، وبين ما كان ينبغى أن يعامل به لو أن الله سمّاه فاسقًا -حملنى على الشك فى أن تكون الآية نزلت فيه... وبعد أن ساورنى الشك أعدتُ النظر فى الأخبار التى وردت عن سبب نزول الآية ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ...﴾ فلما عكفت على دراستها وجدتها موقوفة على مجاهد، أو قتادة، أو ابن أبى ليلى، أو يزيد بن رومان، ولم يذكر أحد منهم أسماء رواة هذه الأخبار فى مدة مائة سنة أو أكثر مرت بين أيامهم وزمن الحادث... وما دام رواة تلك الأخبار فى سبب نزول الآية مجهولين من علماء الجرح والتعديل بعد الرجال الموقوفة هذه الأخبار عليهم، وعلماء الجرح والتعديل لا يعرفون من أمرهم حتى ولا أسماءهم، فمن غير الجائز شرعًا وتاريخًا الحكم بصحة هذه الأخبار المنقطعة التى لا نسب لها»[3].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٦/٢٢٩، ٢٣٠) بتصرف.

(٢) كان الوليد بن عقبة موضع السِّر فى الرسائل الحربية فى عهد «أبى بكر الصديق».. وأرسله أبو بكر -رضي الله عنه- قائدًا إلى شرق الأردن.. وكان -رضي الله عنه- قائدًا فاتحًا -أيضًا- فى عهد عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه-. العواصم من القواصم. الهامش (٩٨، ٩٩).

(٣) انظر: العواصم من القواصم (١٠٢) الهامش.

والخلاصة:

أن «الوليد -رضي الله عنه- غير معنيٍّ بالآية، وإنما هى عامة مطلقة تحذِّر المسلمين من الأنباء الكاذبة التى يرجف بها المرجفون، ليشيعوا فى المسلمين قالة السوء، وليوغروا بها صدورهم على أهل الإيمان والسلامة فيهم، وأن هذا لو وقع موقع القبول من المؤمنين من غير تبصر أو تمحيص، لأفسد عليهم أمرهم»(١).

ثالثًا: بالنسبة لعبد الرحمن بن أبى بكر:

فقد روى بعض المفسرين: أن هذه الآية:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾(٢).

نزلت فى «عبد الرحمن بن أبى بكر»!!.

والرواية ليست صحيحة.. فقد ردَّها المحققون..

● قال الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى-:

«ومن زعم أنها نزلت فى «عبد الرحمن بن أبى بكر» -رضي الله عنهما- فقوله ضعيف، لأن عبد الرحمن بن أبى بكر -رضي الله عنهما- أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه» ا.هـ(٣).

● وقال العلامة أبو السعود:

«وما روى من أنها نزلت فى «عبد الرحمن بن أبى بكر -رضي الله عنهما- قبل إسلامه، يرده ما سيأتى من قوله:

(١) كشف اللثام (٧١، ٧٢) نقلاً عن التفسير القرآنى للقرآن (٢٦/ ٤٤١) بتصرف.
(٢) سورة الأحقاف: ١٧، ١٨.
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٣).

﴿أُولَئِـكَ الَّذِيـنَ حَـقَّ عَلَيْهِـمُ الْقَـوْلُ فِـي أُمَـمٍ﴾ فإنه كان من أفاضل المسلمين. . . وقد كذّبت الصديقة من قال ذلك»[١] ا.هـ.

فعن عبد الله البهى[٢]، قال:

كنت فى المسجد ومروان يخطب، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر:

«والله ما استخلف أحد من أهله».

فقال مروان: أنت الذى نزلت فيك:

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾.

فقال عبد الرحمن: كذبت، ولكن رسول الله -ﷺ- لعن أباك[٣].

وفى «صحيح البخارى» عن يوسف بن ماهك، قال:

كان مروان على الحجـاز استعمله معاوية، فخـطب، فجعل يذكر «يزيد ابن معاوية» لكى يبايع لـه بعد أبيه، فقال له عبد الرحـمن بن أبى بكر شيئًا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، فقال مروان:

إن هذا الذى أنزل الله فيه:

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾.

فقالت عائشة من وراء الحجاب:

ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن[٤]، إلا أن الله أنزل عذرى»[٥].

والصحيح: أن الآية لم تنزل فى شـخص معين، بل المراد: كل من كان

---

(١) تفسير أبى السعود (٨/ ٨٣، ٨٤).

(٢) مولى مصعب بن الزبير.

(٣) قال الهيثمى: رواه البزار وإسناده حسن. المجمع (٥/ ٢٤١).

(٤) شغب بعض الرافـضة فقال: هذا يدل على أن قـوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ [سورة التوبة: ٤٠] ليس هو أبو بكر. وليس كمـا فهم هذا الرافضى. بل المراد بقول عـائشة: «فينا» فى بنى أبى بكر.

(٥) صحيح البخارى (كتاب التفسير) باب: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ (٨/ ٤٣٩).

موصوفًا بهذه الصفة، وكل من دعاه أبواه إلى الدين الحق، فأباه وأنكره. قال الإمام الفخر الرازى:

«وهذا هو القول الصحيح عندنا».

الأمر الخامس: استبعدنا ترجمة «إبليس» مع أنه إمام أهل النار وزعيمهم بدليل قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١).. لأننا اكتفينا بذكر أشقياء بنى آدم.

وبعد هذه المقدمة نشرع فى المقصود.

(١) سورة ص: ٨٥.

[١] عَبْدُ الله بن صُورِيا
«الحَبْرُ الضال!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴾(١).

فمن هو عبد الله بن صوريا؟:

هو: أحد أحبار اليهود المضلين.. الذين حاولوا صرف النبى -ﷺ- عن حكم القرآن.. فعصم الله نبيّه -ﷺ- من كيدهم.. وحذّره من اتباع أهوائهم.

وهو: أحد الأعداء الألداء لله تعالى وملائكته ورسله!! فأبعده الله وأخزاه وجعل النار مثواه.

مواقفه المعادية للإسلام:

عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

قال «كعب بن أسد» و«ابن صلوبا» و«عبد الله بن صوريا» و«شاس بن قيس»، بعضهم لبعض:

اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه!!.

فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم، وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا

---

(١) سورة البقرة: ٩٩.

خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله -ﷺ-؛ فأنزل الله عز وجل فيهم:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(١)(٢).

فحذّر الله نبيّه -ﷺ- من مكرهم واتباع أهوائهم وأمره أن يحكم بين الناس، عربهم وعجمهم، أُمّيهم وكتابيهم، بما أنزل الله إليه فى هذا الكتاب العظيم، وبما قرّره الله له من حكم من كان قبله من الأنبياء ولم ينسخه فى شرعه.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى لا تنصرف عن الحق الذى أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء.

قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: «ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء، والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذى وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى: من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه؛ فصارت فى بنيه شرعًا متّبعًا يقدّمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله -ﷺ-؛ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر... قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى يبتغون

(١) سورة المائدة: ٤٩، ٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٠٧) وقال ابن كثير: رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

ويريدون، وعن حكم الله يعدلون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل فى كل شيء»[1] ا.هـ.

بغضه لمن آمن وكراهيته لجبريل -عليه السلام-!!:

كان «عبد الله بن صوريا» أحد أقطاب اليهود الذين استكبروا عن اتباع الرسول -ﷺ-، ولزموا موقف العداء والحسد والكيد، ونظراً إلى أنهم نزلاء فى أرض العرب فقد اتخذوا فى معاداته والكيد له أسلوب الدّس والمكر والخديعة، إلا ما كان من نفر قليل منهم، فهذا «عبد الله بن سلام» كان حبراً كبيراً من أحبارهم عالـمًا بالتوراة، فهدى الله قلبه للإسلام، ولكن نقم عليه اليهود نقمة شديدة بسبب إسلامه.

قال مقاتل:

«لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعنة وأسد بن عبيد ومن أسلم من اليهود قالت أحبار اليهود:

ما آمن لمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم. وقالوا لهم: لقد خنتم حين استبدلتم بدينكم دينًا غيره!، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2][3].

وفى رواية أخرى، قال:

«إن رؤوس اليهود «كعب» و«بحرى» و«النعمان» و«أبو رافع» و«أبو

---

(١) تفسير ابن كثير (١٠٧/٢) بتصرف، وراجع هناك نص كلامه -رحمه الله تعالى-.
(٢) سورة آل عمران: ١١٣، ١١٤.
(٣) أسباب النزول للنيسابورى (٦٩).

ياسر» و«ابن صوريا» عمدوا إلى مؤمنهم «عبد الله بن سلام» وأصحابه فآذوهم لإسلامهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾(١)(٢).

وأخرج البخارى فى «صحيحه» عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال:

سمع «عبد الله بن سلام» -رضي الله عنه- بمقدم رسول الله -ﷺ- وهو فى أرض يخترف(٣) فأتى النبىّ -ﷺ- فقال:

إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبىّ:

ما أول أشراط الساعة؟

وما أول طعام أهل الجنة؟

وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمّه؟

قال -ﷺ-: «أخبرنى بهذه جبرائيل آنفًا».

قال: جبريل؟

قال: «نعم».

قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

فقرأ هذه الآية:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

«وأما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب وأما

---

(١) سورة آل عمران: ١١١.

(٢) أسباب النزول للنيسابورى (٦٩).

(٣) اخترف الثمار: أى: جناها.

(٤) سورة البقرة: ٩٧.

أول طعام يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت. وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة، نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت».

قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسـول الله. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى.

فجاءت اليهود، فقال لهم رسول الله -ﷺ-:

«أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟».

قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيِّدنا.

قال: **«أرأيتم إن أسلم؟».**

قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فخرج عبد الله، فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فقالوا: هو شرنا وابن شرِّنا وانتقصوه!!.

فقال: هذا الذى كنتُ أخاف يا رسول الله(١).

واليهود من أشد الناس عداوة لجبريل -عَلَيْهِ السَّلَامُ-!! لا لشىء إلا لأنه ينزل بالحرب والقتال!!

أقبلوا يومًا إلى رسول الله -ﷺ-، فقالوا:

إنه ليس نبىّ من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحى، فمن صاحبك حتى نتابعك؟

قال: **«جبريل».**

قالوا: ذاك الذى ينزل بالحرب والقتـال، ذاك عدوّنا! لو قلت: ميكائيل

---

(١) أخرجه البخارى (٦/٢٣).

الذى ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾(١)(٢).

وكان «عبد الله بن صوريا» فى مقدمة الكارهين لجبريل -عليه السلام- المبغضين له!

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-:

إن حَبْراً من أحبار اليهود من «فدك» يقال له: «عبد الله بن صوريا» حاجّ النبى -صلى الله عليه وسلم- فسأله عن أشياء، فلمّا اتجهت الحجة عليه، قال: أى ملك يأتيك من السماء؟

قال: «جبريل ولم يبعث الله نبيًّا إلا وهو وليّه».

قال: ذاك عدونا من الملائكة ولو كان ميكائيل لآمنا بك، إن جبريل نزل بالعذاب والقتال والشدة فإنه عادانا مراراً كثيرة، وكان أشد ذلك علينا أن الله أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب على يدى رجل يقال له «بختنصّر» وأخبرنا بالحين الذى يخرب فيه فلمّا كان وقته بعثنا رجلاً من أقوياء بنى إسرائيل فى طلب بختنصّر ليقتله، فانطلق يطلبه حتى لقيه «ببابل» غلامًا مسكينًا ليست له قوة فأخذه صاحبنا ليقتله فدفع عنه جبريل، وقال صاحبنا:

إن كان ربكم الذى أذن فى هلاككم فلا تسلط عليه، وإن لم يكن هذا فعلى أى حق تقتله؟!.

فصدقه صاحبنا ورجع إلينا.

وكبر «بختنصّر» وقوى وغزانا وخرب بيت المقدس فلهذا نتخذه عدوًّا فأنزل الله هذه الآية:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ...﴾ الآية(٣).

---

(١) سورة البقرة: ٩٧، ٩٨.

(٢) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى من طرق، قال الحافظ عنها فى الفتح: «يقوى بعضها بعضًا».

(٣) أسباب النزول للنيسابورى (٢٠).

وقال ابن جرير: وقال آخرون:

بل كان سـبب قيلهم ذلك من أجل مـناظرة جرت بينهم وبين عـمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فى أمر النبىّ -ﷺ- (ذكر من قال ذلك):

حـدثنى محـمـد بن المثنى، حـدثنى ربعى بن عليـة، عن داود بن أبى الهند، عن الشّعبى، قـال: نزل عمر الرَّوحاء، فرأى رجالاً يبـتدرون أحجاراً يصلون إليها، فقال: ما بال هؤلاء؟

قالوا: يزعمون أن رسول الله -ﷺ- صلى ها هنا.

قال: فكفر ذلك، وقال:

أيما رسول الله -ﷺ- أدركته الصلاة بواد صلاها، ثم ارتحل فتركه، ثم أنشأ يحدّثهم، فقال:

كنتُ أشهد اليهود يوم مدراسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف يصدق التوراة، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا:

يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك!

قلت: ولم ذلك؟

قالوا: لأنك تغشانا وتأتينا.

فقلت: إنى آتيكم فـأعجب من القرآن كيف يصـدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق القرآن.

قالوا: ومرّ رسول الله -ﷺ-، فقالوا:

يا ابن الخطاب، ذاك صاحبكم فالحق به.

قال: فقلتُ لهم عند ذلك:

نشـدتكم بالله الذى لا إله إلا هو، ومـا استـرعـاكم من حـقه، ومـا استودعكم من كتابه، هل تعلمون أنه رسول الله؟

قال: فسكتوا، فقال له عالمهم وكبيرهم:

إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه.

قالوا: فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت.

قال: أما إذا نشدتنا بما نشدتنا، فإنا نعلم أنه رسول الله.

قلتُ: ويحكم إذاً هلكتم.

قالوا: إنا لم نهلك.

قلتُ: كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه؟

قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسلمًا من الملائكة، وأنه قرن بنبوته عدوّنا من الملائكة.

قلتُ: ومن عدوكم، ومن سلمكم؟

قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل.

قالوا: إن جبرائيل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا.

قال: قلتُ: وما منزلتهما من ربهما عزّ وجل؟

قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره.

قال: فقلت: فوالذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما، وسلم لمن سالمهما، وما ينبغى لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل، وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل.

قال: ثم قمتُ فاتبعتُ النبى -ﷺ-، فلحقتُه وهو خارج من خوخة لبنى فلان، فقال:

«يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل».

فقرأ عليّ:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ حتى قرأ الآيات!!

قال: فقلت: بأبى وأمى أنت يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لقد جئتُ أنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر»(١).

ومما سبق يتبين لنا أن اليهود استخدموا كل الحيل.. وتفننوا فى كل الوسائل.. فى محاولة للنيل من دعوة الإسلام ومحاولة إجهاضها.

مرة بأسئلة التعنت ومرة بالإغراء.. ومرة بالتدليس والتلبيس... إلخ.

ولعل من أخطر الوسائل التى استخدموها للكيد لدعوة الإسلام هى محاولة إغراء النبى -ﷺ- كما تقدم معنا- من اجتماع أحبار اليهود «كعب ابن أسد» و«ابن صلوبا» و«عبد الله بن صوريا» و«شاس بن قيس»، فقال بعضهم لبعض:

اذهبوا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر.

فأتوا إلى رسول الله -ﷺ- فقالوا له:

«يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم وسادتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعك يهود، ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك؟!».

«عرض مغرجداً، الرشوة فيه وعدٌ بأن يؤمنوا به ويصدقوه، ثم يتبعهم من ورائهم معظم يهود، فهم أحبارهم وأشرافهم وسادتهم، والتضحية من جانب الرسول -ﷺ- يسيرة فى نظر كثير من الناس، هى أن يحكم لهم بالباطل على بعض إخوانهم إذا رفعوا الأمر إليه، وحكّموه فى خصومتهم،

---

(١) إسناده منقطع: فإن الشعبى -رحمه الله تعالى- لم يدرك زمان عمر (تفسير ابن كثير ١/١٩٧). قال السيوطى فى «الدر المنثور» (١/٢٢٣): صحيح الإسناد ولكن الشعبى لم يدرك عمر».

وفى هذا العَرض المُغْرى مكر خبيث، لست أدرى أهو مكر أخذوه عن الشيطان أم أخذه الشيطان عنهم؟

وهو مزلق خطير لو انزلق معهم الرسول فيه لأتى على قواعد نبوّته وأُسس رسالته فنقضها، ثم لتقوَّض من فوقها كلٌّ صرح الإسلام الذى جعله الله أمانة كبرى فى عنق نبيِّه -صلوات الله عليه-، ذلك لأن موافقة الرسول لهم أن يحكم لهم بالباطل على بعض إخوانهم أمر مناقض لمفهوم النبوّة والرسالة، إذ أنّ من صفات الرسول الواجبة له صفة العصمة عن معصية الله، والأمانة على دينه، ومتى اختلَّت هذه الصفة انتقض مفهومهم للنبوة، وأصبحت دعوة الرجل دعوة ملك وسلطان، يستجيب معها إلى ألاعيب السياسة، ما دام من شأنها أن تدعم ملكه وسلطانه، لا دعوة نبوّة ورسالة يُبلِّغها عن الله كما أمره الله وأمام هذا العرض المغرى الخبيث من أحبار اليهود -عبد الله بن صوريا- ومن على شاكلته، لم يكن الرسول -صلوات الله عليه- إلا الاعتصام بموقف النبوة، والاستمساك بما تفرضه معانى الرسالة الربَّانية، ومن أجل ذلك رفض عرضهم، وأبى أن يحكم بينهم إلا بالحق، إذا تحاكموا إليه، وأنزل الله فيهم قوله تعالى فى سورة المائدة:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1][2].

هذه بعض مواقف «عبد الله بن صوريا» العدائية ضد الإسلام وأهله.. وهى غيض من فيض.. وما ذكرناه هو الذى قيده التاريخ.. ولم أظفر بالعام الذى هلك فيه هذا الخبيث.. لعنه الله وأخزاه.

(١) سورة المائدة: ٤٩، ٥٠.

(٢) مكايد يهودية عبر التاريخ (٦٥) لعبد الرحمن حبنكة.

أسباب النزول

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس، قال:

قال ابن صوريا للنبى -ﷺ-:

يا محمد ما جئتنا بشىء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بيّنة!!.

فأنزل الله فى ذلك:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴾(١).

وقال «مالك بن الصَّيف» حين بُعث رسول الله -ﷺ- وذكرهم ما أُخذ عليهم من الميثاق وما عهد إليهم فى محمد:

والله ما عهد إلينا فى محمد ولا أخذ علينا ميثاقًا، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢)(٣).

دروس وعبر من أسباب النزول

قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴾(٤).

أى: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات، دالات على نبوتك، وتلك الآيات هى ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر

---

(١) سورة البقرة: ٩٩.

(٢) سورة البقرة: ١٠٠.

(٣) أسباب النزول للنيسابورى (٢٠)، وأسباب النزول للسيوطى (٨) هامش القرآن الكريم تفسير وبيان للشيخ حسنين مخلوف، وتفسير القرطبى (٣٩/٢)، تفسير ابن كثير (٢٠٠/١).

(٤) سورة البقرة: ٩٩.

أخبارهم وأخبـار أوائلهم من بنى إسرائيل، والنبأ عما تضمنتـه كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كـانت فى التوراة، فأطلـع الله فى كتابه الذى أنزله على نبـيِّه محمد -ﷺ-، فكان فى ذلك من أمره الآيات البيـنات لمن أنصف من نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغى، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد -ﷺ- من الآيات البينات التى وصف من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيئًا منه عن آدمى، كما قال الضحاك عن ابن عباس ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول:

فأنت تتلوه عليـهم وتخبرهم به غدوة وعشـية ذلك، وأنت عندهم أُمِّى لم تقرأ كتابًا، وأنت تخبـرهم بما فى أيديهم على وجهه، يقول الله تعالى فى ذلك عبرة وبيان، وعليهم حجّة لو كانوا يعلمون.

وقال محمـد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى مـحمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال:

قال ابن صوريا القطوينى لرسول الله -ﷺ-:

يا مـحمد: مـا جئـتنا بشىء تعـرفه، ومـا أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك. فأنزل الله فى ذلك من قوله:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله -ﷺ-: وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد إليهـم فى محمد -ﷺ-، والله ما عهد إلينا فى محـمد وما أخذ علينا ميثاقًا؛ فأنزل الله تعالى:

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ قال:

(١) سورة البقرة: ١٠٠.

«نعم، ليس فى الأرض عـهـد يعـاهدون عليـه إلاّ نقـضـوه ونبـذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غداً».

وقال ابن جرير: أصل النبذ الطرح والإلقاء، ومنه سُمّى اللقيط منبوذاً.

قال ابن كثير:

«قلتُ: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها، ولهذا أعـقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافـة الذى فى كتبهم نعـته وصفتـه وأخباره، وقد أمـروا فيها باتبـاعه ومؤازرته ونصرته، كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾[1] الآية؛ وقال ها هنا:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾[2] الآية، أى طرح طائفة منهم كتاب الله الذى بأيديهم مما فيـه البشارة بمحمد -ﷺ- وراء ظهورهم، أى تركـوها كأنهم لا يعلمون ما فـيها، وأقبلوا على تعلـم السّحر واتباعه....»[1].

لقد كـشف القرآن هنا عن علة كـفر بنى إسرائيل بتلـك الآيات البينات التى أنزلها الله.. إنه الفسوق وانحـراف الفطرة. فالطبيعة المستقيـمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات.

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٢) سورة البقرة: ١٠١.

[٢] النمرود بن كنعان

«الملك المغرور»

الآيات التي نزلت فيه:

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

فمن هو النمرود؟:

هو: النمرود بن كنعان بن كوش بن سـام بن نوح. قاله مجاهد. وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار:

«وهذا الملك هو ملك بابل».

وهو أحد الملوك الذين ملكوا الدنيا!!

قال مجاهد وغيره:

«كان أحد ملوك الدنيا فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة:

مؤمنان وكافران:

فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان -عليه السلام-.

والكافران: النمرود وبُخْتَنَصَّر».

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٨.

وذكروا أن النمرود هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة[١]!! فالله أعلم.

والنمرود: هو أحد الأشقياء الذين نفخهم الشيطان.. وغَرَّهم الملك.. فظن المنحوس أن بيده ملكوت كل شيء.. وهو يجير ولا يجار عليه!! -وحاشى لله وكلا- فادَّعى الشقى الألوهية.. والربوبية.. وظن أنه يجب أن تذعن له الرقاب.. وتنحنى له الأصلاب.. وتعفّر له الوجوه فى التراب!!!.

غريب أمر هذا الإنسان!!.. وعجيب حاله إذا نسى نفسه!

● قال الحسن -رحمه الله تعالى-:

«العجب من ابن آدم، يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات!!»[٢].

● وكان الأحنف بن قيس يجلس مع «مصعب بن الزبير»[٣] على سريره، فجاء يومًا ومصعب مادّ رجليه فلم يقبضهما!! وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك فى وجهه، فقال:

«عجبًا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين!!»[٤].

● وعن أبى بكر الهذلى، قال:

بينما نحن مع الحسن إذ مرّ علينا ابن الأهتم -الأمير- يريد المقصورة وعليه جباب خز -أى حرير- قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنه قباؤه وهو يمشى يتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال:

«أفّ.. أفّ... شمخ بأنفه، ثانى عطفه، مصعّر خده ينظر فى عطفيه، أى حميق أنت تنظر فى عطفك فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها، والله أن يمشى أحد طبيعته

---

(١) البداية (١/٢٢٩).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٣٣٨).

(٣) أمير العراق... وهو: مصعب بن الزبير بن العوام.

(٤) الإحياء (٣/٣٣٩).

يتخلّج تخلّج المجنون فى كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لفتة».

فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه فقال:

«لا تعتذر إليّ وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ولا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾»(١)(٢).

ما هى قصته؟

كان أهل «بابل» يعبدون الأصنام.. فناظرهم «إبراهيم -عليه السلام-» فى عبادتها، وكسّرها عليهم وأهانها وبيّن بطلانها.. ويصور القرآن العظيم جزءًا من الحوار الذى دار بين إبراهيم وعبدة الأصنام فيقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ

---

(١) سورة الإسراء: ٣٧.

(٢) الإحياء (٣/ ٣٣٩).

فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾[1].

يخبر تعالى عن إبراهيم -عَلَيْكَ السلام- أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقّرها عندهم وصغّرها وتنقّصها.. وأقام عليهم الحجّة ببطلان صلاحها.

إذ لو كانت تصلح للألوهية أو الربوبية لدفعت عن نفسها من أرادها بسوء.. فلما انقطعت حجّتهم.. وبان ضلالهم.. لجأوا إلى القوة!!:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[2].

عدلوا عن الجدال والمناظرة لـمّا انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجّة. ولا شبهة إلا استعمال قوّتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الربّ جلّ جلاله وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾[3] وذلك أنهم شرعوا يجمعوا حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدّة يجمعون له.. ثم عمدوا إلى جوبة[4] فوضعوا فيها ذلك الحطب.. وأضرموا فيه النار.. ثم أُلقي فيها إبراهيم.. وهو يقول:

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[5][6].. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله -ﷺ-:

---

(١) سورة الأنبياء: ٥١-٧٠.
(٢) سورة الأنبياء: ٦٨.
(٣) سورة الأنبياء: ٦٨-٧٠.
(٤) الجوبة: الحفرة.
(٥) سورة آل عمران: ١٧٣.
(٦) روى البخاري عن ابن عباس قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين أُلقي في النار.

«لـمّـا أُلقيَ إبراهيم فى النار قال: اللهم إنك فـى السماء واحـد وأنا فى الأرض واحد أَعبُدُكَ».

فأصدر الله تعالى أمره للنار:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[1].

قال علىّ بن أبى طالب -رضي الله عنه-: «أى: لا تضريِّه».

قال الإمام القشيرى -رحمه الله-:

«فلمّـا توجّهت الحـجةُ عليـهم ولم يكن لهم جـواب داخلتهم الأنفـةُ والحمية فـقالوا: سبيلنا أن نقتله شرَّ قـتلة، وأن نعامله بمايخوّفنا به من النار. فقالوا:

﴿ ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾[2].

فلما رموه فى النار:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾.

لو عصـمه الله من نار نمرود ولـم يمكنه منْ رميـه فى النار من المنجنيق لكان -فى الظاهر- أقرب من النصر، ولكنَّ حـفْظه فى النار من غير أن يمسَّه ألمٌ أتمُّ فى باب النصرة والمعجزة والكرامة» ا.هـ.

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾[3].

وفى الآية الأخرى: ﴿ الأَسْفَلِينَ ﴾[4].

أرادوا أن ينصـروا فخُذلـوا، وأرادوا أن يرتفعـوا فاتضـعوا، وأرادوا أن يَغْلبوا فغُلبوا..

قال الإمام القشيرى:

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٩.
(٢) سورة الصافات: ٩٧.
(٣) سورة الأنبياء: ٧٠.
(٤) سورة الصافات: ٩٨.

«من حفـر لأوليائه وقع فـيما حَـفَر، ومن كان مـشغـولاً بالله لم يتولَّ الانتقام منه(١) سوى الله».

المناظرة مع النمرود:

خرج «إبراهيم -عليه السلام-» من النار مرفوع الرأس.. عـالى الهامة.. لم تحرق النارُ منه سوى وثاقه.. وكانت هذه الآية كـافية لإذعان الرقاب إلى ربِّ الأرباب -سبـحانه- لـو كان بالقلـوب حيـاة.. ولكن القـوم أصـرّوا على عنادهم.. واستمرّوا على كُفْرهم.

ولـمّا كان النـمرود هو ملكهم المطاع.. فقد دعاه «إبـراهيم» إلى عبادة الله وحده لا شريك له.. ولكن النمرود طغَى وبغى وتجبّـر وعتا، وآثر الحياة الدنيا.. وحمله الجهل والضلال على إنكار الخالق الصانع جلّ وعلا ودار بينه وبين إبراهيم الخليل هذا الحوار:

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

والآية الكريمة تحكى حواراً بين إبراهيم -عليه السلام- وملك فى أيامه -وهو النمرود- يجادله فى الله. لا يذكر السيـاق اسمه، لأن ذكر اسمه لا يزيد من العبرة التى تمثلها الآية شيئًا.

وهذا الحـوار يعـرض على النبىّ -صلى الله عليه وسلم- وعلى الجـماعـة المسلمـة فى أسلوب التعجيب من هذا المجادل، الذى حـاج إبراهيم فى ربه، وكأنما مشهد الحوار يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآنى العجيب:

---

(١) هكذا بالأصل، ولعلها: «الانتقام له».

(٢) سورة البقرة: ٢٥٨.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾!!.

إن هذا الملك الذى حاج إبراهيم فى ربّه لم يكن منكرًا لوجود الله أصلاً إنما كان منكرًا لوحدانيته فى الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجرى فيه وحده.

إن هذا الملك المنكر المتعنت إنما ينكر ويتعنّت للسبب الذى كان ينبغى من أجله أن يؤمن ويشكر. هذا السبب هو ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾.. وجعل فى يده السلطان! لقد كان ينبغى أن يشكر ويعترف، لولا أن الـمُلك يُطغى ويبطر من لا يقدّرون نعمة الله، ولا يدركون مصدر الإنعام. ومن ثم يضعون الكفر فى موضع الشكر؛ ويضلون بالسبب الذى كان ينبغى أن يكونوا به مهتدين! فهم حاكمون لأن الله حكمهم، وهو لم يخولهم استعباد الناس بقسرهم على شرائع من عندهم. فهم كالناس عبيد لله، يتلقون مثلهم الشريعة من الله، ولا يستقلون دونه بحكم ولا تشريع فهم خلفاء لا أُصلاء!

ومن ثم يعجب الله من أمره وهو يعرضه على نبيه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾؟!..

. ألم تر؟ إنه تعبير التشنيع والتفظيع؛ وإن الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظى وبنائه المعنوى سواء.

فالفعلة منكرة حقًّا: أن يأتى الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء! وأن يدعى عبدٌ لنفسه ما هو من اختصاص الرّب، وأن يستقل حاكم بحكم الناس بهواه دون أن يستمد قانونه من الله.

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾..

والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان فى كل لحظة، المعروضتان لحسّ الإنسان وعقله، وهما -فى الوقت نفسه- السّر الذى يُحيّر، والذى يلجئ الإدراك البشرى إلجاء إلى مصدر آخر غير بشرى. وإلى أمر آخر غير

أمر المخـاليق. ولابد من الالتجـاء إلى الألوهية القادرة علـى الإنشاء والإفناء لحلّ هذا اللغز الذى يعجز عنه كل الأحياء.

إننا لا نعـرف شيئًـا عن حقـيقـة الحيـاة وحقيـقة الموت حـتى اللحظة الحاضرة. ولكـننا ندرك مظاهرهما فى الأحياء والأمـوات. ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحـياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التى نعـرفها على الإطلاق.. قوة الله.. ومن ثم عـرّف إبراهيم -عليه السلام- ربه بالصّـفة التى لا يمكن أن يشاركه فيها أحد، ولا يمكن أن يزعمها أحد، وقال وهذا الملك يسأله عمّن يدين له بالربوبية ويراه مصدر الحكم والتشريع غيره.. قال:

﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فهو من ثم الذى يحكم ويشرع.

وما كان إبراهيم -عليه السلام- وهو رسول موهوب تلك الموهبة اللدنية التى أشرنا إليهـا فى مطلع هذا الجزء -ليعنى من الإحيـاء والإماتة إلا إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاء. فذلك عمل الرَّب المتفرد الذى لا يشاركه فيه أحدٌ من خلقه.

ولكن الذى حاج إبراهيم فى ربّه رأى فى كونه حاكمًا لقومه وقادرًا على إنفاذ أمـره فيهم بالحـياة والموت مظهـرًا من مظاهر الربوبية. فـقال لإبراهيم: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾!.

عند ذلك لم يرد إبراهيم -عليه السلام- أن يسـترسل فى جـدل حول مـعنى الإحياء والإماتة مع رجل يمارى ويداور فى تلك الحقيـقة الهائلة. حقيقة منح الحيـاة وسلبهـا. هذا السرّ الذى لـم تدرك منه البشـرية حتى اليـوم شيـئًا.. وعندئذ عدل عن هذه السـنة الكونية الخفـيّة، إلى سنّة أخرى ظاهرة مـرئية؛ وعدل عن طريق العرض المجرّد للسنة الكونية والصفة الإلهية فى قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.. إلى طريقة التحدِّى، وطلب تـغيير سنة الله لمن ينكر ويتـعنت ويـجـادل فى الله؛ ليـريه أن الرَّب ليس حـاكـم قـوم فى ركن من الأرض، إنما هو مصـرف هذا الكون كله. ومن ربوبيتـه هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم:

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ . .

وهى حقيقة كونية مكرورة كذلك؛ تطالع الأنظار والمدارك كل يوم؛ ولا تتخلّف مرَّة ولا تتأخر. وهى شاهد يخاطب الفطرة -حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئًا عن تركيب هذا الكون، ولم يتعلم شيئًا من حقائق الفلك ونظرياته -والرسالات تخاطب فطرة الكائن البشرى فى أية مرحلة من مراحل نموه العقلى والثقافى والاجتماعى، لتأخذ بيده من الموضع الذى هو فيه ومن ثم كان هذا التحدى الذى يخاطب الفطرة كما يتحدّث بلسان الواقع الذى لايقبل الجدل.

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

فالتحدى قائم، والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم، أو الجدال والمراء. . وكان التسليم أولى والإيمان أجدر. ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذى كفر، فيبهت ويبلس ويتحير. ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمّس الهداية، ولم يرغب فى الحق؛ ولم يلتزم القصد والعدل:

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ . . أى: والله لا يهدى أهل الكفر إلى حجة يُدحضون بها حجة أهل الحق عند المحاجة والمخاصمة، لأن أهل الباطل حججهم داحضة.

جزاء المتكبر:

يذكر علماء السيّر: أن الله أهلك النمرود «ببعوضة»!! سلَّطها عليه. . وأمدّها بقوة من عنده. . فاخترقت رأسه. . واستقرّت فى «يافوخه»!!. . وطالت مدةُ مكثها. . فكان لا يهدأ من الألم إلا إذا صفع بالنعل على أمّ رأسه!!!

الرأس الذى تمكن منه الكبر والغرور. .

الرأس الذى أصبح مستوطنًا للشيطان يصول فيه ويجول. . بل ويبول!

الرأس الذى عارض جبار السمـٰوات والأرض.. وادَّعى الربوبية!

الرأس الذى تنكر لجميل صنع الله فيه!

أهلكه الله «ببعوضة» ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

.. وهكذا دَمَّـر الله عرشـه.. وأباد مملكتـه.. وصـدق الله العظيم إذ يقول: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[2].

فوائد وعظات من قصة النمرود

١- الغرور طريق الهلاك:

● قال كعب:

«ما أنعم الله على عـبد من نعمة فى الدنيا فـشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ورُفع بها درجة فى الآخرة.

وما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعـها فى الدنيا وفتح له طبقًـا من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه»[3].

● وقال الفضيل:

«من أحب الرياسة لم يفلح أبدًا»[4].

● وقال الفضل بن المهلب -رحمه الله تعالى-:

بعث إلىّ سليمان بن عبد الملك -أمير المؤمنين- فى يوم جمعة، فقال:

هل لك فى الجمعة؟

---

(١) سورة المدثر: ٣١.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٣)، (٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٢).

قلت: ذاك إليك يا أمير المؤمنين.

قال: فدعا بثياب صُفر، فلبسها، ثم دعا بالمرآة فنظر، ثم نزعها، ثم دعا بثياب خضر فلبسها، ثم دعا بالمرآة فنظر، ثم قال:

«أنا الملك الشاب، أنا الملك الشاب»!.

ثم انطلق وانطلقتُ معه، فصعد المنبر، فبينما هو يخطب، إذ عرضت له سلعةٌ(١)، فنزل عن المنبر، وهو محمومٌ، فما جاءت الجمعة الأخرى حتى دُفن!!»(٢).

لذا خاف الصالحون على أنفسهم من الغرور لعاقبة أمره.. كان عطاء السلمى إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض(٣)، وقال: هذا من أجلى يصيبكم، لو مات عطاء لاستراح الناس!!.

٢- الكبر بريد الكفر:

الكبر نواة الكفر.. لذا جاءت الآيات والأحاديث والآثار تحذّر منه:

● قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٤).

● وقال -ﷺ-: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبّارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب»(٥).

● وقال -ﷺ-: «يخرج من النار عنقٌ له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسانٌ ينطق يقول: وكلتُ بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصورين»(٦).

---

(١) السلعة: هى غدة تحدث فجأة، وتظهر بين الجلد واللحم، إذا غمزت باليد تحركت.

(٢) أخرجه الخرائطى (٥٨٧) فى مساوئ الأخلاق، وانظر: أبغض الأعمال إلى الله (٢٧، ٢٨) للأستاذ/ مجدى فتحى السيد.

(٣) ماخض: أتاها ألم الطَّلْق.

(٤) سورة غافر: ٣٥.

(٥) أخرجه الترمذى وحسنه دون قوله: «من العذاب».

(٦) أخرجه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب.

● وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال:

التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على «الصفا» فتواقفا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا:

ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟

فقال: هذا -يعني عبد الله بن عمرو- زعم أنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه»(١).

● وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال:

«الكبر».

● وقال النعمان بن بشير -على المنبر-:

«إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله».

«كلام نفيس للإمام الغزالي رحمه الله تعالى»

قال -رحمه الله تعالى-:

«اعلم أن الكبر من المهلكات.. ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين.. ولا يزول بمجرّد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما:

أما العملي: فهو أن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربّه ويكفيه ذلك في

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد والبيهقي، وقال العراقي: إسناده صحيح. هامش الإحياء (٣/ ٣٣٧).

إزالة الكبر، فإنه مهما عـرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقلّ من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله.

أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول.

وأما معرفته نفسه فهو أيضًا يطول ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع فى إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله... وقد قال تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾(١)، فقـد أشارت الآية إلى أول خلـق الإنسان وإلى آخـر أمره وإلى وسطه.

أما أول الإنسـان فهـو أنه لم يكن شيئًـا مذكورًا... ثـم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها إذ قد خلقه الله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مـضغة، ثم جعله عظمًا، ثم كـسا العظم لحمًا... فـما صار شيئًا مذكورًا إلا وهو على أخسّ الأوصاف والنعوت!

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ وهذا إشارة إلى مـا تيسـر له فى مُدَّة حـياته إلى الموت وكذلك قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(٢).

ومعناه: أنه أحياه بعد أن كان جمادًا ميتًا ترابًا أولاً ونطفة ثانيًا، وأسمعه بعد مـا كان أصم، وبصّره بعد مـا كان فاقـدًا للبصر، وقوّاه بعـد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفـقر، وأشبعه بـعد الجوع، وكساه بعـد العرى، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبّره وصوّره وإلى السبـيل يسّره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال:

---

(١) سورة عبس: ١٧-٢٢.

(٢) سورة الإنسان: ٢.

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾(١).

وأما آخر مورده فهو الموت ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾.

ومعناه: أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسّه وإدراكه وحركته، فيعود جمادًا كما كان أول مرة... ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان فى الأوّل نطفة مذرة.. ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه... فيصير مفقودًا بعد ما كان موجودًا. وصار كأن لم يغن بالأمس... وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك ترابًا. لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء، فيخرج من قبره... إلى أهوال القيامة.. فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة.. وأرض مبدّلة، وجبال مسيّرة، ونجوم منكدرة، وأحوال مظلمة، وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر، وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسّر، ويرى صحائف منشورة.. [ويقال] هلمّ إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبُه فزعًا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال:

﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾(٢). فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى:

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟

بل ما له وللفرح فى لحظة واحدة فضلاً عن البطر والأشر؟.

فقد ظهر له أوّل حاله ووسطه ولو ظهر له آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبًا أو خنزيرًا ليصير مع البهائم ترابًا ولا يكون إنسانًا يسمع خطابًا أو يلقى عذابًا.

وأمّا العلاج العملى:

فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين،

---

(١) سورة يس: ٧٧.

(٢) سورة الكهف: ٤٩.

كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله -ﷺ- حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد**».

ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل»[١].

(١) الإحياء (٣/ ٣٥٨-٣٦٠) بتصرف.

[٣] شاس بن قيس

«رأس الفتن!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

فمن هو شاس بن قيس؟:

هو: أحد اليهود الذين تآمروا على الإسلام.. ودبّروا كثيرًا من المكايد.. وهو أحد الذين تخصصوا فى إثارة الفتن وتهييج العداوات بين المسلمين.. وإحياء النعرات الطائفية والتعصبات القبلية بين الفصائل الإسلامية.

وكان بين الأوس والخزرج عداوات فى الجاهلية.. وكان يوم «بعاث» من الأيام المشهورة فى حياة الفريقين فلقد اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ «حُضَير بن سماك الأشْهلى» أبو أُسيد بن حضير، وعلى الخزرج «عمرو بن النعمان البَيَضانى»، فقتلا جميعًا.

وظلت هذه العداوات قائمة.. إلى أن جاء الإسلام.. ودخل أهل المدينة فيه، فآخى الرسول -ﷺ- بين الأوس والخزرج.. ثم آخى بين

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٠، ١٠١.

المهاجرين والأنصار.. فقضى الإسلام على هذه العصبية القبلية وقال النبى -ﷺ- قولته المشهورة فى الحديث الصحيح:

«دعوها فإنها منتنة».

وفى «الترمذى» عن ابن عمر -رضي الله عنهما-:

أن رسول الله -ﷺ- خطب بمكة، فقال:

«يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية وتعاظُمَها بآبائها. فالناس رجلان:

رجل برٌّ تقىٌّ كريمٌ على الله.

وفاجرٌ شقىٌّ هيّنٌ على الله.

والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١)»(٢).

وعن أبى هريرة -رضي الله عنه-: أن النبى -ﷺ- قال:

«لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله عز وجل من الجعل الذى يدهده الخرء بأنفه إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء. إنما هو مؤمن تقىّ وفاجر شقىّ، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب»(٣).

وعاش المسلمون تحت مظلة الدين الحنيف على قلب رجل واحد.. ألّف الله تعالى بين قلوبهم كما قال سبحانه:

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) صحيح: انظر: «صحيح سنن الترمذى» (٢٦٠٨)، والصحيحة (٢٧٠٠).

(٣) حسن: انظر: «صحيح سنن الترمذى» (٣١٠٠).

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

وأصبحوا كما فى الحديث:

«يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم».

وهذا التآلف أفزع اليهود وأقلق مضجعهم.. فمنهجهم.. هو نفس منهج الشيطان.. التفريق بين المؤمنين. مبدأ واحد:

«فرِّق تَسُد».. فحاولوا أكثر من مرَّة بمعاونة المنافقين.. إثارة العداوات القديمة.. والنعرات الطائفية.. وتهييج الأحقاد التى دفنها الإسلام!! وذلك لإحداث خلل فى الصف الإسلامى.. وتصدعات فى بنيان المسلمين.. فإذا هم فعلوا ذلك.. ونالوا بغيتهم.. كان من السهل القضاء عليهم كما قال تعالى:

﴿ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[2].

وكان «شاس بن قيس» أحد كبار اليهود المخططين لتهييج هذه العداوات وبث بذور الفرقة بين أهل التوحيد.. ولكن الله سلم.

ماذا حدث؟:

قال ابن إسحاق:

«ومرّ «شاس بن قيس»، وكان شيخًا قد عسا[3]، عظيم الكفر شديد الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد على نفر من أصحاب رسول الله -ﷺ- من الأوس والخزرج، فى مجلس قد جمعهم، يتحدَّثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم، وصلاح ذاتِ بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية. فقال:

(١) سورة الأنفال: ٦٣.

(٢) سورة الأنفال: ٤٦.

(٣) عسا: اشتد وقوى، يريد أنه تمكن فى كفره فصعب إخراجه منه.

قد اجتمع ملأ بنى قَيْلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار.

فأمر فتى شَابًّا من يهود كان معهم، فقال:

اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم «بُعاث» وما كان قبله، وأنشدهم بعضَ ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار.

ففعل، فتكلم القومُ عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيّين على الرُّكب:

«أوس بن قَيْظى» أحد بنى حارثة بن الحارث، من الأوس.

و«جبّار بن صخر» أحد بنى سلمة، من الخزرج، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه:

إن شئتم رددناها الآن جَذَعة!

فغضب الفريقان جميعًا وقالوا:

قد فعلنا، موعدكم الظاهرة[1]، السلاح السلاح، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسول الله -ﷺ-، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال:

«يا معشر المسلمين، الله الله. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم».

فعرف القومُ أنها نَزْغة من الشيطان، وكيدٌ من عدوّهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله -ﷺ- سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله «شاس بن قيس»، فأنزل الله تعالى فى شاس بن قيس وما صنع:

(١) الظاهرة: الحرّة.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١)(٢).

وأنزل الله فى «أوس بن قَيْظى» و«جبار بن صخـر» ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا عمّا أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٣)(٤).

وهكذا أبطل الله كيد عدو الله «شاس بن قـيس» ورد سهمه إلى نحره، وانتهت المكيدة بالفشل، وخاب سعى «شاس» والحمد لله رب العالمين.

وفى قـصتـه درس عظيم لأهل الإيمان.. ليـتنبـهوا لمخططات عـدوهم وكشف ألاعيبه.. ويتيقظوا للفتن التي تُلْقى بينهم فى مـحاولة خبيثة لتشتيت شملهم.. وبعثرة جمعهم.. والنبىّ -ﷺ- يحذر أهل الإيمان: **«لا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تناجـشـوا، وكـونوا عـبـاد الله إخـوانًا، المسلم أخـو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسـب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»**.

ويا ليت قومى يعلمون.. فكم من فتن أُلقيت بين المسلمين فكانت سببًا مباشرًا فى تمزيق صـفوفهم ووهن قوتهم.. واستطاع أعداء الله بسـببها هزيمة

---

(١) سورة آل عمران: ٩٨، ٩٩.
(٢) مرسل: أخرجه ابن جرير فـى تفسيره (١٦/٤) من طريق ابن إسحاق قال: حـدثنى الثقة عن زيد بن أسلم به.
(٣) سورة آل عمران: ١٠٠-١٠٥.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٦٣، ١٦٤).

المسلمين فى أكـثر من موقـع. . وإذلالهم فى أكثر مـن موطن. . ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(١).

وإذا كان «شـاس بن قيس» قد مـات وهلك -والله أعلم- فى أى زمان هلك، وفى أى مكان لقى حتفـه. . فإن أتباع شاس بن قيس كـثرة كاثرة فى كل زمان ومكان. . يعـزفون على وتره. . ويسبحـون فى نفس المستنقع الذى كـان يسبح فـيـه. . ويغزلـون بمغزله. . ويسـيـرون على نهـجه حـذو النَّعل بالنعل. . وحذو القُذَّة بالقذة. .

وإذا كان «شـاس» له أذناب وأتباع وأشيـاع من المنافقين واليهـود يرمون بسـهـمه قـد هلكـوا وأبيدوا. . فـإن خلفـهم اليـوم لا يزال قـائمًـا. . يدبر المؤامرات. . ويحبك المخططات. . والله من ورائهم محيط.

أسباب النزول

قال الإمام القرطبى -رحمه الله تعالى- فى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾(٢).

قـال: نزلت فى يهـودى أراد تجـديد الفـتنة بين الأوس والخـزرجِ بعـد انقطاعها بالنبى -ﷺ-، فجلس بينهم وأنشـدهم شِعرًا قاله أحـدُ الحيَّين فى حربهم فقال الحىّ الآخر:

قد قال شاعرنا فى يوم كذا وكذا.

فكأنهم دخلهم من ذلك شىء، فقالوا:

تعالَوْا نردّ الحرب جَذْعاء كما كانت!!.

---

(١) سورة الكهف: ٤٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٠.

فنادى هؤلاء: يا آل أوْس.

ونادى هؤلاء: يا آل خَزْرج.

فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطَفّوا للقتال فنزلت هذه الآية، فجاء النبىّ -ﷺ- حتى وقف بين الصفّين فقرأها ورفع صوته، فلمّا سمعوا صوته أنصتوا له وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السّلاح وعانق بعضُهم بعضًا وجعلوا يبكون.

عن عكرمة وابن زيد وابن عباس: والذى فعل ذلك «شاس بن قيس اليهودى» دسّ على الأوس، والخزرج من يذكرهم ما كان بينهم من الحروب، وأن النبى -ﷺ- أتاهم وذكّرهم، فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان، وكيدٌ من عدوّهم؛ فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع النبى -ﷺ- سامعين مطيعين، فأنزل الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى الأوس والخزرج.

﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعنى شاسًا وأصحابه.

﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ قال جابر بن عبد الله:

ما كان طالعٌ أكره إلينا من رسول الله -ﷺ-، فأومأ إلينا بيده فكففنا وأصلح الله تعالى بيننا، فما كان شخصٌ أحبَّ إلينا من رسول الله -ﷺ-، فما رأيتُ يومًا أقبح ولا أوْحش أولاً وأحسن آخرًا من ذلك اليوم[1].

دروس وعبر من أسباب النزول

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ

---

(١) تفسير القرطبى (٤/١٤٧). وقال السيوطى فى الدر المنثور: أخرجه ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم بنحوه (٢/٢٧٨).

إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

اعلم أن طاعة أهل الكتاب والتلقى عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم، تحمل ابتداءً معنى الهزيمة الداخلية، والتخلى عن دور القيادة الذى من أجله أنشئت الأمة المسلمة. كماتحمل معنى الشك فى كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعدًا فى طريق النماء والارتقاء. وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس، وهى لا تشعر به ولا ترى خطره القريب.

هذا من جانب المسلمين.

فأما الجانب الآخر، فأهل الكتاب لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها. فهذه العقيدة هى صخرة النجاة، وخط الدفاع، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة. وأعداؤه يعرفون هذا جيداً. يعرفونه قديمًا ويعرفونه حديثًا، ويبذلون فى سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما فى وسعهم من مكر وحيلة، ومن قوة كذلك وعُدة. وحين يعجزهم أن يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسّون لها ماكرين. وحين يعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم، يجندون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام، أو ممّن ينتسبون -زوراً- للإسلام، جنوداً مجندة، لتنخر لهم فى جسم هذه العقيدة من داخل الدار، ولتصد الناس عنها، ولتزين لهم مناهج غير منهجها، وأوضاعًا غير أوضاعها.

فحين يجد أهل الكتاب من بعض المسلمين طواعية واستماعًا واتباعًا، فهم ولا شك سيستخدمون هذا كله فى سبيل الغاية التى تؤرقهم، وسيقودونهم ويقودون الجماعة كلها من ورائهم إلى الكفر والضلال.

ومن ثم هذا التحذير الحاسم المخيف:

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٠، ١٠١.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ . .

وما كان يفزع المسلم -حينذاك- مايفزعه أن يرى نفسه منتكسًا إلى الكفر بعد الإيمان. وراجعًا إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة. وهذا شأن المسلم الحق فى كل زمان ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطًا يلهب الضمير، ويوقظه بشدة لصوت النذير . . ومع هذا فإن السياق يتابع التحذير والتذكير . . فيا له من منكر أن يكفر الذين آمنوا بعد إيمانهم، وآيات الله تتلى عليهم، ورسوله فيهم ودواعى الإيمان حاضرة، والدعوة إلى الإيمان قائمة، ومفرق الطريق بين الكفر والإيمان مسلط عليه هذا النور.

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ .

أجل. إنها لكبيرة أن يكفر المؤمن فى ظل هذه الظروف المعينة علي الإيمان . . وإذا كان رسول الله -ﷺ- قد استوفى أجله، واختار الرفيق الأعلى، فإن آيات الله باقية، وهدى رسوله -ﷺ- باق . . ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خوطب به الأولون، وطريق العصمة بيّن، ولواء العصمة مرفوع.

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ . .

أجل. إنه الاعتصام بالله يعصم . . والله سبحانه باق . . وهو سبحانه الحى القيوم.

[٤] فنْحَاص بن عازُوراء

«الشقى الذى قال: إن الله فقير ونحن أغنياء»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(١).

فمن هو فنحاص بن عازوراء؟:

هو: أحد أحبار اليهود.. الذين أساءوا فى حق الذات الإلهية.. فقبّحهم الله ما أعظم إفكهم وما أخبث قولهم.

وتاريخ اليهود حافل بالجرائم ومليء بالمعاصى والمخازى فمن ذلك:

أولاً: أول ما سطره بنو إسرائيل من جرائم وهم ما زالوا فى حِجْر ورعاية أبيهم نبى الله يعقوب -عليه السلام-، هو حسدهم الشنيع الذى دفعهم إلى أن يكيدوا أخاهم «يوسف -عليه السلام-» بما كادوه به، وهو ما قصه الله علينا فى سورة يوسف.

قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران: ١٨١، ١٨٢.

(٢) سورة يوسف: ٤، ٥.

وورث اليـهود من بعـد أشنع دركات الحسد الذمـيم إلا من رحم الله منهم، وتناقلوه تقليدًا واتباعًا أبناءً وأحفادًا، وتأصّل ذلك فى مجتمعهم.

ثانيًـا: عـبادة المال.. تـأصّل فى نفوس الجم الـغفـيـر منهم حب المال والحرص عليه إلى حد يشبه العبادة، حتى يصح أن نُسمِّى ذلك فيهم: «عبادة المال» أو «عبادة الذهب».

ويصـور القرآن مـشهـدًا من مـشاهد حبّ العـدد الكثير منهم للمـال وتشوّقهم إليه، وإعلانهم تمنِّيه. إنه مشهد خروج «قارون» فى زينته، وكان قد بغى على قومـه، وانحاز إلى فرعـون وملئه، ومـشهد التـمنى الصريح الذى أعلنه منهم الذين يريدون الحياة الدنيـا، بأن يكون لهم من المال والثراء مثل ما أوتى قارون:

قال الله تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(١).

ثالثًا: عبادة العـجل: وهى تبين صورة الانحطاط العقلى لليـهود ومدى البلاهة التى كانوا عليها.

لما خرج موسى -عليه السلام- ببنى إسرائيل من مصر اسـتعارت أسرهم من الأسر المصرية حليًّا كثيـرًا من الذهب واحتملوه معهم، وخرجـوا من مصر، وأنجاهـم الله من فرعون وجنوده بالمعـجزة العجيبة وهى انفلاق البـحر، وتجمّد الماء.

ثم ذهب موسى -عليه السلام- لميعاد ربّه، وبـينما هو فى رحلته عبـد قومه عجل الذهب الذى صنعه لهم السامرى من الحلى الذهبـية التى أخذوها معهم من زينة المصريين.

---

(١) سورة القصص: ٧٩.

واختار السامرى أن يكون عجله من ذهب، لا من مادة أخرى، لثقته بأن اليهود من السهل عليهم أن يكونوا وثنيين إذا كان وثنهم من ذهب.. فهم قومه وهو أدرى بأحوالهم وميولهم.. فهو يعلم أنهم يمجدون الذهب تمجيداً يشبه أن يكون عبادة له.

إن الذهب فى تصورهم هو القوة العظمى التى تستحق أن تعبد، ولكن يريدون له مبرِّراً شكليًّا يكفى فيه أن يكون له خوار عجل، ليقولوا: هذا هو ذو حياة، فهو الإله الذى يستحق أن يعبد.

لا سيّما والفكرة الوثنية عالقة فى نفوسهم لم يتحرّروا بعدُ منها وقد طلبوا من موسى -عليه السلام- قبل ذلك أن يجعل لهم إلهًا ماديًّا يعبدونه، كما للقوم الذين مرّوا عليهم بعد خروجهم من البحر آلهة يعبدونها!.

قال تعالى:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

ثم قال الله تعالى فى نفس السورة بعد أن ذكر مجىء موسى -عليه السلام- لميقات ربه، وذكر خلاصة ما كان من أحداث هذه الرحلة القدسية: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾[2].

وعلى الرغم من أن موسى -عليه السلام- أحرق عجلهم ونسفه فى اليم نسفًا إلا أن بنى إسرائيل استمروا عبر تاريخهم الطويل يمجدون الذهب ويعبدونه ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٨، ١٣٩.

(٢) سورة الأعراف: ١٤٨.

(٣) سورة البقرة: ٩٣.

رابعًا: ومن الصفات المتأصلة في مجتمع يهود، الفسق والفجور والجحود واتباع الشهوات، وموالاة الذين كفروا -مثلهم- ضد دعاة الحق، ونصرة الباطل على الحق.

وبسبب ذلك أنزل الله لعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم.

قال الله تعالى:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1].

فأثبت هذا النص من صفاتهم ما يلي:

(أ) أنهم عصاة لله.

(ب) أنهم معتدون.

(جـ) أنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه.

(د) أن كثيرًا منهم يتولَّون الذين كفروا.

(هـ) أنهم لو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليهم إيمانًا صحيحًا صادقًا ما اتخذوا الذين كفروا أولياء.

(و) أن كثيرًا منهم فاسقون.

خامسًا: ومن الصفات المتوارثة فيهم أن قلوبهم قاسية، فهى كالحجارة أو أشد قسوة.

قال تعالى:

---

(١) سورة المائدة: ٧٨-٨١.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١).

وصفة قسوة القلب فيهم ناتجة عن أنانيتهم وماديتهم وحبهم للدنيا وجرأتهم على الله وعلى معصيته وعلى ارتكاب أقبح الجرائم والتآمر على أنبياء الله ورسله ودعاته، ونقض عهودهم.

سادسًا: ومن الصفات المرذولة فيهم.. والمتوارثة فى أجيالهم، أنهم لا عهد لهم ولا ذمة.. والأخلاق عندهم كل ما يحقق لهم أهواءهم ومصالحهم الدنيوية.

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٢).

سابعًا: ومن صفاتهم جرأتهم على الله بالكذب عليه، والتلاعب فى دينه، بتحريفهم كلامه عن مواضعه.

قال تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾(٣).

وتحريفهم لكلام الله له أربعة وجوه:

الوجه الأول:

التأويلات الباطلة، والتفسيرات الفاسدة، وذلك بحسب أهوائهم وشهواتهم، وإرضاءً لقادتهم ورؤسائهم.

---

(١) سورة البقرة: ٧٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٧.

(٣) سورة المائدة: ١٣.

الوجه الثانى:

تبـديل ألفـاظ بألفاظ أخـرى لتـعطى دلالات توافق مـا يريدون، على خلاف المعنى المراد منها.

الوجه الثالث:

الزيادة على النص المنزَّل، ليعطى دلالة توافق ما يريدون.

الوجه الرابع:

النقص من النص المنزَّل، ليعطى دلالة توافق ما يريدون.

ثامنًا: ومن جرائمهم الشنيعة: قتلهم لأنبياء الله ودعاة الحق.

قال تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1]، والمتتبع لتـاريخهم الأسـود يلاحظ أنهم يكيـدون دعاة الحـق -الذين يأمرون بالعـدل والقسط والهدى- من الناس فى كل أمّة، حتى يقـتلوهم، إما اغتيالاً بأيديهم أو بأيدى الذين يستـأجرونهم للاغتـيال، أو يدبرون ضدهم مـؤامرة يسلِّطون عليهم فيها حاكمًا أو سلطانًا يسـتجيب لدسائسهم ووساوسهم، أو ينخدع بما يلفِّقون هم أو أجراؤهم من أكاذيب.

تاسعًا: ومن صفاتهم أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا.

قال تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[2] وقد أثبت التاريخ الإسلامى هذه الحقيقة التى أعلنها القرآن.

فما من مؤامـرة ولا مكيدة ضد الإسلام منذ فجر التـاريخ حتى عصرنا

(١) سورة النساء: ١٥٥.

(٢) سورة المائدة: ٨٢.

هذا، إلا كان المكر اليـهودى هو صاحب فكرتهـا، ومدبّر خطتهـا، أو الموجه إليها، ومن أمثلة ذلك:

(أ) مقتل الخليفة الثانى «عمر بن الخطاب» -رضي الله عنه-.

(ب) الحركة السبئية التى تزعمها «عبد الله بن سبأ اليهودى» الذى تظاهر بالإسـلام، وتستّـر بمشايعـة علىّ بن أبى طالب وآل بيت الرسـول -صلى الله عليه وسلم-، وفرّقت كلمة المسلمين.

(جـ) الحركة الباطنية القرمطية التى أقضّت مضاجع المسلمين.

(د) ثم إن الدلائل تشـير إلى أن الحروب الصلـيبيـة قد كـان للأصابع اليهودية توجيه فيها، وتحريض، وقذف بالوقود.

(هـ) إسقاط الخلافة الإسلامية.

إلى غير ذلك من المكايد التى تحاك ضد المسلمين(١).

عاشراً: ومن أعظم جرائمهم والتى فاقت كل تصوّر: قولهم قبحّهم الله وأخزاهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾(٢).

وقولهم -لعنهم الله-:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(٣).

والذى تولى كبر هذا القول الأثيـم «فنحاص بن عازوراء» صاحب هذه الترجمة -لعنه الله- وأبعده.

أخرج ابن جرير عن السّدّى فى قوله تعالى:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(٤).

---

(١) استقـينا معظم مادة ما تقـدم فى هذه «الترجمة» من كـتاب «مكايد يهودية عبـر التاريخ» للأستاذ «عبد الرحمن حسن حبنكة».

(٢) سورة المائدة: ٦٤.

(٣)، (٤) سورة آل عمران: ١٨١.

قالها: «فنحاص اليهودى» من بنى مرثد لقيه أبو بكر فكلمه فقال له: يا فنحاص اتق الله، وآمن وصدق، وأقرض الله قرضًا حسنًا.

فقال فنحاص:

يا أبا بكر تزعم أن ربنا فقير وتستقرضنا أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغنى، إن كان ما تقول حقًّا فإن الله إذن لفقير!!.

فأنزل الله هذا، فقال أبو بكر:

فلولا هدنة كانت بين بنى مرثد وبين النبى -ﷺ- لقتلته[1].

فانظر أخى القارئ إلى مدى جرأة «يهود» على ربهم.. ومدى تطاولهم على الذات العلية.. ثم بعد ذلك يزعمون أنهم «شعب الله المختار!!» وأنهم: «أبناء الله وأحباؤه» ويدّعون ظلمًا وزورًا أنهم ورثة الكتاب وحملة الرسالة!!! قبحهم الله ما أجهلهم.. وأخزاهم ما أكذبهم وصدق الله العظيم إذ يقول عنهم:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

ثم يهمل «التاريخ» حياة «فنحاص» بعد هذه المقولة الفاجرة.. فلا ندرى كيف مات هذا الشقى[3]؟ ولا فى أى أودية الدنيا هلك.. والمهم أنه لقى حتفه.. وأهلكه الله كما أهلك غيره من المجرمين والظالمين.

وإن كان «فنحاص» قد غاب عن الدنيا بجسده.. فإن حملة فكره يقومون بدوره فى كل زمان.. يحملون رايته.. ويبثون أفكاره.. والله من ورائهم محيط.

---

(١) الدر المنثور (٢/٣٩٧).

(٢) سورة الجمعة: ٥.

(٣) أقول هذا على حسب المصادر التى بين يدىّ.

أسباب النزول

أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

دخل أبو بكر -رضي الله عنه- بيت المِدْراس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له «فنحاص»، وكان من علمائهم وأحبارهم..

فقال أبو بكر: ويلك يا فنحاص! اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة.

فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنيًّا عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا[1]!!!

فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال:

والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربتُ عنقك يا عدوّ الله فذهب فنحاص إلى رسول الله -ﷺ- فقال:

يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي!!!

فقال رسول الله -ﷺ- لأبي بكر:

«ما حملك على ما صنعت؟».

قال: يا رسول الله قال قولاً عظيمًا: يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء!! فلمّا قال ذلك غضبتُ لله مما قال فضربتُ وجهه.

فجحد فنحاص[2]، فقال:

---

(١) يقصد قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [سورة البقرة: ٢٤٥].

(٢) جحد: أي أنكر ما قال.

ما قلتُ ذلك!!

فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقًا لأبى بكر:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(١).

ونزل فى «أبى بكر» -رضي الله عنه- وما بلغه فى ذلك من الغضب:

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾(٢)(٣).

● وأخرج ابن جرير وابن المنذر من وجه آخر عن عكرمة:

أن النبىّ -ﷺ- بعث أبا بكر إلى «فنحاص اليهودى» يستمده، وكتب إليه وقال لأبى بكر:

«لا تفتت(٤) علىّ بشىء حتى ترجع إلىّ».

فلما قرأ فنحاص الكتاب، قال:

قد احتاج ربكم؟!!

قال أبو بكر: فهممتُ أن أمده بالسيف، ثم ذكرتُ قول النبى -ﷺ-: «لا تفتت علىّ بشىء». فنزلت:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية.

دروس وعبر من أسباب النزول

فى هذا الدرس استعراض لبعض أفاعيل «يهود» وأقاويلها. يبدو فيه

---

(١) سورة آل عمران: ١٨١.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٦.

(٣) الدر المنثور (٢/ ٣٩٦)، أسباب النزول للنيسابورى (٧٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٦٥١)، وابن هشام فى «السيرة» (٢/ ١٦٥)، وأسباب النزول للسيوطى (٢٠١)، وتفسير القرطبى (٤/ ٢٧٥).

(٤) لا تفتت: لا تتقدم.

سوء الأدب مع الله -سبحانه- بعد سوء الفعل مع المسلمين. وهم يبخلون بتعهداتهم المالية للرسول -ﷺ- ثم يزيدون فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾!.

ويبدوا فيه التعلل الواهى، الذى يدفعون به دعوة الإسلام الموجهة إليهم، وكذب هذا التعلل، ومخالفته لواقعهم التاريخى المعروف.

هذا الواقع الذى ينضح بمخالفتهم لعهد الله معهم، وبكتمانهم لما أمرهم الله ببيانه.. وتاريخهم حافل ومشحون بالجرائم وملىء بالموبقات -كما تقدم معنا- ذكر بعضًا منه.

يقول الدكتور/ محمد محمود حجازى -رحمه الله تعالى- مُعلِّقًا على قولهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾:

«ولا غرابة فى ذلك فهم اليهود الذين مردوا على النفاق ومردوا على السوءات فهم الذين قتلوا الأنبياء قديمًا بغير حق ولا ذنب إلا أنهم يقولون: ربنا الله ونسبة القتل لليهود الأحياء مع أنهم لم يباشروه لأنهم راضون عنهم وهم سلفهم ومن أمتهم والأمة تأخذ بذنب أفرادها لأنهم بين فاعل القبح وتارك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيكون مشتركًا بالقوة لا بالفعل.

وهؤلاء اليهود حاولوا مرارًا قتل النبى -ﷺ- (وما حادثة أكلة خيبر ببعيدة).

وجزاء هؤلاء أن الله سينتقم منهم أشد الانتقام ويقول لهم إهانة وتنكيلاً بهم وتعذيبًا: ذوقوا عذابًا هو الحريق المؤلم فإنكم أهل له كما أذقتم المؤمنين سابقًا عذاب الدنيا وألمها»[1].

---

(١) التفسير الواضح (٣/ ١٣١).

[٥] حُيىّ بن أَخْطب
«شيطانُ بنى النضير!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾(١).

فمن هو حيى بن أخطب؟:

هو: حيى بن أخطب بن سَعية، رأس الأفعى اليهودى.. شيطان بنى النضير وزعيمهم.. محرك الفتن.. ومدبر المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين.

صفحات سود من تاريخ حياته:

امتلأت حياة هذا الخبيث بالمكر والدهاء.. والكذب.. والمؤامرات.. ونقض العهود.. والغدر.. والخيانة.. والتدليس والتلبيس.. وظل صامدًا ضد الإسلام حتى قطعت رقبته -لعنه الله-.

ونقتطف هنا بعضًا من مواقفه العدائية ضد الإسلام.

الموقف الأول: قلب الحقائق.. وتحريف الكلم:

قال اليهود من أعلم الناس برسالة محمد -ﷺ-.. فكانوا يجدونه عندهم فى التوراة.. وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.. وكانوا يشيعون ذلك فى الناس.. فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به!! فلعنة الله على الكافرين.

(١) سورة النساء: ٥١، ٥٢.

وناصروا المشركين ضد رسول الله -ﷺ- وألبوا الناس عليه!!

وخاضوا معارك ضارية ضد الإسلام حتى أوهن الله كيدهم.. ومزقهم كل ممزَّق.. وشردهم في كل واد.

ويلغ من حقدهم وجهلهم أن فضلوا الكفر على الإيمان.. إمعانًا في الضلال.. وحسدًا على نبيّ الإسلام -ﷺ-!!

روى ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال:

جاء «حيى بن أخطب» و«كعب بن الأشرف» إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد.

فقالوا: ما أنتم وما محمد؟

فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقى الماء على اللبن، ونفك العانى، ونسقى الحجيج، ومحمد صنبور قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج، من غفار، فنحن خير أم هو؟

فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً!!.

فأنزل الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾(١)(٢).

فانظر أخى القارئ كيف سولت لهم أنفسهم.. وكذبوا على ربهم.. وقادتهم أهواؤهم إلى المهالك!!

الموقف الثاني: محاولة قتل الرسول -ﷺ-!:

---

(١) سورة النساء: ٥١، ٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٧٧٧)، وقال ابن كثير: وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وجماعة من السلف.

ذهب النبى -ﷺ- إلى منازل بنى النضير ليستعين بهم فى دية القتيلين اللذين قتلهما «عمرو بن أمية» مرجعه من «بئر معونة»(١) - وكان الرسول -ﷺ- لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه- فلمّا فاوضهم الرسول -ﷺ- فى الأمر أظهروا الرضا بمعاونته، فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم، ينتظر وفاءهم بما وعدوا. لكن يهود خلا بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه -خلو بال واطمئنان نفس- فمن رجل يعلو ظهر هذا البيت، فيُلْقى عليه صخرة، ويريحنا منه؟

وحين أوشك اليهود على إنفاذ مكيدتهم أُلهم رسول الله -ﷺ- الخطر المدبر له فنهض -سريعًا- من جوار البيت الذى اضطجع إلى جداره، وقفل راجعًا إلى المدينة.

وشعر أصحاب النبى -ﷺ- بمغيبه، فقاموا فى طلبه فإذا رجل مقبل من المدينة يخبرهم أنه رآه يدخلها، فأسرعوا يلحقون به، فلما انتهوا إليه، أخبرهم بما كادت له يهود، وقد عرُف -بعد- أن «عمرو بن جحاش»- هو الذى أراد قتل النبى -ﷺ- بإلقاء الرحى عليه، ولم ينج الشقىّ من عواقب جُرْمه، ولا نجا قومه(٢)، فإن رسول الله -ﷺ- ما لبث أن استدعى «محمد ابن سلمة» وقال له: «**اذهب إلى بنى النضير فمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يساكنونى بها، وقد أجَّلْتُهم عشراً فمن وجدت بعد ذلك ضربتُ عنقه**»، ولم يجد يهود مناصًا من الخروج، فأخذوا يتجهزون للرحيل، بَيْد أن منافقى المدينة، وعلى رأسهم «عبد الله بن أُبى» أرسلوا إليهم:

أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه!

فعادت لليهود ثقتهم، واستقرّ رأيُهم على المناوأة، وأرسلوا للنبى -ﷺ- يقولون له:

---

(١) راجع: فقه السيرة للغزالى (٢٩٥-٢٩٧)، وراجع قصة «عامر بن الطفيل» فى كتابنا هذا.
(٢) قلنا: أن حيّى بن أخطب كان زعيمهم.. فلا ينجو من تدبير المؤامرة.

لن نخرج، فافعل ما بدا لك.

ثم احتموا بحصونهم واستعدوا للقتال، وزادهم إصراراً على المقاومة ما ترامى إليهم من أن ابن أُبى أعد ألفى مقاتل لنصرتهم!.

ونهض النبى -ﷺ- لمناجزة القوم وتحدى من ينضم إليهم من قبائل اليهود الأخرى أو من مشركى العرب وفرض الحصار على مساكن بنى النضير، وأمر بتقطيع نخيلهم(١).

ثم جد الجد ورأى اليهود الموت، ووقع الرعب فى قلوب أعوانهم، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً أو يدفع عنهم شراً مع أن اشتباك المسلمين بخصومهم فى هذا الفترة المحرجة من تاريخهم، لم يكن مأمون العواقب.

ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة، تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال وتجعل فرض القتال معهم محفوفًا بالمكاره إلا أن الحال التى جدّت بعد مأساة «بئر معونة» وما قبلها، زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التى أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً، وضاعفت نقمتهم على مقترفيها، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا «بنى النضير» بعد همهم باغتيال رسول الله -ﷺ- مهما تكن النتائج.

وقد جاءت النتيجة فى مصلحتهم بأسرع ممّا يتصوّرون، فاندحر اليهود، ونزلوا على حكم المنتصر الذى أذن لهم بالجلاء عن ديارهم، ولهم ما حملت إبلهم من أموال ما عدا السلاح(٢).

وفى هذه المعركة نزلت «سورة الحشر» بأكملها، فوصفت طرد اليهود فى صدرها بقول الله عز وجل:

---

(١) هذا الأمر صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عمر.
(٢) صحيح: أخرجه الحاكم (٢/٤٨٣) وقال الشيخ الألبانى: صحيح. هامش فقه السيرة (٣٠١).

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾(١).

ثم فضح الله مسلك منافقى المدينة الذين حاولوا إعانة يهود فى غدرها وحربها، وحرضوها على مقاتلة المسلمين بما وعدوها من إمداد وعتاد فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾(٢).

وبهذا النصر الذى أحرزه المسلمون دون تضحيات، توطَّد سلطانهم فى المدينة، وتخاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم(٣).

وفى تفسير ابن كثير:

«كان رسول الله -ﷺ- لما قدم المدينة هادنهم -أى يهود بنى النضير- وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه فأحل الله بهم بأسه الذى لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يصد، فأجلاهم النبىُّ -ﷺ- وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى من الله شيئًا وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، وسيرهم رسول الله -ﷺ- وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالى الشام، وهى أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر، وكان قد أنزلهم منها على أن

(١) سورة الحشر: ٢.
(٢) سورة الحشر: ١١، ١٢.
(٣) فقه السيرة للغزالى.

لهم مـا حملت إبلهم، فكانوا يـخربون مـا فى بيوتهم من المنقـولات التى لا يمكن أن تحمل معهم، ولهذا قال تعالى:

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1]، «أى تفكروا فى عاقبـة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذّب كـتابه كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا مع مـا يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم»[2].

الموقف الثالث: إعانته لبنى قريظة حتى نقضوا العهد:

أيقنت طوائف الكفـار أنها لن تستطيع مغالبـة الإسلام إذا حـاربته كل طائفة منفردة وأنها ربما تبلغ أملها إذا رمت الإسلام كتلة واحدة.

وكان زعـماء يهود فى جزيرة العـرب أبصر من غيـرهم بهذه الحقيـقة، فأجـمعوا أمرهم على تأليب الـعرب ضد الإسلام وحـشدهم فى جيش كبـير ينازل محمداً -ﷺ- فى معركة حاسمة.

وذهـب نفـر مـن قـادة اليهود إلى قريش يسـتنفرونهم لحرب رسول الله -ﷺ-. وقالوا:

إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، وكانت قريش قد أخلفت عدتها مع النبى -ﷺ- عامًا.

وهى لابد خارجة لقتال المسلمين إنقاذًا لسمعتها وبرًّا بكلمتها.

ونجح ساسة اليهود وقـادتهم فى تأليب أحزاب الكفر على النبى -ﷺ- ودعوته.

وعرف المسلمون مبلغ الخطر المحدق بهم، فرسموا -على عَجَل- الخطة التى يدافعون بها عن دعوتهم ودولتـهم، وكانت خطة فريدة لم تسمع العرب -قبلاً- بمثلها، وهـم الذين لا يعرفون إلا قتال الميادين المكشوفة.

---

(١) سورة الحشر: ٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٥١٦).

أما هذه المرة فإن المسلمين حفروا خندقًا عميقًا يحيط بالمدينة من ناحية السهل ويفصل بين المغيرين والمدافعين.

وأقبلت الأحزاب فى جمع غفير لا قبل للمسلمين برده.

قريش فى عشرة آلاف من رجالها ومن تبعهم من «كنانة» و«تهامة» و«غطفان» فى طليعة قبائل نجد.

وبرز المسلمون بعد ما جعلوا نساءهم وذراريهم فوق الآطام الحصينة من يثرب.

وبلغت عدتهم فى هذه المعركة نحو ثلاثة آلاف مقاتل.

فلما انسابت الأحزاب حول المدينة وضيَّقوا عليها الخناق لم تطر نفوس المسلمين شعاعًا بل جابهوا الحاضر المر وهم موطدو الأمل فى غد كريم.

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾[1].

أما الواهنون والمرتابون ومرضى القلوب فقد تندروا بأحاديث الفتح، وظنوها أمانى المغرورين.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾[2].

وكان المشركون يدورون حول المدينة غضابًا يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها فينفسوا عن حنقهم المكتوم، ويقطعوا أوصال هذا الدين الثائر.

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٢.

(٢) سورة الأحزاب: ١٢.

(٣) سورة الأحزاب: ١٠، ١١.

ثم يتمم بعض فرسان المشركين مكانًا ضيّقًا من الخندق. وضربوا خيلهم فاقتحمته، وأحسّ المسلمون الخطر المقترب، فأسرع فرسانهم يسدون هذه الثغرة يقودهم عليٌّ بن أبى طالب.

فى هذه الآونة العصيبة جاءت الأخبار أن بنى قريظة نقضوا معاهدتهم مع رسول الله -ﷺ-[1] وانضموا إلى كتائب الأحزاب التى تحدق بالمدينة!.

وذلك أن «حيى بن أخطب» -أحد النفر الذين حرّضوا قريشًا وسائر العرب على حرب الإسلام- جاء إلى كعب بن أسد، سيّد بنى قريظة، وقرع عليه بابه، وكان كعب عند قدوم الأحزاب قد أغلق أبوابه ومنع حصونه، وقرر أن يُوفى بالعهد الذى بينه وبين المسلمين فلا يعين عليهم خصمًا -وليته بقى على هذا العزم- إلا أن حييًا لزم الباب وهو يصرخ بكعب:

ويحك افتح لى.

فقال له كعب: إنك امرؤ مشئوم، وإنى عاهدت محمدًا، فلستُ بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا.

قال حيى: ويحك افتح لى أكلمك.

قال: ما أنا بفاعل.

فقال حيى: والله إن أغلقت بابك دونى إلاّ خوفًا على جشيشتك أن آكل معك منها!

فأحفظ الرجل ففتح له.

ودخل حيى يقول:

ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وبحر حطام!

قال: وما ذاك؟!

---

(١) كانت بنو قريظة تحمى جانبًا من جوانب المدينة.. وقد أبرموا عهدًا مع رسول الله -ﷺ- أن لا يعينوا عليه عدوًا، بل يدافعوا عنه.

قال: جئتك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع «الأسيال» من «دومة». و«بغطفان» على سادتها وقادتـها حتى أنزلتهم إلى جانب «أُحد» قد عاقدونى وعاهدونى على أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

قال كـعب: جئتنى -والله- بذل الدهر، وبجـهام قد هراق ماءه، فـهو يرعد ويبرق، وليس فيه شيء. دعنى وما أنا عليه. فإنى لم أر من محمد إلا وفاءً وصِدْقًا..

وتدخل آخرون فقالوا:

إذا لم تنصروا محمداً كما يقضى الميثاق -فدعوه وعدوه-.

بيد أن حُيَـيًا استطاع أن يقنع سائر اليهـود بوجهة نظره، وأن يزين لهم الغدر فى هذه السـاعة الحرجة، وأن يضـمهم إلى المشركين فى قـتالهم الذى أعلنوه وجعلوا الغاية منه ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، ومضيًّا فى هذه الخطة الجائرة الخسيسة أحضرت قريظة الصحيفة التى كتب فيها الميثاق فمزقتها!!.

فلمّـا بعث النبى -ﷺ- رجـاله ليسـجلوا مـوقف قريظة بإزاء عـدوان الأحزاب، قالوا: من رسول الله؟

لا عهد بيننا وبين محمد!

وحاول «سعـد بن معاذ» -رضي الله عنه- أن يذكرهم بـعقدهم فتصـامّوا عنه. ووجم المسلمون حين عادت رسلُهم تحمل هذه الأنباء المقلقة.. وتقنّع الرسول -عليه الصـلاة والسلام- بثوبه حين أتاه غدر قـريظة فاضطجع ومكث طويلاً حتى اشتد على الناس البلاء.. ثم غلبته روحُ الأمل فنهض وهو يقول:

«أبشروا بفتح الله ونصره!!».

وجاء المسلمون إلى رسول الله -ﷺ- يسألونه!:

هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟

قال: «نعم.. اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»[١].

وعن عبد الله بن أوفى:

دعا رسول الله -ﷺ- على الأحزاب، فقال:

«اللهم منزل الكتاب سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم»[٢].

والله تعالى لا يقبل الدعاء من متواكل كسول، وما يستمع لشىء استماعه لهتاف مجتهد: أن يبارك له سعيه. أو دعاء صابر: أن يجمل له العاقبة.

ثم قام «نعيم بن مسعود» -رضي الله عنه- بدور هام بين الأحزاب.. ولم يكن قد أظهر إسلامه.. وكان موضع ثقة الأحزاب.. فخزّل عن النبى -ﷺ- الأحزاب.. واستطاع بذكائه أن يفصم عرى التحالف.. فدبّ الخلاف بينهم وفى الحديث:

«الحرب خدعة»[٣].

ومضت ثلاثة أسابيع على ذلك الحصار المضروب حتى دب القنوط والتخاذل فى صفوف المهاجمين.

وفى ليلة شاتية، لفحت سبراتها الوجوه والجلود[٤]، وأقعدت الرجال فى أماكنهم... اتجهت نيات القوم إلى اتخاذ قرار حاسم فى هذا القتال الفاشل!!

وقام أبو سفيان، فقال:

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٣/٣) من حديث أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: متفق عليه.

(٣) صحيح متواتر: رواه الشيخان وغيرهما.. وراجع الدور الذى قام به «نعيم بن مسعود» فى فقه السيرة للغزالى (٣٢٦ - ٣٢٨).

(٤) لقد أرسل الله عليهم ريحًا شديدة كفأت القدور، وقلعت الخيام.. فلم يقر لهم قرار.

يا معـشر قريش، إنكم والله ما أصـبحتم بدار مقـام، قد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنـا عنهم الذى نكره، ولقينا من شدة الريح مـا ترون، ما تطمـئن لنا قـدر، ولا تقـوم لنا نار، ولا يستـمـسك لنا بناء، فارتحلوا، فـإنى مرتحل، ثم قـام إلى جمله وهو معـقول، فجـلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث. . وعاد قافلاً إلى مكة وتبعه المشركون.

وانفك الحصار، وعاد الأمن، ونجح الإيمان فى المحنة!

ورجعت الطمأنينة إلى النفـوس وظهرت خيبة الأحزاب بعـد ما أقبلت من كل فج لتجتاح المدينة، وظهرت صلابة المسلمين فى مواجهة الأزمات.

تأديب بنى قريظة:

ولمّا ردّ الله الذين كـفـروا بغـيظهم لم ينالوا خـيـراً وكـفى الله المؤمنين القتال. . كان لابد من وقفة مع «بنى قريظة» الذين خانوا العهد مع رسول الله -ﷺ- فى ساعة العسرة.

وكانت مشـاعر التغيظ فى أفـئدة المسلمين نحو أولئك اليهـود قد بلغت ذروتها كيف سـاغ لأولئك الخونة من بنى إسرائيل أن يرسمـوا بأنفسهم الخطة لإهلاك الإسلام وأهله على هذا النحو الذليل؟!

ثم ما الـذى يجعـل بنى قريظـة خاصـة -وهم لم يروا فى جوار محمد -ﷺ- إلا البر والوفاء- يستديرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كى يشركوهم فى قتل المسلمين وسلبهم؟

وها قد دخل فى حصونهم «حيى بن أخطب» رأس العصابة التى طافت بمكة ونجد يحـرِّض الأحزاب على الله ورسوله، وتزعم أن الوثنيـة أفضل من التوحيد!!!

لذلك، ما إن وثق المسلمون من منصـرف الأحزاب عن المدينة حتى أمر رسول الله -ﷺ- مؤذنًا فأذن فى الناس:

«من كان سامعًا مطيعًا فلا يُصلّين العصر إلا فى بنى قريظة»(١).

وقد رأى رسول الله -ﷺ- أن مباغتة بنى قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم ويقوّوا حصونهم، هو الواجب الأول فى تلك الساعة.

وحمل راية المسلمين إلى حصون بنى قريظة «علىّ بن أبى طالب» -رضي الله عنه- واستبق المسلمون يحتشدون حولها حتى إذا اقترب الجيش من منازل اليهود كان القوم لا يزالون على غوايتهم، فقد نظروا إلى المسلمين، ثم سبّوا رسول الله ونساءه سبًّا قبيحًا!!

فرأى علىّ أن ينصرف النبىُّ -ﷺ- بعيدًا عن أولئك السفهاء، فاعترض طريقه وهو مُقبل قائلاً:

يا رسول الله لا عليك أن تدنوا من هؤلاء الأخابث.

فقال: **«لم؟ أظنك سمعت لى منهم أذى؟»**.

قال: نعم يا رسول الله.

قال: **«لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئًا»**.

فلما دنا من حصونهم، قال:

«يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته»(٢).

قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً.

قال الشيخ الغزالى -رحمه الله تعالى-:

«هذه خلال اليهود، يسفهون إذا أمنوا، ويقتلون إذا قدروا، ويذكرون الناس بالمثل العليا إذا وجلوا، ليستفيدوا منها وحدهم لا لشىء آخر.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن هشام (٢/ ١٩٤، ١٩٥)، والحديث: متفق عليه دون قوله: **«من كان سامعًا مطيعًا»**.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق عن الزهرى مرسلاً.. وضعفه الشيخ الألبانى فى تعليقه على فقه السيرة (٣٣٤).

أما العهود، فهى آخر شىء فى الحياة يقفون عنده.

على أن سفاهتهم لم تغنهم، فقد أحكم المسلمون الحصار عليهم، وأمسكوا بخناقهم فاستيقن القوم أن الاستسلام لا محيص عنه».

قال «كعب» سيد بنى قريظة:

يا معشر اليهود.. قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثًا، فخذوا أيها شئتم.

قالوا: وما هى؟.

قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه. فوالله لقد تبين لكم، إنه لنبى مرسل، وإنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم.

قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإن أبيتم علىّ فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا. ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وأصحابه.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم.

قال: فإن أبيتم علىّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرّة.

قالوا: نفسد سبتنا علينا ونحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا. واستمر الحصار خمسًا وعشرين ليلة.. ثم قرر المسلمون أن يهجموا على الحصون المغلقة ويقتحموها عنوة.

فصاح علىّ بن أبى طالب:

«يا كتيبة الإيمان -ومعه الزبير بن العوام- والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم».

فقال بنو قريظة: يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ.

وكان «سعد» سيد الأوس وهم حلفاء بنى قريظة فى الجاهلية، وقد توقع اليهود أن هذه الصلة تنفعهم.

فلما استقدمه الرسول -ﷺ- ليصدر حكمه. جاء من الخيمة التى يمرض فيها إثر إصابته بسهام الأحزاب واكتنفه قومه يقولون له: يا أبا عمرو، أحسن فى مواليك..

لكن سعداً لم ينس -فى ضجيج الرجاء الموجه إليه- أن بنى قريظة كانوا الشركاء المقبوحين فى هذه الحرب التى أعلنت لاستئصال المسلمين واجتياح الإسلام.

ولم ينس سعد: كيف نقضت قريظة عهدها، واستقبلته بالألفاظ البذيئة عندما ذهب يناشدها الوفاء!

لذلك ما لبث سعد أن صاح بقومه -وقد أكثروا عليه الرجاء-:

«قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم».

وحكم سعد أن يُقتل الرجال، وتُسبى الذرية، وتُقسم الأموال، وأقر النبى -ﷺ- هذا القضاء الحازم قائلاً لسعد:

«لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سمٰوات»(١).

وجاء موعد الانتقام وتصفية الحساب مع قوم لا يرعَوْن فى مؤمن إلاً ولا ذمة.

مقتل حيي بن أخطب:

حُفرت الخنادق بسوق المدينة لتنفيذ هذا الحكم، وسيق إليها مقاتلة اليهود أرسالاً -طائفة بعد أخرى- ليدفعوا ثمن خيانتهم وغدرهم. قال اليهود لسيدهم «كعب» وهم يساقون لمصارعهم: ما تراه يصنع بنا؟

(١) صحيح: متفق عليه دون قوله: «من فوق سبع سمٰوات» فهذا ضعيف.

قـال: أفي كل مـوطن لا تعقلـون؟ ألا ترون الداعى وإنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو -والله- القتل.

أجل.. هو القتل.. وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرَّض له بسوء صنيعه، وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعـفها الحظ فتتحقق، ولو قد تحققت لكان ألوف المسـلمين هلكى تحت أقـدام الأحـزاب المنسـابـة من كل ناحـيـة يُحرِّضهم ويؤازرهم أولئك اليهود.

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعـامة سببًا فى هذه الكارثة التى حلّت ببنى قريظة، ولو أن حيى بن أخطب وأضرابه سكنوا فى جوار الإسلام وعاشوا على ما أُتوا من مغانم، ما تعـرضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الخطير.

لكن الشعوب تدفع من دمها ثمنًا فادحًا لأخطاء قادتها.

لقد جيء بحيى ليلقى جزاءه.

وحيى -كما علمت- جرثومة هذه الفتن؟

فنظر إلى رسول الله -ﷺ- ثم قال:

«أما والله ما لمتُ نفسى فى عداوتك، ولكن من يخذل الله يُخذل».

ثم أقبل على الناس، فقال:

«أيها الناس. لا بأس بأمر الله، كـتاب وقدر، وملحمة كتـبها الله على بنى إسرائيل!!».

ثم جلس، فضُربت عنقه!

وفى ذلك يقول الشاعر:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ... ولكنه مـن يخـذل الله يُخـذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها ... وقلقل يبغى العـز كل مـقلقل

والحق أن من مشركى قريش ومن رجال يهود أناسًا واجهوا الموت بثبات.

ولن تعدم المبادئ الباطلة والنِّحل الهازلة أتباعًا يفتدونها بالأرواح والأموال، غير أن شيئًا من هذا لا يجعل الباطل حقًّا، ولا الجور عدلاً.

إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس، هو موقفهم من المسلمين اليوم.

فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود فى صمت وهم يحتلون فلسطين. والغريب أن اليهود تركوا من نصب لهم المجازر فى أقطار أوربا، وجبنوا عن مواجهتهم بشرّ!! واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم من اثنى عشر قرنًا، فنكلوا بهم على النحو المخزى الفاضح، الذى لا يزال قائمًا فى فلسطين.. تشهده وتؤيده وتسانده، دول الغرب[(1)].

وهكذا انتهت أسطورة «حيى بن أخطب».. ومن سلّ سيف البغى قُتل به.

أسباب النزول

● أخرج الطبرانى والبيهقى فى «الدلائل» من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: قدم حيى بن أخطب، وكعب بن الأشرف، مكة على قريش فحالفوهم على قتال رسول الله -ﷺ-، فقالوا لهم:

أنتم أهل العلم القديم وأهل الكتاب، فأخبرونا عنا وعن محمد.

قالوا: ما أنتم وما محمد؟

قالوا: ننحر الكوماء، ونسقى اللبن على الماء، ونفك العناة، ونسقى الحجيج، ونصل الأرحام.

قالوا: فما محمد؟

قالوا: صنبور قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج بنو غفار.

---

(١) فقه السيرة للغزالى بتصرف.

قالوا: لا بل أنتم خير منهم وأهدى سبيلاً!!

فأنزل الله:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾(١) الآية(٢).

● وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس، قال:

كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة «حيى بن أخطب» و«سلام بن أبى الحقيق» و«أبو رافع» و«الربيع بن أبى الحقيق»، و«عمارة» و«وحوح بن عامر» و«هودة بن قيس».

فأما وحوح بن عامر وهودة فمن بنى وائل، وكان سائرهم من بنى النضير، فلما قدموا على قريش، قالوا:

هؤلاء أحبار اليهود، وأهل العلم بالكتاب الأول، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟

فسألوهم فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه ومِمَّن اتبعه.

فأنزل الله فيهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾(٣)(٤).

● وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية، قال:

ذُكر لنا أن هذه الآية أنزلت فى «كعب بن الأشرف»، و«حيى بن أخطب»، رجلين من اليهود من بنى النضير، أتيا قريشًا بالموسم فقال لهم

---

(١) سورة النساء: ٥١.
(٢) الدر المنثور (٢/٥٦٣)، تفسير ابن كثير (١/٧٧٧)، وأسباب النزول للنيسابورى (٨٩).
(٣) سورة النساء: ٥١-٥٤.
(٤) الدر المنثور (٢/٥٦٤).

المشركـون: أنحن أهدى أم محمد وأصـحابه، فإنا أهل السدانة، والسـقاية، وأهل الحرم؟

فقالا: بل أنتم أهدى من محمد وأصحـابه، وهما يعلمان أنهما كاذبان إنما حملهما على ذلك حسد محمد وأصحابه(١).

● قال الكلبى:

الجـبت فى هذه الآية «حـيى بن أخـطب» والطاغـوت «كـعب بن الأشرف»، وكانت اليهود يرجعون إليهما، فسميا بهذين الاسمين لسعْيهما فى إغواء الناس وإضلالهم(٢).

قلتُ: والمعنى الأشمل: ما قاله صاحب الكشاف.

الجبت: الأصنام وكل ما عبد من دون الله.

والطاغوت: الشيطان(٣).

وقال الحسن: الجبت: رنّة الشيطان.

دروس وعبر من أسباب النزول

لقد كان الذين أوتوا نصيبًا من الكـتاب، أولى الناس أن يتبعوا الكتاب؛ وأن يكفـروا بالشرك الذى يعـتنقه من لم يأتهم من الله هدى، وأن يحـكموا كتاب الله فى حياتهم، فلا يتـبعوا الطاغوت -وهو كل شرع لم يأذن به الله، وكل حكم ليس له من شـريعة الله سند -ولكن اليـهود- الذين كـانوا يزكون أنفسـهم، ويتبـاهون بأنهم أحبـاء الله -كانوا فى الوقت ذاته يتـبعـون الباطل والشرك باتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يشرعون لهم ما لم يأذن به الله . . .

---

(١) الدر المنثور (٢/ ٥٦٤).

(٢)، (٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٢٤٧).

ولقد كان يضـيفون إلى الإيمان بالجبت والطاغوت، مـوقفهم فى صفّ المشركين الكفار، ضد المؤمنين الذين آتاهم الله القرآن.

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْـدَىٰ مِنَ الَّذِيـنَ آمَنُـوا سَبِيـلاً ﴾(١) وكان عجيبًا أن يقول اليهود:

إن دين المشركين خيـر من دين محمد ومن مـعه، وإن المشركين أهدى سبيـلاً من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله -ﷺ- ولكن هذا ليس بالعجيب من اليـهود. . إنه مـوقـفهم دائمًـا من الحق والبـاطل، ومن أهل الحق وأهل الباطل. . إنهم ذوو أطماع لا تنتهى، وذوو أهواء لا تعـتدل، وذوو أحقاد لا تزول! وهم لا يجـدون عند الحق وأهـله عونًـا لهم فى شىء من أطمـاعـهم وأهوائهم وأحقـادهم. إنما يجدون العون والنصرة -دائمًـا عند الباطل وأهله. ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق، ولأهل الباطل ضد أهل الحق!

هذه حال دائمة، سببـها كذلك قائم. . وكان طبيـعيًّا منهم ومنطقيًّا أن يقولوا عن الذين كفروا:

هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً!.

وهم يقولون اليوم وغداً. إنهم يشـوهون بوسائل الدعاية والإعلام التى فى أيديهم كل ما هو إسلامى.

إنهم لا يكفّـون أبدًا عن تشـويه الإسلام وأهلـه. . لأن حقـدهم على الإسـلام، وعلى كل شـبح من بعـيـد لأى بعث إسـلامى، أضـخم من أن يداروه. . ولو للخداع والتمويه!

إنها جبلة واحدة، وخطة واحـدة، وغاية واحدة. . هى التى من أجلها يجبههم الله باللعنة والطرد، وفقدان النصير.

والذى يفقد نصـرة الله فما له من ناصر ومـا له من معين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر وكلهم له معين.

---

(١) سورة النساء: ٥١.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾[1] فلا يهولنا -اليوم- ما نلقـاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليـهود. فهـم فى كل زمان ينصـرونهم على الإسلام والمسلمين.. فليـست هذه هى النصرة.. ولكن كذلك لا يخدعنا هذا. فإنما يتـحقق هذا الأمر للمسلمين! يوم يكونون مسلمين!

إن الناصـر الحقـيـقى ليس هو الناس. ليس هو الدول... إنما الناصـر الحق هو الله. القاهر فوق عباده.

وإن وعد الله بالنصر لا يناله إلا المؤمنون حقًّا.

﴿ ولينصرنّ اللهُ من ينصره ﴾.

(١) سورة النساء: ٥٢.

[٦] قابيلُ بن آدم
«التَّعيسُ الذى أهلكته الأنانية!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[١].

فمن هو قابيل:

هو: أشقى أولاد بنى آدم.. حطمه هواه.. وقادته شهوته.. فقتل أخاه.. وتمرد على الله.. فباء بغضب من الله.. وخسر الدنيا والآخرة.

هذا المنكود.. الذى تمركزت عقليتُه فى شهوته.. وأعمته أنانيتُه.. وأرداه حقدُه.

فما هى قصته؟:

تعددت الروايات فى قصته مع أخيه الصالح «هابيل» وخلاصة ما جاء فيها:

---

(١) سورة المائدة: ٢٧-٣١.

أن الله تعالى شرع لآدم -عليه السلام- أن يزوّج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا:

كان يولد لـه في كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوّج أنثى هذا البـطن لذكر البطن الآخـر، فولد مع هابيل أخـت «دميـمة».. ثم ولد مع «قـابيل» أخت «حـسناء».. فكانت الشريعـة تقضى بـأن يتزوّج «قـابيل» أخت «هابيل» التى وُلدت معه.. ويتزوّج «هابيل» أخت «قابيل» الحسناء التى ولدت معه..

فلمّـا بلغا سنّ الزواج ركب الشـيطان رأس «قابيل» ونفخ فى أذنـيه.. وتحكّمت فيه شهوته.. وسيطر عليه هواه.. ورفض الزواج من أخت «هابيل» قائلاً:

«أنا أولى بأختى التى ولدت معى!!».

فوعـظه أبوه «آدم» ليعـود إلى صوابه.. ولكن غلبت علـيه شقـوته.. وتمكّن منه العناد.. وأبى إلا أن يتـزوج أخته التى ولدت معه!! فجمعهما آدم -عليه السلام- وقال لهما:

﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾.

كان «هابيل» صاحب ماشيـة.. وكان «قابيل» صاحب زرع وكان هابيل سخيًا كريمًا.. قويًا.. وكان قابيل شحيحًا بخيلاً.. ضعيفًا.

فقرّب هابيل «كبشًا سمينًا».

وقرب «قابيل» صبرة من طعام.. وقيل: أعوادًا من قمح!!

قال الرازى: قيل: كـانت علامة القبول أن تأكله النار، وهو قـول أكثر المفسرين.

وقيل: مـا كان فى ذلك الوقت فـقير يدفع إليـه ما يتـقرب به إلى الله تعالى، فكانت النار تنزل من السماء فتأكله[1].

---

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ٦٥٢، ٦٥٣).

فلما وضع كل واحد منهما قُربانه.. نزلت نار من السماء فأكلت قربان «هابيل» فامتلأ «قابيل» غيظًا وحقدًا وحنقًا على أخيه، وقال له: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال هابيل:

وما ذنبي؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّـهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.. ثم توالت مواعظ «هابيل» لأخيه:

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء فى الخطيئة.. ولكن سأصبر وأحتسب.

قال عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه-:

«وايم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرّج -يعنى الورع-»(١).

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن جرير: والصواب من القول فى ذلك أن يقال: «إن تأويله إنى أريد أن تنصرف بخطيئتك فى قتلك إياى وذلك معنى قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي﴾ وأمّا معنى ﴿وَإِثْمِكَ﴾ فهو إثمه يعنى قتله وذلك معصية الله -عز وجل- فى أعمال سواه، وإنما قلنا ذلك هو الصواب لإجماع أهل التأويل عليه وأن الله عز وجل أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه وإذا كان هذا حكمه فى خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذًا بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرّم وسائر آثام معاصيه التى ارتكبها بنفسه دون ما ركبه قتيله، هذا لفظه، ثم أورد على هذا سؤالاً حاصله: كيف أراد «هابيل» أن يكون على أخيه «قابيل» إثم قتله وإثم نفسه مع أن قتله له محرّم؟.

وأجاب بما حاصله.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٦٩).

أن «هابيل» أخبـر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخـاه إن قاتله، بل يكف عنه يده طالبًا إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه.

قال ابن كثير:

قلت: وهذا الكلام متضمّن مـوعظة له لو اتعظ، وزجرًا له لو انزجر، ولهذا قال:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أى تتحمّل إثمى وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

وقال ابن عباس: خوّفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر.

وبالرغم من هذه المواعـظ.. إلا أن سلطان الشـهوة كـان قـد تمكّن.. وزمام الشيطان كان قد تحكّم.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْـلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾!! ومعنى: «طوّعت» أى: حسّنت، وزيّنت وشجعته على قتل أخيه!!

قال السّـدى، عن ابن عبـاس، وعن مُرّة بن عبـد الله، وعن ناس من أصحاب النبى -ﷺ-:

«فطوعت له نفسه قتل أخيه، فطلـبه ليقتله، فراغ الغلام منه فى رؤوس الجـبال، فـأتاه يومًا من الأيام وهو يرعى غـنمًا له وهو نائم، فـرفع صخـرة فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء!!»(١).

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِـنَ الْخَاسِـرِينَ﴾ أى فى الدنيا والآخرة، وأى خسارة أعظم من هذه؟

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، قال:

قال رسول الله -ﷺ-:

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٢).

«لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل».

وقال عبد الله بن عمرو: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة، العذاب عليه شطر عذابهم!!(١).

وقال أيضًا:

«إن أشقى الناس رجلاً لابن آدم الذى قتل أخاه، ما سفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شرّ، وذلك أنه أول من سنّ القتل»(٢).

قابيل يدفن أخاه:

قال السّدى بإسناده المتقدم إلى الصحابة -ﷺ-:

لـمّا مات الغلام تركه بالعراء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا؛ فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثى عليه، فلمّا رآه قال: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾؟!.

قال القرطبى: وظاهر الآية أن هابيل هو أوّل ميت من بنى آدم؛ ولذلك جُهلت سنّة المواراة.

وقال -رحمه الله- أيضًا:

«بعث الله الغراب حكمة؛ ليرى ابن آدم كيفية المواراة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾(٣) فصار فعل الغراب فى المواراة سنة باقية فى الخلق، فرضًا على جميع الناس على الكفاية، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين. وأخص الناس به الأقربون الذين يلونه، ثم الجيرة، ثم سائر المسلمين» ا.هـ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٢).
(٢) نفس المرجع.
(٣) سورة عبس: ٢١.

والمقصـود: أن «قابيل» دفن «هابيل» لما رأى الغراب يدفن أخـاه.. وما يُرْوى أن قابيل حمل أخاه، على ظهـره سنة!! أو مائة سنة لا يصح بحال.. فالجثة سريعة التحلل.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِـنَ النَّادِمِـينَ﴾ أي: حيث رأى إكرام الله لهابيل بأن قيَّض له الـغراب حتى واراه ولم يكن ذلـك ندم توبة، وقيل: إنما ندمـه كان على فقده لا على قتله، وإن كان فلم يكن موفـيًا شروطه. أو ندم ولم يستمر ندمه؛ قال ابن عباس:

ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة منه(١).

هلاكه:

لم يمهل الله تعالى «قابيل» بعد قتله لأخـيه إلا قليلاً.. ثم أخذه وانتقم منه.

قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى مِمَّن خسر حسناته.

وقال مجاهد:

«عُلِّقت إحدى رجلى القاتل بسـاقها إلى فخذها من يومئـذ ووجهه إلى الشمس حيثما دارت عليه فى الصّيف حظيرة من نار، وعليه فى الشتاء حظيرة من ثلج».

قال ابن كثير:

«والظاهر أن قابيل عـوجل بالعقوبة، كمـا ذكره مجاهد وابن جـبير أنه عُلِّقت ساقـه بفخـذه يوم قتله، وجعل الله وجـهه إلى الشـمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلاً به، وقد ورد فى الحديث أن رسول الله -ﷺ- قال:

«ما من ذنب أجدر أن يعـجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخـر لصاحبه

---

(١) تفسير القرطبى (٦/٩٧).

في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[١].

وهكذا عامله الله تعالى بنقيض قصده.. وقد خاب من افترى.

دروس وعبر من القصة

هذه القصة تقدم نموذجًا لطبيعة الشرّ والعدوان؛ ونموذجًا كذلك من العدوان الصارخ الذى لا مبرر له. كما تقدم نموذجًا لطبيعة الخير والسماحة؛ ونموذجًا كذلك من الطيبة والوداعة. وتقفهما وجهًا لوجه، كل منهما يتصرف وفق طبيعته.. وترسم الجريمة المنكرة التى يرتكبها الشر، والعدوان الصارخ الذى يثير الضمير؛ ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل، تكف النموذج الشرير المعتدى عن الاعتداء، وتخوّفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة؛ فإذا ارتكبها -على الرغم من ذلك- وجد الجزاء العادل، المكافئ للفعلة المنكرة. كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه. فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش، وأن تصان، وأن تأمن؛ فى ظل شريعة عادلة رادعة.

ولا يحدد السياق القرآنى لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة.. وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن: «قابيل وهابيل» وأنهما هما ابنا آدم فى هذه القصة؛ وورود تفصيلات عن القضية بينهما، والنزاع على أختين لهما.. فإننا نؤثر أن نستبقى القصة -كما وردت- مجملة بدون تحديد. لأن هذه الروايات كلها مأخوذة عن أهل الكتاب[٢] -والقصة واردة فى «العهد

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٤).

(٢) الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح. والثانى: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من قبيل هذا ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته.. تفسير ابن كثير (٨/١). قلت: وقصة قابيل وهابيل إن لم تكن من القسم الأول.. فقد جوّد إسنادها ابن كثير.. فهى من القسم الثالث.

القديم» محددة فيها الأسماء والزمان والمكان على النحو الذى تذكره هذه الروايات.... وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن الحادث وقع فى فترة طفولة الإنسان، وأنه كان أول حادث قتل عدوانى متعمد، وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث.. والقصة تحذر من الحسد.. فإنه الدافع الأول والمحرك للإثم والعدوان.

وأصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمنى زوالها.

فالحاسد عدو النعم، وهذا الشر هو من نفسه وطبعها، وليس هو شيئًا اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها..

قال الإمام ابن القيم:

«وللحسد ثلاث مراتب:

أحدها: هذه [أى: بغض نعمة الله على المحسود وتمنى زوالها].

والثانية: تمنى استصحاب عدم النعمة. فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه. فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب. فهذا حسد على شيء مقدَّر، والأوّل حسد على شيء محقق. وكلاهما حاسد، وعدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله تعالى، وعند الناس. ولا يسود أبدًا، ولا يواسى فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأمّا عدو نعمة الله عليهم فلا يُسوّدونه باختيارهم أبدًا إلاّ قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التى ابتلاهم الله بها، فهم يبغضونه، وهو يبغضهم.

والحسد الثالث: حسد الغبطة، وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه. فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة. وقد قال تعالى:

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾(١)، وفى الصحيح عن النبى -ﷺ- أنه قال:

---

(١) سورة المطففين: ٢٦.

«لا حسد إلا فى اثنتين:

رجل آتاه الله مالاً، وسلطه على هلكته فى الحق.

ورجل آتاه الله الحكمة. فهو يقضى بها ويعلمها الناس»[(١)].

فهـذا الحسد غبـطة، الحامل لصاحبـه عليه كِبَـر نفسه، وحب خـصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول فى جملتهم، وأن يكون من سبَّاقهم وعلْيهم ومُصَلّيهم لا مـن فساكلهم[(٢)] فتـحدث له من هذه الهّمـة المنافسة والمسـابقة والمصارعة، مع محبته لمن يغبطه، وتمنى دوام نعمة الله عليه».

وبيّنت القصة: فـضل تقوى الله، فى قوله: ﴿إِنَّمَـا يَتَقَبَّـلُ اللَّـهُ مِـنَ الْمُتَّقِـينَ﴾.

والتقوى كما قال طلق بن حبيب[(٣)]:

«أن تعـمل بطاعـة الله، على نور من الله ترجـو ثواب الله. وأن تتـرك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله».

وللتقوى فوائد كثيرة منها:

١- أنها من أسباب تيسير الأمور، قال تعالى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾[(٤)].

٢- أنها من أسباب نزول البركة، قال تعالى:

﴿ وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَىٰ آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِـم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾[(٥)].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (١٨٦٥).

(٢) الفسكل: الفرس الذى يجىء فى حلبة السباق آخر الخيل.

(٣) هو: العابد الزاهد. راجع ترجمته فى كتابنا «صور ومواقف من حياة التابعين» ط. المكتبة التوفيقية.

(٤) سورة الطلاق: ٤.

(٥) سورة الأعراف: ٩٦.

٣- أنها من أسباب الخروج من الضوائق والأزمات، قال تعالى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾(١).

٤- أنها من أسباب التـعرّف على طريق الحق وسط ظلمات الفتن، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ...... ﴾(٢).

٥- أنها من أسباب النصر على الأعداء، قال تعالى:

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾(٣).

٦- أنها من أسباب دفع الضرر ورد العدوان، قال تعالى:

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾(٤).

٧- أنها من أسباب نيل مغفرة الله تعالى للذنوب.. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾(٥).

٨- أنها من أسباب نيل محبة الله تعالى، قال تعالى:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(٦).

٩- أنها من أسباب نيل العلم، قال تعالى:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾(٧).

---

(١) سورة الطلاق: ٢، ٣.
(٢) سورة الحديد: ٢٨.
(٣) سورة آل عمران: ١٢٥.
(٤) سورة آل عمران: ١٢٠.
(٥) سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١.
(٦) سورة آل عمران: ٧٦.
(٧) سورة البقرة: ٢٨٢.

١٠- أنها من أسباب نيل معية الله، قال تعالى:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾(١).

١١- أنها من أسباب نيل رحمة الله، قال تعالى:

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

١٢- أنها سبب لحصول البشرى فى الحياة الدنيا وبعد الممات، قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾(٣).

وعن أبى الدرداء -رضي الله عنه- عن النبى -صلى الله عليه وسلم- فى قوله تعالى:

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ... ﴾ قال:

«الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» رواه مسلم.

وعن أبى ذر -رضي الله عنه- أنه قال: يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به.

فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

«تلك عاجل بشرى المؤمن» رواه مسلم.

١٣- أنها من أسباب النور والفلاح، قال تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾(٤).

١٤- أنها من أسباب دخول الجنة، قال تعالى:

---

(١) سورة التوبة: ٣٦.
(٢) سورة الأعراف: ١٥٦.
(٣) سورة يونس: ٦٣، ٦٤.
(٤) سورة النور: ٥٢.

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾(١).

١٥- أنها من أسباب النجاة من النار، قال تعالى:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾(٢).

موقف المسلم من القتال فى الفتن:

تحت هذا العنوان: كتب الشيخ/ محمد بيومى -حفظه الله- ما مختصره(٣):

«من أصول أهل السنة والجماعة ترك القتال فى الفتن، وذلك لما يترتب على القتال فى الفتنة من مفاسد عديدة وعواقب وخيمة.

وقد وردت أحاديث كثيرة يحذر فيها النبيُّ -ﷺ- من القتال فى الفتن، ومن هذه الأحاديث:

١- عن بُسْر بن سعيد: أن سعد بن أبى وقاص قال عند فتنة عثمان بن عفان -رضي الله عنه-: أشهد أن رسول الله -ﷺ-، قال:

«إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى، والماشى خير من الساعى».

قال: أفرأيت إن دخل علىّ بيتى فبسط يده إلىّ ليقتلنى؟

قال: **«كن كابن آدم»**(٤).

٢- عن أبى موسى الأشعرى -رضي الله عنه-، قال:

قال رسول الله -ﷺ-:

---

(١) سورة مريم: ٦٣.

(٢) سورة مريم: ٧١، ٧٢.

(٣) قصص القرآن (٤٩-٥١) بتصرف.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ١٨٥) وغيره.

«إن بين يدى الساعة لفتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسى كافرًا، ويمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى. والماشى خير من الساعى، كسروا قسيَّكُم، وقطعوا أوتاركم، واضربوا بسيوفكم الحجارة، فإن دُخل على أحدٍ بيته فليكن كخير ابنَى آدم»[١].

قال القارئ:

«والصواب أن الدفع جائز إذا كان الخصم مسلمًا[٢] إن لم يترتب عليه فساد بخلاف ما إذا كان العدو كافرًا فإنه يجب الدفع مهما أمكن»[٣].

٣- وعن المقداد بن الأسود -رضي الله عنه-، قال:

أيم الله، لقد سمعتُ رسول الله -ﷺ- يقول:

«إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن ولمن ابتلى فصبر فواها[٤]»[٥].

قال الإمام النووى:

«هذا الحديث. وما فى معناه مما يحتج به من لا يرى القتال فى الفتنة بكل حال.

وقد اختلف العلماء فى قتال الفتنة، فقالت طائفة:

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٤٠٨) وغيره.

(٢) قال الشيخ السيد سابق -رحمه الله-: «ومن قتل شخصًا، أو حيوانًا دفاعًا عن نفسه، أو عن نفس غيره، أو عن ماله، أو مال غيره، أو عن العرض، فإنه لا شيء عليه... روى «مسلم» عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله -ﷺ- فقال: يا رسول الله.. أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى؟ قال: «فلا تعطه مالك». قال: أرأيت إن قاتلنى؟ قال: «قاتله». قال: أرأيت إن قتلنى؟ قال: «فأنت شهيد». قال: أرأيت إن قتلتُه؟ قال: «هو فى النار». فقه السنة (٢/ ٣٨٦).

(٣) عون المعبود لشمس الحق العظيم آبادى (١١/ ٣٤٢-٣٤٣).

(٤) فواها: معناه التلهف والتحسر، أى: واهًا لمن باشر الفتنة وسعى فيها.

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٤٢٦٣).

لا يقاتل فى فتن المسلمين وإن دخلوا عليه بيتـه وطلبوا قتله، فلا يجوز له المدافـعـة عن نفسـه؛ لأن الطالب مـتـأول وهذ مـذهب أبى بكر -رضي الله عنه- وغيره.

وقال ابن عمر وعمران بن حُصين -رضي الله عنهم- وغيرهما:

لا يدخل فيها لكن إن قصد الدفع عن نفسه.

فهذان المذهبان متفقان على ترك الدخول فى جميع فتن الإسلام.

وقال معظم الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام:

يجب نصر المحق فى الفتن والقيـام معه بمقاتلة الباغين كمـا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾(١) الآية. وهذا هو الصحيح، وتتأول الأحاديث على من لم يظهر له الحق أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحد منهما. ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد واستطال أهل البغى والمبطلون»(٢) ا.هـ.

---

(١) سورة الحجرات: ٩.

(٢) «تحفة الأحوذى» المباركفورى (٦/ ٤٣٧) ط. دار الفكر - بيروت.

[٧] مسيلمة الكذَّاب

«الخبيث الذى ادّعى النبوة»

الآيات التى نزلت فيه:

قال الله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾(١).

فمن هو مسيلمة؟:

هو: مسيلمة بن حبيب الحنفى الكذّاب، الذى ادّعى النبوة باليمامة. ادَّعى النبوة فى عهد رسول الله -ﷺ-، وقصدته سجاح لمّا ادّعت النبوة بجنودها؛ لأخذ اليمامة منه، فهابه قومها، وقالوا: إنه قد استفحل أمره وعظم، فقالت لهم فيما تقوله:

«عليكم باليمامة، دفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة!».

فعمدوا لحرب مسيلمة، فلمّا سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده، فبعث إليها يستأمنها، ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذى كان لقريش لو عدلت.. قائلاً لها:

«فقد ردّه الله عليك فحباك به».

وراسلها، ليجتمع بها فى طائفة من قومه، فركب إليها فى أربعين من قومه، فلما خلا بها عرض عليها ما عرض من نصف الأرض، وقبلت ذلك.

(١) سورة الأنعام: ٩٣.

قال مسيلمة:

«سمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طعم، ولا يزال أمره فى كل ما يسرّ مجتمع، رآكم ربكم فحيّاكم، ومن وحشته أخلاكم، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم...» إلى آخر هذيانه.

وانتهى اللقاء المشئوم بينهما بالزواج الملعون.

ورجعت «سجاح» إلى قومها.. فقالوا لها:

ما أصدقك؟

فقالت: لم يصدقنى شيئًا!!.

فقالوا: إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق!.

فبعثت إليه تسأله صداقًا، فقال:

أرسلى إلىّ مؤذنك.

فبعثته إليه، فقال له:

ناد فى قومك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله!! قد وضع عنكم صلاتين، مِمّا آتاكم به محمد -يعنى صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة- ثم أسلمت بعد ذلك سجاح.

قدومه على رسول الله -ﷺ-:

ادّعى «مسيلمة» النبوة على عهد رسول الله -ﷺ-، فى بنى حنيفة، وكذلك «الأسود العَنْسى» باليمن.

قال ابن إسحاق:

«وقد كان تكلّم فى عهد رسول الله -ﷺ- الكذّابان «مُسيْلَمة بَن حبيب» باليمامة فى بنى حنيفة، و«الأسود بن كعب العَنْسى» بصنعاء.

وقدم «مسيلمة» المدينة وافداً إلى رسول الله -ﷺ-، فسمعه النبى -ﷺ- وهو يقول:

«إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعتُه!!».

فقال له -ﷺ-:

«لو سألتنى هذا العود -لعرجون فى يده- ما أعطيتكه، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، إنى أراك الذى أُريتُ فيه ما رأيت».

وكان رسول الله -ﷺ- قد رأى فى المنام كأن فى يديه سوارين من ذهب، فأهمَّه شأنهما، فأوحى الله إليه فى المنام:

انفخهما، فنفخهما فطارا، فأولهما بكذابين يخرجان، وهما:

«صاحب صنعاء» و«صاحب اليمامة» وهكذا وقع فإنهما ذهبا وذهب أمرُهما -كما سيأتى بيانه فى موضعه -إن شاء الله تعالى-.

روى ابن إسحاق عن أبى سعيد الخدرى، قال:

سمعتُ رسول الله -ﷺ- وهو يخطب الناس على منبره، وهو يقول: «أيها الناس، إنى قد رأيتُ ليلة القدر، ثم أنسيتها، ورأيتُ فى ذراعىَّ سوارين من ذهب، فكرهتهما، فنفختهما فطارا، فأوّلتهما هذين الكذّابين: صاحب اليمن، وصاحب اليمامة»(١).

وروى البخارى فى «صحيحه»:

أن مسيلمة كتب إلى رسول الله -ﷺ-:

«بسم الله الرحمن الرحيم..

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله!!..

سلام عليك

أما بعد:

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد فى «المسند» (٣/٨٦) من طريق ابن إسحاق.

فإنى قد أُشركتُ معك فى الأمر، فلك المدر ولى الوبر.

وفى رواية: فلكم نصف الأرض، ولـنا نصفـهـا- ولكن قـريشًا قـوم يعتدون!».

فكتب إليه رسول الله -ﷺ-:

«بسم الله الرحمن الرحيم..

من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب..

سلام على من اتبع الهدى..

أما بعد:

فإن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

ولما مات رسول الله -ﷺ- زعم أنه استقل بالأمـر من بعده -أى أخذ الأرض كلها- بمدرها ووبرها - وكان يقول:

خذى الدف يا هـذه والعبى وبثّى مـحـاسن هذا النبى
تـولـى نـبـىّ بـنـى هـاشـم وقـام نـبىّ بنى يـعـرب!!

فلم يعش بعدها إلا قليلاً. فدقّت عنُقه.. وقطع الله دابره.

قرآن مسيلمة!!:

تعالى أخى القـارئ.. لتقرأ معى «قـرآن مسيلمـة» الذى أوحى إليه به «شيطانه!!».

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-(١):

«لما قدمت وفود بنى حنيفة على الصِّديق -رضي الله عنه- قال لهم:

أسمعونا شيئًا من قرآن مسيلمة!.

---

(١) فى «البداية والنهاية» (٥/ ٣٢، ٣٣).

فقالوا: أو تعفينا يا خليفة رسول الله؟

فقال: لابد من ذلك.

فقالوا: كان يقول:

«يا ضفدع بنت الضفدعين نقّى كما تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك فى الماء، وذنبك فى الطين!!».

وكان يقول:

«والمبذرات زرعًا، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمنًا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، رفيقكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والناعى فواسوه، والباغى فناووه»!!.

وذكروا أشياء من هذه الخرافات التى يأنف من قولها الصبيان وهم يلعبون.

فيقال: إن الصِّديق قال لهم:

ويحكم، أين كان يذهب بقولكم؟ إن هذا الكلام لم يخرج من إل.

وكان يقول:

«الفيل وما أدراك ما الفيل، له زلوم طويل!!».

وكان يقول:

«والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسد من رطب ولا يابس، لقد أنعم الله على الحُبْلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى!!».

وأشياء من هذا الكلام السخيف الركيك البارد السمج. وقد أورد القاضى أبو بكر الباقلانى -رحمه الله- فى كتابه «إعجاز القرآن» أشياء من كلام هؤلاء الجهلة المتنبئين كمسيلمة والأسود وسجاح، مما يدل على ضعف

عقولهم وعقـول من اتبعهم على ضلالهم ومحالهم وقـد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد إلى «مسيلمة» فى أيام جاهليته، فقال له مسيلمة:

ماذا أنزل على صاحبكم فى هذا الحين؟

فقال عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال:

«وما هى؟».

قال: أنزل عليه:

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[١].

قال: ففكر مسيلمة ساعة ثم رفع رأسه، فقال:

ولقد أنزل علىّ مثلها!!.

فقال له عمرو: وما هى؟

فقال مسيلمة:

«يا وبر يا وبر، إنما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقر!!».

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟

فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب.

وقال سيف بن عمر عن خليد بن زفر النمرى، عن عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى «اليمامة» فقال:

أى مسيلمة.

فقال: مه رسول الله.

فقال: لا حتى أراه.

فلمّا جاء قال:

---

(١) سورة العصر: ١-٣.

أنت مسيلمة؟

فقال: نعم.

قال: من يأتيك؟

قال: رجس.

قال: أفى نور أم فى ظلمة؟

فقال: فى ظلمة.

فقال: أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضَر!!

واتبعه هذا الأعرابى الجلف -لعنه الله- حتى قتل معه عقربًا، «لا رحمه الله».

معجزاته!!!:

ونذكر هنا شيئًا من «معجزاته»(١) على سبيل السخرية والتندر.. ولا بأس بالسخرية من هؤلاء كما قال تعالى:

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾(٢).

قال ابن كثير:

«وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبىّ -ﷺ-، بلغه أن رسول الله -ﷺ- بصق فى بئر فغزر ماؤه، فبصق فى بئر فغاض ماؤه بالكلية!!

وفى أخرى: فصار ماؤه أجاجًا!!

وتوضأ وسقى بوضوئه نخلاً فيبست وهلكت!!

وأتى بولدان يبرك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه!!

(١) ذكرنا «معجزات» هنا على سبيل التهكم.

(٢) سورة هود: ٣٨.

ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمي!![١]».

هذه بعض «معجزاته» -قبحه الله- وأبعده.. تدل بيقين على مدى الشؤم الذي بلغه.. ومن العجيب أنه وجد له أرضًا يبث فيها دعوته ورؤوسًا جهّالاً يستمعون إليه ويطيعونه!! وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[٢].

هلاكه -لعنه الله-:

ذكرنا أن رسول الله -ﷺ- لما تُوفّي.. ولحق بالرفيق الأعلى ذرّ قرن الفتنة.. وزاد خطرها.. وكثر الناس حول «مسيلمة».. واستعد الخبيث لخوض معركة شاملة حاسمة ضد المسلمين.. كما ارتدت بعض القبائل الأخرى في أماكن متفرقة.. وعظم الخطب.. وتفاقم الخطر.. فكان ولابد من تأديب المجرمين.. وتقليم أظافرهم.. واجتثاث جذورهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ونهض «أبو بكر الصديق» -رضي الله عنه- كالأسد الهصور فعقد أحد عشر لواءً.. لتأديب المرتدين.. وإطفاء الفتن التي اندلعت في أماكن شتى.. وفعلاً قام بالأمر على أحسن ما يكون.. فعادت القبائل إلى أحضان الإسلام.. ورفرفت راية التوحيد الخالص على ربوع البلاد.

فبعث -رضي الله عنه- خالد بن الوليد لتأديب المرتدين والقضاء على مسيلمة الكذاب، «وأوعب معه المسلمون، وعلى الأنصار «ثابت بن قيس»، فسار لا يمرّ بأحد من المرتدين إلا نكّل بهم، وقد اجتاز بخيول لأصحاب «سجاح» فشردهم وأمر بإخراجهم من جزيرة العرب، وأردف الصدّيق خالدًا بسرية

---

(١) البداية (٥/ ٣٣).

(٢) سورة الأعراف: ١٧٩.

لتكون ردءًا له من ورائه وقد كان بعث قبله إلى مسيلمة «عكرمة بن أبى جهل» و«شرحبيل بن حسنة»، فلم يقاوما بنى حنيفة، لأنهم فى نحو أربعين ألفًا من المقاتلة!!. فعجّل عكرمة قبل مجيء صاحبه «شرحبيل» فناجزهم فنكب، فانتظر خالدًا، فلمّا سمع «مسيلمة» بقدوم خالدًا عسكر بمكان يقال له: «عقربًا» فى طرف اليمامة والريف وراء ظهورهم، وندب الناس وحثّهم، فحشد له أهل اليمامة، وجعل على مجنبتى جيشه «المحكم بن الطفيل»، و«الرّجال بن عُنفوة بن نهشل».

وكان «الرّجال» هذا صديقه الذى شهد له أنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول:

«إنه قد أشرك معه «مسيلمة بن حبيب» فى الأمر!!

فكان هذا الملعون من أكبر من أضلّ أهل اليمامة، حتى اتبعوا مسيلمة، -لعنهما الله-.

وقد كان «الرّجال» هذا قد وفد إلى النبىّ -ﷺ- وقرأ «البقرة»، وجاء زمن الرّدة إلى أبى بكر فبعثه إلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الله ويثبتهم على الإسلام، فارتد مع مسيلمة وشهد له بالنبوة!!

قال سيف بن عمر عن طلحة عن عكرمة عن أبى هريرة -رضي الله عنه-:

كنتُ يومًا عند النبىّ -ﷺ- فى رهط معنا «الرّجال بن عنفوة»، فقال -ﷺ-:

«إن فيكم رجلاً ضرسه فى النار أعظم من أُحُد!».

فهلك القوم وبقيتُ أنا والرّجال وكنتُ متخوّفًا لها، حتى خرج «الرّجال» مع مسيلمة، وشهد له بالنبوة، فكانت فتنة الرجال أعظم من فتنة «مسيلمة» رواه ابن إسحاق عن شيخ عن أبى هريرة. وقرب «خالد» وجعل على المقدمة «شرحبيل بن حسنة»... وقد مرّت المقدمة فى الليل بنحو من أربعين، وقيل: ستين فارسًا، عليهم «مجاعة بن مرارة»، وكان قد ذهب لأخذ

ثأر له فى «بنى تميم» و«بنى عامر» وهو راجع إلى قومـه فأخذوهم فلمّا جىء بهم إلى «خالد» عن آخرهم فاعتذروا إليه فلم يصدقْهم، وأمر بضرب أعناقهم كلهم، سوى «مجاعة» فإنه استبقاه مقيدًا عنده -لعلمه بالحرب والمكيدة- وكان سيّدًا فى قومه، شريفًا مطاعًا.

ويقال: إن خالدًا لـمّا عرضوا عليه. قال لهم:

ماذا تقولون يا بنى حنيفة؟

قالوا: نقول منا نبىّ ومنكم نبىّ.

فقتلهم إلا واحدًا اسمه «سارية»، فقال له:

أيها الرجل إن كنت تريد عدًّا بعدول هذا خـيرًا أو شرًّا فاسـتبق هذا الرجل -يعنى مجاعة بن مرارة- فاستبقـاه خالدًا مقيدًا، وجعله فى الخيمة مع امرأته، وقال:

استوصى به خيرًا.

فلمّا تواجه الجيشان قال مسيلمة لقومه:

اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات، وينكحهن غير خطيَّات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم.

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم «خالد» على كـثيب يشرق على اليمامة، فضـرب به عسكره، وراية المهـاجرين مع «سـالم مولى أبى حـذيفة»، وراية الأنصار مع «ثابت بن قيس» والعرب على راياتها، ومجاعة بن مرارة مقيد فى الخيمة مع أم تميم امرأة خالد.

فاصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة «خالد بن الوليد» وهموا بقتل أم تميم، حتى أجارها «مجاعة» وقال:

نعمت الحرّة هذه.

وقد قُتل «الرّجال بن عُنْفُـوة» -لعنه الله- في هذه الجولة، قتله «زيد بن الخطاب -رضي الله عنه-».

ثم تذامر الصحابة بينهم، وقال ثابت بن قيس:

«بئس ما عودتم أقرانكم».

ونادوا من كل جانب:

«أخلصنا يا خالد».

فخلـصت ثلة من المهاجـرين والأنصار وحـمى «البراء بن مـعرور».. وأخذ يثور كما يثور الأسد، وقاتلت بنو حنيـفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون:

يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم.

وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعد ما تحنّط وتكفّن، فلم يزل ثابتًا حتى قتل هناك!!.

وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة:

أتخشى أن نُؤْتى من قبلك؟

قال: بئس حامل القرآن أنا إذًا.

وقال زيد بن الخطاب:

«أيها الـناس عضوا عـلى أضراسكم، واضـربوا في عدوكم، وامـضوا قُدمًا».

وقال:

«والله لا أتكلم حتى يهزمـهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجّـتي»، فقُتل شهيدًا -رضي الله عنه-.

وقال أبو حذيفة:

«يا أهل القرآن زينوا القرآن بأفعالكم». وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب -رضي الله عنه-.

وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم، وسار لجبال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وقف بين الصّفين ودعا للبراز، وقال: «أنا ابن الوليد العَوْد، أنا ابن عامر وزيد».

ثم نادى بشعار المسلمين -وكان شعارهم يومئذٍ «يا محمداه».

وجعل لا يبرز لهم أحد إلاّ قتله، ولا يدنو منه شيء إلا أكله!

ودارت رحى المسلمين ثم اقترب من «مسيلمة» فعرض عليه النصف(١) والرجوع إلى الحق، فجعل شيطان مسيلمة يلوى عنقه، لا يقبل منه شيئًا، وكلما أراد «مسيلمة» يقارب من الأمر صرفه عنه شيطانه، فانصرف عنه «خالد» وقد ميّز «خالد» المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وكل بنى أب على رايتهم، يقاتلون تحتها، حتى يعرف الناس من أين يؤتون، وصبرت الصحابة فى هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوّهم حتى فتح الله عليهم، وولى الكفار الأدبار، واتبعوهم يقتلون فى أقفائهم، ويضعون السيوف فى رقابهم حيث شاؤوا حتى ألجؤوهم إلى حديقة الموت، وقد أشار عليهم محكم اليمامة -وهو حكم بن الطفيل -لعنه الله- بدخولها، فدخلوها وفيها عدوّ الله «مسيلمة» -لعنه الله-، وأدرك «عبد الرحمن بن أبى بكر» محكم بن الطفيل فرماه بسهم فى عنقه وهو يخطب فقتله، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة، وقال البراء ابن مالك(٢):

«يا معشر المسلمين ألقونى عليهم فى الحديقة!!».

فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق

---

(١) النصف: الإنصاف. والمراد والله أعلم: أن يعترف بكذبه على الله وعلى الناس.
(٢) أخو أنس بن مالك -رضي الله عنه-.

سورها!! فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة، حتى خلصوا إلى «مسيلمة» -لعنه الله-، وإذا هو واقف فى ثلمة جدار كأنه جمل أورق، وهو يريد يتساند، ولا يعقل من الغيظ، وكان إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه، فتقدم إليه وحشى بن حرب[1] مولى جبير بن مطعم -قاتل حمزة- فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دجانة «سماك بن خرشة» فضربه بالسيف فسقط، فنادت امرأة من القصر:

«واأمير المؤميناه!!، قتله العبد الأسود».

فكان جملة من قتلوا فى الحديقة وفى المعركة قريبًا من «عشرة آلاف» مقاتل، وقيل: «أحد وعشرون» ألفًا.

وقتل من المسلمين «ستمائة»، وقيل: «خمسمائة» والله أعلم، وفيهم من سادات الصحابة، وأعيان الناس.

وخرج «خالد» ومعه «مجاعة بن مرارة» يرسف فى قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرفه بمسيلمة، فلما مرّوا بالرّجال بن عنفوة قال له خالد: أهذا هو؟

قال: لا، والله هذا خير منه، هذا «الرّجال بن عنفوة».

قال سيف بن عمر:

ثم مرّوا برجل أصفر أخنس، فقال:

هذا صاحبكم.

فقال خالد: قبحكم الله على اتباعكم هذا.

ثم بعث خالد الخيول حول «اليمامة» يلتقطون ما حول حصونها من مال

---

(١) راجع قصته فى ترجمة «حمزة بن عبد المطلب» فى كتابنا: «رجال ونساء مبشرون بالجنة» ط. المكتبة التوفيقية.

وسبى، ثم عزم على غزو الحصون ولم يكن بقى فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار فخدعه مجاعة، فقال:

إنها ملأى رجالاً مماثلة فهلم فصالحنى عنها!.

فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد وقد كلّوا من كثرة الحروب والقتال، فقال:

دعنى حتى أذهب إليهم ليوافقونى على الصلح.

فقال: اذهب.

فسار إليهم مجاعة فأمر النساء أن يلبسن الحديد ويبرزن على رؤوس الحصون، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس فظنهم كما قال مجاعة فانتظر الصلح، فصالحهم على البيضاء والصفراء والحلقة واكداع ونصف الرقيق!!.

وقيل لخالد: إن مجاعة قد خدعك.

فقال له: يا مجاعة خدعتنى.

فقال: وإنهم قومى وقد أفنيتهم فلا تلمنى على ذلك.

وقد قال ضرار بن الأزور -ﷺ- فى غزوة «اليمامة»:

فلو سألت عنا جنوب لأخبرت عشية سالت عقرباء وملهم
وسال بفرع الواد حتى تَرَقْرَقَتْ حجارته فيه من القوم بالدم
عشية لا تغنى الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفىُّ المصمم
فإن تبتغى الكفارَ غير مسيلم جنوبٌ فإنى تابع الدين مسلم
أجاهدُ إذا كان الجهاد غنيمةً ولله بالمرء المجاهد أعلم

وقد قال خليفة بن خيّاط، ومحمد بن جرير، وخلْقٌ من السلف:

وكانت وقعة «اليمامة» فى سنة إحدى عشرة، وقال ابن نافع: فى آخرها، وقال الواقدى وآخرون:

كانت وقعة اليمامة فى سنة ثنتى عشرة، والجمع بينهما أن ابتدأها فى سنة إحدى عشرة، والفراغ منها فى سنة ثنتى عشرة والله أعلم(١).

وبهذه الموقعة المباركة تم القضاء على أسطورة الكذب ودولة الخرافة وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾(٢).

أسباب النزول

● أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾(٣) قال:

نزلت فى مسيلمة الكذاب ونحوه مِمَّن دعا إلى مثل ما دعا إليه(٤).

● وأخرج عبد بن حميد -أيضًا- وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ... ﴾ الآية. قال:

ذُكر لنا أن هذه الآية نزلت فى «مسيلمة»(٥).

● وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ... ﴾ الآية. قال:

نزلت فى مسيلمة فيما كان يسجع ويتكهن به...(٦).

---

(١) البداية والنهاية (٥/٢٩ - ٣٢) بتصرف.

(٢) سورة الرعد: ١٧.

(٣) سورة الأنعام: ٩٣.

(٤)، (٥)، (٦) الدر المنثور (٣/٣١٧).

● وقال الإمام القرطبى -رحمه الله تعالى-:

«نزلت فى رحمان اليمامة والأسود العَنْسى وسجاح زوج مسيلمة؛ كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه. قال قتادة:

بلغنا أن الله أنزل هذا فى مسيلمة؛ وقاله ابن عباس»(١).

● وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى-:

قال عكرمة وقتادة:

«نزلت فى مسيلمة الكذاب»(٢).

دروس وعبر من أسباب النزول

قال الإمام القرطبى:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابتداء وخبر؛ أى لا أحد أظلم.

﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ أى اختلق.

﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ فزعم أنه نبىّ.

﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ نزلت فى رحمان اليمامة -أى مسيلمة- والأسود العنسى، وسجاح زوج مسيلمة؛ كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه. قال قتادة:

بلغنا أن الله أنزل هذا فى مسيلمة، وقاله ابن عباس.

قلت: أى القرطبى -رحمه الله تعالى-:

«ومن هذا النَّمط من أعرض عن الفقه والسّنن وما كان عليه السلف من السنن فيقول: وقع فى خاطرى كذا، أو أخبرنى قلبى بكذا؛ فيحكمون بما يقع فى قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من

(١) تفسير القرطبى (٧/ ٣٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٢).

الأكدار وخلوّها من الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص.

وقد جاء فيما ينقلون:

«**استفت قلبك وإن أفتاك المفتون**»[1]؛ ويستدلون على هذا بالخضر، وأنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم[2]. وهذا القول زندقة وكفر، يقتل به قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب؛ فإنه يلزم منه هدّ الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبيّنا -ﷺ-[3].

قال الشيخ الشنقيطي -رحمه الله تعالى-:

قوله تعالى: ﴿**وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾[4]:

أي لا أحد أظلم ممّن قال: ﴿**سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ ونظيرها قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا**﴾[5]، وقد بين الله تعالى كذبهم في افترائهم هذا حيث تحدّى جميع العرب بسورة واحدة منه، كما ذكره تعالى في «البقرة» بقوله:

---

(١) عن وابصة بن معبد أن رسول الله -ﷺ- قال له: «**جئتَ تسأل عن البر والإثم**» قال: قلتُ: نعم. قال: فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال: «**استفت نفسك، استفت قلبك يا وابصة**». ثلاثًا. «**البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**» رواه أحمد وغيره وحسنه النووي.

(٢) الخضر -عليه السلام- كان نبيًا ولم يكن وليًا -على الراجح- كما ذكرتُ ذلك في كتابنا «قصص القرآن».. وراجع قصة حياة الخضر في قصص الأنبياء لابن كثير.

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٣٦، ٣٧).

(٤) سورة الأنعام: ٩٣.

(٥) سورة الأنفال: ٣١.

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾(١)، وفى «يونس» بقوله:

﴿قُلْ فَأْتُـوا بِسُـورَةٍ مِّثْـلِهِ﴾(٢)، وتحدَّاهم فى «هود» بعشر سور مثله فى قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُـوَرٍ مِّثْلِـهِ مُفْتَـرَيَاتٍ﴾(٣) وتحداهم به كله فى «الطور» بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(٤). ثم صرح فى سورة «بنى إسرائيل» بعجز جميع الخلائق عن الإتيان بمثله فى قوله:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٥)، فاتضح بطلان دعواهم الكاذبة(٦).

---

(١) سورة البقرة: ٢٣.
(٢) سورة يونس: ٣٨.
(٣) سورة هود: ١٣.
(٤) سورة الطور: ٣٤.
(٥) سورة الإسراء: ٨٨.
(٦) أضواء البيان (١/ ٣٦٤).

[٨] الأسود العَنْسى
«المشئوم الثانى الذى ادّعى النبوة»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾(١).

فمن هو الأسود العَنْسى:

هو: عبهلة بن كعب بن غوث -من بلد يقال لها: «كهف حنان» باليمن، وكنيته: «الأسود العنسى» -لعنه الله-.

خروجه -لعنه الله-:

كانت اليمن قديمًا لحمير، وكانت ملوكهم يسمّون التبابعة.. ثم إن ملك الحبشة بعث أميرين من قوّاده، وهما:

«أبرهة الأشرم» و«أرياط». فتملكا له اليمن من حِمْير، وصار مُلْكها للحبشة، ثم اختلف هذان الأميران، فقتل «أرياط» واستقل «أبرهة» بالنيابة، بنى كنيسة سمّاها «القليس» لارتفاعها، وأراد أن يصرف حج العرب إليها دون الكعبة، فجاء بعض قريش فأحدث(٢) فى هذه الكنيسة، فلمّا بلغه ذلك

(١) سورة الأنعام: ٩٣.
(٢) أحدث فيها: تغوط.

حلف ليخربن بيت مكة[١]، فسار إليه ومعه الجنود والفيل محمود، فكان من أمرهم ما قصّ الله فى كتابه:

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[٢].

فرجع أبرهة ببعض من بقى من جيشه فى أسوأ حال وشرّخيبة، وما زال تسقط أعضاؤه أنملة أنملة، فلما وصل إلى صنعاء انصدع صدره فمات[٣].

فقام بالملك بعده ولده «بلسيوم بن أبرهة» ثم أخوه «مسروق بن أبرهة»... ثم ثار «سيف بن ذى يزن الحميرىّ»، فذهب إلى «قيصر» ملك الروم يستنصره عليهم، فأبى ذلك عليه -لما بينه وبينهم من الاجتماع فى دين النصرانية- فسار إلى «كسرى» ملك الفرس فاستغاث به، وله معه مواقف... ثم اتفق الحال على أن بعث معه ممَّن بالسجون من طائفة تقدمهم رجل منهم يقال له: «وهرز»، فاستنقذ ملك اليمن من الحبشة، وكسر «مسروق بن أبرهة» وقتله، ودخلوا صنعاء وقرروا «سيف بن ذى يزن» فى الملك على عادة آبائه، وجاءت العرب تهنئه من كل جانب، غير أن لكسرى نوابًا على البلاد، فاستمر الحال على ذلك حتى بعث رسول الله -ﷺ-، فأقام بمكة ما أقام، ثم هاجر إلى المدينة فلما كتب كتبه إلى الآفاق يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكتب فى جملة ذلك إلى كسرى ملك الفرس:

«بسم الله الرحمن الرحيم

(١) يقصد: الكعبة المشرفة.
(٢) سورة الفيل: ١-٥.
(٣) سيأتى مزيد تفصيل فى «ترجمته» فى هذا الكتاب -إن شاء الله تعالى-.

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس[١]:

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

فلمّا جاءه الكتاب، قال:

ما هذا؟

قالوا: هذا كتاب جاء من عند رجل بجزيرة العرب يزعم أنه نبىّ.

فلما فتح الكتاب فوجده قد بدأ باسمه قبل اسم كسرى، فغضب كسرى غضبًا شديدًا، وأخذ الكتاب فمزقه قبل أن يقرأه[٢]، وكتب إلى عامله على اليمن وكان اسمه «باذام»:

أما بعد:

فإذا جاءك كتابى هذا فابعث من قبلك أميرين إلى هذا الرجل الذى بجزيرة العرب، الذى يزعم أنه نبىّ، فابعثه إلىّ فى جامعة!.

فلمّا جاء الكتاب إلى «باذام» بعث من عنده أميرين عاقلين، وقال:

اذهبا إلى هذا الرجل، فانظرا ما هو، فإن كان كاذبًا فخذاه فى جامعة حتى ذهبا به إلى كسرى، وإن كان غير ذلك فارجعا إلىّ فأخبرانى ما هو، حتى أنظر فى أمره.

فقدما على رسول الله -ﷺ- إلى المدينة، فوجداه على أسدّ الأحوال وأرشدها، ورأيا منه أمورًا عجيبة، يطول ذكرها، ومكثا عنده شهرًا حتى بلغاه

---

(١) فى رواية: «عظيم فارس».

(٢) وفى رواية: فبلغ ذلك رسول الله -ﷺ-، فقال: «مَزَّق الله ملكه». انظر: زاد المعاد (٣/٦٨٩)، ونصب الراية (٤/٤٢١).

ما جاءا له، ثم تقاضاه الجواب بعد ذلك، فقال لهما: «**ارجعا إلى صاحبكما فأخبراه أن ربي قتل الليلة ربه**».

فأرّخا ذلك عندهما ثم رجعا سريـعًا إلى «اليمن» فأخبرا «باذام» بما قال لهما فقال:

احصوا تلك الليلة، فـإن ظهر الأمر كما قال فهـو نبيّ، فجاءت الكتب من عند ملكهم أنه قد قتل كسرى في لـيلة كذا وكذا، لتلك الليلة، وكان قد قتله بنوه!!.

وقام بالملك بعده ولده «يزدجر» وكتـب إلى «باذام» أن خذ لي البيعة من قبلك، واعـمد إلى ذلك الرجل فلا تـهنه وأكرمه، فـدخل الإسلام في قلب «باذام» وذريتـه من أبناء فارس مـمّن باليمن، وبعث إلـى رسول الله -ﷺ- بإسلامه، فبعث إليه رسول الله -ﷺ- بنيابة اليمن بكمالها، فلم يعزله منها حـتى مات، فلمّـا مـات استناب ابـنه «شهـر بن باذام» على صنعـاء وبعض مخاليف، وبعث طائفة من أصحابه نـوابًا على مخاليف آخر، فبعث أولاً في سنة «عشر»، عليًا وخالدًا.

ثم أرسل معاذًا وأبا مـوسى الأشعرى، وفرق عمالة اليمـن بين جماعة من الصحابة، فمنهم «شهر بن باذام» وعامر بن شهر الهمدانى، على همدان، وأبو موسـى على مأرب، وخـالد بن سعـيد بن العـاص على عامـر نجران، ورفع، وزبيد، ويعـلى بن أمية على نجـران، وعلى بلاد حضـرموت زياد بن لبيد، وعلى السكاسك عكاشة بن مور بن أخضر، وعلى السكون «معاوية بن كندة» وبعث «معاذ بن جبل» معلّمًا لأهل البلدين -اليمن وحضرموت- يتنقل من بلد إلى بلد، ذكره سيف بن عمـر، وذلك كله في سنة «عشر»، في آخر حيـاة رسول الله -ﷺ- فـبينمـا هم على ذلك إذ نجم هذا اللعين «الأسـود العنسى».

والتفّ حوله «سبعمائة» مقاتل، وكتب إلى عمّال النبيّ -ﷺ-:

«أيها المتمردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفّروا ما جمعتم، فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه، ثم ركب فتوجّه إلى «نجران» فأخذها بعد عشر ليال من مخرجه، ثم قصد إلى «صنعاء»، فخرج إليه «شهر بن باذام» فتقاتلا، فغلبه الأسود وقتله، وكسر جيشه من الأبناء واحتلّ بلدة «صنعاء» لخمس وعشرين ليلة من مخرجه ففرّ «معاذ بن جبل» من هنالك واجتاز بأبى موسى الأشعرى، فذهبا إلى «حضرموت» وانحاز عمال رسول الله -ﷺ- إلى الطاهر، ورجع عمر بن حرام وخالد بن سعيد ابن العاص إلى المدينة، واستوثقت اليمن بكاملها للأسود العنسى، وجعل أمره يستطير استطارة الشرارة، وكان جيشه يوم لقى شهراً سبعمائة فارس، وأمراؤه «قيس بن عبد يغوث» و«معاوية بن قيس» و«يزيد بن محرم بن حصن الحارثى» و«يزيد بن الأفكل الأزدى» واشتد ملكه، واستغلظ أمره، وارتد خلق من أهل اليمن وعامله المسلمون الذين كانوا هناك بالتقية، وكان خليفته على «مذحج» «عمرو بن معد يكرى» وأسند أمر الجند إلى «قيس بن عبد يغوث» وأسند أمر الأبناء إلى «فيروز الديلمى» و«داذويه» وتزوّج بامرأة «شهر بن باذام» وهى ابنة عم «فيروز الديلمى»، واسمها «زاذ»، وكانت امرأة حسناء جميلة، وهى مع ذلك مؤمنة بالله ورسوله محمد -ﷺ-، ومن الصالحات.

قال سيف بن عمر التميمى:

وبعث رسول الله -ﷺ- كتابه، حين بلغه خبر «الأسود العَنْسى» مع رجل يقال له: «وبر بن يحنس الديلمى» يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلة «الأسود العنسى» ومصاولته.

وقام معاذ بن جبل بهذا الكتاب أتم القيام، وكان قد تزوّج امرأة من السكون يقال لها «رملة» فخربت عليه السكون لصبره فيهم، وقاموا معه فى ذلك، وبلغوا هذا الكتاب إلى عمّال النبىّ -ﷺ-، ومن قدروا عليه من الناس، واتفق اجتماعهم بقيس بن عبد يغوث أمير الجند -وكان قد غضب على الأسود، واستخفّ به وهمّ بقتله- وكذلك كان أمر «فيروز الديلمى»، قد

ضعف عنده أيضًا، وكذا «داذويه»، فلمـا أعلم «وبر بن يحنس» قيس بن عبد يغوث، وهو قـيس بن مكشوح، كان كأنما نـزلوا عليه من السماء، ووافـقهم على الفتك بالأسود، وتوافق المسلمون على ذلك، وتعاقدوا عليه، فلما أيقن ذلك في البـاطن أطلع شيطـان الأسود للأسـود على شيء من ذلك، فدعـا «قيس بن مكشوح»، فقال له: يا قيس ما يقول هذا؟

قال: وما يقول؟

قال: يقول: «عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل، وصـار في العزّ مـثلك، مـال ميل عـدوّك، وحاول مـلكك، وأضمـر على الغدر».

إنه يقول:

«يا أسود يا أسود يا سوآه يا سـوآه، فطف به وخذ من قيس أعلاه وإلا سلبك وقطف مسك[1]».

فقال له قيس وحلف له فكذب:

وذى الخـمـار لأنت أعظم فى نفـسى وأجلّ عندى من أن أحـدث بك نفسى.

فقال له الأسود:

ما إخالك تكـذب الملك، فقد صدق الملك وعرف الآن أنـك تائب عمّا اطلع عليه منك!

ثم خرج قيس من بين يديه فجاء إلى أصحابه فيروز وداذويه، وأخبرهم بما قال له وردّ عليه، فقالوا:

إنا كلنا على حذر، فما الرأى؟

فبينما هم يشتورون إذ جاءهم رسوله فأحضرهم بين يديه، فقال:

---

(١) كذا فى «البداية» ولعلها: «منك».

ألـم أشرفكم على قومكم؟

قالوا: بلى.

قال: فماذا يبلغنى عنكم؟

فقالوا: أقلنا مرَّتنا هذه.

فقال: لا يبلغنى عنكم فأقيلكم.

قال: فـخرجنا مـن عنده ولـم نكد، وهو فى ارتياب من أمـرنا، ونحن على خطر، فبـينما نحن فى ذلك إذ جـاءتنا كتب من «عامـر بن شهر» أمـير همدان، وذى ظليم، وذى كلاع، وغيرهـم من أمراء اليمن، يبذلون لنا الطاعة والنصر، على مخالفة الأسـود، وذلك حين جاءهم كتاب رسول الله -ﷺ- يحثهم علـى مصاولة الأسود العَنْسى، فكتـبنا إليهم أن لا يحدثوا شيـئًا حتى نبرم الأمر.

قال: قيس: فدخلتُ على امرأته ازاذ، فقلت:

يا بنة عـمّى قـد عـرفت بلاء هذا الرجل عند قـومك، قـتل زوجك، وطأطأ فى قومك القتل، وفضح النساء، فهل عندك ممالأة عليه؟

قالت: على أى أمر؟

قلتُ: إخراجه.

قالت: أو قتله؟

قلتُ: أو قتله.

قالت: نعم، والله ما خلق الله شخصًا هو أبغض إلىّ منه، فما يقوم لله علىّ حق ولا ينتهى له عن حُرْمة، فإذا عزمـتم أخبرونى فأعلمونى بما فى هذا الأمر.

قال: فأخْـرُج فإذا فيروز وداذويه، ينتظرانى يريدون أن يناهضـوه، فما استقرّ اجتماعه بهما حتى بعث إليه الأسود فدخل فى عشرة من قومه، فقال:

ألم أخبرك بالحق وتخبرنى بالكتابة[١]؟ إنه يقول:

يا سوأة، إن لم تقطع من قيس يده يقطع رقبتك العليا!

حتى ظن «قيس» أنه قاتله.

فقال: إنه ليس من الحق، أن أهلك وأنت رسول الله، فقتلى أحب إلىّ من موتات أموتها كل يوم.

فرقّ له وأمره بالانصراف.. فخرج إلى أصحابه فقال:

اعملوا عملكم..

فبينما هم وقوف بالباب يشتورون، إذ خرج الأسود عليهم وقد جمع له مائة من بين بقرة وبعير، فقام وخط خطًا وأقيمت من ورائه، وقام دونها، فنحرها، غير محبسة ولا معقلة، ما يقتحم الخط منها شيء، فجالت إلى أن أزهقت أرواحها.

قال قيس: فما رأيتُ أمرًا كان أعظم منه، ولا يومًا أوحش منه.

ثم قال الأسود: أحقٌ ما بلغنى عنك يا فيروز؟ لقد هممتُ أن أنحرك فألحقك بهذه البهيمة، وأبدى له الحربة.

فقال له فيروز: اخترتنا لصهرك، وفضلتنا على الأبناء، فلو لم تكن نبيًّا ما بعنا نصيبنا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الآخرة والدنيا؟ فلا تقبل علينا أمثال ما يبلغك، فأنا بحيث تحب، فرضى عنه وأمره بقسم لحوم تلك الأنعام، ففرّقها «فيروز» فى أهل صنعاء، ثم أسرع اللحاق به، فإذا رجل يحرّضه على فيروز ويسعى إليه فيه، واستمع له فيروز، فإذا الأسود يقول:

«أنا قاتله غدًا وأصحابه، فاغد علىّ به».

ثم التفت فإذا فيروز، فقال:

«مه».

---

(١) كذا فى «البداية» وفى نسخة «بالكذابة».

فـأخبـره فيـروز بما صنع من قـسم ذلك اللحم، فدخل الأسـود داره، ورجع فيروز إلى أصحابه فأعلمهم بما سـمع وبما قال وقيل له، فاجتمع رأيهم على أن عاودوا المرأة في أمره، فدخل أحدهم -وهو فيروز- إليها فقالت: إنه ليس من الدار بيت إلا والحـرس يحيطون به غيـر هذا البيت، فـإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق، فـإذا أمسيتم فانقبـوا عليه من دون الحرس وليس من دون قتله شيء، وإني سأضع في البيت سراجًـا وسلاحًا، فلما خرج من عندها تلقاه الأسود فقال له:

«ما أدخلك على أهلي؟».

ووجأ رأسه، وكان الأسود شديدًا، فصاحت المرأة فأدهشته عنه، ولولا ذلك لقتله، وقالت:

ابن عمّي جاءني زائرًا.

فقال: اسكتي لا أبا لك، قد وهبتُه لك.

فخرج على أصحابه فقال: النجاء النجاء، وأخبرهم الخبر، فحاروا ماذا يصنعون؟

فبعثت المرأة إليهم تقول لهم:

لا تنثنوا عمّا كنتم عازمين عليه، فدخل عليها «فيروز الديلمي» فاستثبت منها الخـبر، ودخلوا إلى ذلك البـيت فنقبـوا من داخله بطائن ليهـون عليهم النقب من خارج، ثم جلس عندها جهرة كالزائـر، فدخل الأسود فقال: وما هذا؟

فقالت: إنه أخي من الرضاعة، وهو ابن عمّي.

فنهره وأخرجـه، فرجع إلى أصحابه، فلمّا كان الليل نقـبوا ذلك البيت فدخلوا فوجدوا فيه سراجًا تحت جـفنة فتقدم إليه فيروز الديلمي والأسود نائم على فراش من حـرير، قد غرق رأسه في جـسده، وهو سكران يغط، والمرأة

جالسة عنده، فلما قام فيروز على الباب أجلسه شيطانه فتكلم على لسانه -وهو نائم مع ذلك يغط- فقال: ما لى وما لك يا فيروز؟

فخشى إن رجع يهلك وتهلك المرأة، فعاجله وخالطه وهو مثل الجمل فأخذ رأسه فدق عنقه ووضع ركبتيه فى ظهره حتى قتله، ثم قام ليخرج إلى أصحابه ليخبرهم، فأخذت المرأة بذيله وقالت:

أين تذهب عن حُرْمتك. فظننت أنه لم يقتلْه. فقال:

أخرج لأعلمهم بقتله.

فدخلوا عليه ليحتزُّوا رأسه، فحركه شيطانه فاضطرب، فلم يضبطوا أمره حتى جلس اثنان على ظهره، وأخذت المرأة بشعره، وجعل يبربر بلسانه فاجتزَّ الآخر رقبته، فخار كأشد خوار ثور سمع قط، فابتدر الحرس إلى المقصورة، فقالوا:

ما هذا؟ ما هذا؟

فقالت المرأة: النبىّ يوحى إليه!!. فرجعوا.

وجلس قيس وداذويه وفيروز يأتمرون كيف يعلمون أشياعهم. فاتفقوا على أنه إذا كان الصباح ينادون بشعارهم الذى بينهم وبين المسلمين، فلما كان الصباح قام أحدهم، وهو «قيس» على سور الحصن فنادى بشعارهم، فاجتمع المسلمون والكافرون حول الحصن، فنادى قيس ويقال: «وبر بن يحنس» بالأذان:

أشهد أن محمداً رسول الله، وأن عبهلة كذاب، وألقى إليهم رأسه، فانهزم أصحابه وتبعهم الناس يأخذونهم ويرصدونهم فى كل طريق يأسرونهم، وظهر الإسلام وأهله، وتراجع نواب رسول الله -ﷺ- إلى أعمالهم، وتنازع أولئك الثلاثة فى الإمارة، ثم اتفقوا على «معاذ بن جبل» يصلى بالناس، وكتبوا بالخبر إلى رسول الله -ﷺ- وقد أطلعه الله على الخبر من ليلته!!.

روى سيف بن عمر عن عبد الله بن عمر:

أتى الخبـر إلى النبىّ -ﷺ- من السمـاء الليلة التى قُـتل فيهـا العنسى ليبشرنا، فقال:

«قتل العنسى البارحة قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين».

قيل: ومن؟

قال: **«فيروز، فيروز»**.

وقد قـيل: إن مدة مُلكه منذ ظهـر إلى أن قتل «ثلاثة أشهـر»، ويقال: «أربعة أشهر»، فالله أعلم.

وقال سيـف بن عمر عن المستنيـر عن عروة عن الضحاك عن فـيروز، قال: قتلنا الأسود، وعاد أمرنا فى «صنعـاء» كما كان إلا أنا أرسلنا إلى معاذ ابن جبل فتـراضينا عليه، فكان يصلى بنا فى صنعــاء، فوالله ما صلى بنا إلاّ ثلاثة أيام حتى أتانا الخبر بوفاة رسول الله -ﷺ-، فانتقضت الأمور، وأنكرنا كثيراً مما كنا نعرف، واضطربت الأرض(١).

قال ابن كثير:

«وقد قدمنا أن خبر العنسى جـاء إلى الصِّديق فى أواخر ربيع الأول بعد ما جـهز جيش أسامـة، وقيل: بل جاءت البـشارة إلى المدينة صبيـحة تُوفّى رسول الله -ﷺ- والأول أشهر والله أعلم.

والمقصود: أنه لم يجثهم فيما يتعلق بمصالحهم واجتماع كلمتهم وتأليف ما بينهم والتمسك بدين الإسلام إلا الصِّـديق -رضي الله عنه-، وسيأتى إرساله إليهم من يمهـد الأمـور التى اضطربت فى بلادهم ويقـوى أيدى المسلمين، ويثـبت أركان دعائم الإسلام فيهم، -رضي الله عنه-»(٢) ا.هـ.

وبقـتل «الأسـود» انتهـت دولة الدجل الثـانية.. وظهـر أمـر الله وهم كارهون. والحمد لله رب العالمين.

---

(١)، (٢) البداية والنهاية (٥/٩-١٤) بتصرف.

أسـباب النـزول

● قال الإمام القرطبى فى قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾[1] الآية. قال:

«نزلت فى رحمان اليمامة والأسود العَنْسى وسجاح زوج مسيلمة؛ كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه»[2].

● وقال الإمام الطبرى فى تفسيره للآية:

«لا خلاف بين الجميع أن «مسيلمة» و«العَنْسى» الكذَّابين، ادعيا على الله كذبًا أنه بعثهما نبيين، وقال كل واحد منهما أن الله أوحى إليه، وهو كاذب فى قيله. فإذا كان ذلك كذلك، فقد دخل فى هذه الآية كل من كان مختلقًا على الله كذبًا، وقائلاً فى ذلك الزمان وغيره: «أوحى الله إلىّ»، وهو فى قيله كاذب، لم يوح الله إليه شيئًا.

فأما التنزيل، فإنه جائز أن يكون بسبب بعضهم، وجائز أن يكون نزل بسبب جميعهم، وجائز أن يكون عنى به جميع المشركين من العرب، إذ كان قائلو ذلك منهم، فلم يغيروه، فعيّرهم الله بذلك، وتوعدهم بالعقوبة على تركهم نكير ذلك، ومع تركهم نكيره هم بنبيه محمد -ﷺ- مكذبون، ولنبوته جاحدون، ولآيات كتاب الله وتنزيله دافعون، فقال لهم جل ثناؤه:

«ومن أظلم ممّن ادعى علىّ النبوة كاذبًا»[3] وقال: ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾، ومع ذلك يقول:

---

(١) سورة الأنعام: ٩٣.
(٢) تفسير القرطبى (٧/ ٣٦).
(٣) هذا القول بالمعنى.

﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[(١)]، فينقض قوله بقوله، ويكذب بالذى تحققه، وينفى ما يثبته. وذلك إذا تدبره العاقلُ الأريب علم أن فاعله من عقله عديم.

وقد روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- فى قوله تعالى:

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، قال:

زعم أنه لو شاء قال مثله، يعنى الشِّعر.

فكأن ابن عباس -رضي الله عنهما- فى تأويله هذا على ما تأوله، يوجه معنى قول القائل:

﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إلى:

سأنزل مثل ما قال الله من الشعر. وكذلك تأوله السّدِّى[(١)].

دروس وعبر من أسباب النزول

مشهد حىّ شاخص متحرك مكروب رعيب.. مشهد الظالمين.. (أى المشركين) الذين يفترون على الله الكذب، أو يدعون أنهم أوحى إليهم ادعاء لا حقيقة له. أو يزعمون أنهم مستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن.. مشهد هؤلاء الظالمين -الذين لا يقاس إلى ظلمهم هذا ظلم- وهم فى غمرات الموت، والملائكة باسطوا أيديهم إليهم بالعذاب، ويطلبون أرواحهم. والتأنيب يجبه وجوههم، وقد تركوا كل شىء وراءهم وضلّ عنهم شركاؤهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ

(١) سورة الأنعام: ٩١.
(٢) تفسير الطبرى (٥/ ٣٠١، ٣٠٢).

كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾(١).

المشهد الذى يرسمه السياق فى جزاء هؤلاء الظالمين (أى المشركين) مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب. الظالمون فى غمرات الموت وسكراته – ولفظ غمرات يلقى ظله المكروب– والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب، وهم يطلبون أرواحهم للخروج! وهم يتابعونهم بالتأنيب.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

وجزاء الاستكبار العذاب المهين، وجزاء الكذب على الله هذا التأنيب الفاضح.. وكله مما يضفى على المشهد ظلالاً مكروبة، تأخذ بالخناق من الهول والكآبة والضيق!.

ثم فى النهاية، ذلك التوبيخ والتأنيب من الله تعالى، الذى كذبوا عليه، وها هم أولاء بين يديه، يواجههم فى موقف الكربة والضيق:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(٢)!.

فما معكم إلا ذواتكم مجرّدة، ومفردة كذلك. تلقون ربكم أفراداً لا جماعة. كما خلقكم أول مرة أفراداً، ينزل أحدكم من بطن أمه فرداً عريان أجرد غلبان!.

ولقد ند عنكم كل شىء، وتفرّق عنكم كل شىء، وما عدتم تقدرون على شىء مِمّا ملككم الله إياه.

﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾(٣)..

(١) سورة الأنعام: ٩٣، ٩٤.
(٢) سورة الأنعام: ٩٤.
(٣) سورة الأنعام: ٩٤.

تركتم كل شيء من مـال وزينة، وأولاد ومتـاع، وجاه وسلطان.. كله هناك متـروك وراءكم، ليس معكم شيء منه، ولا تقـدرون منه على قليل أو كثير!.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾[١]..

هؤلاء الذين كنتم تزعـمـون أنهم يشـفعـون لكم فى الشـدائد، وكنتم تشركونهم فى حياتكم وأموالكم، وتقولون:

إنهم سيكونون عند الله شـفعاءكم سواء كـانوا ناسًا من البشر كـهانًا أو ذوى سلطان، أو كانوا تماثيل من الحـجر، أو أوثانًا، أو خبًّا أو ملائكة، أو كواكب أو غـيرها مما يرمـزون به إلى الآلهة الزائفـة، ويجعلون له شـركًا فى حياتهم وأموالهم وأولادهم كما سـيجىء فى السورة فأين؟ أين ذهـب الشركاء والشفعاء؟.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[٢]..

تقطع كل شىء. كل ما كان مَوْصولاً. كل سبب وكل حبل!

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٣].

وغـاب عنكم كل ما كنتم تدّعـونه من شـتى الدعاوى. ومنهـا أولئك الشركاء، وما لهم من شفاعة عند الله أو تـأثير فى عالم الأسباب! إنه المشهد الذى يهز القلب البـشرى هزًّا عنيفًـا. وهو يشخص ويتـحرك؛ ويلقى ظلاله على النفس، ويسكب إيحاءاته فى القلب، ظلاله الرعـيبة المكروبة، وإيحاءاته العنيفة المرهوبة إنه القرآن.. إنه القرآن[٤].

---

(١) سورة الأنعام: ٩٤.

(٢)، (٣) سورة الأنعام: ٩٤.

(٤) الظلال (١١٤٩/٢، ١١٥٠).

[٩] سجاح بنت الحارث
«زوج مسيلمة الكذاب!»

الآيات التى نزلت فيها:

قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[١].

فمن هى سجاح؟:

هى: سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التغلبية من الجزيرة، وهى من نصارى العرب[٢].

ظهور الرِّدة:

قال محمد بن إسحاق:

«ارتدت العرب عند وفاة رسول الله -ﷺ- ما خلا أهل المسجدين «مكة» و«المدينة»، وارتدت «أسد» و«غطفان» وعليهم طليحة بن خويلد الأسدى[٣]، وارتدت كندة ومن يليها، وعليهم «الأشعث بن قيس الكندى»، وارتدت «مذحج» ومن يليها، وعليهم «الأسود بن كعب العَنْسى الكاهن،

---

(١) سورة الأنعام: ٩٣.
(٢) البداية والنهاية (٥/ ٢٤).
(٣) كان طليحة قد أسلم، ثم ارتد وادّعى النبوة، ثم أسلم وحسن إسلامه وقُتل شهيداً بنهاوند -رضي الله عنه-.

وارتدت «ربيعة» مع «المعرور بن النعمان بن المنذر» وكانت «حنيفة» مقيمة على كفرها مع «مسيلمة بن حبيب» الكذاب. وارتدت «سليم» مع «الفجأة»، واسمه «أنس بن عبد ياليل» وارتدت «بنو تميم» مع «سجاح» الكاهنة.

وجعلت وفود العرب تقدم المدينة. يقرّون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة، ومنهم من امتنع من دفعها إلى «أبى بكر الصديق» -رضي الله عنه-، وذكر أن منهم من احتج بقوله تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾(1) قالوا:

فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا، وأنشد بعضهم:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا ... فواعجبًا ما بال مُلك أبى بكر!

وقد تكلم الصحابة مع الصِّديق فى أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان فى قلوبهم، ثم هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصِّديق من ذلك وأباه.

وقد روى الجماعة فى كتبهم سوى ابن ماجة عن أبى هريرة:

أن عمر بن الخطاب قال لأبى بكر الصديق:

علام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله -ﷺ-:

«أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها»؟.

فقال أبو بكر:

والله لو منعونى عناقًا، وفى رواية: «عقالاً» كانوا يؤدونه إلى رسول الله -ﷺ- لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

---

(1) سورة التوبة: ١٠٣.

قال عـمر: فما هو إلا أن رأيتُ الله قـد شرح صدر أبى بكر للقـتال، فعرفت أنه الحق.

وقد روى الحافظ ابن عساكر عن صالح بن كيسان، قال:

لما كانت الرِّدة قام أبو بكر فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«الحمـد لله الـذى هـدى فكفى، وأعطى فأغنـى، إن الله بعث محمداً -ﷺ- والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قـد رثّ حَبْلُه، وخلق عهده، وضلّ أهله منه، ومقت الله أهل الكتاب فلا يعطيـهم خيراً لخير عندهم، ولا يصرف عنهم شرًّا لشرٍّ عندهم، قد غيّروا كتـابهم، وألحقوا فيه ما ليس منه، والعرب الأمـيون يحسبـون أنهم فى منعة من الله لا يـعبدونه ولا يـدعونه، فأجهدهم عيشًا، وأضلهم دينًا، فى ظلف من الأرض مع ما فيه من السحاب فختمهم الله بمحمد، وجـعلهم الأمة الوسطى، نصرهم بمن اتبعهم، ونصرهم على غيرهم، حتـى قبض الله نبيَّه -ﷺ- فركب منهم الشيطان مـركبه الذى أنزله عليه، وأخذ بأيديهم، وبغى هلكتهم.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(١).

إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا فى دينهم -وإن رجعوا إليه- أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا فى دينكم أقوى منكم يومكم هذا، على ما فـقدتم أجزل من بركـة نبيكم -ﷺ- ولقد وكلكم إلى المولى الكافى، الذى وجده ضالاً فهداه، وعائلاً فأغناه ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾(٢)، الآية، والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده، ويوفى لنا عـهده، ويقتل من قتل منا شـهيداً من أهل الجنة، ويبقى من يبقى منا خليفتـه وذريته فى أرضه، قضاء الله الحق، وقوله الذى لا خلف له:

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٣.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾[1] الآية»، ثم نزل -رضي الله عنه-.

ظهور أمر سجاح:

تقدم أن رسول الله -ﷺ- لما تُوفِّى ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب، ونجم النفاق بالمدينة، وانحاز إلى «مسيلمة الكذاب» بنو حنيفة، وخلق كثير باليمامة، والتفت على طليحة الأسدى بنو أسد وطيّئ، وبشر كثير أيضًا، وادَّعى النبوة أيضًا كما ادعاها «مسيلمة»!!.. وظهر أمر «سجاح بنت الحارث» وادَّعت هى الأخرى النبوة.. والتفَّ حولها قومها.. وقد عزموا على غزو أبى بكر الصِّديق، فلمَّا مَرَّت ببلاد بنى تميم دعتهم إلى أمرها، فاستجاب لها عامتهم، وكان ممَّن استجاب لها «مالك بن نويرة التميمى» و«عطارد بن حاجب» وجماعة من سادات أمراء بنى تميم، وتخلَّف آخرون منهم عنها، ثم اصطلحوا على أن لا حرب بينهم، إلا أن «مالك بن نويرة» لما وادعها ثناها عن عودها، وحرّضها على بنى يربوع، ثم اتفق الجميع على قتال الناس، وقالوا:

بمن نبدأ؟

فقالت لهم فيما تسجعه:

«أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب!!».

ثم إنهم تعاهدوا على نصرها، فقال قائل منهم:

أتتنا أخت تغلب فى رجال ... جلائبَ منْ سراة بنى أبينا
وأرست دعوةً فينا سفاهًا ... وكانت مَن عمائر آخرينا
فما كنَّا لنرزيهم زبالاً ... وما كانت لتسلم إذ أتينا

---

(١) سورة النور: ٥٥.

ألا سفهت حُلُومُكُم وصَلَّتْ عشيَّة تحشدون لها ثُبينا

وقال عطارد بن الحاجب فى ذلك:

أمْسَتْ نبيّتُنا أنثى نُطِيفُ بها وأَصْبَحتْ أنبياءُ النَّاسِ ذُكْرَانا

ثم إن «سجاح» قصدت بجنودها «اليمامة» لتأخذها من «مسيلمة الكذاب»، فهابه قومها، وقالوا:

إنه قد استفحل أمره وعظم.

فقالت لهم فيما تقوله:

«عليكم باليمامة دفّوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة. لا تلحقكم بعدها ملامة».

فلما سمع «مسيلمة» بمسيرها إليه خافها على بلاده، وذلك أنه مشغول بمقاتلة «ثمامة بن أثال»، وقد ساعده عكرمة بن أبى جهل بجنود المسلمين، وهم نازلون ببعض بلاده ينتظرون قدم خالد بن الوليد(١).

فبعث «مسيلمة» إليها يستأمنها ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذى كان لقريش لو عدلت، قائلاً لها:

«فقد ردّه الله عليك فحباك به».

وراسلها ليجتمع بها فى طائفة من قومه، فركب إليها فى أربعين من قومه، وجاء إليها فاجتمعا فى «خيمة» فلمّا خلا بها عرض عليها ما عرض من نصف الأرض، وقبلت ذلك، قال مسيلمة:

«سمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا يزال أمره فى كل ما يسر مجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشته أخلاكم، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم، علينا صلوات معشر الأبرار، لا أشقياء ولا فجّار، يقومون الليل ويصومون النهار لربكم الكبار، رب الغيوم والأمطار!!».

---

(١) تقدم معنا ذكر موقعة «اليمامة» وما تم فيها. راجع ترجمة «مسيلمة الكذاب».

وقال أيضًا:

«لما رأيتُ وجوههم حسنت، وأبشـارهم صفت، وأيديهم طفلت، قلتُ لهم:

«لا النساء تأتون، ولا الخمـر تشربون، ولكنكم معشـر أبرار تصومون، فسبحـان الله إذا جاءت الحياة كيف تحيون، وإلى ملك السـماء كيف ترقون، فلو أنها حبة خردلة لقام عليها شهيد يعلم ما فى الصدور، ولأكثر الناس فيها الثبور!!».

وقد كـان «مسيلمة» -لعنه الله- شـرع لمن اتبعه أن الأعزب يتـزوّج فإذا وُلد له ذكر فيحرم عليه النسـاء حينئذ، إلا أن يموت ذلك الولد الذكر، فتحلّ له النساء حتى يولد له ذكر!!، هذا ممّا اقترحه -لعنه الله-، من تلقاء نفسه.

ويقال: إنه لما خلا «بسجاح» سألها ماذا يوحى إليها؟

فقالت: وهل يكون النساء يبتدئن؟ بل أنت ماذا أوحى إليك؟

فقال:

«ألم تر إلى ربك كيف فعلَ بالحُبْلى؟ أخـرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا!!».

قالت: وماذا؟

فقال:

«إن الله خلق للنساء أفراجًا، وجعل الـرجال لهن أزواجًا، فنولج فيهن قـعـسًا إيلاجًـا، ثم نخـرجـهـا إذا نشـاء إخـراجًا، فـينتـجن لنا سـخـالاً إنتاجًا!!!»(١).

فقالت: أشهد أنك نبى.

فقال لها: هل لك أن أتزوجك وآكل بقومى وقومك العرب؟

---

(١) وذكر شعرًا ضربنا عنه صفحًا لقبحه -لعنه الله-. راجع البداية (٥/ ٢٦).

قالت: نعم.

فتزوجها «الكذاب»، وقامت عنده ثلاثة أيام، ثم رجعت إلى قومها فقالوا:

ما أصدقك؟

فقالت: لم يصدقنى شيئًا.

فقالوا: إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق فبعثت إليه تسأله صداقًا، فقال:

أرسلى إلىّ مؤذّنك، فبعثته إليه -وهو شَبَث بن ربعىّ- فقال: نادِ فى قومك:

«إن مسيلمة بن حبيب رسول الله!!! قد وضع عنكم صلاتين مِمّا آتاكم به محمد -يعنى صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة!».

وقيل: بل قال لهم:

«إنى وضعت عنكم ما آتاكم به محمد من الصلوات وأبحتكم فروج المؤمنات، وشرب الخمر فى الكاسات»!!.

فكان هذا صداقها عليه، لعنهما الله.

ثم انثنت «سجاح» راجعة إلى بلادها وذلك حين بلغها دنو خالد بن الوليد من أرض اليمامة فكرّت راجعة إلى الجزيرة بعد ما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، فأقامت فى قومها «بنى تغلب» إلى زمان «معاوية بن أبى سفيان» -رضي الله عنه- فأجلاهم منها عام الجماعة سنة إحدى وأربعين.. وبهذا تم القضاء على آخر «معقل» للدجل فى عصر الصحابة.. صحيح ظهر «المختار ابن أبى عبيد» ولكن سرعان ما أخذه الله أخذ عزيز مقتدر[1].

---

(١) كان ظهور المختار بن أبى عبيد بعد استشهاد الحسين -رضي الله عنه-، وكان المختار قد ادّعى أن الوحى ينزل عليه.. وزعم النبوّة فلم يُمْهل والحمد لله رب العالمين.

ثم ابْتُلى الإسلام بقوم سـوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة على مـرّ العصـور وكرّ الـدهور.. ولم يربحوا من أكـاذيبـهم وأباطيلهم إلاّ خساراً.

أسباب النزول

● **قال الإمام الفخر -رحمه الله تعالى- فى قوله تعالى:**

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ...﴾(١).

قال: قال المفسرون:

«نزل هذا فى مسيلمة الكذاب صاحـب اليمامـة، وفى الأسود العنسى صاحب صـنعاء، فإنـهما كـانا يدعيـان النبوة والرسـالة على سبـيل الكذب والافتراء، وكان مسيلمة يقول: مـحمد رسول قريش، وأنا رسول رسول بنى حنيفة.

قال القاضى: الذى يفترى على الله الكذب يدخل فيه من يدَّعى الرسالة كـذبًا، ولكن لا يقـتـصر عليـه، لأن العـبـرة بعمـوم اللفظ لا بـخصـوص السبب»(٢).

● **وقال الإمام الشوكانى -رحمه الله تعالى- فى تفسيره للآية الكريمة:**

«لا أحد أظلم ممَّن افتـرى على الله كذبًا فزعم أنه نبىّ وليس بنبىّ، أو كذب على الله فى شىء من الأشـياء ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أى والحال أنه لم يوح إليه شىء، وقد صان الله أنبيـاءه عمّا تزعمون عليهم، وإنما هذا شـأن الكذابين رءوس الضلال كـمسـيلمة الكذاب والأسـود العَنْسى وسجاح»(٣).

---

(١) سورة الأنعام: ٩٣.
(٢) مفاتيح الغيب (١٢/٤٣٧).
(٣) فتح القدير (٢/ ١٤٠).

دروس وعبر من أسباب النزول

١- التحذير من متابعة رؤوس الضلال.. وأئمة الدجل.. فإنه يفضى إلى الشرك كما قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾(١).

٢- تحذير رؤوس الضلال من مغبة انحرافهم.. وسوء مصيرهم قال الله تعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾(٢).

فلأن يكون الإنسان ذنبًا فى الحق أفضل من أن يكون رأسًا فى الباطل.

٣- كم لأدعياء النبوة على مرّ العصور من كلمات ومواقف يؤذون بها أنفسهم، ويزرون بها، ويفتضحون بها.. ولعلك أخى القارئ تجد الفارق الكبير بين كلمات القرآن العظيم.. وما اختلقه أولئك الأفاكون من هذيان.. فانظر وقارن -ولا مقارنة- لتعلم الفارق، حتى يكون لك من المواقف وسير الرجال عبرة، ومن أخبارهم عظة، وقل آمنتُ بالله ثم استقم.

٤- لا نجاة من السقوط فى براثن الدجاجلة.. إلا بالتحصين بالعلم الشرعى.. وهضم تعاليم الدين.. ولا يتم ذلك إلا بمزاحمة العلماء بالركب عند حلق العلم.. نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الضلال.. وأن ينجّينا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) سورة الأنعام: ١٢١.

(٢) سورة الأنعام: ٩٣.

[١٠] بلعام بن باعوراء
«العالم الضال!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾[١].

فمن هو بلعام؟:

هو: أحد علماء بنى إسرائيل[٢] المُضلِّين.. الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.. فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.

ذكر القرطبى فى «تفسيره» أنه كان مجاب الدعوة.. وكان فى مجلسه اثنتا عشرة ألف مِحْبرة للمتعلِّمين الذين يكتبون عنه.. وكان بحيث إذا نظر رأى العرش!!.

ثم انسلخ من آيات الله.. فأصبح وليًّا للشيطان.. فأبعده الله وأخزاه وجعل النار مثواه.. وكذلك يجزى الله كل كفور.. فنعوذ بالله من سوء المصير وعذاب السعير.

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٧.

(٢) وما يُروى أنه كان من أنبياء بنى إسرائيل لا يصح.

ما هى قصته؟:

أوردت كتب السير والتفاسير لبلعام قصّتين:

القصة الأولى:

قال محمد بن إسحاق بن يسار:

عن سالم أبى النضر أنه حدّث أن موسى -عليه السلام- لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له:

هذا «موسى بن عمران» فى بنى إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلّها بنى إسرائيل، وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم.

قال: ويلكم نبىّ الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟

قالوا له: ما لنا من منزل.

فلم يزالوا به يرفقونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب حمارة له متوجهًا إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل وهو جبل حسبان، فلما سار عليها غير كثير ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجَّة عليه!!، فقالت:

ويحك يا بلعم أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامى تردّنى عن وجهى هذا؟ تذهب إلى نبىّ الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟!

فلم ينزع عنها فضربها فخلّى الله سبيلها حين فعل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبنى إسرائيل جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشرٍّ إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل!!!.

فقال له قومه: أتدرى يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا!.

قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه.

قال: واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم:

قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال، جمّلوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم!!.

ففعلوا، فلما دخلت النساء العسكر مَرّت امرأة من الكنعانيين اسمها «كسبتى» ابنة صور رأس أمته- برجل من عظماء بنى إسرائيل وهو «زمرى بْن شلوم» رأس سبط «شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليه السلام-» فلمّا رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى، وقال:

إنى أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها؟

قال: أجل هى حرام عليك.

قال: فوالله لا أُطيعك فى هذا!!.

فدخل بها قُبّته فوقع عليها وأرسل الله عزّ وجلّ الطاعون فى بنى إسرائيل، وكان «فنحاص بن العيزار بن هارون» صاحب أمر موسى وكان غائبًا حين صنع «زمرى بن شلوم» ما صنع، فجاءوا والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلِّها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار، وجعل يقول:

«اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك».

ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون فيما بين أن أصاب «زمرى» المرأة إلى أن قتله «فنحاص» فوجدوه قد هلك منهم

سبـعون ألفًا والمقلل منـهم يقول: عشـرون ألفًا فى ساعـة من نهار[١]، فمن هنالك تعطى بنو إسرائيل ولد فنـحاص من كل ذبيحة ذبحوهـا الرقبة والذراع واللحى والبكر من كل أموالهم وأنفسها لأنه كـان بكر أبيه العيزار، ففى بلعام ابن باعوراء أنزل الله:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

القصة الثانية:

أنه كان من علماء بنى إسـرائيل فى عهد «موسى -عليه السلام-» فأرسله إلى «مدين» يدعـوهم إلى الله تعالى وحـده.. ونبذ عبـادة ما سـواه. فلما ذهب إليهم أغراه ملك مدين بالمال والنسـاء.. فقبل «بلعام» الرشوة.. وضل واتبع هواه..!! فأنزل الله تعالى فيه ما أنزل.

قال مالك بن دينار:

«بُعث بلعـام بن باعوراء إلى مَلـك مدين ليـدعوه إلى الإيمان؛ فـأعطاه وأقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى؛ ففيه نزلت هذه الآيات».

مع الآيات التى نزلت فيه:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ ولم يقل «آية».

قال القرطبى: واختلف فى تعيين الذى أوتى الآيات. فـقال ابن مسعود وابن عبـاس: هو بلعامُ بن باعوراء... وقـال عبد الله بن عمـرو بن العاص وزيد بن أسلم: نزلت فى أميّـة بن أبى الصلت الثقفى، وكان قـد قرأ الكتب وعلم أن الله مـرسل رسـولاً فى ذلـك الوقت، وتمنّى أن يكـون هو ذلك

---

(١) دلّ ذلك على فضل إقامـة الحدود. وفى الحديث: «إقامة حد من حـدود الله خير من مطر أربعين ليلة فى بلاد الله» حسن: صـحيح سنن ابن مـاجه (٢٠٥٨). وفى حـديث آخر: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة» رواه الطبرانى بإسناد حسن.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٥، ١٧٦.

الرسول، فلما أرسل الله محمداً -ﷺ- حسده وكفر به وهو الذى قال فيه رسول الله -ﷺ-:

«آمن شِعْرُه وكفر قلبُه!!».

وقال سعيد بن المسيِّب: نزلت فى أبى عامر بن صَيْفى -الفاسق-، وكان يلبس المُسُوح فى الجاهلية؛ فكفر بالنبىّ -ﷺ-. وذلك أنه دخل على النبىّ -ﷺ- المدينة فقال:

يا محمد، ما هذا الذى جئت به؟

قال: **«جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم»**.

قال: فإنى عليها.

فقال النبىُّ -ﷺ-: **«لست عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها»**.

فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً.

فقال النبىّ -ﷺ-: **«نعم أمات الله الكاذب منا كذلك»**.

وإنما قال هذا يُعَرِّض برسول الله -ﷺ- حيث خرج من مكة. فخرج أبو عامر إلى الشام ومرّ إلى قيصر وكتب إلى المنافقين:

استعدوا فإنى آتيكم من عند «قيصر» بجند لنخرج محمداً من المدينة؛ فمات بالشام وحيداً. وفيه نزل:

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾[1][2].

قال القرطبى:

«والقول الأول أشهر وعليه الأكثر».

قوله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أى من معرفة الله تعالى، أى نزع منه

---

(١) سورة التوبة: ١٠٧.

(٢) ستأتى ترجمة «أبى عامر الفاسق» فى كتابنا هذا بعد قليل. -إن شاء الله تعالى-.

العلم الذى كان يعلمه. والانسلاخ: الخروج؛ يقال: انسلخت الحيّة من جلدها أى خرجت منه. وقيل: هذا من المقلوب، أى انسلخت الآيات منه.

﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى لحق به، وقال ابن كثير:

أى استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه ولهذا قال:

﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أى من الهالكين الحائرين البائرين وقد ورد فى معنى هذه الآية حديث رواه أبو يعلى الموصلى فى «مسنده» عن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-:

«إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك!!».

قال: قلت: يا نبى الله أيهما أولى بالشرك المرمىّ أو الرامى؟

قال: **«بل الرامى»**(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أى: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناه إياها.

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ أى: مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذتها ونعيمها وغرته كما غرّت غيره من غير أولى البصائر والنهى.

وقال أبو الراهويه: تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس، فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان، وكذا قال عبد الرحمن بن جبير ابن نفير وغير واحد.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أى ما زيّن له الشيطان. وقيل: كان هواه مع الكفار.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ اختلف

(١) قال الحافظ ابن كثير: هذا إسناد جيد. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٠).

المفسـرون فى معناه، فـعلى سياق ابن إسـحاق عن سالـم عن أبى النضر أن بلعامًا اندلع لسانه على صـدره، فتشبيهه بالكلب فى لهيثـه فى كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر، وقيل معناه:

فصار مـثله فى ضلاله واستمراره فـيه وعدم انتفـاعه بالدعاء إلا الإيمان وعدم الدعـاء كالكلب فى لهـيثه فى حـالتيه إن حـملت عليه وإن تركـته هو يلهث فى الحـالين، فكذلك هـذا لا ينتـفع بالموعظة والدعـوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى:

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وقال القتيبى:

كل شىء يلهث فإنما يلهث من إعـياء أو عطش، إلاّ الكلب فإنه يلهث فى حال الكلال وحال الراحـة وحال المرض وحال الصحـة وحال الرى وحال العطش. فضـربه الله مثلاً لمن كذب بآيـاته فقال: إن وعظته ضلّ وإن تركـته ضلّ؛ فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث؛ كقوله تعالى:

﴿ وَإِن تَدْعُوهُـمْ إِلَى الْهُـدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُـمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُـمْ أَدَعَوْتُمُـوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾(٢).

قال القرطبى:

«وهذا المثل فى قول كثيـر من أهل العلم بالتأويل عامٌّ فى كل من أوتى القرآن فلم يعمل به».

﴿ فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُـمْ يَتَفَكَّـرُونَ ﴾ يقـول الله تعـالى لنبيّه محمد ـ ﷺ ـ.

﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له فى إضلال الله إياه وإبعاده من رحـمته، بسبب أنه استعمل

(١) سورة البقرة: ٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٣.

نعمة الله عليه فى تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب فى غير طاعة ربه بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله فى ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران -عليه السلام-، ولهذا قال:

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علمًا وميّزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد -ﷺ- يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم مافى كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾(١).
يقول تعالى: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أى ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لا همّة لها إلاّ فى تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن حيّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهًا بالكلب وبئس المثل مثله، ولهذا ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله -ﷺ- قال:

«ليس لنا مثل السوء، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه»(٢).

وقوله تعالى فى نفس الآية:

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أى: ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

وبهذه الخاتمة السوء.. وبهذا الحصاد المرّ انتهت حياة «بلعام بن باعوراء» لتبقى قصته عظة لقوم يتفكرون.

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٧.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٣/ ٢١٥)، ومسلم (٥/ ٦٥) وغيرهما.

دروس وعبر من قصة بلعام

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- فى قوله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

قال -رحمه الله-:

«فشبه سبحانه من آتاه كتابه، وعلمه العلم الذى منعه غيره. فترك العمل به واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق:

بالكلب الذى هو من أخس الحيوانات، وأوضعها قدراً، وأخسّها نفسًا. وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا.

ومن حرصه:

أنه لا يمشى إلا وخطمه فى الأرض يتشمم، ويستروح حرصًا وشرهًا. ولا يزال يشم دُبره دون سائر أجزاء جسمه وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته. وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا والجيفُ القذرة المروحة أحب إليه من اللحم، والعذرة أحب إليه من الحلوى. وإذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب لم يدع كلبًا يتناول معه منها شيئًا إلاّ هرّ عليه وقهره، لحرصه وبخله وشرهه.

ومن عجيب أمره وحرصه:

أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية، وحال رزيّة نبحه، وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته فى قوّته.

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٥، ١٧٦.

وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة: وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفى تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه: بالكلب فى حال لهثه: سرٌّ بديع وهو أن هذا الذى حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه: إنما كان لشدة لهفه على الدنيا. لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة. فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم فى حال إزعاجه وتركه. واللهف واللهث شقيقان وأخوان فى اللفظ والمعنى.

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له: إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث. هو مثل الذى يترك الهدى، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث وهكذا هذا الذى انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها. فهذا يلهث على الدنيا من قلة صبره عنها. وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء.

فالكلب من أقل الحيوانات صبراً عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع. وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثًا؛ يلهث قائمًا، وقاعدًا، وماشيًا، وواقفًا. وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص فى كبده توجب له دوام اللهث.

فهكذا مشبهه: شدة الحرص وحرارة الشهوة فى قلبه توجب له دوام اللهث فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.

قال مجاهد: ذلك مثل الذى أوتى الكتاب ولم يعمل به.

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملْها. وإن تتركه لم يهتد إلى خير، كالكلب إن كان رابضًا لهث، وإن طرد لهث.

وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دعى أو لم يدع، وعظ أو لم يوعظ. كالكلب يلهث طردًا وتركًا.

وتأمل ما فى هذا المثل من الحكم والمعانى.

فمنها قوله: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذى آتاه آياته. فإنها نعمة والله هو الذى أنعم بهــا عليه. فأضافها إلى نفــسه. ثم قال: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أى خرج منهــا، كما تـنسلخ الحية من جلدها. وفـارقهـا فراق الجلد يسلخ عن اللحم.

ولم يقل: فسلخناه منهــا لأنه هو الذى تسبب إلى انسلاخه منــه باتباعه هواه.

ومنها: قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى لحقه وأدركه.

﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ العــاملين بخلاف علمــهم، الذين يعرفــون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

ومنها: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَــوْ شِئْــنَا لَرَفَعْنَــاهُ بِــهَا﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعــة عنده ليست بمجرد العلم. فـإن هذا كان من العلمـاء، وإنما هى باتباع الحق وإيثـاره، وقصد مـرضاة الله. فـإن هذا كان من أعلم أهل زمـانه. ولم يرفعه الله بعلمــه، ولم ينفعه به. نعوذ بالله من علم لا ينفع. وأخبــر سبحانه أنه هو الذى يرفع عــبــده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لــم يرفعــه الله فهــو موضوع، لا يرفع أحد به رأسًا. فإن الرب الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه.

والمعنى: لو شــئنا فضلناه وشــرفناه ورفــعنا قدره ومنزلتــه بالآيات التى آتيناه.

قال ابن عباس: لو شئنا لرفعناه بعلمه.

وقالت طائفة: الضمير فى قوله ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ عائد على الكفر.

والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا.

قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه.

وهذا المعنى حق. والأول هو مراد الآية. وهذا من لوازم المراد.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾.

قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض.

وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ.

وقال الزجاج: خلد وأخلد. وأصله من الخلود.. وهو الدوام والبقاء.

يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

قال الكلبيّ: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها.

وقال أبو رَوْق: اختار الدنيا على الآخرة.

وقال ابن زيد: كان هواه مع القوم، يعني الذين حاربوا موسى وقومه»(١).

قال الإمام القرطبي -رحمه الله تعالى- عن بلعام وما حدث له:

«ضربه الله مثلاً للذي قبل الرِّشوة في الدِّين حتى انسلخ من آيات ربه. فدلَّت الآية لمن تدبَّرها على ألاَّ يغترّ أحدٌ بعمله ولا بعلمه؛ إذ لا يدري بما يُخْتم له. ودلَّت على منع أخذ الرِّشوة لإبطال حقٍّ أو تغييره. ودلَّت أيضًا على منع التقليد لعالم إلا بحجّة يبيّنها؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألاّ يقبل منه إلا بحجّة» ا.هـ(٢).

---

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم (٢٨٠-٢٨٥) بتصرف يسير.
(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٢٨٩).

[١١] الجدُّ بن قَيْس
«البخيل الجبان!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾[١].

فمن هو الجد بن قيس؟:

هو: الجد بن قيس أحد بنى سلمة.. المنافق.. البخيل.. الذى ضُرب به المثل فى صفتين كان الرسول -ﷺ- يستعيذ بالله منهما إذا أصبح وإذا أمسى.. وأمرنا أن نستعيذ بالله منهما إذا أصبحنا وإذا أمسينا.. وهما «الجبن والبخل» فكان -ﷺ- إذا أصبح وإذا أمسى يقول:

«اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»[٢].

ثمانية أدواء هى فروع من شجرة خبيثة تستحق القطع، لأن واحداً منها يجلب الضرّ فكيف بها مجتمعة؟

والجبن والبخل آفتان متلازمتان فالضنين بماله لا يجود بروحه، أو الجواد بنفسه لا يبخل بماله. وكلا الرجلين لا يذوق طعم الحياة الرفيعة، وكيف يتأتى هذا المذاق لجبان يعتذر عن هروبه بهذا الكلام:

---

(١) سورة التوبة: ٤٩.

(٢) رواه أبو داود فى سننه.

لأن يقال: فرّ -لعنه الله- خير من أن يقال: مات -رحمه الله-!.

أو لبخيل يحصِّن ثروته بإراقة حياته وابتذال نفسه؟

وعلى الرغم من تمكن هذه الصفات المذمومة فى «الجد بن قيس» إلا أنه كان من أشراف بنى سلمة!!.

ففى «الصحيح» أن رسول الله -ﷺ- قال لوفد بنى سلمة:

«من سيدكم يا بنى سلمة؟».

قالوا: الجد بن قيس على أنا نبخله.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«وأى داء أدوأ من البخل! ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور».

وكان الجد أخزاه الله ممَّن أسلم ظاهره وكفر باطنه والعياذ بالله.. وكان أحد المنافقين الذين ألبوا على الرسول -ﷺ- وخذلوه فى مواطن كثيرة.. فكان ممّن عناهم النبىّ -ﷺ- بقوله:

«ألا أنبئكم بشراركم».

قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله.

قال: **«إن شراركم الذى ينزل وَحْده، ويَجْلدُ عَبْده، ويمنع رِفْده، أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟»**.

قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله.

قال: **«من يبغض الناس ويبغضونه»**.

قال: **«أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟»**.

قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله.

قال: **«الذين لا يقيلون عثْرة، ولا يقبلون مَعْذرة، ولا يَغْفِرون ذنبًا»**.

قال: «أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟».

قالوا: بلى، يا رسول الله.

قال: «من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره»(١).

الجد بن قيس وغزوة تبوك:

لما أعلن النبى -ﷺ- فى المدينة أنه منطلق إلى «تبوك» لمجالدة «الروم» تجمع رهط من المنافقين فقال بعضهم لبعض -مشيرين إلى المسلمين-: أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غداً مقرّنين فى الحبال.. إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين!!

سبب الغزوة:

ترامت إلى النبى -ﷺ- فى المدينة أنباء إعداد ماكر للروم.. فى محاولة للقضاء على الإسلام.

فلم ير النبى -ﷺ- بُداً من استنفار المسلمين، لملاقاة هذا العدوان المبيت.

والتهيؤ لملاقاة الروم جاء فى أيام قيظ وقحط.

والسير إليهم يتطلب جهداً مضنيًا ونفقة كبيرة.

وقتال الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدة، بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات، وتملك موارد كثيرة من الرجال والأموال.

على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب، والسكوت على تحدى النصارى لهذا الدين ورغبتهم الملحة فى القضاء عليه يعتبر انتحاراً وبواراً فليتحامل المسلمون على أنفسهم إذاً وليواجهوا مستقبلهم بما يفرض من

---

(١) رواه الطبرانى.

تضحيات. وللظروف العصيبة التى اكتنفت إعداد هذا الجيش سُمّى جيش العُسرة والآيات التى أنزلها الله فى كتابه - متعلقة بغزوة «العسرة» هى أطول ما نزل فى قتال بين المسلمين وخصومهم.

وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم النصرانية على الإسلام، وإفهام المسلمين مغبة تقصيرهم فى أداء هذه الفريضة وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تفريط فى حماية دينه ونصرة نبيّه، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة - دون قتال الروم- يُعتبر مزلقة إلى الردة والنفاق:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

ومضت الآيات تتحدث بصرامة وعنف، ففضحت المنافقين، وكشفت عن المترددين. وأهانت طلاب الدعة والراحة، الذين آثروا ظل القعود فى بيوتهم وحقولهم، على حر الصحراء، ووعثاء السفر، ومتاعب الجلاد:
﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾(٢).

وأنباء «جيش العسرة» تفيض بها صفحات طوال من سورة التوبة ولعل من البيّن فى أسلوب القرآن وهو يصف هذا الجهاد، أنه لم تأخذه هوادة فى التنويه بمن اشتركوا فيه، والتنديد بمن تخلفوا عنه، ولا عجب، فتحديد موقف الإسلام من النصرانية، هو بتٌّ فى مستقبل الدين كله إلى الأبد.

فإما ثبت المسلمون أمام لدد الكنيسة المتعصبة، وإما أحرقتهم نارها، فلم يبق لدينهم أثر.

(١) سورة التوبة: ٣٨، ٣٩.
(٢) سورة التوبة: ٨١.

وكان لهذا الحزم أطيب النتائج، فخرج المسلمون فى تعبئة لم يخرجوا من قبل فى مثلها، وانطلقوا صوب الشمال، حيث تربض جيوش الروم وتجلّت -فى هذا الإعداد- طوايا النفوس، ومقدار ما استودعت من إخلاص وسماحة ونشاط، فهناك أغنياء أخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش وإمداده بحاجته، من الرواحل والسلاح والخيل، منهم «عثمان بن عفان» الذى سبق فى بذله سبقًا بعيدًا حتى أن الرسول عجب من كثرة ما أنفق، وقال:

«ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»(١).

ومنهم الفقراء الذين شاقهم الجود بأنفسهم فى سبيل الله ثم أعجزتهم الوسائل تبلغهم الميدان فسحت أعينهم الدمع لهذا الحرمان.

ثبت عن «علبة بن زيد» -رضي الله عنه- أنه قام من الليل يُصَلّى، فتهجّد ما شاء الله ثم بكى، وقال:

«اللهم إنك أمرتَ بالجهاد ورغّبت فيه. ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه.. وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها فى مال أو جسد أو عرض».

وأصبح الرجل -على عادته- مع الناس فقال رسول الله -ﷺ-:

«أين المتصدق الليلة؟».

فلم يقم أحد.

ثم قال: **«أين المتصدق؟ فليقم!»**.

فقام إليه فأخبره. فقال رسول الله -ﷺ-:

«أبشر، فوالذى نفسى بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة»(٢).

---

(١) صحيح: رواه ابن شاهين رقم «٣»، والحاكم (٣/١٠٢) وغيرهما من حديث عبد الرحمن ابن سمرة وصححه الحاكم. ووافقه الذهبى. قال الشيخ الألبانى: وله شواهد ذكرها الحافظ ابن كثير فى تاريخه (٥/٦)، وآخر عند ابن شاهين رقم «٦١».

(٢) صحيح: ذكره ابن إسحاق فى «المغازى» بدون إسناد وقد ورد مسندًا موصولاً كما بينه الحافظ فى «الإصابة».

وهناك أهل الريبة الذين يلتمسون للفرار الأعـذار، وتقعد بهم كراهيتهم للإسلام عن إسـداء أى عون له، فهيـهات أن يعدوا للخروج عـدة أو يتمنوا للخارجين عوداً.

ومن أسخف الأعـذار التى تمحّلها أولئك القاعـدون المنافقون مـا قال: «الجَدّ بن قيس» للنبى -ﷺ- -وقد عرض عليه الجهاد-:

يا رسول الله.. أو تأذن لى ولا تفـتنى؟ فوالله لقد عرف قـومى أنه ما من رجل بأشد عـجبًا بالنسـاء منى، وإنى أخشى إن رأيتُ نساء بنى الأصـفر «الروم» ألا أصبر.

فأعرض عنه رسول الله -ﷺ- وفيه نزلت الآية:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾(١)(٢).

ولـمّا تجهز الجيش، استعمل رسول الله -ﷺ- على المدينة «محمد بن مسلمـة» وقيـل «سبـاع بن عرفطة»، وخلـف على أهله «علىّ بن أبى طالب» -رضي الله عنه-، ثم تحرك الجـيش نحو الشمـال يريد «تبوك».. ولما نزل بهـا عسكر هناك، وهو مـستعـد للقاء العـدو.. ولما سمع الروم وحـلفاؤهم.. بتـجمع المسلمين وتعبئتهم أخذهم الرعب فلم يجـترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا فى البلاد داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنسـبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، فى داخل الجـزيرة وأرجائها النائية. وحـصل بذلك المسلمون على مكاسب سيـاسية كبيـرة خطيرة، بما لـم يكونوا يحصلون عليـها لو وقع هناك صدام بين الجيشين.. ورجع الجيش الإسلامى من «تبوك» مظفرين منصورين، لم ينالوا كيداً، وكفى الله المؤمنين القتال.

وخيَّب الله ظن المنافقين الذين ظنوا أن مقبـرة الإسلام ستُحْفر هناك فى «تبوك» وسيدفن المسلمون فيها فلا تقام لهم بعد ذلك قائمة.

---
(١) سورة التوبة: ٤٩.
(٢) فقه السيرة للغزالى.

وقوبل جيش العُسْرة بحفاوة بالغة.. أما المنافقون.. فأصيبوا بخيبة أمل لم تكن فى الحسبان.. والله غالب على أمره.

وتوالت آيات سورة التوبة.. تفضح أعمالهم.. وتبلوا سرائرهم اقرأ:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾[1].

وقال تعالى يصف حالهم وهم يختلقون المعاذير للرسول -ﷺ- لتخلفهم:

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[2].

وبعد هذا الموقف الذى وقفه «الجد بن قيس» من غزوة «تبوك» ونزول القرآن فيه يفضح سريرته.. ويهتك أستاره.. ويكشف عواره.. فى آيات تتلى إلى يوم القيامة.. أهمل التاريخ ذكره.. وأسقط من حساباته بقية حياته.. وحق له ذلك.. فمثله لا وزن له فى الدنيا.. ولا قيمة له فى الآخرة.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾[3].

---

(١) سورة التوبة: ٤٦-٤٨.
(٢) سورة التوبة: ٩٥، ٩٦.
(٣) سورة الكهف: ١٠٣-١٠٥.

أسباب النزول

أخرج الواحدى النيسابورى فى «أسباب النزول» (١٤٠) فى قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1]. قال:

نزلت فى «جد بن قيس» المنافق، وذلك أن رسول الله -ﷺ- لمّا تجهز لغزوة تبوك قال له:

«يا أبا وهب هل لك فى جلاد بنى الأصفر تتخذ منهم سرارى ووصفاء؟».

فقال: يا رسول الله لقد عرف قومى أنى رجل مغرم بالنساء وإنى أخشى إن رأيتُ بنات الأصفر أن لا أصبر عنهن فلا تفتنى بهن وائذن لى فى القعود عنك وأعينك بمالى.

فأعرض عنه النبىّ -ﷺ-، وقال:

«قد أذنت لك». فأنزل الله هذه الآية، فلمّا نزلت هذه الآية، قال رسول الله -ﷺ- لبنى سلمة، وكان الجد بن قيس منهم:

«من سيدكم يا بنى سلمة؟».

قالوا: الجد بن قيس غير أنه بخيل جبان.

فقال النبى -ﷺ-: **«وأى داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم الأبيض الفتى الجعد بشر بن البراء بن معرور»**.

فقال فيه حسان بن ثابت:

---

(١) سورة التوبة: ٤٩.

وقال رسول الله والحق لا حق ... بمن قال منا من تعدّون سيّدا
فقلنا له جد بن قيس على الذى ... ببخله فينا وإن كان أنكدا
فقال وأى الداء أدوى من الذى ... رميتم به جداً وعالى بها يدا
وسود بشر بن البراء بجوده ... وحق لبشر ذى الندا أن يسودا
إذا ما أتاه الوفد أنهب ما له ... وقال خذوه إنه عائد غدا

دروس وعبر من أسباب النزول

قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾(١).

التعبير يرسم مشهداً كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون، وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم، وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات فلا يفلتون. كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة وعن انتظار العقاب عليها حتماً، جزاء الكذب والتخلف والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير. وتقريراً لكفرهم وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام وهم فيه منافقون.

لقد كان «الجد بن قيس» وأشياعه من المنافقين يفرحون بتخلفهم عن رسول الله خوفًا من الحرّ أو خشية من الفتنة كما ادعى «الجد بن قيس» أو حرصًا على الحياة!!.

إنهم نموذج لضعف الهمّة، وطراوة الإرادة، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز.

وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات.

ولكن هذه الصفوف تظل فى طريقها المملوء بالعقبات والأشواك، لأنها

---

(١) سورة التوبة: ٤٩.

تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة فى الإنسان، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التى لا تليق بالرجال. ونص القرآن يرد عليهم بالتهكم المنطوى على الحقيقة:

﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾(١).

فإن كانوا يشفقون من حر الأرض، ويؤثرون الراحة المسترخية فى الظلال. فكيف بهم فى حر جهنم وهى أشد حرًا، وأطول أمدًا؟.

وإنها لسخرية مريرة، ولكنها كذلك حقيقة. فإما كفاح فى سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض، وإمّا انطراح فى جهنم لا يعلم مداه إلا الله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢) وإنه لضحك فى هذه الأرض وأيامها المعدودة، وإنه لبكاء فى أيام الآخرة الطويلة. وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما يعدون.

إن الدعوات فى حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد فى الكفاح الطويل الشاق.

والصف الذى يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه فى ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب. فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيدًا عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى ساعة الشدة، ثم يعودون إليه فى ساعة الرخاء، جناية على الصف كله، وعلى الدعوة التى يكافح فى سبيلها كفاحه المرير(٣).

لذلك قال تعالى لنبيه -ﷺ-:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾(٤).

وهذا هو الجزاء العادل الدقيق.

---

(١) سورة التوبة: ٨١.

(٢) سورة التوبة: ٨٢.

(٣) الظلال.

(٤) سورة التوبة: ٨٣.

[١٢] الجلاس بن سويد
«المنافق الذى آذى رسول الله -ﷺ-»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

فمن هو الجلاس؟:

هو: الجلاس بن سويد بن الصامت.. أحد المنافقين.. الذين بسطوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إلى رسول الله -ﷺ- وإلى المسلمين.. وأحد الذين أعلنوا الحرب على ذات الرسول الكريمة واتهموه بما ليس فيه!!.. فأعلن القرآن الحرب عليه.. وتوعده بالعذاب الأليم.

وعادة أهل النفاق أنهم لا يعملون فى وضح النهار.. فهم أجبن من ذلك. ولذلك فوسيلة النفاق من أخطر الوسائل وأكثرها مكراً وكيداً، وأقدرها على الإفساد والتحريف، مع تجنب التصادم مع قوى الجهة المرادة بالكيد. حين تكون عداوة العدوّ ظاهرة مكشوفة، فإن الناس يتخذونه عدواً، فيتعاملون معه على هذ الأساس، يحذرونه ويتقونه، ولا يُصدّقون أقواله، ويشكّون فى نصائحه إن نصحهم بشىء، ويتّهمونه فى انتقاداته، ويعلمون أن شتائمه الظاهرة أو المتوارية التى يوجّهها ضدهم، إنما يقذف بها من مخازن العداوة والبغضاء لديه، فلا تخرجُهم عن مواقعهم الفكرية والاعتقادية

---

(١) سورة التوبة: ٦١.

والخلقية والعملية، ولا توهن عزائمهم فى التمسّك بها، بل قد تثبّتهم وتشدّ عزائمهم، ثم تولّد لديهم دوافع الانتقام والمغالبة والمقاتلة وردّ الكيد بمثله، وهذه الدوافع تزيد فى ثباتهم وإصرارهم على مواقعهم.

لكن حين يكون هذا العدوّ كاتمًا لعداوته، متظاهرًا بالمـوّدة والإخاء، مندسًا فى صفوفهم كأنه منهم، يلبس لباس الانتماء، ويداهن بالنصرة والولاء، فإن الناس يتخذونه حينئذ أخًا وليًا، وكلّما برع فى إخفاء عداوته والمداهنة بمودّته تدلّى إلى قلوبهم، فاستخلصوه، فكان عندهم صفيًا.

وحينئذ تنام عنه عيون الحذر والاتهام، فيأمنونه ولا يتّقون غوائله، ويصدّقون أقواله، ويرونه فى نصائحه مخلصًا، وإذا انتقدهم بشىء لم يتهموه فى أهدافه ومقاصده، وإذا طرح بينهم أفكارًا جديدة حسبوه مجتهدًا فى الرأى باحثًا عن الحقيقة، سواءٌ أكان فيها من وجهة نظرهم مصيبًا أو مخطئًا.

وهو بهذه الثقة التى اكتسبها يستطيع أن يكيدهم كيداً كُبّاراً، فيدُسُّ بينهم بمكر شديد، وخبث عظيم، أفكاراً وعقائد ومفاهيم وأنماط سلوك يجعلها تتسلّل إليهم تسلّلاً ببطء شديد، وتتدرّج تدرُّجًا وفق طبائع الأشياء فى تحوّلاتها وتغيّراتها التدريجية التى تمرُّ دون إثارة، ودون أن تلتفت إليها الأنظار، حتى يصل إلى أهدافه كلها أو بعضها، مِنْ دسٍّ وتشويه وتحريف وإفسادٍ من الداخل.

وحين يستعصى عليه القادة وأهل الفكر، فإنه يستطيع أن يجمع حوله بعض أهل الأهواء، ومن فى نفوسهم نزغات أو نزعات، فيرضى أهواءهم، ويطمع ذوى النزعات، ويستغل ذوى النزغات ثم يصيد بالحيلة والذكاء جمهوراً من الدهماء، مستغلاً فيهم الثقة العامّة التى اكتسبها بنفاقه وبعض العواطف التى تحركهم، فيؤثر فيهم بأفكاره وآرائه ودسائسه، وقد يحرّك عواطفهم ويلهب مشاعرهم، ويجمّعهم حوله، وينسج عليهم خيوطه، حتى يكونوا له أتباعًا، يحركهم بإرادته كما تتحرّك الدُّمى[1].

---

(١) غزو فى الصميم (١٨٧، ١٨٨). لعبد الرحمن حسن حبنكة.

هذه توطئـة هامة للدخـول فى موضوع هـذه الشخصية، شـخصيـة: «الجلاس بن سويد» ذلكم المنافق.. الذى كان يؤذى النبى -ﷺ- ويستخفى من الناس ولا يسـتـخـفى من الله وهـو مـعـه إذ يُبـيِّـت مـا لا يَرْضى من القول!!!.

لقد كان أحد أعضاء جمـاعة المنافقين فى عهد النبوة.. الذين تفننوا فى الكيد للإسلام وللمسلمين.. فأظهر الله أمرهم.. وفضح أسرارهم.

ويذكر لنا أهل التاريخ والسير:

أن الجـلاس بن سويـد كـان يجالس أهـل النفـاق ويـؤذون رسـول الله -ﷺ- بالكلام فيه، ويقولون:

﴿هُوَ أُذُنٌ﴾(١)!!.

أى: من قال له شيئًا صدقه فينا ومن حدثهُ صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدّقنا(٢).

فكان أحدهـم يبسط لسانه بالوقيعة فى أذيَّة النبىِّ -ﷺ- ويقول:

«إن عاتبنى حلفتُ له بأنى ما قلتُ هذا فيقبله؛ فإنه أُذُنٌ سامعة»(٣).

فأنزل الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤).

قال الإمام القرطبى فى «تفسيره»:

وهذه الآية نزلت فى «عتّاب بن قُشَير»، قال:

---

(١) سورة التوبة: ٦١.
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٠).
(٣) تفسير القرطبى (٨/ ١١٨).
(٤) سورة التوبة: ٦١.

إنما محمد أُذُن يقبل كل ما قيل له.

وقيل: هو «نبتل بن الحارث»[١]؛ قاله ابن إسحاق.

وكان نبتل رجلاً جسيمًا ثائر شعر الرأس واللحية، آدم أحمر العينين أسفع الخدين مشوّه الخِلقة، وهو الذى قال فيه النبى -ﷺ-:

«**من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث**»[٢].

السّفعة (بالضم): سواد مُشْرب بحمرة. والرجل أسفع؛ عند الجوهرى.

وذكر الإمام النيسابورى[٣]: أن الآية نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون الرسول ويقولون ما لا ينبغى، قال بعضهم:

لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا.

فقال الجلاس بن سويد:

«نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعه»!!.

فأنزل الله هذه الآية:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ...﴾ الآية.

وقال السّدّى:

اجتمع ناس من المنافقين فيهم «جلاس بن سويد» و«وديعة بن ثابت» فأرادوا أن يقعوا فى النبى -ﷺ- وعندهم غلام من الأنصار يدعى «عامر بن قيس» فحقروه فتكلموا، وقالوا:

«لئن كان ما يقوله محمد حقًّا لنحن أشرّ من الحمير!!».

ثم أتى النبىّ -ﷺ-[٤] فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا أن عامراً كاذب، وحلف عامر أنهم كذبة، وقال:

---

(١) أسباب النزول للسيوطى (٤٥١).

(٢) تفسير القرطبى (٨/١١٨)، وأسباب النزول للنيسابورى (١٤١).

(٣) أسباب النزول (١٤١).

(٤) أى الغلام.

«اللهم لا تفرّق بيننا حتى تبيّن صدق الصادق من كذب الكاذب».

فنزلت فيهم:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ...﴾ الآية، ونزل قوله تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1].

قال قتادة فى قوله تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية، قال:

ذُكر لنا أن رجلاً من المنافقين، قال:

والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقًّا، لهم شرّ من الحمير!.

قال: فسمعها رجل من المسلمين، فقال:

والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشرّ من الحمار.

قال: فسعى بها الرجل إلى النبىّ -ﷺ- فأخبره..

فأرسل إلى الرجل فدعاه، فقال:

«ما حملك على الذى قلت؟».

فجعل الرجل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: «اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب».

فأنزل الله هذه الآية[2].

مما سبق يتبين لنا أن النفاق أشد خطرًا وأعظم جُرمًا من الكفر ذاته. فاستحقَ أهله أشد الوعيد:

---

(١) سورة التوبة: ٦٢.

(٢) تفسير ابن كثير (١/٥٧١).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾[١].

وذلك لأنهم:

يسبحون فى كل مستنقع.. ويميلون مع كل ريح.. ويغزلون بكل مغزل.. ويلعبون على كل حيل.. يزنون بميزانين.. ويكيلون بمكيالين..

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[٢].

فيا حسرة على المنافقين.. ماذا كسبوا؟.. وماذا جنوا؟!

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[٣].

وبعد هذا الموقف المشين.. وهذا الخزى العظيم.. الذى لحق بالجلاس ابن سويد ومن معه.. قلبتُ صفحات التاريخ[٤].. فلم نجد له بعد ذلك ذِكْرًا!!

لقد سقطه من ذاكرته.. بعد أن سقط من عين الله.. جزاءً وفاقًا.. فلا ندرى فى أى أرض بعد ذلك عاش.. ولا فى أى أرض مات!! ولا فى أى أودية الدنيا هلك!.

لكن بقيت الآيات التى نزلت فيه تُتْلى آناء الليل وأطراف النهار.. فهل يتعظ أمثاله؟!!.

أسباب النزول

● قال الإمام السيوطى فى «الدر المنثور»[٥]:

---

(١) سورة النساء: ١٤٥.
(٢) سورة النساء: ١٤٢، ١٤٣.
(٣) سورة المائدة: ٨٠.
(٤) فى المصادر التى بين يدىّ.
(٥) الدر المنثور (٤/ ٢٢٧).

أخرج ابن أبى حاتم عن السّدّى، قال:

اجتمع ناس من المنافقين فيهم «الجلاس بن سويد بن الصامت» و«جحش بن حمير» و«وديعة بن ثابت» فأرادوا أن يقعوا فى النبىّ -ﷺ-، فنهى بعضهم بعضًا، وقالوا:

إنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم.

وقال بعضهم:

«إنما محمد أُذُن نحلف له فيصدّقنا». فنزل:

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

● وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: كان «نبتل بن الحارث» يأتى رسول الله -ﷺ- فيجلس إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذى قال لهم:

«إنما محمد أُذُن من حدَّثه شيئًا صدقه» فأنزل الله فيه:

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ... ﴾ الآية(٢).

قلت: فالآية نزلت فى جماعة من المنافقين منهم: «الجلاس بن سويد»، و«جحش بن حمير»، و«وديعة بن ثابت» و«نبتل بن الحارث».

دروس وعبر من أسباب النزول

يقول صاحب «الظلال» -رحمه الله تعالى-، فى ظلال قوله تعالى:

---

(١) سورة التوبة: ٦١.

(٢) نفس المرجع.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(١).

قال -رحمه الله تعالى-:

«إنه سوء الأدب فى حق الرسـول، يبدو فى صـورة أخرى غيـر صورة اللمز فى الصدقـات. إنهم يجدون من النبى -ﷺ- أدبًا رفيعًا فـى الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة، ويعاملهم بظاهرهم حسب أصول الشريعة؛ ويهش لهم ويفسح لهم من صدره. فيسمّون هذا الأدب العظيم بغير اسمه، ويصفونه بغير حقيـقته، ويقولون عن النبى -ﷺ-: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أى سمّاع لكل قول، يجوز عليه الكذب والخداع والبـراعة، ولا يفطن إلى غشٍّ القول وزوره. من حلف له صدّقه، ومن دسّ عليه قولاً قبله..

يقولون هذا بعـضهم لبـعض تطمينًا لأنفسـهم أن يكشف النبىّ -ﷺ- حقيقة أمـرهم، أو يفطن إلى نفاقهم. أو يقولونه طعنًا على النبى -ﷺ- فى تصديقه للمؤمنين الخلص الذين ينقلون له ما يطلعون عليه من شؤون المنافقين وأقوالهم عن الرسول وعن المسلمين.

وقد وردت روايات بهذا وذلك فى سـبب نزول الآية.. وكلاهما يدخل فى عمومها. وكلاهما يقع من المنافقين.

ويأخذ القرآن الكريم كلامهم ليجعل منه ردًا عليهم:

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾..

نعم.. ولكن:

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾..

---

(١) سورة التوبة: ٦١، ٦٢.

أُذُن خير يستمع إلى الوحى ثم يبلغه لكم وفيه خيركم وصلاحكم.. وأذن خير يستمع إليكم فى أدب ولا يجبهكم بنفاقكم، ولا يرميكم بخداعكم، ولا يأخذكم بريائكم.

﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾.

فيصدق كل ما يخبره به عنكم وعن سواكم.

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾..

فيطمئن إليهم ويثق بهم، لأنه يعلم منهم صدق الإيمان الذى يعصمهم من الكذب والالتواء والرياء.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾.

يأخذ بيدهم إلى الخير.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾..

من الله غيرة على الرسول أن يؤذى وهو رسول الله.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يحلفون بالله لكم ليرضوكم، على طريقة المنافقين فى كل زمان، الذين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من وراء الظهور، ثم يجبنون عن المواجهة، ويضعفون عن المصارحة، فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم.

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾..

فماذا يكون الناس؟

وماذا تبلغ قوتهم؟

ولكن الذى لا يؤمن بالله عادة ولا يعنو له، يعنو لإنسان مثله ويخشاه؛ ولقد كان خيراً أن يعنو لله الذى يتساوى أمامه الجميع، ولايذل من يخضع له، إنما يذل من يخضع لعباده، ولا يصغر من يخشاه، إنما يصغر من يعرضون عنه فيخشون من دونه من عباد الله».

[١٣] وديعة بن ثابت
«المشؤوم الذى لم يقبل الله عُذْره!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ولَئِن سأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وآيَاتِهِ ورَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[١].

فمن هو وديعة بن ثابت؟:

هو: أحد المنافقين الأُول الذين سخروا من حملة القرآن واستهزءوا بأهل الإيمان، فكفَّرهم الله وجعلهم سلفًا ومثلاً للآخرين قلنا فى أكثر من موطن: إن وسيلة النفاق من أخطر الوسائل وأكثرها مكراً وكيداً، وأقدرها على الإفساد والتحريف، مع تجنّب الصدام مع قوى الجهة المرادة بالكيد.

وحين تكون عداوة العدوَ ظاهرة مكشوفة، فإن الناس يتخذونه عدواًّ، فيتعاملون معه على هذا الأساس، يحذرونه ويتقونه، ولا يُصدِّقون أقواله، ويشكّون فى نصائحه إن نصحهم بشىء، ويتهمونه فى انتقاداته، ويعلمون أن شتائمه الظاهرة أو المتوارية التى يوجهها ضدّهم، إنما يقذف بها من مخازن العداوة والبغضاء لديه، فلا تخرجهم من مواقعهم الفكرية والاعتقادية والخلقية والعملية، ولا توهن عزائمهم فى التمسك بها، بل قد تثبتهم وتشدّ عزائمهم، ثم تولّد لديهم دوافع الانتقام والمغالبة والمقاتلة وردّ الكيد بمثله، وهذه الدوافع تزيد فى ثباتهم وإصرارهم على مواقعهم.

---

(١) سورة التوبة: ٦٥، ٦٦.

لكن حين يكون هذا العدوّ كاتمًا لعداوته، متظاهرًا بمودّته، مُنْدسًّا فى صفوفهم كأنه منهم، يلبس لباس الانتماء، ويداهن بالنصرة والولاء، فإن الناس يتخذونه حينئذ أخًا وليًّا، وكلّما برع فى إخفاء عداوته والمداهنة بمودّته تدلّى إلى قلوبهم، فاستخلصوه، فكان عندهم صفيًّا.

وحينئذ تنام عنه عيون الحذر والاتهام، فيأمنونه ولا يتّقون غوائله، ويصدّقون أقواله، ويرونه فى نصائحه مخلصًا، وإذا انتقدهم بشىء لم يتهموه فى أهدافه ومقاصده، وإذا طرح بينهم أفكارًا جديدة حسبوه مجتهدًا فى الرأى باحثًا عن الحقيقة، سواءٌ أكان فيها من وجهة نظرهم مصيبًا أو مخطئًا.

وهو بهذه الثقة التى اكتسبها يستطيع كيدهم، فيدسّ بينهم بمكر شديد، وخبث عظيم، أفكارًا وعقائد ومفاهيم وأنماط سلوك يجعلها تتسلل إليهم ببطء شديد، وتتدرّج تدرّجًا وفق طبائع الأشياء فى تحوّلاتها وتغيّراتها التدريجية التى تمرّ دون إثارة، ودون أن تلتفت إليها الأنظار، حتى يصل إلى أهدافه كلها أو بعضها، من دسّ وتشويه وتحريف وإفساد من الداخل.

وحين يستعصى عليه القادة وأهل الفكر، فإنه يستطيع أن يجمع حوله بعض أهل الأهواء، ومن فى نفوسهم نزعات أو نزغات، فيرضى أهواءهم، ويطمع ذوى النزعات، ويستغلّ ذوى النزغات. ثم يصيد بالحيلة والذكاء جمهورًا من الدهماء، مستغلاً فيهم الثقة العامّة التى اكتسبها بنفاقه وبعض العواطف التى تحركهم فيؤثر فيهم بأفكاره وآرائه ودسائسه، وقد يُحرّك عواطفهم ويلهب مشاعرهم، ويجمّعهم حوله، وينسج عليهم خيوطه، حتى يكونوا له أتباعًا.

كان المنافقون الأوائل يستخدمون هذه الحيل ولكن الله تعالى كشفهم لنبيّه -ﷺ- وحدّد له مواقعهم.. وأعلمه بتحركاتهم.. فكان يعرفهم بسيماهم.. وبث لحذيفة بن اليمان أسماءهم فردًا فردًا فكان -رضي الله عنه- صاحب سِرّ رسول الله -ﷺ- فى ذلك.

قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[1].

وكان «وديعة بن ثابت» أحد المنافقين الذين كشفهم القرآن فى عصر النبوة.. وأخرج أضغانهم.. وأظهر سرائرهم.. فأورثه ذلك معرةً فى الدنيا ومضرة فى الآخرة.. وما الله يريد ظلمًا للعباد.

ما هى قصته؟:

قال ابن إسحاق:

.. وقد كان جماعة من المنافقين منهم «وديعة بن ثابت» أخو بنى أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له «مخشى بن حمير» يسيرون مع رسول الله -ﷺ- وهو منطلق إلى تبوك. فقال بعضهم لبعض:

أتحسبون جلاد بنى الأصفر[2] كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرّنين فى الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين.

فقال مخشى بن حمير:

«والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه».

وقال رسول الله -ﷺ- فيما بلغنى لعمّار بن ياسر:

«أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عمّا قالوا فإن أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا».

---

(١) سورة محمد: ٢٩، ٣٠.

(٢) أى: الروم.

فانطلق إليهم «عمّار» فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله -ﷺ- يعتذرون إليه.

فقال «وديعة بن ثابت» ورسول الله -ﷺ- واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها:

يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب!

فقال مَخْشِيّ بن حُمَيِّر:

«يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى».

فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية[1] «مخشىّ بن حميـر» فتسمّى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقـتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم «اليـمامة» ولم يوجد له أثرا!.

وذكر الطبرى عن عبد الله بن عمر، قال:

رأيتُ قائل هذه المقالة «وديعة بن ثابت» متـعلّـقًا بحَقَب ناقة رسول الله -ﷺ- يماشيها والحجارة تنكبه وهو يقول:

«إنما كنا نخوض ونلعب».

والنبىّ -ﷺ- يقول:

﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[2].

(١) أى فى قوله تـعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [سورة التوبة: ٦٥، ٦٦]. قـال القرطبى: «واختلف فى اسم هذا الرجل الذى عُفِىَ عنه على أقوال. فقيل: مَـخْشِيّ بن حُمَيِّر. وقال خليفة فى تاريخـه: اسمه مخاشن ابن حميّر... وذكر جميعهم أنه استُشهد باليمامة، وكان تاب وسُمّى عبد الرحمن، فدعا الله أن يُقتل شهيداً ولا يُعلم بقـبره. واختلف هل كان منافقًا أو مسلمًا فـقيل: كان منافقًا ثم تاب. وقيل: كان مسلمًا، إلا أنه سمع المنافقين فضحك لهم ولم يُنكر عليهم!!».

(٢) تفسير القرطبى (٨/ ١٢٢).

وقال أبو معشر المدينى عن محمد بن كعب القرظى وغيره، قالوا:

قال رجل من المنافقين:

ما أرى قـرّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة وأجـبننا عند اللقاء (يقصـدون قراء القرآن) فـرفع ذلك إلى رسول الله -ﷺ- فجـاء إلى رسول الله -ﷺ- وقـد ارتحل وركب ناقتـه فـقال: يا رسـول الله إنما كنا نخـوض ونلعب. فقال: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ إلى قوله: ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[1]. وإن رجليه لتسعفان الحـجارة، وما يلتفت إليـه رسول الله -ﷺ- وهو متعلـق بسيف رسول الله -ﷺ-، هذه رواية أخرى أبهمت اسم القائل ولعله هو نفسه أو غيـره فالله أعلم. هذا، وإن كانت الآيات قد نزلت فى «وديعة» كما ذُكر، فإن النصّ عام يحذر المنافقين أن ينزل الله قرآنًا يكشف خبيثتهم، ويتحدث عمّا فى قلوبهم، فينكشف للناس ما يخبئونه.

ولم يذكر التاريخ لنا شيئًا كثيراً عن حياة «وديعة» واكتفى القرآن العظيم بالتقاط هذه الصورة القاتمة السوداء من حياة هذ الشقى التى رسمت رحلته فى هذه الحياة وحدّدت مصيره بعد الممات. نعوذ بالله من الخذلان.

أسباب النزول

أخرج ابن مَرْدُويه عن ابن عباس، قال:

نزلت هذه الآية:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[2].

فى رهط من المنافـقين من بنى عمرو بن عـوف، فيهـم وديعة بن ثابت

(١) سورة التوبة: ٦٥، ٦٦.

(٢) سورة التوبة: ٦٥.

ورجل من أشجع حليف لهم يقال له: «مخشىّ بن حميّر» كانوا يسيرون مع رسول الله -ﷺ- وهو منطلق إلى «تبوك» فقال بعضهم لبعض:

أتحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم؟ والله لكأنا بكم غداً تقادون فى الحبال.

قال مخشى بن حمير: لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منكم مائة على أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن.

فقال رسول الله -ﷺ- لعمار بن ياسر:

«أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عمّا قالوا، فإن هم أنكروا وكتموا فقل: بلى قد قلتم كذا وكذا».

فأدركهم فقال لهم، فجاءوا يعتذرون، فأنزل الله:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[1].

فكان الذى عفا الله عنه «مخشى بن حميّر» فتسمّى «عبد الله» وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله. فقتل باليمامة لا يُعلم مقتله، ولا من قتله، ولا يرى له أثر ولا عين»[2].

دروس وعبر من أسباب النزول

قال الإمام القشيرى -رحمه الله تعالى- فى قوله سبحانه:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ...﴾[3].

(١) سورة التوبة: ٦٦.
(٢) الدر المنثور (٤/ ٢٣١).
(٣) سورة التوبة: ٦٥، ٦٦.

قال -رحمه الله تعالى-:

«من استهان بالدِّين، ولم يحتشم من ترك حُرْمة الإسلام جعله الله فى الحال نكالاً، وسامه فى الآخرة صغراً وإذْلالاً، والحقُّ -سبحانه- لا يرضى دون أن يذيق العُتاة بأسه، ويسقى كُلاًّ -على ما يستوجبه- كأسه»(١).

وقال القاضى أبو بكر بن العربىّ -رحمه الله تعالى-:

«لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدًّا أو هزلاً، وهو كيفما كان كفر؛ فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمّة. فإن التحقيق أخو العلم والحق، والهزل أخو الباطل والجهل. قال علماؤنا:

انظر إلى قوله تعالى:

﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٢)(٣).

---

(١) لطائف الإشارات (٢/ ٤٣).

(٢) سورة البقرة: ٦٧.

(٣) أحكام القرآن (٢/ ٥٤٣).

[١٤] عَبْد الله بن أُبىّ بن سَلول
«زعيمُ المنافقين»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾(١).

فمن هو عبد الله بن أُبى؟:

هو: عبد الله بن أُبىّ بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم ابن غَنْم بن عوف بن الخزرج المعروف بابن سلول، وسلول الخزاعية هى والدة أُبىّ المذكور..

كان عبد الله بن أبى الرأس المدبر للمؤامرات على الإسلام وأهله.. والمحرك الأول للفتن.. تعاقد مع الشيطان.. وتحالف مع اليهود.. واستخدم كل أساليب المكر والدهاء فى محاولة للقضاء على الإسلام.. فكان الله تعالى له بالمرصاد، فطاش سهمه -وخاب أملُه- وضل سعيُه وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾(٢).

صفحات سود من حياته:

امتلأت حياة هذا المنافق بمصائب.. ومؤامرات.. وضلالات لا يغطيها ليل ولا يسترها ذيل فمن ذلك:

---

(١) سورة التوبة: ٨٤.

(٢) سورة فاطر: ١٠.

التعامل بوجهين:

وفى الحديث الصحيح: **«من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة»**.

بدأ ظهور النفاق(١) فى المدينة المنورة.. وكان ابن أُبىّ أول من رفع لواء ذلك.. فلقد كان يستعد ليكون رئيسًا.. قبل هجرة النبىّ -ﷺ- إلى المدينة.. فلما هاجر الرسول إلى المدينة تحطم الأمل الذى كان يراوده.. فامتلأ غيظًا وحنقًا.. وطفح حقدًا على الدين الجديد وعلى نبيه -ﷺ-.. فتظاهر بالإسلام وتبطن الكفر والعياذ بالله. والتفّ حوله بعضُ من على شاكلته.. فالنفوس الخبيثة كما يقول ابن القيم -رحمه الله- تميل إلى ما يناسبها.. والطيور على أشكالها تقع.. وبدأ عبد الله بن أُبىّ يدربهم كالشيطان على أساليبه الماكرة فى تعامله مع المسلمين.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

نزلت هذه الآية:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(٢).

فى «عبد الله بن أبىّ وأصحابه» وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله -ﷺ- فقال عبد الله بن أُبىّ:

انظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاء عنكم!.

فذهب فأخذ بيد أبى بكر، فقال:

مرحبًا بالصديق سيّد بنى تَيْمٍ وشيخ الإسلام وثانى رسول الله فى الغار الباذل نفسه وماله!!.

ثم أخذ بيد «عمر» فقال:

(١) النفاق هو: اختلاف السر والعلانية والظاهر والباطن والمدخل والمخرج.

(٢) سورة البقرة: ١٤.

مرحبًا بسيِّد بنى عدى بن كـعب الفاروق القوىّ فى دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله -ﷺ-!!.

ثم أخذ بيد علىٌّ فقال:

مرحـبًا بابن عمّ رسـول الله وختنه سـيِّد بنى هاشم مـا خلا[١] رسول الله!!

ثم افترقوا، فقال عبد الله لأصحابه:

كيف رأيتمونى فـعلتُ؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كمـا فعلتُ! فأثنوا عليه خيرًا!!!

فرجع المسلمـون إلى رسول الله -ﷺ- وأخبـروه بذلك فأنزل الله هذه الآية[٢].

موالاته لليهود:

من آفات النفاق أن صـاحبه لا يجد حرجًا من موالاة أى كـائن يساعده على تحقيق أهدافه والوصـول إلى أغراضه.. ولو تطلب منه أن يضع يده فى يد الشيطان!!.. المهم هو الوصول إلى بغيته وليكن ما يكون! وهذا هو ديدن المنافقين فى كل زمان.. يوالون من حادّ الله ورسـوله.. ويتحالفون مع قوى الكفر فى سـبيل تحـقيق مآربهم الـدنيئة والوصـول إلى غايتهـم الخسيـسة.. فاستحقوا بذلك لعائن الله وعذابه:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾[٣].

والقرآن العظيم نعى عليهم ذلك فى مواطن كثيرة:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

---

(١) ما خلا: أى ما عدا.

(٢) أسباب النزول للنيسابورى (١٦).

(٣) سورة النساء: ١٤٥.

الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(١).

وقال عطية العوفى:

جاء عبادة بن الصامت -رضي الله عنه-، فقال:

يا رسول الله إن لى موالى من اليهود كثير عددُهم حاضر نصرُهم وإنى أبوء إلى الله ورسوله من ولاية اليهود، وآوى إلى الله ورسوله.

فقال عبد الله بن أُبيّ:

إنى رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية اليهود!

فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

«يا أبا الحباب ما تجلب به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه».

وقال: قد قبلتُ.

فأنزل الله تعالى فيهما:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾(٢)(٣).

وقال محمد بن إسحاق:

كانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بنو قينقاع، فحدثنى عاصم بن عمرو بن قتادة، قال:

---

(١) سورة الحشر: ١١.

(٢) سورة المائدة: ٥١، ٥٢.

(٣) أسباب النزول للنيسابورى (١١٣).

فحاصرهم رسول الله -ﷺ- حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه «عبد الله بن أبى بن سلول» حين أمكنه الله منهم، فقال:

يا محمد أحسن فى موالى.

قال: فأعرض عنه.

قال: فأدخل يده فى جيب درع رسول الله -ﷺ-، فقال له رسول الله: «أرسلنى»؛ وغضب رسول الله -ﷺ- حتى رأوا لوجهه ظللاً؛ ثم قال:

«ويحك أرسلنى».

قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعونى الأحمر والأسود، تحصدنى فى غداة واحدة إنى امرؤ أخشى الدوائر، قال:

فقال رسول الله -ﷺ-: «هم لك!!».

قال محمد بن إسحاق:

فحدثنى أبى إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله -ﷺ- تشبث بأمرهم عبد الله بن أبىّ، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله -ﷺ- وكان أحد بنى عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذى لعبد الله بن أبىّ، فجعلهم إلى رسول الله -ﷺ-، وتبرأ إلى الله ورسوله من حِلْفهم، وقال:

يا رسول الله، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حِلْف الكفار، وولايتهم، فـفيه وفى عبد الله بن أبى نزلت الآيات فى «المائدة»:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[١][٢].

وبلا شك أن موالاة عبد الله بن أبى لليهود كان لها أكبر تأثير على حياته فازداد بها ضلالاً على ضلاله.

روى الإمام أحمد عن أسامة بن زيد -رضي الله عنه-، قال:

دخلتُ مع رسول الله -ﷺ- على عبد الله بن أُبيّ نعوده[٣]، فقال له النبى -ﷺ-:

«قد كنتُ أنهاك عن حُبّ يهود؟».

فقال عبد الله: فقد أبغضهم «أسعد بن زرارة»[٤] فمات!![٥].

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره لأسباب نزول هذه الآيات:

«ينهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله -قاتلهم الله- ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعّد من يتعاطى ذلك؛ فقال:

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ الآية.

وروى ابن أبى حاتم عن عياض، أن عمر -أى ابن الخطاب- أمر أبا موسى الأشعرى -رضي الله عنه- أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى فى أديم واحد، وكان له كاتب نصرانى، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر، وقال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارئ لنا كتابًا فى المسجد جاء من الشام؟

فقال: إنه لا يستطيع؛ فقال عمر:

---

(١) سورة المائدة: ٥١-٥٦.
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١١٠).
(٣) أى: نزوره فى مرضه.
(٤) انظر: ترجمته فى كتابنا «صور ومواقف من حياة الصحابة» ط. المكتبة التوفيقية.
(٥) مسند أحمد (٥/ ٢٠١).

أجُنُب هو؟

قال: لا. بل نصرانى.

قال: فانتهرنى وضرب فخذى، ثم قال:

أخرجوه؛ ثم قرأ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴾ الآية.

ثم قال: حدثنا محمد بن الحسن بن محمد الصباح، حدثنا عثمان بن عمر؛ أنبأنا أبو عوف عن محمد بن سيرين، قال:

قال عبد الله بن عتبة:

ليتق أحدكم أن يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا وهو لا يشعر.

قال: فظنناه يريد هذه الآية:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴾ الآية(١).

إدارته لشبكات الدعارة!!:

قلنا: إن أهل النفاق يستخدمون كل حيلة ووسيلة فى سبيل الوصول إلى أغراضهم وأهدافهم.

فلا يقيمون للفضيلة وزنًا.. ولا للأخلاق اعتبارًا!!.

روى البزار عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال:

كانت جارية لعبد الله بن أبى، يقال لها «معاذة» يكرهها على الزنا، فلمّا جاء الإسلام نزلت:

﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (١٠٨/٢).

(٢) سورة النور: ٣٣.

وروى أبو داود الطيالسى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- :

أن جارية لعبد الله بن أبىّ كانت تزنى فى الجاهلية فولدت أولادًا من الزنا، فقال لها:

ما لك لا تزنين؟

قالت: والله لا أزنى، فضربها!! فأنزل الله عز وجل:

﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾.

وقال السّدّى:

أنزلت هذه الآية الكريمة فى «عبد الله بن أبىّ بن سلول» رأس المنافقين وكانت له جارية تدعى «معاذة» وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له!!. فأقبلت الجارية إلى أبى بكر -رضي الله عنه- فشكت إليه ذلك فذكره أبو بكر للنبى -ﷺ- فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أُبىّ: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا[١].

قال ابن كثير:

قوله تعالى: ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ الآية، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزنى، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة، فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف فى شأن عبد الله بن أبى بن سلول، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلبًا لخراجهن، ورغبة فى أولادهن ورياسة منه فيما يزعم[٢].

وفى «الصحيحين»:

«نهى رسول الله -ﷺ- عن كسب الحجّام، ومهر البغى، وحلوان الكاهن».

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٢).
(٢) نفس المرجع (٣/ ٢٦١).

وفى رواية: «مهر البغى خبيث، وكسب الحجّام خبيث، وثمن الكلب خبيث»(١).

فانظر أخى القارئ كيف يتحالف المنافق مع الشيطان.. لإشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا.. وإذا كان الشيطان كما ذكر القرآن ﴿يأمر بالفحشاء﴾ فالمنافق كذلك رأسًا برأس.

دوره فى حادث الإفك:

فى الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التى تصيب العدو، وإن كان بعضها يستحى من استخدامه الرجل الشريف!.

وقد لجأ المنافقون فى «المدينة» إلى مناوأة النبى -ﷺ- ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد، ويغلب عليها الضعف، أسلوب الغمز واللمز والتعريض حينًا، والإفك والافتراء حينًا آخر.

وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضغنًا وحقدًا وتربصًا بهم.

وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنهم الرسول -ﷺ- بالجلاء، فلمّا لم يُقف مد الإسلام شيء، ولم تهده هزيمة. وأخذت القبائل العادية تختفى واحدة تلو أخرى، التحق أولئك المنافقون لصفوف المسلمين، ولم تنكشف نياتهم السوء إلاّ على فلتات الألسنة ومزالق الطباع. فكانت سيرتهم تلك مثار فتن شداد تأذى منها رسول الله والمؤمنون شيئًا غير قليل.

وظهر ذلك جليًا فى غزوة «بنى المصطلق» فإن الأنباء أتت الرسول -ﷺ- بأن هذه القبيلة تجمع له وتستعد لقتاله وأن سيدها «الحارث بن أبى ضرار» قد استكمل عدته لهذا المسير فسارع رسول الله -ﷺ- بالمسلمين ليطفئ الفتنة قبل اندلاعها.

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٢٦٦) وغيره.

وخرج مع الرسول -ﷺ- هذه المرة جمع من المنافقين لم يعتادوا الخروج قبلاً. ولعل ثقتهم بانتصار محمد -ﷺ- أغرتهم بالذهاب معه، ابتغاءً للدنيا لا انتصاراً للدين.

وانتهى المسلمون إلى ماء يسمى «المريسيع» اجتمع لديه بنو المصطلق، فأمر رسول الله -ﷺ- «عمر بن الخطاب» أن يعرض الإسلام على القوم.

فنادى عمر فيهم:

قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم! فأبوا وترامى الفريقان بالنبل.

ثم أمر الرسول -ﷺ- صحابته فحملوا عليهم حملة رجل واحد. فلم يفلت من المشركين أحد. إذ وقعوا جميعًا أسرى بعد ما قُتل منهم عشرة أشخاص ولم يستشهد من المسلمين إلا رجل واحد قُتل خطأً. وسقطت القبيلة -بما تملك- في أيدي المسلمين.

على أن هذا النصر الميسر شابه من أعمال المنافقين ما عكّر صفوه وأنسى المسلمين حلاوته، فإن خادمًا لعمر كان يستقى له من ماء المريسيع، ازدحم مع مولًى لبنى عوف بن الخزرج، وكادا يقتتلان على الورود -شأن الخدم الطائشين- فصاح الأول:

يا للمهاجرين.

وصاح الآخر:

يا للأنصار!

واستمع إلى صياح الأتباع «عبد الله بن أبيّ» وكان فى رهط من قومه، فرأى الفرصة سانحة لإثارة حفائظهم وإحياء ما أماته الإسلام من نُعرات الجاهلية، فقال:

أو قد فعلوها؟ نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليُخرجن الأعز منها الأذل.

ثم أقبل على قومه -ولم تزل له فيهم بقية وجاهة- يلومهم ويحرّضهم على التنكر للرسول -ﷺ- وصحبه.

فذهب «زيد بن أرقم» إلى النبيّ -ﷺ- يقص عليه الخبر وأسرع ابن أُبيّ إلى رسول الله -ﷺ- يُبَرِّئ نفسه وينفى ما قاله!.

ورأى الحاضرون أن يقبلوا كلام ابن أبيّ رعاية لمنزلته وقالوا: الغلام - يعنون: زيد بن أرقم- أوهم، ولم يحفظ ما قيل على أن الحقيقة لم تفت النبيّ -ﷺ- فأحزنه ما وقع ووجد خير علاج له شغل الناس عنه حتى يعفى على آثاره، فأصدر أمره بالارتحال فى ساعة ما كان يروح فى مثلها، ومشى الناس سائر اليوم حتى أمسوا، وطيلة الليل حتى أصبحوا، وصدر يومهم الجديد حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بهم.

فما إن وجدوا مسّ الأرض حتى وقعوا نيامًا، وتابع الرسول -ﷺ- رواحه حتى عاد إلى المدينة.

ونزلت سورة المنافقون، وفيها تصديق ما روى زيد بن أرقم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

لم يدر بخاطر أحد أن هذه الأوبة المتعجلة سوف تتمخض عن أكذوبة دنيئة يحيك أطرافها «عبد الله بن أبيّ» ثم يرمى بها بين الناس، فتسير مسير الوباء الفاتك.

إن هذا الرجل حلف كاذبًا بعد أن أنكر مقالته الثابتة ولو أن الجبان ذهب يطلب النجاة من عقباها، لكان ذلك أجدى عليه، لكنه لم يزدد -على السماح الذى قُوبل به- إلاّ خسّة وخصامًا والبون بعيد بين أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله.

لقد كان «أبو جهل» خصمًا لدودًا لكل من دخل فى هذا الدين، وكان

(١) سورة المنافقون: ٨.

طاغية عنيداً لا تنتهى لجاجته، إلا أنـه كان كالضبع المفترس لا يحسن الالتواء والوقيعة، حمل السيف فى وضح النهار، وما زال يقاتل به حتى صُرِع.

أما عـبد الله بن أبىّ، فـقد اختـفى كالعـقرب الخائنة، ثم شـرع يلسع الغافلين:

قبع هذا المنافق فى جنح الظلام. وبدأ ينفث الإشاعات المريبة.

وتدلى -فى غـوايته- إلى حـضيض بعـيد، فلم يُبـال أن يتهـجم على الأعـراض المصونة، وأن ينسـج حولهـا مفـتريات يندى لهـا جبين الحـرائر العفيفات.

فى عـودة الرسـول -ﷺ- من غـزوة بنى المصطلق إلـى المدينة، نبت «حديث الإفك» وشاع، واجـتهد خصوم الله ورسـوله أن ينقلوا شرره فى كل مكان قاصدين -من وراء هذا الأسلوب الجديد فى حرب الإسلام -أن يدمروا على الرسول -ﷺ- بيته وأن يسقطوا مكـانة أقرب الرجال لديه، وأن يدعوا جمهور المسلمين -بعد ذلك- يضطرب فى عماية من الأسى والغم.

وللوصول إلى هذه الغـاية، استباح ابن أبـىّ لنفسه أن يرمى بالفحـشاء سيدة لما تجـاوز مرحلة الطفولة البريئة، لا تـعرف الشّر، ولا تهم بمنكر، ولا تحسن الحياة إلا فى فلك النبوة العالى.

وهى التى تربت فى حـجر الصِّـديق وأُعـدت لصحـبة نبىّ فى الدنيـا والآخرة. وتلـقف العامة هـذا الحديث الغريـب، وهم فى غمرة الـدهشة لا يدرون مبلغ الخطر الكامن فى قبوله ونقله.

إليك سرداً لهـذا الحديث المفـتعل على لسـان السيدة التـى تعرضت له وبرئت منه:

حديث الإفك:

قالت السيدة عائشة -رضي الله عنها-:

كان رسـول الله -ﷺ- إذا أراد سـفرًا أقـرع بين نسائه فـأيتهن خـرج سهمها خرجت معه، فلمـا كانت غزوة «بنى المصطلق» خرج سهمى عليهن، فارتحلتُ معه.

قالت: وكان النسـاء إذ ذاك يأكلن العَلَق، لم يهيجهن اللحم فـيثقلن، وكنت إذا رُحِّل بعـيرى جلست فى هودجى، ثم يأتى القـوم فـيحـملونى، يأخذون بأسـفل الهودج فيـرفعونه، ثم يضـعونه على ظهـر البعيـر ويشدونه بالحبال وبعدئذٍ ينطلقون.

قالت: فلمّا فرغ رسول الله -ﷺ- من سفره ذاك توّجه قافلاً، حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلاً فبات فيه بعض الليل، ثم أذّن مؤذن فى الناس بالرحيل، فتهيئوا لذلك وخـرجتُ لبعض حاجتى، وفى عنقى عقد لى، فلمّا فرغتُ انسل من عنقى ولا أدرى، ورجعت إلى الرحل فالتـمستُ عقدى فلم أجـدْه! وقد أخـذ الناس فى الرحـيل، فعـدتُ إلى مكانى الذى ذهبتُ إليـه فالتمسـته حتى وجدته وجاء القوم الذين كانوا يُرحِّلون لى البعـير -وقد كانوا فرغـوا من إعداده- فأخـذوا الهودج وهم يظنون أنى فـيه كمـا كنتُ أصنع، فاحـتملوه فشـدّوه على البعيـر، ولم يشكّوا أنّى به. ثم أخذوا برأس البعـير وانطلقوا!!.

ورجـعتُ إلى المعسكر ومـا فيـه داع ولا مـجيب. لقـد انطلق الناس! قالت: فـتلففتُ بجلبـابى ثم اضطجعتُ فى مكانى وعـرفتُ أنى لو افتُـقدتُ لرجع الناس إلىّ فوالله إنى لمضطجعة، إذ مرّ بى «صفوان بن المعطل السلمى» وكان قـد تخلف لبعض حـاجته، فلم يبت مع الـناس، فرأى سوادى فـأقبل حتى وقف علىّ -وقـد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحـجاب- فلمّا رآنى قال:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعُـونَ﴾(١).. ظعينة رسول الله؟ -وأنا متلففة فى ثيابى!!-.

---

(١) سورة البقرة: ١٥٦.

ما خلَّفك يرحمك الله؟

قالت: فما كلمتُه، ثم قرب إلىّ البعير فقال:

اركبى، واستأخر عنى.

قالت: فركبتُ وأخذ برأس البعير منطلقًا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتُـقدتُ حتى أصبحتُ ونزلوا، فلمّـا اطمأنوا طلع الرجل يقود بى البعير، فقال أهلَ الإفك ما قالوا.

وارتج العسكر ووالله ما أعلم بشىء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيتُ شكوى شديدة، وليس يبلغنى من ذلك شىء، وقـد انتهى الحديـث إلى رسول الله -ﷺ- وإلى أبوىّ، وهم لا يذكرون لى منـه كثيـراً ولا قليلاً. إلا أنى قـد أنكرتُ من رسول الله -ﷺ- بعض لطفه بى فى شكواى هذه.

فـأنكرتُ ذلك منه، كـان إذا دخل علـىّ وعندى أمّى تُمَـرِّضنى قـال: «كيف تيكم؟».

لا يزيد على ذلك.

قالت: حتى وجدتُ فى نفسى -غـضبتُ- فقلت: يا رسول الله -حين رأيتُ ما رأيتُ من جفائه لى-:

لو أذنتَ لى فانتقلتُ إلى أُمِّى؟

قال: «لا عليك».

قالت: فـانقلبتُ إلى أُمِّى ولا علم لى بشىء مما كان، حـتى نقهت من وجعى بـعد بضع وعشـرين ليلة، وكنا قـومًا عربًا، لا نـتخذ فى بيـوتنا هذه «الكنف[١]» التى تتخذها الأعاجم، نعافـها ونكرهها، إنما كنا نخرج فى فسح المدينة، وكانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن.

---

(١) الكنف: دورات المياه.

فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعـى أم مسطح، فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت:

تعس مسطح؟

فقلت: بئس -لعمر الله- ما قلتِ لرجل من المهاجرين شهد بدرًا!!!.

قالت: أوَ ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟

قلتُ: وما الخبر!

فأخبرتنى بالذى كان من أهل الإفك.

قلتُ: أوَ قد كان هذا؟!.

قالت: نعم. والله لقد كان!

قالت عائشة: فوالله ما قدرتُ على أن أقضى حاجتى. ورجعتُ، فوالله ما زلتُ أبكى حتى ظننتُ أن البكاء سيصدع كبدى وقلت لأمى:

يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئًا؟

قالت: أى بنية، خفّفى عنك فوالله لقلَّ ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبّها، ولها ضرائر، إلاَّ أكثرن وكثر الناس عليها.

قالت: وقد قام رسول الله -ﷺ- فخطبهم -ولا أعلم بذلك- فـحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أيهـا الناس.. مـا بال رجال يؤذونـنى فى أهلى ويقـولون عليـهم غيـر الحق؟ والله ما علمتُ عليهم إلاَّ خيراً. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمتُ منه إلا خيراً ولا يدخل بيتًا من بيوتى إلا وهو معى!».

قالت: وكان كِبَر ذلك عند «عبد الله بن أبىّ» فى رجال من الخزرج مع الذى قال: «مسطح» و«حمنة بنت جحش» وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله -ﷺ- ولم تكن امرأة من نسائه تناصينى[1] فى المنزلة عنده غيرها.

---

(١) تناصينى: تساوينى.

فأمّا زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلاّ خيراً.

وأما حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارنى بأختها.

فلما قال رسول الله -ﷺ- تلك المقالة، قال أسيد بن حُضَير(١):

يا رسـول الله.. إن يكونوا من «الأوس» نـكفكهم، وإن يكـونوا من إخواننا «الخزرج» فمرنا أمرك، فوالله إنهم لأهل أن تُضرب أعناقهم.

فقام سعد بن عبادة -وكان قبل ذلك يُرى رجلاً صالحًا- فقال:

كذبت لعمر الله، ما تُضـرب أعناقهم، إنك ما قلت هذه المقالة إلا وقد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلتَ هذا.

فقال أُسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.

وتساور الناس حتى كاد يكـون بين هذين الحيين شرّ، ونزل رسول الله -ﷺ-، فـدخل علىّ ودعـا «علىّ بـن أبى طالب» و«أسـامـة بن زيد» فاستشارهما.

فأمّا أسامة فأثنى خيراً ثم قال:

يا رسـول الله.. أهلك، ومـا نعلم منهم إلاّ خـيـراً، وهذا الكذب والباطل!.

وأمّا علىّ فقال:

يا رسول الله إن النسـاء لكثيـر. وإنك لقادر على أن تسـتخلف، وسل الجارية فإنها تصدقك.

فدعا رسول الله -ﷺ- «بريرة» يسألها، وقام إليهـا علىّ فضربها ضربًا شديدًا وهو يقول:

اصدقى رسول الله! فتقول:

---

(١) انظر ترجمته -رضي الله عنه- فى كتابنا «صور ومواقف من حياة الصحابة» ط. المكتبة التوفيقية.

والله ما أعلم إلا خيراً وما كنت أعيب على عائشة، إلا أنى كنتُ أعجن عجينى، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه فتأتى الشاة، وتأكله!!.

قالت: ثم دخل علىّ رسول الله وعندى أبواى، وعندى امرأة من الأنصار وأنا أبكى وهى تبكى، فجلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«يا عائشة.. إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقى الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس، فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده».

قالت: فوالله، إن هو إلا أن قال لى ذلك حتى قلص دمعى، فما أحس منه شيئًا، وانتظرتُ أبواى أن يجيبا عنى فلم يتكلّما!.

قالت عائشة: وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأنًا من أن يُنزّل الله فىّ قرآنًا، لكننى كنتُ أرجو أن يرى النبى -ﷺ- فى نومه شيئًا يُكَذِّب الله به عنى، لما يعلم من براءتى، أمّا قرآنًا ينزل فىّ، فوالله، لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك.

قالت: فلما لم أر أبواى يتكلمان!! قلتُ لهما:

ألا تجيبان رسول الله؟.

فقالا: والله لا ندرى بم نجيبه!.

قالت: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام. ثم قالت:

فلما استعجما علىّ استعبرتُ فبكيتُ، ثم قلتُ:

والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبداً، والله إنى لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس -والله يعلم أنى منه بريئة- لأقولن ما لم يكن ولئن أنا أنكرتُ ما يقولون لا تصدقونى.

قالت: ثم التمستُ اسم يعقوب[1] فما أذكره فقلت:

---

(١) تقصد: سيدنا «يعقوب» -عليه السلام-.

أقول قول أبو يوسف:

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾(١).

فوالله ما برح رسـول الله مجلسه حتى تغـشاه من الله ما كان يتـغشّاه، فسُجّى بثوبه ووضعت وسادة تحت رأسه.

فأمّا أنا حين رأيتُ من ذلك ما رأيتُ، فوالله ما فزعتُ وما باليتُ، وقد عرفتُ أنى بريئة وأن الله غير ظالمى.

وأمّا أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سُرِى عن رسول الله حتى ظننتُ لتخرجن أنفسُهما فَرَقًا(٢) أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس، ثم سرى عن رسول الله فجلس، وإنه لينحدر من وجهه مـثل الجُمان فى يوم شات، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول:

«أبشرى يا عائشة، قد أنزل الله عز وجل براءتك».

فقلت: الحمد لله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم الآيات:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٣).

والغريب أن الحد أقيم على من ثبتت عليهم تهمة القذف، وهم «حسان ابن ثابت» و«مسطح» و«حـمنة» أما عبد الله بن أُبى مـدبر الحملة وجرثومـتها الخفية، فإنه كان أحذر من أن يقع تحت طائلة العقاب.

لقد أوقع غيره ثم أفلت بنفسه(٤).

وفاته:

وفى سنة «تسع» من الهـجـرة.. أخـذ الله تعالى «عـبـد الله بن أُبى»

(١) سورة يوسف: ١٨.

(٢) فرقًا: أى خوفًا.

(٣) سورة النور: ١١.

(٤) فقه السيرة للغزالى.

فاستراح منه العباد والبلاد.. وَطَهُرت الأرض من رجسه ودنسه.. والله عليم حكيم.

روى النيسابورى فى «أسباب النزول»[١].

عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

سمعتُ «عمر بن الخطاب» -رضي الله عنه- يقول:

لما تُوفىّ «عبد الله بن أبى» دُعى رسول الله -ﷺ- للصلاة عليه فقام إليه، فلمّا وقف عليه تحولتُ حتى قمتُ فى صدره فقلتُ: يا رسول الله أعلى عدو الله «عبد الله بن أبى» القائل يوم كذا وكذا كذا أُعدِّد أيامه، ورسول الله -ﷺ- يتبسم حتى إذا أكثرت عليه قال:

«أخر عنى يا عمر إنى خُيِّرتُ فاخترتُ، قد قيل لى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[٢] لو علمتُ أنى إن زدتُ على السبعين غفر له لزدتُ!!!».

قال: ثم صلى -ﷺ- ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه!

قال: فعجبتُ لى وجراءتى على رسول الله -ﷺ- والله ورسوله أعلم. قال:

فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزل:

﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾[٣] الآية، فما صلى رسول الله -ﷺ- بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى.

قال المفسرون: وكلّم رسول الله -ﷺ- فيما فعل بعبد الله بن أُبى، فقال:

---

(١) أسباب النزول (١٤٦).

(٢) سورة التوبة: ٨٠.

(٣) سورة التوبة: ٨٤.

«وما يغنى عنه قميصى وصلاتى من الله، والله إنى كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه»[١].

أسباب النزول

أخرج البخارى فى «صحيحه» (٣/ ٣٨١) عن ابن عمر -رضي الله عنهما-:

أن عبد الله بن أُبى لما تُوفى جاء ابنه[٢] إلى النبىّ -ﷺ- فقال:

يا رسول الله أعطنى قميصك أكفنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له.

فأعطاه النبىُّ -ﷺ- قميصه، فقال:

«آذنى أصلى عليه».

فآذنه، فلمّا أراد أن يُصلى عليه جذبه عمر -رضي الله عنه- فقال:

أليس الله قد نهاك[٣] أن تصلى على المنافقين؟

فقال: **«أنا بين خيرتين، قال الله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾**[٤].

فصلى عليه فنزلت:

﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[٥]».

والحديث: ذكره البخارى فى مواضع من صحيحه منها (٩/ ٤٠٣)، (١٢/ ٣٨٠)، ومسلم (١٥/ ١٦٧)، والترمذى (٤/ ١١٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه، وأحمد، والنسائى وغيرهم[٦].

---

(١) قال الذهبى: «ألبسه النبىّ -ﷺ- قميصه وصلّى عليه، واستغفر له إكرامًا لولده» (سير ١/ ٣٢٢).

(٢) هو: عبد الله بن عبد الله بن أبى الصحابى الجليل.. راجع ترجمته فى كتابنا: «صور ومواقف من حياة الصحابة» ط. المكتبة التوفيقية.

(٣) محصل الجواب «أن عمر فهم من قوله ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ﴾ منع الصلاة عليهم فأخبره النبى -ﷺ- ألا منع وأن الرجاء لن ينقطع» ا.هـ. فتح.

(٤) سورة التوبة: ٨٠.

(٥) سورة التوبة: ٨٤.

(٦) الصحيح المسند من أسباب النزول (١١٠).

دروس وعبر من أسباب النزول

أمر الله تعالى رسوله -ﷺ- أن يبرأ من المنافقين وأن لا يُصلى على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه وهذا حكم عام فى كل من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية فى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين.

أخرج أحمد عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه، قال:

كان رسول الله -ﷺ- إذا دُعى إلى جنازة سأل عنها، فإن أثنى عليها خيرًا قام فصلى عليها، وإن كان غير ذلك، قال لأهلها: «**شأنكم بها**».

ولم يصلِّ عليها[1].

وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لا يُصلِّى على جنازة من جهل حاله حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله -ﷺ-، ولهذا كان يقال له:

صاحب السر الذى لا يعلمه غيره أى من الصحابة[2].

وقال أبو عبيدة فى كتاب «الغريب» فى حديث عمر، أنه أراد أن يُصلى على جنازة رجل فمرزه حذيفة كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها. ثم حكى عن بعضهم أن «المرز» بلغة أهل اليمامة هو: القرص بأطراف الأصابع، ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم والاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين فشرع ذلك، وفى فعله الأجر الجزيل كما ثبت فى «الصحاح» وغيرها من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-، أن رسول الله -ﷺ- قال:

---

(١) أخرجه أحمد فى «المسند» (٥/ ٤٩٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٠).

«من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان».

قيل: وما القيراطان؟

قال: **«أصغرهما مثل أُحُد»**[1].

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات، فروى أبو داود عن هانئ مولى عثمان بن عفان عن عثمان -رضي الله عنه-، قال:

كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: **«استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل»**[2].

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٢/ ١١٠)، ومسلم (٣/ ٥١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٢١٥). وراجع تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩١)، وقال الشيخ الألبانى: (صحيح). صحيح سنن أبى داود (٢٧٥٨).

[١٥] أبو عـامر الراهـب
«الفاسق الطريد»

الآيات التي نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾[١].

فمن هو أبو عامر؟:

هو: عبد عمرو بن صيفي -أبو عامر- وكان يسمى: «الراهب» لأنه كان يتعبّد ويلتمس العلم[٢].. فلمّا جاء الإسلام شرق به، وجاهر رسول الله -ﷺ- بالعداوة، فسمّاه رسول الله -ﷺ- «الفاسق»، وكان رأس الأوس في الجاهلية.

مواقفه العدائية من الإسلام:

تعددت مواقف هذا الفاسق ضد الإسلام وأهله.. وناصب الرسول العداء من أول يوم دخل فيه المدينة.. فإنه قال للنبيّ -ﷺ-:

«لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم».. هكذا بكل سفور ووضوح.. فلم يزل يقاتله إلى يوم «حُنين»!! ثم كان هلاكه في أرض

---

(١) سورة التوبة: ١٠٧، ١٠٨.

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ١٧٨).

«الروم» شريدًا طريدًا بسبب دعوة النبيّ -ﷺ- عليه. وكان الرسول -ﷺ- كان قد دعاه إلى الله قبل فراره وقـرأ عليه القرآن، فأبى أن يُسْلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله -ﷺ- أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته هذه الدعـوة -كما سيأتى إن شاء الله تعالى-.

موقفه يوم أحد:

كانت قريش تحترق غيظًا على المسـلمين مما أصابها فى معركة «بدر» من مأساة الهزيمة وقـتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيهـا نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى أن قريشًا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم فى بدر، وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بـحرب شاملة ضد المسلمين، تشفى غيظهـا، وتروى غلة حقدها، وأخذت فـى الاستعداد للخـوض فى مثل هذه المعركة.

وفـتحـوا باب التطوع لكل من أحب المـساهمـة فى غـزو المسلمين من القبائل المجـاورة.. وانهالت قريش بمالها.. وبما تملك.. فـى محاولة لوقف زحف المد الإسلامى ومحاولة للقضاء عليه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُـمْ لِيَصُـدُّوا عَن سَبِيـلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُـونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾(١).

ولما استدارت السنة كانت قريش قد استكملت عدتها، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفـاء والأحابيش... وكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان بن حرب، وقـيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد، يعاونه عكرمة بن أبى جهل، أما اللواء فكان إلى بنى عـبد الدار وتحرك الجيش المكى بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة..

وعلم الرســول -ﷺ- بذلك.. فـأعلن الاسـتنفار الـعام.. وقـامت دوريات من المسلمين -لاكتشاف تحركات العدو-.

---

(١) سورة الأنفال: ٣٦.

ونزل جيش مكة قريبًا من أحد واستقر هناك.

أما الجيش المدنى فقسمه النبى -ﷺ- إلى ثلاث كتائب:

١- كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير.

٢- كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير.

٣- كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر وكان الجيش متألفًا من ألف مقاتل.

وأذن بالرحيل، وتحرك الجيش نحو الشمال.. حتى وصل إلى «أحد» وقبيل نشوب الحرب حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين.

فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم:

«خلوا بيننا وبين ابن عمّنا فننصرف عنكم فلا حاجة لنا إلى قتالكم»!!.

ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذى لا تقوم له الجبال، فقد ردّ عليه الأنصار ردًا عنيفًا، وأسمعوه ما يكره.

واقتربت ساعة الصفر، وتدانت الفئتان، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض، فقد خرج إليهم العميل الخائن «أبو عامر الفاسق» وكان -كما قلنا- رأس الأوس فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام شرق به، وجاهر رسول الله -ﷺ- بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله -ﷺ- ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه، ومالوا معه، فكان أول من خرج إلى المسلمين فى الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى قومه وتعرف عليهم، وقال:

يا معشر الأوس، أنا أبو عامر.

فقالوا: لا أنعم الله بك عَيْنًا يا فاسق!!.

فقال: لقد أصاب قومى بعدى شر!!.

ولما بدأ القتال قاتلهم قتالاً شديداً وراضخهم بالحجارة.

وهكذا فشلت قريش فى محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان ويدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم، مع كثرتهم وتفوقهم فى العدد والعدة.

وتقارب الجمعان، وتدانت الفئتان، وبدأت مراحل القتال، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين «طلحة بن أبى طلحة العبدرى» وكان من أشجع فرسان قريش، قتله «الزبير بن العوم» -رضي الله عنه-.

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين فى كل نقطة من نقاط الميدان.. وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين.

فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم «طلحة بن أبى طلحة».

فحمله أخوه أبو شيبة «عثمان بن أبى طلحة» فحمل عليه «حمزة بن عبد المطلب» -رضي الله عنه- فقتله.

ثم رفع اللواء «أبو سعد بن أبى طلحة» فرماه «سعد بن أبى وقاص» -رضي الله عنه- بسهم أصاب حنجرته، فأدلع لسانه ومات لحينه.

ثم رفع اللواء «مسافع بن طلحة بن أبى طلحة» فرماه عاصم بن ثابت بسهم فقتله! فحمل اللواء بعده أخوه «كلاب بن طلحة بن أبى طلحة» فانقض عليه «الزبير» حتى قتله.

ثم حمل اللواء أخوهما «الجلاس بن طلحة» فطعنه طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه- طعنة قضت على حياته.

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد... قتلوا جميعًا حول لواء المشركين، ثم حمله من بنى عبد الدار «أرطأة بن شرحبيل» فقتله «على بن أبى طالب» وقيل: حمزة ثم حمله «شريح بن قارظ» فقتله قزمان -وكان منافقًا قاتل مع المسلمين حمية، لا عن الإسلام!!-.

ثم حمله «أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدرى»، فقتله «قزمان» أيضًا.

ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدرى، فقتله «قزمان» أيضًا!!!.

فهؤلاء عشرة من بنى عبد الدار -من حملة اللواء- أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء.

وبينما كان ثقل المعركة، يدور حول لواء المشركين، كان القتال المرير يجرى فى سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود وقاتل حمزة قتال الأبطال.. حتى قتل -رضي الله عنه-.. وبرغم هذه الخسارة الفادحة التى لحقت المسلمين بقتل «أسد الله» حمزة، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله.

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ «حنظلة بن أبى عامر الفاسق!!».

وكان حنظلة -رضي الله عنه- حديث عهد بالعرس، فلمّا سمع هواتف الحرب خرج جُنُبًا -ملبيًا نداء الجهاد- والتقى بجيش المشركين.. فقاتل حتى قتل شهيداً أما أبوه «أبو عامر الفاسق» -لعنه الله- فكان أحد المخططين لإدارة المعركة ضد المسلمين.

قال ابن إسحاق «ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده... وكانت الهزيمة لا شك فيها».

غلطة الرماة:

كان الرسول -ﷺ- قد أصدر أمراً لبعض الرماة أن يحموا ظهر المسلمين وأمرهم بلزوم الجبل ونهاهم عن ترك مواقعهم لأى سبب من الأسباب، فلما رأى الرماة المسلمين قد انتصروا وشرعوا فى جمع الغنائم.. تركوا أماكنهم.. ليشاركوا المسلمين فى جمع الغنائم.. ولم يبق إلا قلة على ظهر الجبل.. انتهز «خالد بن الوليد» هذه الفرصة، فاستدار بسرعة خاطفة،

حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامى، فأباد من تبقّى من الرماة.. ثم انقض على المسلمين من خلفهم.. فأحدث ارتباكًا فى صفوفهم.. وتغير ميزان المعركة.. وفرّ بعض المسلمين من أرض القتال.. والتفت كوكبة مباركة حول الرسول -ﷺ- تقاتل دونه ببسالة منقطعة النظير.. وسقط بين يديه شهداء.. وجرح رسول الله -ﷺ- وأصيبت رباعيته.. ودخلت حلقتا المغفر فى وجنته -ﷺ-.. وشج رأسه!.

وكان أبو عامر الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع فى إحداهن رسول الله -ﷺ-!!.

فقال رسول الله -ﷺ-: «**اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله**» ثم مكث ساعة، ثم قال:

«**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[1].

وانتهت المعركة بقرح شديد أصاب المسلمين.. فنزل القرآن العظيم يواسى الرسول والذين آمنوا معه:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2].

كان هذا هو الموقف الأول لأبى عامر الفاسق.. الذى ظهر فيه حقده على الإسلام والمسلمين.

تخطيطه لمسجد الضرار!:

موقف آخر لأبى عامر.. يدل على مدى عداوته وشدة كراهيته للإسلام.. واستخدامه لكل حيل المكر والخديعة لمحاربة الدين الجديد.. «لما رأى أبو عامر الفاسق أمر الرسول -ﷺ- فى ارتفاع وظهور، ذهب إلى

---

(١) فتح البارى (٧/ ٣٧٣).

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠.

هرقل ملك الروم -وتنصرّ- واستنصره على النبى -ﷺ- فوعده ومنّاه وأقام عنده، وكتب أبو عامر إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله -ﷺ- ويغلبه ويرده عمّا هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك..

فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قُباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله -ﷺ- إلى «تبوك» وجاءوا فسألوا رسول الله -ﷺ- أن يأتى إليهم فيصلّى فى مسجدهم ليحتجّوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: **«إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»**.

فلما قفل -عليه السلام- راجعًا إلى المدينة من «تبوك» ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم مسجد قباء الذى أُسّس على التقوى من أول يوم[1].

فبعث رسول الله -ﷺ- إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية: هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر:

ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإنى ذاهب إلى «قيصر» ملك الروم فآتى بجنود من الروم وأخرج محمداً وأصحابه، فلمّا فرغوا من مسجدهم أتوا النبى -ﷺ- فقالوا:

قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة!!.

فأنزل الله عزّ وجلّ:

---

(١) وردت روايات أن المسجد الذى أُسّس على التقوى من أول يوم هو المسجد النبوى. فقد روى أحمد عن سهل بن سعد الساعدى عن أبى بن كعب أن النبى -ﷺ- قال: **«المسجد الذى أُسس على التقوى مسجدى هذا»**.

﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ﴾(١).

وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمرو بن قتادة وغيرهم، قالوا:

أقبل رسول الله -ﷺ- -يعنى من تبوك- حتى نزل «بذى أوان» بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا:

يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلّى لنا فيه.

فقال: «**إنى على جناح سفر وحال شغل**» -أو كما قال رسول الله -ﷺ-: «**ولو قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه**». فلمّا نزل «بذى أوان» أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله -ﷺ- «مالك بن الدخشم» أخا بنى سالم بن عوف، و«معن بن عدى» أو أخاه «عامر بن عدى» أخا بنى عجلان، فقال:

«**انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه!**».

فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم. فقال مالك لمعن: أنظرنى أخرج إليك بنار من أهلى.

فدخل أهله فأخذ سعفًا من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾(٢) إلى آخر القصة(٣).

---

(١) سورة التوبة: ١٠٨، ١٠٩.

(٢) سورة التوبة: ١٠٧.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٠٤).

دعاء وإجابة:

تقدم معنا أن رسول الله -ﷺ- كان قد دعا «أبا عامر الفاسق» إلى الله وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرّد، فدعا عليه رسول الله -ﷺ- أن يموت بعيدًا طريدًا.

وكان أبو عامر قد قال للنبى -ﷺ-:

لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم!!.

فلم يزل هذا الفاسق يقاتل رسول الله -ﷺ- ويُحرِّض عليه إلى يوم حُنين. فلمّا انهزمت «هوازن» خرج إلى الروم يستنصر «هرقل».. وتنصّر.. ومات كافرًا «بقِنَّسْرين[1]» فنالته دعوة النبى -ﷺ-.. ومات طريدًا شريدًا..»[2] ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾[3].

وهكذا انتهت أسطورة «أبى عامر الفاسق».. ومات بعيدًا عن أهله ووطنه «كمدًا».. تتقطع نفسه حسرات.. ليذوق وبال أمره.. ويجنى ثمرة ما جنت يداه.. ولا عدوان إلا على الظالمين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[4].

أسباب النزول

● أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى «الدلائل» عن ابن عباس فى قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾[5]. قال:

---

(١) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص. فتحها أبو عبيدة بن الجراح -رضي الله عنه- فى سنة «١٧». (معجم البلدان) بتصرف.

(٢) تفسير القرطبى (٨/ ١٧٨).

(٣) سورة سبأ: ١٧.

(٤) سورة النازعات: ٢٦.

(٥) سورة التوبة: ١٠٧.

هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر:

ابنوا مسجدكم واستمـدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجنده من الروم فأخرج محمداً وأصحابه.

فلمّا فرغوا من مسجدهم أتوا النبى -ﷺ- فقالوا:

قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة!!!

فأنزل الله:

﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾(١)(٢).

● وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: «لما بنى رسول الله -ﷺ- مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم «يخدج جد عبد الله بن حنيف» و«وديعـة بن حزام» و«مجمع بن جـارية الأنصارى» فبنوا مسـجد النفاق، فقـال رسول الله -ﷺ- ليخدج: «**ويلك يا يخـدج...! ما أردت إلى ما أرى؟**».

قال: يا رسول الله، والله مـا أردتُ إلا الحسنى -وهو كاذب- فـصدقه رسول الله -ﷺ- وأراد أن يعذره، فأنزل الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعنى رجـلاً يقـال له أبو عامر، كان محاربًا لرسول الله -ﷺ-، وكان قـد انطلق إلى «هرقل» وكانوا يرصدون إذا قدم أبو عـامر أن يُصلّى فيه!! وكان قد خرج من المدينة محاربًا لله ولرسوله»(٣).

● وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾، قال:

---

(١) سورة التوبة: ١٠٨.

(٢) الدر المنثور (٤/ ٢٨٤).

(٣) الدر المنثور (٤/ ٢٨٥).

«المنافقون».

وفى قوله تعالى: ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾، قال: «لأبى عامر الراهب»[(١)].

قال الإمام القرطبى -رحمه الله تعالى- فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾. قال:

«ونزلت الآية فيما روى فى أبى عامر الراهب، لأنه كان خرج إلى قَيْصر وتنصّر ووعدهم قيصر أنه سيأتيهم، فَبَنَوا مسجد الضرار يرصدون مجيئه فيه؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم» ا.هـ.

دروس وعبر من أسباب النزول

هذا هو مسجد الضرار الذى أمر الله رسوله -ﷺ- ألا يقوم فيه، وأن يقوم فى المسجد الأول -مسجد قباء- الذى أقيم على التقوى من أول يوم، والذى يضم رجالاً يحبون أن يتطهروا ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾[(٢)].

هذا المسجد -مسجد الضرار- الذى اتخذ على عهد رسول الله -ﷺ- مكيدة للإسلام والمسلمين، لا يراد به إلا الإضرار بالمسلمين، وإلا الكفر بالله، وإلا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة، الكائدين لها فى الظلام، وإلا التعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين..

هذا المسجد ما يزال يتخذ فى صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التى يتخذها أعداء هذا الدين.

تتخذ فى صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه أو تمويهه!

---

(١) الدر المنثور (٤/٢٨٥).

(٢) سورة التوبة: ١٠٨.

وتتخـذ فى صورة أوضاع ترفع لافتـة الدين عليها لتـترس وراءها وهى ترمى هذا الدين!.

وتتخـذ فى صورة تشكيـلات وتنظيمات وكـتب وبحوث تتـحدّث عن الإسلام لتـحذير القلقين الذين يرون الإسـلام يذبح ويمحق، فتـحذرهم هذه التـشكـيـلات وتلك الكتب إلـى أن الإسـلام بخـيـر لا خـــوف عليـه ولا قلق![1] . . . وتتخذ فى صور شتى كثيرة. .

وقوله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهى له -ﷺ- والأمة تبع له فى ذلك عن أن يقوم فيه -أى يصلى- أبداً.

ثم حثـه على الصلاة بمسجـد قباء الذى أسس من أول يـوم بنيانه على التقوى، وهى طاعة الله وطاعة رسوله وجمـعًا لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله.

قال الإمام القرطبى:

«قال علمـاؤنا: وكل مسجـد بُنى على ضرار أو رياء وسُـمعة فـهو فى حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه»[2].

وقال -رحمه الله تعالى- أيضًا:

«قال العلـماء: إن من كان إمـامًا لظالم لا يصلَّى وراءه؛ إلاّ أن يـظهر عذره أو يتوب، فإن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء سألوا عمر بن الخطاب فى خلافته ليأذن لمجمِّع بن جارية أن يصلى بهم فى مسجدهم.

فقال: لا ولا نَعْمة عين! أليس بإمام مسجد الضرار!

فقال له مُجَمِّع: يا أمير المؤمنين، لا تعجل علىّ، فوالله لقد صلَّيت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمروا عليه، ولو علمتُ ما صليتُ بهم فيه، كنتُ غلاما قارئًا للقرآن، وكانوا شيوخًا قد عـاشوا على جاهليتهم، وكانوا لا يقرؤون من

---

(١) كما يفعل دعاة التنوير فى عصرنا، ومن دار فى فلكهم.

(٢) تفسير القرطبى (٨/ ١٧٥).

القرآن شيئًا، فصليتُ ولا أحسب ما صنعتُ إثمًا، ولا أعلم بما فى أنفسهم؛ فعذره عمر -رضي الله عنه- وصدّقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء»[١].

وقال الإمام ابن القيم: معلّقًا على أمر رسول الله -ﷺ- بهدم وحرق مسجد الضرار:

«وكل مكان هذا شأنه -أى يُبنى للضرر والتفريق بين المؤمنين.. ويصبح مأوى للمنافقين- فواجب على الإمام[٢] تعطيله، إما بهدم وتحريق، وإمّا بتغيير صورته وإخراجه عمّا وُضع له.

وإذا كان هذا شأنَ مسجد الضِّرار، فمشاهدُ الشّرك التى تدعو سدنتها إلى اتخاذ مَنْ فيها أندادًا من دون الله أحقٌّ بالهدم وأوجب، وكذلك محالٌّ المعاصى والفسوق، كالحانات، وبيوت الخمارين، وأرباب المنكرات. وقد حرق عمر بن الخطاب قرية بكاملها يُباع فيها الخمر، وحرق حانوت رُويشد الثقفى وسمّاه «فويسقًا»، وحرق قصر «سعد»[٣] عليه لما احتجب فيه عن الرعية، وهمّ رسول الله -ﷺ- بحريق بيوت تاركى حضور الجماعة والجمعة، وإنما منعه مَنْ فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم كما أخبر هو عن ذلك»[٤] ا.هـ.

---

(١) نفس المرجع.

(٢) ولا يقوم آحاد الناس بذلك دون إذن الإمام خشية وقوع ضرر أشد.

(٣) هو: «سعد بن أبى وقاص» -رضي الله عنه-.. وكان قد ابتنى قصرًا له عندما كان أميرًا على «الكوفة».

(٤) زاد المعاد (٣/ ٥٧١، ٥٧٢).

[١٦] أبو طـالب
«أهون الناس عذابًا فى النار»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(١).

فمن هو أبو طالب؟:

هو: أبو طالب بن عبـد المطلب بن هاشم بن عبـد مناف القـرشىّ الهاشمىّ عم رسول الله -ﷺ- والدرع الواقى للدعوة الإسلامية.. والسّياج المتين للرسول -ﷺ-.

تعددت فضائله.. وكثرت مواقفه المحمودة فى الإسلام غير أنه حُرم من شهادة التوحيد.. ولله فى خلقه شئون.

ونقتطف على هذه الصفحات بعضًا من هذه المواقف.. ثم نذكر شفاعة النبى -ﷺ- له عند ربّه التى خفّف بها عنه العذاب.

الموقف الأول: كفالته للرسول -ﷺ-:

لمّا تُوفّى «عبـد الله» والد الرسول -ﷺ-.. انضم الرسول الكريم إلى كفالة جَـدّه «عبد المطلب».. ولما تُوفّى «عـبد المطلب» نهض أبو طالب بحق ابن أخـيه على أكـمل وجه، ضمّـه إلى ولده وقدّمـه عليهـم بفضل احـترام وتقدير. وظل فـوق أربعين سنة يعزّ جـانبه ويبسط عليـه حمايتـه، ويصادق ويخاصم من أجله.

---

(١) سورة التوبة: ١١٣.

ودرج محمد -ﷺ- فى بيت أبى طالب والسن تمضى به قدمًا إلى الوعى العميق بما حوله. فأصر على أن يشارك عمّه هموم العيش، إذ كان أبو طالب -على كثرة أولاده- قليل المال، فلما قرر أن يمضى على سنن آبائه فى متابعة الرحيل إلى الشام للاتجار والربح قرر أن يكون معه. وكان -ﷺ- عمره نحو الثلاث عشرة سنة.

قصة بحيرا الراهب:

خرج النبى -ﷺ- مع عمه إلى الشام فالتقيا فى أثناء الرحلة بالراهب «بحيرا» الذى تفرَّس فى وجه الرسول -ﷺ- ورأى فيه معالم النبوة -فى وجهه وبين كتفيه- فلما سأل أبا طالب ما هذا الغلام منك؟

قال: ابنى.

قال بحيرا: ما ينبغى أن يكون أبوه حيًّا.

قال: فإنه ابن أخى مات أبوه وأمّه حبلى به.

قال: صدقت، ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود(١).

وعاد النبى -ﷺ- من هذه الرحلة ليستأنف مع عمّه حياة الكدح، فليس من شأن الرجال أن يقعدوا.

ومن قبله كان المرسلون يأكلون من عمل أيديهم، ويحترفون مهنًا شتى ليعيشوا على كسبها.

وقد صح أن الرسول -ﷺ- اشتغل صدر حياته برعى الغنم، فقد أخرج البخارى عن أبى هريرة -رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- قال:

«ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم».

---

(١) صحيح: أخرج هذه القصة الترمذى (٤/ ٢٩٦) من حديث أبى موسى وقال: «هذا حديث حسن»، وقال الشيخ الألبانى -رحمه الله-: إسناده صحيح -فقه السيرة (٧٠). الهامش.

فقال أصحابه: وأنت؟

فقال: «نعم. كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».

الموقف الثاني: شهوده عقد زواج النبي -ﷺ-:

اشتهر النبي -ﷺ- بالصدق والأمانة والفطانة وذاع صيته.. فى ذلك فى التجارة وغيرها.

وسمعت السيدة خديجة بنت خويلد عن أمانة الرسول -ﷺ- وما تحلّى به من فضائل فأرادت أن يتاجر لها فى مالها.

قال ابن الأثير:

«كانت -خديجة- امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه. فلمّا بلغها عن رسول الله -ﷺ- صدق الحديث، وعظم الأمانة، وكرم الأخلاق، أرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره، ومعه غلامها ميسرة».

وقد قبل الرسول -ﷺ- هذا العرض ورحل إلى الشام عاملاً فى مال السيدة التى اختارته، ويظهر أن التوفيق حالفه فى هذه الرحلة، أكثر من سابقتها مع عمّه أبى طالب، فكان ربحها أجزل، وسرت خديجة -رضي الله عنها- بهذا الخير الذى أحرزته ولكن إعجابها بالرجل الذى اختبرته كان أعمق.

إنها امرأة عريقة النسب ممدودة الثروة، وقد عرفت بالحزم والعقل: ومثلها مطمح لسادة قريش لولا أن السيدة كانت تحقر فى كثير من الرجال أنهم طلاب مال لا طلاب نفوس.

وأن أبصارهم ترنو إليها بغية الإفادة من ثرائها وإن كان الزواج عنوان هذا الطمع! لكنها عندما عرفت محمداً -ﷺ- وجدت ضربًا آخر من الرجال.

وجدت رجلاً لا تستهويه ولا تدنيه حاجـة. ولعلها عندما حاسبت غيره فى تجارتها وجدت الشّح والاحتيال.

أمّا مع محمّد -ﷺ- فقد رأت رجلاً تقفه كـرامته الفارعة موقف النبل والتجاوز، فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها.

لقد أدّى ما عليه ثم انصرف راضيًا مَرْضيًا.

ووجدت السيدة خـديجة ضالتها المنشودة. فتحـدثت بما فى نفسها إلى صديقتها «نفيـسة بنت منبه» وهذه ذهبت إلى محمد -ﷺ- تفاتحه أن يتزوج من خديجة، فلم يبطئ من إعلان قبوله.

ثم كلَّم فى ذلك أعـمامه فـذهب أبو طالب وحمـزة وغيرهـما إلى عمّ خديجـة «عمرو بن أسد» -إذ أن أباها مـات فى حرب الفجار- وخطبـوا إليه ابنة أخيه وساقوا إليها الصداق عشرين بكرة[1].

ووقف أبو طالب يخطب فى حفل الزواج فكان مِمّا قال:

«الحمد لله الـذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرْع إسماعـيل، . . . وجعلنا حضنة بيته وسُـوّاس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجـوجًا وحرمًا آمنًا، ثم إن ابن أخى هذا محمــد بن عبد الله لا يُوزن به رجلٌ من قريش شرفًا ونبـلاً وفضلاً إلا رجح به، . . . ومحمد مَنْ عرفتم قـرابته. . . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصّداق -المهر- فعلىّ».

وافق عمُّها «عمرو بن أسد» وكان شيخًا كبيرًا، فقال:

هو الفحل لا يُقْدحُ أنفه[2]. . .

وتم الزواج المبـارك. . وكانت السـيدة خـديجة نِعْمَ الزوجـة الصالحـة للرجل الصالح. . ومواقفها -ﷺ- مشهورة ومناقبها مشهودة.

(١) فقه السيرة (٨٠، ٨١).

(٢) هذا مثل يُضرب للرجل الكفء الكريم، والفحل الذكر من الإبل.

الموقف الثالث: حمايته للرسول -ﷺ- بعد الرسالة:

إن أبا طالب برغم بقائه على الشرك واستمساكه بدين الآباء -ظل حىّ العاطفة ظاهر الحدب على ابن أخيه- وهو مدرك كل الإدراك ما سوف تجرّه هذه الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته، بيد أن إعزازه لمحمد وتأذيه من مواجهته بما يكره حملاه على ضمان الحرية له. بل على التعهد بحمايته وهو يبلّغ عن ربه!!.

وأبو طالب من رجالات مكة المعدودين. كان معظمًا فى أهله: معظمًا بين الناس فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته. وكان بقاؤه مع أهل مكة -محترمًا للأوثان- من أسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه...

ولما نزل الوحى المبارك على النبى -ﷺ-.. ثم أُمر بالتبليغ.. وصعد على الصفا.. ونادى على بطون قريش.. كان أول المعترضين عليه «أبو لهب»(١) عمّه!! فقال قولته الخبيثة «تبًّا لك يا محمد!!».

فلم يعبأ النبىّ -ﷺ- بمعارضة عمّه أبى لهب...

فما أبو لهب؟ وما قريش؟ وما العرب؟ وما الدنيا كلها؟ بإزاء رجل يحمل رسالة من الله الذى له ملك السموات والأرض يريد أن يعيد بها الرشد لعالم فقد رشده، وأن يمحو بها الأوهام، فى حياة مرغتها الأوهام فى الرغام. ما تجدى وقفة جهول؟ أو غضبة مغرور فى منع هذه الرسالة الكبيرة من المضى إلى هدفها البعيد.

إن الطحالب العائمة لا تقف السفن الماخرة، ولئن نقم الجاهليون على المسلمين مروقهم من بين قومهم بهذه الدعوة -حتى ليسمونهم الصباة- فإن المسلمين لأشد نقمة عليهم، أن سفّهوا أنفسهم، وحقّروا عقولهم، وتشبثوا بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان.

لقد استجاب الضعفاء لدعوة الرسول -ﷺ- والتفوا حوله..

---

(١) راجع ترجمته فى هذا الكتاب.

وبدأت الأعداد تزحف على الدين الجديد.. وهوت الأفئدة نحو صاحب الرسالة العصماء.. وبدأ المشركون يظهرون كيدهم وحقدهم.. فصبوا العذاب على المستضعفين صبًّا.. ونكلوا بهم.. واتخذ الله من أصحاب محمد -ﷺ- شهداء.

وحاول المشركون النيل من رسول الله -ﷺ-.. فوقف أبو طالب بجوار ابن أخيه يشدُّ على يديه.. ويؤازره.. وينصره.. وفشلت محاولاتهم.. وأخفقت مساوماتهم.. فأرسلوا وفدًا إلى أبي طالب يقول له:

«يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا. وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا. فإما أن تكفّه عنا وإمّا أن تخلّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردّهم ردًّا رفيقًا. فانصرفوا عنه ومضى الرسول -ﷺ- بما هو عليه ثم استشرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله -ﷺ-، وتآمروا فيه.

فمشوا إلى أبي طالب مرّة أخرى فقالوا:

يا أبا طالب إن لك فينا سنًّا وشرفًا، وإنا قد استنهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تكفّه عنا أو ننازله وإياك في ذلك، إلى أن يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه.

عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله -ﷺ- وخذلانه، وبعث إلى رسول الله -ﷺ-، فأعلمه ما قالت قريش وقال له:

أبق على نفسك وعليّ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله -ﷺ- أنه قد بدا لعمه رأي، وأنه خذله وضعف عن نصرته، فقال رسول الله -ﷺ-:

«يا عمّاه.. والله لو وضعوا الشـمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»(١).

ثم بكى رسول الله -ﷺ- وقام، فلمّا ناداه عمـه أبو طالب فأقبل عليه وقال:

اذهب يا ابن أخى فـقل مـا أحـببتَ، فـوالله لا أُسلمك لشىء أبداً، وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أُوسَّد فى التراب دَفينا

وهكذا أخفق الإغراء والإرهاب فى تعويق الدعوة.. وأدركَتَ قريش أنَّ ما تصبـوا إليه بعيد المنال. فعادت سـيرتها الأولى، تصب جام غضـبها على المؤمنين، وتبـذل آخـر ما فى وسـعـها للـتنكيل بهم ومـحاولة فـتنتـهم عن دينهم(٢).

الموقف الرابع: أيام الحصار:

حاصرت قـريش رسول الله -ﷺ- ومن معه من المؤمنـين والمتعاطفين ثلاثة أعوام كـاملة فـى شعـب أبى طالـب(٣).. وكان أبو طالب مع الرسول -ﷺ- يشاركه الهموم ويقاسى مـعه الشدائـد.. وكان يخاف على رسول الله -ﷺ-، فكان إذا أخذ الناس مضاجـعهم يأمر رسول الله -ﷺ- أن يضجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله!!

فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بنى عمّه فاضطجع على فراش رسول الله -ﷺ-، وأمره أن يأتى بعض فرشهم!!.

الموقف الخامس: موقفه مع آخر وفد لقريش:

خرج رسـول الله -ﷺ- من الشّـعب، وجعل يعـمل على شاكلتـه،

(١) أخرجه ابن إسحاق، وضعفه الشيخ الألبانى. فى تحقيقه لفقه السيرة.
(٢) فقه السيرة (١١٨).
(٣) راجع ترجمة «أبى لهب».

وقريش وإن كانوا قـد تركوا القطيعة، لكنهم لم يزالوا عـاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين، والصّد عن سبيل الله.

أمّا أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه، لكنه كان قد تجاوز الثمانين من سنّه، وكانـت الآلام والحوادث الضخـمة المتواليـة منذ سنوات -لا سيـما حصار الشعب- قد وهنت وضعفت مفاصله، وكسرت صلبه، فلم يمض على خروجه من الشـعب إلا أشهر معدودات، وإذا هو يـلاحقه المرض ويلح به - وحينئـذ خاف المشركون- سـوء سمعـتهم في العرب إن أتوا بعـد وفاته بمنكر على ابن أخـيه، فحـاولوا مرّةً أخـرى أن يفاوضـوا النبيّ -ﷺ- بين يديه، ويعطوا بعض ما لم يرضوا إعطاءه قبل ذلك، فقـاموا بوفادة هي آخر وفادتهم إلى أبي طالب.

قال ابن إسحاق وغيره:

لما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشًا ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمرُ محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليـأخذ علـى ابن أخيـه، وليعطه منا، والله مـا نأمن أن يبتزونا[1] أمرنا، وفي لفظ:

فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون إليه شيء فتعـيرنا به العرب، يقولون تركوه؛ حتى إذا مات عمه تناولوه.

مشـوا إلى أبي طالب فكلّموه، وهم أشـراف قومه؛ عـتبة بن ربيـعة، وشيـبة بن ربيـعة، وأبو جهل بن هـشام، وأميـة بن خلف، وأبو سفـيان بن حرب، في رجال من أشرافهم -وهم خمس وعشرون تقريبًا- فقالوا:

يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حـضرك ما نرى، وتخوّفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكفّ عنا ونكفّ عنه، وليـدعنا وديننا، وندعـه ودينه. فبعـث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال:

(١) ابتزه أمره: سلبه إياه وغلبه عليه.

يا ابن أخى، هؤلاء أشـراف قـومك، قد اجـتـمعـوا لك، ليـعطوك، وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذى قالـوا له وعرضوا عليه، من عدم تعرض كل فريق للآخر.

فقال لهم رسول الله -ﷺ-:

«أرأيتم إن أعطيتـهم كلمة تكلمتم بها، ملكتم بهـا العرب، ودانت لكم بها العجم؟».

وفى لفظ: أنه قال مخاطبًا لأبى طالب:

«أريدهم على كلمـة واحـدة يقولونـها، تدين لهم بـها العـرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية».

وفى لفظ آخر قال:

«يا عم، أفلا تدعوهم إلى ما هو خير لهم؟».

قال: وإلى ما تدعوهم؟

قال: **«أدعوهم إلى أن يتكلمـوا بكلمة تدين لهم بهـا العرب، ويملكون بها العجم»**.

ولفظ رواية ابن إسحاق:

«كلمة واحدة تعطونها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم».

فلمّا قال هذه المقـالة، توقفوا وتحيّروا، ولم يعرفوا كـيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد؛ ثم قال أبو جهل:

ما هى؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها.

قال: **«تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه»**.

فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا:

أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مِمّا تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرّقوا.

وفى هؤلاء نزل قوله تعالى:

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾(١)(٢).

وفاة أبى طالب:

ألح المرض بأبى طالب، فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته فى رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشّعب بستة أشهر. وقيل: تُوفِّى فى رمضان قبل وفاة خديجة -رضي الله عنها- بثلاثة أيام وفى الصحيح عن سعيد بن المسيّب:

أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبىّ -ﷺ- وعنده أبو جهل، فقال:

«أى عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله».

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شىء كلمهم به.

على ملة عبد المطلب(٣).

---

(١) سورة ص: ١-٧.

(٢) الرحيق المختوم (١٠١، ١٠٢).

(٣) لذا أوصى العلماء أهل المحتضر بعدم دخول الفاسقين على مريضهم قبل موته.. أما حضور الصالحين فمطلوب.. لتلقينه.. وتحديثه بسعة رحمة الله.

فقال النبىّ -ﷺ-:

«لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فنزلت:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(١)، ونزلت:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(٢)(٣).

شفاعة النبى -ﷺ- له عند ربه:

كان أبو طالب -كما تقدم- الحصن الذى تحتمى به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقى على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح. ففى «الصحيح» عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبىّ -ﷺ-: ما أغنيت عن عمّك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟

قال: «هو فى ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار» رواه البخارى ومسلم فى «الإيمان» (٣٥٧).

وفى «صحيح البخارى» -أيضًا- عن أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه- أنه سمع النبىّ -ﷺ- وذكر عنده عمّه - فقال:

«لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة، فيجعل فى ضحضاح من نار تبلغ كعبيه».

إذن هى شفاعة لتخفيف العذاب دون إزالته.. وهى خاصة لرسول الله -ﷺ-(٤).

---

(١) سورة التوبة: ١١٣.

(٢) سورة القصص: ٥٦.

(٣) صحيح البخارى، باب «قصة أبى طالب».

(٤) يقول الإمام القرطبى فى هذا الموضوع: «هذا الباب يدلك على أن كفر من كفر فقط، ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى، ولا شك أن الكفار فى عذاب جهنم متفاوتون، كما قد علم من الكتاب والسنة، ولأنا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قتل=

يقول الشيخ محمد الغزالى -رحمه الله تعالى-:

«أما أبو طالب، فإن المرء يحار فى أمره! وبقـدر ما ينحنى إعجابًا لنبله فى كفالة محمد -ﷺ-، ثم لبطولته فى الدفاع عنه، حين نُبِّئ، وحين صدع بأمر ربه، وأنذر عشيرته الأقربين.

إنه بقدر ذلك -يستـغرب المصير الذى ختم به حيـاته، وجعل يُصرِّح - قبل مَوْته- أنه على ملة الأشياخ من أجداده..»[1] ا.هـ.

رَبِّ إن الـهـــــدى هــداك وآياتك حق تهدى بها من تشاء

أسباب النزول

أخرج البخارى فى «صحيحه» (٣/ ٤٦٥) عن سعيد بن المسيِّب عن أبيه أنه أخبره أنه لما حَضَرَتْ أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله -ﷺ- فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعـبد الله بن أبى أمية بن المغيـرة، قال رسول الله -ﷺ- لأبى طالب:

«يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله».

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية:

يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل رسول الله -ﷺ- يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول:

= الأنبيـاء والمسلمين وفتك بهم وأفسد فى الأرض وكفـر، مساويًا لـعذاب من كفـر فقط وأحسن للأنبياء والمسلمين، ألا تـرى أبا طالب كيف أخرجه النبىّ -ﷺ- إلى ضحضاح لنصرته إياه، وذبّه عنه وإحسانه إليه». فـإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [سورة المدثر: ٤٨] قيل له: لا تنفع فى الخروج من النار كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة، وراجع: تفسير القرطبى (٨/ ١٩٤).

(١) فقه السيرة (١٣٢).

«لا إله إلا الله».

فقال رسول الله -ﷺ-:

«أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك» فأنزل الله تعالى فيه الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1].

«الحديث أخرجه -البخارى- فى مواضع من صحيحه منها (٨/ ١٩٤)، و(٩/ ٤١١)، (١٠/ ١٢٤)، وأخرجه مسلم (١/ ٢١٤)، والنسائى (٤/ ٧٤)، وأحمد (٥/ ٤٣٣)، وابن جرير (١١/ ٤١)، والبيهقى فى «الأسماء والصفات» (٩٧، ٩٨)، وابن أبى حاتم (٤/ ١٠٢)»[2].

دروس وعبر من أسباب النزول

قال الحافظ فى «الفتح» (٨/ ٣٦٥ - ٣٦٧) ما خلاصته:

قوله: «لما حضرت أبا طالب الوفاة»، قال الكرمانى: «المراد حضرت علامات الوفاة، وإلاّ فلو كان انتهى إلى المعاينة لم ينفعه الإيمان لو آمن، ويدل على الأول ما وقع من المراجعة بينه وبينهم» ا.هـ.

ويحتمل أن يكون انتهى إلى تلك الحالة لكن رجا النبى -ﷺ- أنه إذا أقر بالتوحيد ولو فى تلك الحالة أن ذلك ينفعه بخصوصه وتسوغ شفاعته -ﷺ- لمكانه منه.

ويؤيد الخصوصية أنه بعد أن امتنع من الإقرار بالتوحيد وقال هو «على ملة عبد المطلب» ومات على ذلك أن النبىّ -ﷺ- لم يترك الشفاعة له، بل شفع له حتى خفف عنه العذاب بالنسبة لغيره، وكان ذلك من الخصائص فى حقه.

---

(١) سورة التوبة: ١١٣.

(٢) الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ الوادعى (١١٢).

قوله: «ويعـيدان بتلك المقـالة» -وفى رواية «ويعيدانه إلى الـكفر بتلك المقالة»: كأنه قال: كان قارب أن يقولها -أى كلمة التوحيد- فيردانه.

قـوله: «وأبى أن يقول: لا إله إلا الله» هو تـأكيـد من الراوى فى نفى وقوع ذلك من أبى طالب، وكـأنه استند فى ذلك إلى عدم سمـاعه ذلك منه فى تلك الحال، وهذا القـدر هو الذى يمكن اطلاعه عليه، ويحـتمل أن يكون أطلعه النبىّ -ﷺ- على ذلك.

قوله: «والله لأستغفرن لك مـا لم أنْه عنك»: إنما وقع النهى -أى فى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(١) - عن طلب المغفرة العامة» ا.هـ.

ونأخذ من أسـباب النزول: أن أبا طالب مات مـشركًا بدليل مـا تقدم، وبدليل:

ما ثبت عن على بن أبى طالب -رضي الله عنه- أنه قال:

«لمّا تُوفى أبو طالب، أتيت النبىّ -ﷺ- فقلتُ:

إن عمك الشيخ الضال(٢) قد مات فمن يواريه؟

قال: **«اذهب فواره، ثـم لا تحدث شيـئًا حـتى تأتينى»** [فقـال: إنه مات مشركًا](٣)، فقال: **«اذهب فواره»**.

---

(١) سورة التوبة: ١١٣.

(٢) أى: الذى ضل عن طريق الحق.

(٣) قال الشيخ الألبانى -رحمه الله تعالى-: «هذا صريح فى أن أبا طالب مات كافرًا مشركًا، وفى الباب أحـاديث كثيرة، منهـا حديث سعيد بـن حزن -المتقدم- وقد قـال الحافظ فى شرحه له:
«ووقفتُ على جزء جـمعه بعض أهل الرفض أكثر فيـه من الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبى طالب، ولا يثبت من ذلك شىء، وبالله التوفيق، وقد لخصتُ ذلك فى ترجمة أبى طالب من كتاب الإصابة». أحكام الجنائز للألبانى (١٣٤).

قال: فواريتُه ثم أتيته.

قال: «اذهب واغتسل ثم لا تحدث شيئًا حتى تأتينى».

قال: فاغتسلتُ، ثم أتيتُه.

قال: فدعا لى بدعوات ما يسرّنى أن لى بها حمُر النّعم وسودها.

قال: وكان علىّ إذا غسل الميت اغتسل»(١).

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (رقم ٨٠٧) وابنه فى زوائد «المسند» (رقم ١٠٧٤) من طريق عبد الرحمن السلمى عنه. وقال الشيخ الألبانى:

«قلت: وسنده صحيح. وأخرجه أبو داود (٢/ ٧٠)، والنسائى (١/ ٢٨٢، ٢٨٣) والبيهقى (٣/ ٣٩٨)، وأحمد أيضًا (رقم ٧٥٩) من طريق أبى إسحاق: سمعتُ ناجية بن كعب يحدث عن علىّ به نحوه. والزيادات لأحمد إلا الثانية فللنسائى. وإسناده صحيح أيضًا، رجاله كلهم ثقات رجال الصحيحين غير ناجية بن كعب قال العجلى فى «الثقات». أحكام الجنائز (١٣٤).

[١٧] عامر بن الطفيل

«أهلكه الله بغدره!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[١].

فمن هو عامر بن الطفيل؟:

هو: أحد شياطين الإنس.. الذين ضُرب بهم المثل فى الغدر والخيانة.. فأهلكه الله بالطاعون استجابة لدعاء النبىّ -ﷺ-.

ماهى قصته؟!:

فى شهر «صفر» سنة «أربع» من الهجرة.. وبعد مأساة «الرجيع» قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر مُلاعب الأسنة على رسول الله -ﷺ- المدينة، فعرض عليه رسولُ الله -ﷺ- الإسلام، ودعاه إليه، فلم يُسْلم ولم يَبْعُدْ من الإسلام، وقال:

يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فَدَعَوْهم إلى أمرك، رجوتُ أن يستجيبوا لك.

---

(١) سورة الرعد: ٨ - ١١.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«إنى أخشى عليهم أهل نجد».

قال أبو براء: أنا لهم جارٌ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله -ﷺ- «المنذر بن عمرو» أخا بنى ساعدة، المُعْنِق ليموت[1]، فى سبعين[2] رجلاً من أصحابه، من خيار المسلمين، منهم:

«الحارث بن الصُّمَّة» و«حرام بن ملحان» أخو بنى عدى بن النجار، و«عروة بن أسماء بن الصلت السُّلمى» و«نافع بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعى»، و«عامر بن فهيرة» مولى أبى بكر الصديق، فى رجال مُسمّين من خيار المسلمين.

فساروا[3] حتى نزلوا ببئر معونة، وهما بين أرض بنى عامر وحَرَّة بنى سُليم، كلا البلدين منها قريب، وهى إلى حرَّة بنى سُليم أقرب.

فلمّا نزلوها بعثوا «حرام بن مِلْحان» بكتاب رسول الله -ﷺ- إلى عدوّ الله «عامر بن الطفيل»، فلمّا أتاه لم ينظرْ فيه، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه، فلمّا أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام:

«الله أكبر، فزتُ ورب الكعبة».

ثم استنفر عدوّ الله لفوره بنى عامر إلى قتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبى البراء، فاستنفر بنى سُليم، فأجابته «عصية» و«رعل» و«ذكوان»، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله -ﷺ-، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، إلاّ كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارتث بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم «الخندق».

---

(١) المعنق ليموت: أى: المسرع وإنما لقّب بذلك لأنه أسرع إلى الشهادة.

(٢) فى الصحيح: أنهم كانوا سبعين وهو الصواب خلافًا لما ذكر ابن إسحاق أنهم كانوا أربعين!

(٣) وفى رواية: «فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصُّفّة، ويتدارسون القرآن، ويصلون بالليل حتى نزلوا بئر معونة».

وكان «عمـرو بن أمية الضَّمـرى» و«المنذر بن عقبة بن عـامر» فى سرح المسلمين، فرأيا الطير تحـوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فـقاتل المشركين حتى قـتل مع أصحابه، وأسر «عـمرو بن أميـة الضمرى» فلمّا أخـبر أنه من مُضر جزّ «عامر» ناصيته، وأعتقه من رقبة كانت على أمّه.

ورجع «عمـرو بن أمية الضـمرى» إلى النبى -ﷺ- حاملاً مـعه أنباء المصاب الفادح مـصرع «سبعين» من أفـاضل المسلمين، تذكر نكبتهـم الكبيرة بنكبة «أحـد»؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا فى قتال واضح؛ وأولئك ذهبـوا فى غدرة شائنة.

ولمّا كان «عمـرو بن أمية» فى الطريق بالقرقـرة فى صدر قناة، نزل فى ظل شـجرة وجاء رجـلان من بنى كلاب فـنزلا معه، فـلمّا نامـا فتك بهـما «عمرو» وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله -ﷺ- لم يشعر به، فلمّا قدم أخبر رسول الله -ﷺ- بما فعل، فقال:

«لقد قتلت قتيلين لأدينهما».

وانشغل بجمع دياتهم من المسلمين وحلفـائهم اليهود، وهذا الذى صار سببًا لغزوة بنى النضير(١).

وقد تألم النبىّ -ﷺ- لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة تألـمًا شديدًا، وتغلب عليه الحزن والقلق، حتى دعا على هؤلاء القوم والقبائل التى قامت بالغدر والفتك بأصحابه.

ففى الصحيح» عن أنس، قال:

دعا النبىّ -ﷺ- على الذين قتلوا أصحابه ببئـر معونة ثلاثين صباحًا، يدعـو فى صـلاة الفجـر على رعـل وذكـوان ولحيـان وعـصيـة، ويقـول: **«عصية عصت الله ورسوله»**، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنًا قرأناه حتى نسخ بعد:

---

(١) راجع ترجمة «حيى بن أخطب» فى كتابنا هذا.

«بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه» فترك رسول الله -ﷺ- قنوته(١).

محاولته لقتل رسول الله -ﷺ-:

انتهت مأساة، «بئر معونة».. ودارت عجلة الزمن... وفى عام الوفود قدم على رسول الله -ﷺ- وفدُ بنى عامر، وفيهم «عامر بن الطفيل» و«أربد ابن قيس بن جَزْء بن خالد بن جعفر» و«جَبَّار بن سَلْمى بن مالك بن جعفر»، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم.

فقدم «عامر بن الطفيل» عدوّ الله، على رسول الله -ﷺ-، وهو يريد الغدر به.

وقد قال قومه: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم.

قال: والله لقد كنتُ آليتُ أن لا أنتهى حتى تَتْبع العربُ عَقِبى، فأنا أتْبعُ عقب هذا الفتى من قريش؟!

ثم قال لأربد:

إذا قدمنا على الرجل، فإنى سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلتُ ذلك فاعْلُه بالسيف!!.

واتفق الخبيثان على اغتيال رسول الله -ﷺ- ودبّرا المؤامرة.

فلمّا قدموا على رسول الله -ﷺ-، قال عامر بن الطفيل:

يا محمد، خالِنى.

قال -ﷺ-: «لا والله حتى تؤمن بالله وحده».

قال: يا محمد خالنى، وجعل يكلّمه وينتظر من أربد ما كان أمره به، فجعل أرْبد لا يُحيرُ شيئًا!!.

---

(١) البخارى (٢/٥٨٦ - ٥٨٨).

فلما رأى عامر ما يصنع أربد، قال:

يا محمد خالنى.

قال: «**لا، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له**».

فلمّا أبى عليه رسول الله -ﷺ-، قال:

أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً.

فلما ولّى[1] قال رسول الله -ﷺ-:

«**اللهم اكفنى عامر بن الطفيل**».

فلما خرجوا من عند رسول الله -ﷺ-، قال عامر لأربد:

ويلك يا أربد أين ما كنتُ أمرتك به؟! والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندى على نفسى منك، وايم الله لا أخافُك بعد اليوم أبداً.

قال: لا أبا لك! لا تعجلْ علىّ، والله ما هممتُ بالذى أمرتنى به من أمره إلا دَخَلْتَ بينى وبين الرجل، حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟

وهكذا نجّى الله تعالى نبيه من المؤامرة الخبيثة.. وحفظه من الكيد العظيم.. وهذا دليل حاسم على صدق نبوته -ﷺ- لو كان فى القلوب حياة.

هلاك الماكر:

لم يمهل الله تعالى عامر بن الطفيل.. طويلاً.. فقد ذكر ابن هشام فى «السيرة»[2]: «فلما خرجوا -أى من عند رسول الله -ﷺ- راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله على «عامر بن الطفيل» الطاعون فى عُنقه، فقتله الله فى بيت امرأة من بنى سلول، فجعل يقول:

---

(١) ولى: أى عاد وانصرف.

(٢) (١٩٤/٤، ١٩٥).

يا بني عـامـر، أغدَّة كـغـدة البَكْر(١)، وموت في بيت امـرأة من بني سلول!»(٢).

قال ابن إسحاق:

«ثم خرج أصحابه حتى واروْه(٣)، حتى قدموا أرض بنى عامر شاتِّين، فلمّا قدموا أتاهم قومهم، فقالو:

ما وراءك يا أَرْبد؟

قال: لا شيء والله، لقد دعـانا إلى عبادة شيء لوَدِدْتُ أنه عندى الآن، فأرميه بالنَّبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فـأحرقتهما.. وكان أربد بن قيس أخا لبيد بن ربيعة لأمِّه».

قال ابن هشام:

وذكر زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: وأنزل الله عز وجل في عامر وأربد:

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾(٤)(٥).

(١) البكر: البعير.
(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣١٩ - ٣٢١).
(٣) واروه: أي دفنوه.
(٤) سورة الرعد: ٨-١٣.
(٥) السيرة النبوية (٤/ ١٩٥).

قال ابن هشام: الـمُـعقِّبات: هى من أمر الله يحفظون مـحمداً -ﷺ- ثم ذكر أربد وما قتله الله به، فقال:

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾... إلى قوله: ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[1].

وذكر البخارى الرواية مختصراً عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال:

أن النبىَّ -ﷺ- بعث خاله[2] -أخٌ لأمّ سليم[3]- فى سبعين راكبًا وكان رئيس المشركين «عامر بن الطفيل» خيَّر بين ثلاث خصال، فقال: يكون لك أهلُ السّهل ولى أهل المدر[4].

أو أكون خليفتك.

أو أغزوك بأهل غطفان بألفٍ وألف.

فطُعن عامر فى بيت أمٍّ فلان، فقال:

غُدَّة كغدَّة البكر، فى بيت امرأة من آل بنى فلان؟!

ائتونى بفرسى، فمات على ظهر فرسه.

فانـطلق حرَام أخـو أمّ سليم، هو ورجل أعرج ورجل من بنـى فلان، قال: كونا قريبًا حتى آتيهم، فإن آمنونى كنتم، وإن قتلونى أتيتم أصحابكم.

فقال: أتؤمِّنونى أُبَلِّغُ رسالةَ رسول الله -ﷺ-؟

فجعل يُحدِّثهم، وأومئوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه.

قال همام -أى الرواة- أحسبه حتى أنفذه بالرُّمح، قال:

«الله أكبر، فزتُ وربِّ الكعبة».

---

(١) ذكره الواحدى فى «أسباب النزول» كما سيأتى -إن شاء الله تعالى-.

(٢) هو: حرام بن ملحان -رضي الله عنه-.

(٣) هى: أم أنس بن مالك وزوج أبى طلحة -رضي الله عنها-.

(٤) قال هذا للرسول -ﷺ-.

فلُحق الرجل فقُتلوا كُلّهم غير الأعرج كان فى رأس جبل، فأنزل الله علينا ثم كان من المنسوخ:

«إنا لقينا ربّنا، فرضى عنا وأرضانا».

فدعا النبىُّ -ﷺ- عليهم ثلاثين صباحًا، على رِعل وذكوان وعُصيَّة الذين عصوا الله ورسوله -ﷺ-[1].

وبهذا الإذلال انتهت حياة «عامر بن الطفيل» مدبر المؤامرات.. ورافع لواء الغدر.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

أسباب النزول

● قال الحافظ ابن كثير[3]:

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى:

حدثنا مسعدة بن سعيد العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنى عبد العزيز بن عمران، حدثنى عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن أرْبد بن قيس بن حز بن جليد بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله -ﷺ-، فانتهيا إليه وهو جالس فجلسا بين يديه؛ فقال عامر بن الطفيل:

يا محمد، ما تجعل لى إن أسلمتُ؟

فقال رسول الله -ﷺ-:

---

(١) أخرجه البخارى برقم (٤٠٩١).

(٢) سورة الروم: ٤٧.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٨٣، ٧٨٤).

«لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم».

قال عامر بن الطفيل: أتجعل لى الأمر إن أسلمتُ مِنْ بعدك؟

قال رسول الله -ﷺ-:

«ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل».

قال: أنا الآن فى أعنة خيل نجد، اجعل لى الوبر ولك المدر.

قال رسول الله -ﷺ-:

«لا».

فلمّا قفلا من عنده قال عامر:

أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً(١).

فقال له رسول الله -ﷺ-:

«يمنعك الله».

فلما خرج أربد وعامر، قال عامر:

يا أربد، أنا أشغل عنك محمداً بالحديث فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب، فنعطيهم الدية.

قال أربد: أفعل.

فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر:

يا محمد قم معى أكلمك.

فقام معه رسول الله -ﷺ- فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله -ﷺ- يكلمه، وسل أربد السيف، فلمّا وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف، فلم يستطع سلّ السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب،

(١) يهدده بحرب شاملة.

فالتفت رسول الله -ﷺ- فرأى أربد وما يصنع، فانصرف عنهما، فلمّا خرج عامر وأربد من عند رسول الله -ﷺ- حتى إذا كانا بالحرّة -حرة واقم- نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، فقالا:

اشخصا يا عدوى الله لعنكما الله.

فقال عامر: من هذا يا سعد؟

قال: هذا أسيد بن حضير الكتائب.

فخرجا حتى إذا كانا بالرقم، أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم أرسل الله قرحة فأخذته، فأدركه الليل فى بيت امرأة من بنى سلول، فجعل يمس قرحته فى حلقه ويقول: غدة كغدة الجمل فى بيت سلولية، يرغب أن يموت فى بيتها، ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعًا؛ فأنزل الله فيهما: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾(1). قال:

المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً -ﷺ-.

ثم ذكر أربد وما قتله به، فقال:

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾(2)(3).

ورثى لبيد بن ربيعة أخاه أَرْبد فقال:

يا عينُ هلاّ بكيت أَرْبد إذ قُمنا ... وقام الخُصُوم فى كَبَد
أَخشى على أربد الحتوفَ ولا ... أرهبُ نَوْءَ السِّماك والأَسَد
فجعَّنى الرَّعدُ والصواعقُ بالفا ... رس يوم الكريهة النَّجِد

(1) سورة الرعد: ٨ - ١١.
(2) سورة الرعد: ١٣.
(3) أسباب النزول للنيسابورى (١٥٤، ١٥٥).

وأسلم لبيد بعد ذلك -رضي الله عنه-(١).

سبب آخر لنزول الآية:

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال:

بعث النبى -صلى الله عليه وسلم- مرة رجلاً إلى رجل من فراعنة العرب أن: «ادْعُهُ لى».

قال: يا رسول الله، إنه أعتى من ذلك.

قال: «اذهب إليه فادْعُهُ».

قال: فأتاه فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعوك.

قال: أرسول الله؟! وما الله؟! أمن ذهب هو؟ أمن فضة هو؟! أمن نحاس هو؟!

فرجع إلى النبىّ -صلى الله عليه وسلم- فقال:

يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك!! وأخبر النبىّ -صلى الله عليه وسلم- بما قال.

قال: «فارجعْ إليه فادْعُهُ». فرجع، فأعاد عليه المقالة الأولى، فرد عليه مثل الجواب، فأتى النبىّ -صلى الله عليه وسلم- فأخبره.

فقال: «ارجعْ إليه فادعه» فرجع إليه.

فبينما هما يتراجعان الكلام بينهما إذ بعث الله سحابة حيال رأسه، فرعدت، ووقعت منها صاعقة فذهب بقحف(٢) رأسه، وأنزل الله عز وجل: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾(٣).

---

(١) تفسير القرطبى (٩/ ٢٦٠).

(٢) قحف رأسه: الذى فوق الدماغ، وقيل: هو ما انفلق من جمجمته، وانفصل منه.

(٣) حديث حسن: أخرجه النسائى (٢٧٩) فى تفسيره، وابن أبى عاصم (٦٩٢) فى السنة،=

دروس وعبر من أسباب النزول

قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾(١).

قال الإمام القرطبي:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ﴾ أى هلاكًا وعذابًا، ﴿ فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾.

وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه.

وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدُهم عن حتفه بكفِّه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه.

﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ أى: ملجأ(٢).

وقال الإمام القشيرى:

قوله: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾:

يقال: إذا أراد الله بقومٍ بلاءً وفتنة فما تعلَّقت به المشيئة لا محالة يجرى.

ويقال: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى أعينهم حتى يعملوا ويختاروا ما

= والطبرانى (٢٦٢٣) فى «الأوسط» وابن كثير فى تفسيره (٢/ ٧٨٣) وغيرهم.
قال الأستاذ مجدى فتحى السيد: وعظة القصة تدور فى إطار ذم الكبر والمتكبرين، وبين مصارع الظالمين، وحب الدعاة لهداية الخلق أجمعين، والصبر فى الدعوة إلى الدين. «الصحيح من قصص النبى -ﷺ-» (٣/ ٢٢).

(١) سورة الرعد: ١١.

(٢) تفسير القرطبى (٩/ ٢٥٧).

فيه بلاؤهم، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، ويسعون -فى الحقيقة- فى دمهم، كما قال قائلهم:

إلى حتفى مشى قدمى إذا قدمى أراق دمى(١)

قلتُ: وهذا من أحسن ما قرأتُ فى تفسير الآية.

وقوله تعالى:

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ أى يرسلها نقمة ينتقم بها ممَّن يشاء. قال ابن كثير:

«ولهذا تكثر فى آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمارة عن أبى نضرة، عن أبى سعيد الخدرى -رضي الله عنه- أن النبى -ﷺ- قال:

«تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتى الرجل القوم فيقول: من صعق قبلكم الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان»(٢) ا.هـ.

ولذلك كان عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذى يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول:

إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض.. رواه مالك فى «الموطأ».

وكان النبى -ﷺ- إذا سمع الرعد والصواعق قال:

«اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك» رواه أحمد.

وأخرج أحمد أيضًا عن أبى هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: **«قال ربكم عزّ وجلّ: لو أن عبيدى أطاعونى لأسقيتُهم المطر بالليل، وأطلعتُ عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوت الرعد»**.

---

(١) لطائف الإشارات (٢/ ٢١٩).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٦٤).

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

قال رسول الله -ﷺ-:

«إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً»[1].

---

(١) ذكره ابن كثير فى «التفسير» ونسبه إلى الطبرانى ولم يعقب عليه.

[١٨] أُبيُّ بنُ خَلَف

«أشد الناس عذابًا يوم القيامة!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾(١).

فمن هو أُبيُّ بن خلف؟:

هو: أبى بن خلف الجُمَحىّ.. أحد صناديد الكفر بمكة.. حارب الدعوة الإسلامية منذ بداية بزوغ شمسها.. وحاول إطفاء نورها.. فعجّل الله به إلى النار.. وكان قتله على يد رسول الله -ﷺ-.. وأشدّ الناس عذابًا فى النار رجلٌ قتل نبيًّا أو قتله نبىّ!!. فيا ويله من عذاب أليم وعقاب شديد.

روى «البخارى» فى «صحيحه» عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

«اشتد غضبُ الله على مَنْ قتله النبىُّ فى سبيل الله، اشتد غضبُ الله على قوم دَمَّوْا وجه نبىّ الله -ﷺ-».

وعن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال:

قال رسول الله -ﷺ-:

«اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيّه(٢) - اشتد غضب الله عز وجل على رجل يقتله رسول الله -ﷺ- فى سبيل الله» متفق عليه.

---

(١) سورة النحل: ٤.

(٢) أى: أدموا وجهه وآذوه.

شدة عداوته للإسلام:

كان «أبيّ بن خلف» -لعنه الله- من أشدّ الناس عداوة للرسول -ﷺ- وللإسلام.. لقد حاول جاهداً أن يقضى على دعوة الرسول فى مهدها.. فبدأ بنفسه فاستعد ليوم فاصل يكون ضربة قاصمة للإسلام والمسلمين.. ليستريح بعد ذلك باله ويقرّ قراره.. ونسى هذا المخبول.. أن الإسلام جاء ليعيش.. وأن دعوة الله دائمًا تتجدد ولا تتبدد!

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(١).

قال ابن إسحاق:

«كان أُبىّ بن خلف يلقى رسول الله -ﷺ- بمكة، فيقول:

يا محمد، إن عندى العَوذَ، فرسًا أعلفه فى كل يوم فَرقًا من ذرة، أقتلك عليه!!.

فيقول رسول الله -ﷺ-:

«بل أنا أقتلك إن شاء الله».

ولم يزد الرسول -ﷺ- على هذا.. وكان «أبىّ» يعلم جيداً صِدْق رسول الله -ﷺ- فيما يقول.. فامتلكه الرُّعب.. وأحاط به الخوف من كل مكان.. وانتظر يوم مصرعه على يد الرسول -ﷺ- قلقًا مذعوراً!!.

﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٢).

الوعد الصادق:

مَرَّت الأيام.. ودارت عجلة الزمن مسرعة.. وفى أُحد تحقق وعدُ

---

(١) سورة الصف: ٩.

(٢) سورة الأنعام: ٣٣.

الرسـول -ﷺ- والذى يدل بيـقين على صِـدق نـبوتـه.. وأنه لا ينطق عن الهوى.

عن عروة بن الزبير، قال:

«كان أُبىّ بن خلف أخو بنى جمح، قـد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله -ﷺ-، فلمّا بلغت رسول الله -ﷺ- حلفته، قال:

«بل أنا أقتله إن شاء الله».

فلمّا كان يوم أُحُد أقبل «أُبىٌّ» فى الحديد مقنّعًا، وهو يقول: «لا نجوتُ إن نجا محمد»!.

فحمل على رسول الله -ﷺ- يريد قتله، فاسـتقبله مصعب بن عـمير أخو بنى عبد الدار يقى رسول الله -ﷺ- بنفسه، فقتل مـصعب بن عمير، وأبصـر رسول الله -ﷺ- ترقـوة أُبىّ بن خلف من فُرْجـة بين سابغـة الدِّرع والبيضة، فطعنه فيها بالحربة، فوقع إلى الأرض عن فرسه(١)، ولم يخرج من طعنته دم، فأتـاه أصحابه فاحتـملوه، وهو يخور خوار الثور، فـقالوا له: ما أجزعك، إنما هو خدش؟

فذكر لهم قول رسول الله -ﷺ-:

«أنا أقتل أُبيًّا». ثم قال:

والذى نفـسى بيـده، لو كـان هـذا الذى بى بأهل ذى المجـاز لماتوا أجمعون!!. فمات إلى النار ﴿فَسُحْـقًا لأَصْحَـابِ السَّعِـيرِ﴾(٢)(٣). وقد رواه «موسى بن عقبة» فى «مغازيه» عن الزهرىّ عن سعيد بن المسيب نحوه.

وقال ابن إسحاق:

---

(١) الذى كان يعلفه بمكة!!!.

(٢) سورة الملك: ١١.

(٣) البداية والنهاية (٣/ ٣٣).

«لما أسند رسولُ الله -ﷺ- فى «الشِّعْب» أدركـه أُبىّ بن خلف، وهو يقول:

لا نجوتُ إن نجا.

فقال القوم: يا رسول الله، يعطف عليه رجلٌ منا.

فقال رسول الله -ﷺ-: «دعوه».

فلمّا دنا منه، تناول رسول الله -ﷺ- الحربة من «الحارث بن الصُّمَّة». فقـال بعض القوم -كـما ذُكـر لى- فلمّا أخـذها رسول الله -ﷺ- انتفض انتفاضـةً تطايرنا عنه، تطاير الشّعر عن ظهـر البعير إذا انتـفضه، ثم استـقبله رسول الله -ﷺ-، فطعنه فى عنقه تدأدأ منها[1] مراراً!!.

ولّما رجع إلى قومـه، وقد خدشـه الرسولُ -ﷺ- بالحربة خدشًـا غير كبير، قال:

قتلنى والله محمدا.

قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله ما بك مِنْ بأس.

قال: إنه قد كان قال بمكة:

«أنا أقتلك».

فوالله، لو بصق علىَّ لقـتلنى، فكان هذا الشقى هو الوحيـد الذى قتله رسول الله -ﷺ- بيده الكريمة.

قال حسان بن ثابت -شاعر الرسول -ﷺ-:

لقد ورث الضـلالة عن أبيه — أُبىٌّ يـوم بارزه الـرســـولُ
أتيت إليــه تحــمل رِمَّ عظمٍ — وتُوعِـدُه وأنتَ بـه جـهـولُ

وقال أيضًا:

(١) تدأدأ: أى عدا أشد العَدْو.

ألا من مُـــبْلغٍ عنى أُبيًّـــا فقـد أُلقيتَ فى سحق السّعـير
تُمَنّـى بالضـلالة منْ بعـيـد وتُقـسمُ إن قـدَرتَ مع النذورِ
تُمنِّيك الأمـانىّ من بعـيـد وقـول الكفـر يرجع فى غـرور
فـقد لاقـتك طعنة ذى حفـاظ كريم البـيت ليس بذى فـجور
له فـضل على الأحـيـاء طُراً إذا نابـت مُلمَّـات الأمـور

وهكذا كانت نهاية الطاغية.. عذاب فى الدنيا.. وشقاء فى الآخرة.

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾(١). فهل من مُدكر؟!!.

أسباب النزول

● قال الإمام القرطبى -رحمه الله تعالى- فى تفسيره لقوله تعالى:

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾(٢).

قال: ورُوِى أن المراد به أُبىّ بن خلف الجُمَحىّ، جاء إلى النبىّ -ﷺ- بعظم رميم(٣)، فقال:

أترى يحيى الله هذا بعد ما قد رمّ؟!!(٤).

● وذكر الواحدى النيسابورى فى «أسباب النزول» فى قوله تعالى:

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾(٥).

---

(١) سورة طه: ١٢٧.

(٢) سورة النحل: ٤.

(٣) وثبت أن «العاص بن وائل» فعل ذلك أيضًا فلعلها تكررت.

(٤) تفسير القرطبى (١٠/ ٦٣).

(٥) سورة النحل: ٤.

قال: نزلت الآية فى «أُبىّ بن خلف الجمحى» حين جاء بعظم رميم إلى رسول -ﷺ- فقال:

يا محمد أترى الله يحيى هذا بعد ما قد رَمّ؟!!(١).

دروسٌ وعِبَر من أسباب النزول

لا يكذِّب بالبعث بعد الموت إلا من أصيب بالضمور فى عقله.. واختل ميزان التفكير عنده... وإلاَّ فالذى خلق الإنسان أول مرة قادر على أن يعيده كما بدأه، وهو أهون عليه.

وليت شعرى أين كانت عقول كفار مكة.. وهم يخاصمون.. ويجادلون.. ويعاندون.. فى قضية واضحة كقضية البعث؟!.. أو لم ينظروا إلى بداية خلقهم؟!..

﴿خَلَقَ الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾(٢).

خلق جنس الإنسان من نطفة أى: مهينة ضعيفة، فلمّا استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً.

﴿خَلَقَ الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

ويا لها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير. بين النطفة الساذجة والإنسان المخاصم المجادل الذى يخاصم خالقه فيكفر به ويجادل فى وجوده أو فى وحدانيته.. أو فى قدرته على إعادة الخلق! وليس بين مبدئه من نطفة وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهلة.

فهكذا يصوره التعبير، ويختصر المسافة بين المبدأ والمصير، لتبدو المفارقة كاملة، والنقلة بعيدة، ويقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين:

(١) أسباب النزول (١٥٩).
(٢) سورة النحل: ٤.

مشهد النطفة المهينة الساذجة.

ومشهد الإنسان الخصيم المبين.. وهو إيجاز مقصود في التصوير.

عن بسر بن جحاش القرشي -رضي الله عنه- قال:

بصق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم وضع عليه أصبعه السبابة، ثم قال: **«يقول الله تعالى: أنى تعجزني يا ابن آدم؟! وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك، وعدلتك، مشيت بين ثوبين، وللأرض منك وئيد، ثم جمعت ومنعت، حتى إذا بلغت هذه -وأشار بيده إلى حلقه- قلت: أتصدق، وأين أوان الصدقة؟!!»**[1].

وأخرج البخاري في كتاب «التفسير» من سورة «الإخلاص» عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبيّ -صلى الله عليه وسلم- قال:

«قال الله تعالى: كذبني ابنُ آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك.

فأمّا تكذيبه إياي، فقوله:

لن يُعيدني كما بدأني، وليس أوّل الخلق بأهون عليَّ من إعادته. وأمّا شتمه إيّاي. فقوله:

اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد».

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢١٠) وغيره.

[١٩] أُميَّةُ بن خَلَف
«رأسُ الكفر»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[١].

فمن هو أمية بن خلف؟:

هو: أمية بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمح بن عمرو بن هُصَيص ابن كعب بن لؤى بن غالب، القرشىّ الجُمَحىّ المكىّ.. أحد صناديد الكفر.. الذين عذّبوا المستضعفين بمكة.. وأحد المكذّبين بالدعوة الإسلامية.. والمحاربين لها بالسنان واللسان.

عنادهُ للإسلام:

روى عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-:

أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث وأبا البخترى والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أبى أمية و«أمية بن خلف» ورؤساء قريش، اجتمعوا على «ظهر الكعبة» فقال بعضهم لبعض:

ابعثوا إلى محمد وكلّموه وخاصموه حتى تغدروا به.

فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك!.. فجاءهم سريعًا وهو يظن أنه بدا[٢] فى أمره بداء، وكان عليهم حريصًا، يحبّ رشدهم، ويعزّ عليه تعنتهم حتى جلس إليهم، فقالوا:

---

(١) سورة الكهف: ٢٨.

(٢) بدا: أى ظهر.

يا محمد إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعبتَ الدِّين، وسفّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، وما بقى أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك!!!.

فإن كنت أن ما جئت به لتطلب مالاً، جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً.

وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوَّدناك علينا..

وإن كنتَ تريد مُلْكًا ملكناك علينا.

وإن كان هذا الرئى الذى يأتيك تراه قد غلب عليك -وكانوا يسمّون التابع من الجن الرئى- بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك!.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله عزّ وجلّ بعثنى إليكم رسولاً وأنزل علىَّ كتابًا، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربى ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصْبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم».

قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غير قابل منا ما عرضنا فقد علمتَ أنه ليس من الناس أحد أضيق بلاداً ولا أقلّ مالاً ولا أشدّ عيشًا منّا، سل لنا ربّك الذى بعثك بما بعثك فليُسير عنا هذه الجبال التى ضيّقت علينا ويبسط لنا بلادنا، ويجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن ممَّن يبعث لنا منهم «قُصَىّ بن كلاب» فإنه كان شيخًا صدوقًا فنسألهم عمّا تَقول حَقٌّ هو؟!

فإن صنعتَ ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وإنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«ما بهذا بعثتُ، إنما جئتكم من عند الله سبحانه بما بعثنى به، فقد بلغتكم ما أرسلتُ به، فإن تقبلوا فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه أصبر لأمر الله».

قالوا: فإن لم تفعل هذا فسل ربّك أن يبعث لنا مَلَكًا يصدقك وسلْه فيجعل لك جنانًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة ويغنيك بها عمّا نراك فإنك تقوم فى الأسواق، وتلتمس المعاش.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«ما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثتُ بهذا إليكم، ولكن الله تعالى بعثنى بشيراً ونذيراً».

قالوا: فأسقط علينا كسفًا من السماء كما زعمتَ أن ربّك إن شاء فعل!!

فقال رسول الله -ﷺ-:

«ذلك إلى الله إن شاء فعل».

فقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلاً!!

وقال عبد الله بن أمية المخزومى -وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب- ابن عمّة النبىّ -ﷺ-: لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سُلّمًا وترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول!!!.

فانصرف رسول الله -ﷺ- إلى أهله حزينًا بما فاته من متابعة قومه، ولما رأى من مباعدتهم منه، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا

زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾(١)(٢).

هكذا كان «أمية بن خلف» هو وأخـلاء الكفر من أهل مكة.. هدفهم: الجدل.. وإساءة الأدب مع الله ورسله!!.

احتقاره لفقراء المسلمين!!:

عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، قال:

مرّ الملأ من قريش برسول الله -ﷺ-، وعنده صهيب وبلال وعمّار، وخبّاب وغيرهم، من ضعفاء المسلمين، فقالوا:

يا محمد أرضيتَ بهؤلاء من قومك؟

أهؤلاء الذين مَنّ الله عليهم مِن بيننا؟

أنحن نصير تبعًا لهؤلاء؟

اطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك، فنزلت هذه الآية:

﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾(٣).

وقد كـان «أمية بن خـلف» أحد أولئك المعتـرضين على وجود الفـقراء حول رسول الله -ﷺ-.. واستنكف عن مجالسة الرسول -ﷺ- حتى يطرد عنه الضعفاء أولاً!!.. فأنزل الله تعالى:

---

(١) سورة الإسراء: ٩٠-٩٣.

(٢) أسباب النزول للنيسابوري (١٦٧، ١٦٨).

(٣) سورة الأنعام: ٥٢، ٥٣.

﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾(١).

أخرج ابن مَرْدُويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى:

﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾، قال: نزلت في أميّة بن خلف الجُمَحي، وذلك أنه دعا النبيّ -ﷺ- إلى أمر كرهه الله من طرْد الفقراء عنه، وتقريب صناديد أهل مكة فنزلت(٢).

تعذيبه لبلال بن رباح!:

كان أمية بن خلف ممّن شارك في مكة في تعذيب المستضعفين.. والتنكيل بهم، ومحاولة إذلاَلهم ليرجعوا عن دينهم.

وكان «بلال بن رباح» -رضي الله عنه- مولى «أمية» فكان أُميّة يضع في عنقه حبلاً، ثم يُسْلمه إلى الصبيان، يطوفون به في جبال مكة، حتى كان يظهر أثر الحبل في عنقه، وكان «أمية» يشده شدًّا، ثم يضربه بالعصا، وكان يلجئه إلى الجلوس في حرّ الشمس، كما كان يكرهه على الجوع، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول:

لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعُزّى.

فيقول بلال -وهو في ذلك-:

«أحد، أحد».

حتى مرّ به «أبو بكر الصديق» -رضي الله عنه- يومًا وهم يصنعون ذلك به، فاشتراه بغلام أسود، وقيل: بسبع أواق أو بخمس من الفضة وأعتقه(٣).

---

(١) سورة الكهف: ٢٨.
(٢) أسباب النزول للسيوطي (٥٣٣، ٥٣٤).
(٣) الرحيق المختوم (٧٨، ٧٩).

مصرعه -لعنه الله-:

مَرّت الأيام ودارت عجلة الزمن، وأمية قائم على كفره وعناده.. يتميّز غيظًا ويَقْطُر حقدًا على الإسلام وأهله.. ولما دار القتال فى «بدر».. وكان «أمية» فى صفوف المشركين.. يقاتل المسلمين وقع أسيرًا هو وابنه!! فى يد «عبد الرحمن بن عوف» -رضي الله عنه-.

يقول الشيخ/ صفىّ الرحمن المباركفورى:

«كان عبد الرحمن بن عوف وأميّة بن خلف صديقين فى الجاهلية بمكة، فلمّا كان يوم بدر مَرّ به «عبد الرحمن» وهو واقف مع ابنه علىّ بن أمية، آخذًا بيده، ومع عبد الرحمن أدراع قد استلبها، وهو يحملها، فلمّا رآه قال:

هل لك فىّ؟ فأنا خير من هذه الأدراع التى معك، ما رأيتُ كاليوم قطّ، أما لكم حاجة فى اللبن[1]؟.

فطرح عبد الرحمن الأدراع، وأخذهما يمشى بهما.

قال عبد الرحمن: قال لى أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه:

مَنْ الرجل منكم المُعَلّم بريشة النعامة فى صدره؟

قلتُ: ذاك حمزة بن عبد المطلب.

قال: ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن: فوالله إنى لأقودهما إذ رآه «بلال» معى، وكان أمية هو الذى يعذّب بلالاً بمكة، فقال بلال:

رأس الكفر أمية بن خلف؟ لا نجوتُ إن نجا.

قلتُ: أى بلال، أسيرى.

قال: لا نجوت إن نجا.

---

(١) يريد: أن من أسَرَه افتدى منه بإبل كثيرة اللبن.

قلتُ: أتسمع يا ابن السوداء.

قال: لا نجوتُ إن نجا.

ثم صرخ بأعلى صوته:

يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا.

قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة، وأنا أذب عنه.

قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أميّة صيحة ما سمعتُ بمثلها قطّ، فقلت:

انج بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله ما أغنى عنك شيئًا.

قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أدراعى، وفجعنى بأسيرى.

وفى «زاد المعاد»:

أن عبد الرحمن بن عوف قال لأمية:

ابرك، فبرك، فألقى نفسه عليه، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه، وأصاب بعضُ السيف رجل عبد الرحمن بن عوف(١).

وأقبل رسول الله -ﷺ- لما انقضت الحرب حتى وقف على قتلى المشركين، فقال لهم:

«بئس العشيرة كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وخذلتمونى ونصرنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس».

ثم أمر بهم، فسحبوا إلى «قليب» من قلب بدر.

وعن أبى طلحة:

أن نبىّ الله -ﷺ- أمر يوم «بدر» بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث.

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٨٩).

وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال.

فلمّا كان ببدر اليـوم الثالث أمر براحلته فشدّ عليـها رحلها، ثم مشى، وأتبعه أصحـابه حتى قام على شفة الركى، فجعل يناديهم بأسـمائهم وأسماء آبائهم، يا فـلان ابن فـلان، ويا فلان ابـن فلان، أيسـركم أنكم أطعـتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجـدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم مـا وعدكم ربكم حقًّا؟

فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟

قال النبى -ﷺ-:

«والذى نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

وفى رواية:

«ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون»(١).

وبهذا تطوى صفـحةُ «أمية بن خلف» من على قيد الحـياة لتظل عداوته للإسلام علامة سوداء فى تاريخه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أسباب النزول

● أخرج ابن مَرْدويه من طريق جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس فى قوله تعالى:

﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾(٢)، قال:

نزلت فى «أمية بن خلف»، وذلك أنه دعا النبىّ -ﷺ- إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة، فأنزل الله:

﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ يعنى، مَنْ ختمنا على قلبه، يعنى

(١) متفق عليه.

(٢) سورة الكهف: ٢٨.

التوحيد ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يعنى الشرك ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ يعنى: فرطًا فى أمر الله وجهالة بالله(١).

● وفى «أسباب النزول» للنيسابورى (١٦٩):

عن ابن عباس فى قوله تعالى:

﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾، قال:

نزلت فى «أمية بن خلف الجمحى» وذلك أنه دعا النبىّ -ﷺ- إلى أمر كـرهه من تجرد الفـقراء عـنه، وتقريب صناديد أهـل مكة فأنزل الله تعـالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾(٢).

دروس وعبر من أسباب النزول

قوله تـعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(٣).

أى: لا تطعهم فيما يطلبون من تمييز بينهم وبين الفقراء..

فلو ذكروا الله لطامنوا من كـبريائهم، وخففوا من غلوائهم، وخـفضوا من تلك الهامـات المتشامـخة، واستشـعروا جلال الله الذى تتـساوى فى ظله الرؤوس، وأحسوا رابطة العقيدة التى يصبح بها الناس إخوة.

ولكنهم إنما يتبعـون أهواءهم. أهواء الجاهلية. ويحكمون مقايـيسها فى العباد. فهم وأقـوالهم سفه ضائع لا يستحق إلا الإغفـال جزاء ما غفلوا عن ذكر الله.

لقد جاء الإسـلام ليسوّى بين الرؤوس أمام الله. فلا تفـاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه. فهذه قيم زائفة، وقيم زائلة.

---

(١) الدر المنثور (٥/ ٣٨٢، ٣٨٣)، تفسير القرطبى (١٠/ ٣٥١).
(٢) أسباب النزول للنيسابورى (١٦٩).
(٣) سورة الكهف: ٢٨.

إنما التفاضل بمكـانها عند الله. ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجـاهها إليه وتجردها له.. وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَـن ذِكْـرِنَا﴾.. أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته، وإلى ماله، وإلى أبنائه، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته، فلم يعد فى قلبه متسع لله.

والقلب الذى يشتغل بهذه الشواغل، ويجعلها غاية حياته لا جرم يغفل عن ذكر الله، فيزيده الله غفلة، ويملى له فيـما هو فيه، حتى تفلت الأيام من بين يديه، ويلقى مـا أعـده الله لأمثـاله الذين يظلمـون أنفـسهم، ويظلمـون غيرهم[١].

(١) الظلال (٤/٢٢٦٩).

[٢٠] قَرْطُوش
«صاحب الجنتين»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[١].

فمن هو قرطوش[٢]؟:

هو: أحد أشقياء بنى آدم ﴿ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

---

(١) سورة الكهف: ٣٢-٤٤.

(٢) لم يذكر القرآن اسم صاحب الجنتين.. ولم يرد به دليل صحيح عن النبى -ﷺ-.. إنما قاله مقاتل ولعله سمعه من مسلمة أهل الكتاب.

كُفْـراً﴾(١). . وغرتـهم الحيـاة الدنيـا فاطمأنـوا بـها. . فأسكـرتهـم. . ثـم أهلكتهم!!.

يا خاطب الدنيـا إلى نفسـها | تنح عن خـطبـتـهـا تسلم
إن التـى تخـطب غــدَّارة | قـريـبـة العــرس من المأتم!

ما هى قصته؟:

قال تعالى: ﴿وَاضْـرِبْ لَهُـم مَّثَـلاً رَّجُلَـيْنِ﴾ هذا مثل لمن يتعزّز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين. . واختلف فى اسم هذين الرجلين وتعيينهما؛ فقـيل: هو مثل لعيينـة بن حِصن وأصحابه مع سـلمان وصُهيب وأصـحابه، شبههـم الله برجلين من بنى إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسـمه «يهوذا»؛ فى قول ابن عباس.

وقال مقـاتل: اسمه «تمليخـا». والآخر كافر واسـمـه «قرطوش». وهما اللذان وصفهما الله تعالى فى سورة «الصافات»(٢).

وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال:

اسم الخيِّر منهـما «تمليخا» والآخر «قرطوش»، وأنهمـا كان شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثةُ آلاف دينار.

فاشترى المؤمن منهـما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثـانية ثيابًا فكسا العراة، وبالألف الثـالثة طعامًـا فأطعم الجُـوّع، وبنى أيضًـا مساجـد، وفعل خيراً.

وأمـا الآخـر: فنكح بماله نســاء ذوات يسـار، واشـتـرى دوابّ وبقـراً فاستـنتجها فنمت له نماء مُـفرِطًا، واتَّجـر بباقيـها فربح حتى فـاق أهل زمانه غنىً.

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٨.

(٢) فى قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ...﴾ الآيات [الصافات: ٥١-٦٠].

وأدركت الأوّل الحاجةُ، فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألتهُ أن يستخدمني في بعض جنّاته رجوت أن يكوت ذلك أصلح بي.

فجاءه فلم يكد يصل إليه من غَلِظ الحجاب، فلمّا دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له:

ألم أكن قاسمتك المال نصفين! فما صنعتَ بمالك؟

قال: اشتريتُ به من الله تعالى ما هو خير وأبقى.

فقال: أئنك لمن المصدّقين، ما أظن الساعة قائمة! وما أراك إلا سفيهًا، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أني كَسَبْتُ وسفهتَ أنت، اخرج عني.

ثم كان من قصة هذا الغنيّ ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بثمره وذهابها أصلاً بما أرسل عليها من السماء من الحُسْبان.

والآن نواجه النصوص لنعايش القصة من بدايتها إلى نهايتها:

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: وجعلنا النخل محيطًا بالجنتين.

قال صاحب «الكشاف»: حفّوا إذا طافوا به... وهذه الصفة مما يؤثرها الدهاقين في كرومهم وهي أن يجعلوها محفوفة بالأشجار المثمرة، وهو أيضًا حسن في المنظر.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

والمقصود منه أمور:

أحدها: أن تكون الأرض جامعة للأقوات والفواكه.

ثانيها: أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف ومع ذلك فإنها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض.

ثالثها: أن مثل هذه الأرض تأتى فى كل وقت بمنفعة أخرى وهى ثمرة فكانت منافعها دارة متواصلة.

﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾.

يقول: كلا البستانين أطعم ثمره وما فيه من الغروس من النخل والكرم وصنوف الزرع.

﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾.

يقول: ولم تنقص من الأكل شيئًا، بل آتت ذلك تامًّا كاملاً.

﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾.

أى: كان النهر يجرى فى داخل تلك الجنتين. وقوله: ﴿ خِلالَهُمَا ﴾ أى: وسطهما وبينهما.

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾.

أى: من كل المال.

قال قطرب: كان أبو عمرو بن العلاء يقول:

«الثمر»: المال والولد.

﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾.

يقول الله عزّ وجلّ: فقال هذا الذى جعلنا له جنتين من أعناب لصاحبه الذى لا مال له.

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾.

وحاصل الكلام: أن الكافر ترفّع على المؤمن بجاهه وماله وكثرة عشيرته.

.. يقول قتادة:

وتلك والله أمنية الفاجر: كثرة المال، وعزة النفر.

ثم إنه أراد أن يظهر لذلك المؤمن كثرة ماله فأخبر الله تعالى عن هذه الحالة فقال سبحانه:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾.

يقول جلّ ثناؤه: قال لما عاين جنته، ورآها وما فيها من الأشجار والثمار والزروع والأنهار المطرودة شكًّا في المعاد إلى الله:

ما أظن أن تبيد هذه الجنة أبدًا، ولا تفنى ولا تخرب، وما أظن الساعة التي وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم فتحدث.

قال قتادة -رحمه الله تعالى-:

قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كفور لنعم ربّه، مكذّب بلقائه، متمنّ على الله. ثم تمنّى أمنية أخرى على شكّ منه، فقال:

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[1].

يقول: لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلاّ ولي عنده أفضل منها في المعاد إن رددتُ إليه.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾[2].

يقول: أكفرت بمن فعل بك هذا أن يعيدك خلقًا جديدًا بعد ما تصير رفاتًا.

﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[3].

(١) سورة الكهف: ٣٦.
(٢) سورة الكهف: ٣٧.
(٣) سورة الكهف: ٣٩.

معناه يقول: ولكن أنا أقول: هو الله ربى ﴿وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾.

﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾(١).

والمعنى هلاَّ قلتَ عند دخول جـنتك الأمر ما شاء الله والكائن مـا قدره الله اعترافًا بأنها وكل خير فيها بمشيئة الله وفضله فإن أمرها بيده إن شاء تركها وإن شاء خـربهـا، وهلاَّ قلت: لا قوة إلا بالله إقـرارًا بأن ما قـويت به على عمارتـها وتدبير أمرها فـهو بمعونة الله وتأييده لا يقـوى أحد فى بدنه ولا فى ملك يده إلا بالله.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً﴾(٢).

كأنه يقول له:

إن كنت ترانى ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً﴾ وأنصـارًا فى الدنيـا الفـانيـة. ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ﴾(٣).

إمّا فى الدنيا، وإما فى الآخرة ويرسل على جنتك:

﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾(٤).

أى: عذابًا وتخريبًا.. والحسبان: هى «الصواعق».

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقًا﴾(٥).

أى: فتصبح جنتك أرضًا ملساء لا نبات فيها، والصعيد وجه الأرض.

﴿زَلَقًا﴾ أى: تصير بحيث تزلق الرِّجل عليها زلقًا.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾(٦).

---

(١) سورة الكهف: ٣٩.
(٢) سورة الكهف: ٣٩.
(٣) سورة الكهف: ٤٠.
(٤) سورة الكهف: ٤٠.
(٥) سورة الكهف: ٤٠.
(٦) سورة الكهف: ٤١.

أى يغوص ويسفل فى الأرض.

﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾(١).

أى: فيصير بحيث لا تقدر على رده إلى موضعه.

خسارة الدنيا:

لم يهنأ «المغـرور» بجنتيه طويـلاً.. فقد عـاجله الله بعقـوبة.. دمَّرت مملكته.. واقتلعت جذورها.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾(٢).

وهو عبارة عن إهلاكه بالكلية وأصله من إحاطة العدو لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل فى كل إهلاك.

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾(٣).

وهو: كناية عن الندم والحسرة فإن من عظمت حسرته يصـفق إحدى يديه على الأخرى، وقد يمسح إحداهمـا على الأخرى، وإنما يفعل هذا ندامة على ما أنفق فى الجنة.

﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾(٤).

أى: ساقطة على عـروشها... وحـاصل الكلام: أن هذه اللفظة كناية عن بطلانها وهلاكها.

ورحم الله القائل:

يا راقـداً الليل مـسروراً بأوّله ... إن الحوادثَ قدَ يَطرُقن أسْحَارا
أَفْنَى القرون التى كـانت مُنعّمة ... كـرّ الجـديدين إقبـالاً وإدبارا

(١) سورة الكهف: ٤١.
(٢) سورة الكهف: ٤٢.
(٣) سورة الكهف: ٤٢.
(٤) سورة الكهف: ٤٢.

كم قد أبادت صروفُ الدَّهر من مَلك ... قـد كـان فى الدهر نَفَّـاعًـا وضـرَّارا
يا مَنْ يُعـانق دنـيـا لا بقـاءَ لهـا ... يُمـسى ويُصْبـح فى دنيـاه سـفَّـارا
هلاّ تركـتَ من الدنيـا مُـعَـانقـة ... حتى تـعـانق فى الفـردوس أبْكارا
إن كنت تبـغى جنَانَ الخـلد تسكُنهـا ... فـيـنبـغى لك أن لا تأمَنَ الـنارا

لقد ندم الكافـر حيث لا ينفع الندم وها هو يقلب كـفيه على ما أنفـقه فيها.

﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾(١).

قال الإمام الفخر:

«والمعنى: أن المؤمن لما قال:

﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ فهذا الكافر تذكر كلامه وقال: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾.

فإن قـيل: «هذا الكلام يوهم أنه إنما هلكت جنتـه بشؤم شـركه وليس الأمر كذلك لأن أنواع البلاء أكثرها إنما يقع للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾(٢). وأيضًا فلما قال: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ فقد ندم على الشرك ورغب في التوحـيد فوجب أن يصير مـؤمنًا، فلم قال تعالى بعده ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾(٣).

الجواب عن السؤال الأول: أنه لما عظمت حسرتـه لأجل أنه أنفق عمره فى تحصـيل الدنيا وكان معـرضًا فى كل عمره عن طلب الدين فلمـا ضاعت الدنيا بالكلية بقى الحرمان على الدنيا وعليه فلهذا السبب عظمت حسرته.

---

(١) سورة الكهف: ٤٢.
(٢) سورة الزخرف: ٣٣.
(٣) سورة الكهف: ٤٣.

الجواب عن السؤال الثانى: «أنه إنما ندم على الشرك لاعتقاد أنه لو كان موحداً غير مشرك لبقيت عليه جنته، فهو إنما رغب فى التوحيد والرد عن الشرك لأجل طلب الدنيا فلهذا السبب ما صار توحيده مقبولاً عند الله»(١) ا.هـ.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(٢).

أى: ولم يكن لصاحب هاتين الجنتين فئة، وهم الجماعة يمنعونه من عقاب الله.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾(٣).

يقول: ولم يكن ممتنعًا من عذاب الله إذا عذَّبه.

﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾(٤).

فيه وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى لما ذكر من قصة الرجلين ما ذكر علمنا أن النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر وعرفنا أن الأمر هكذا يكون فى حق كل مؤمن وكافر فقال تعالى:

﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾.

أى: فى مثل ذلك الوقت وفى مثل ذلك المقام تكون الولاية لله يوالى أولياءه فيغلبهم على أعدائه ويفوض أمر الكفار إليهم فقوله تعالى:

﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى الموضع والوقت الذى يريد الله إظهار كرامة أوليائه وإذلال أعدائه.

الوجه الثانى: فى التأويل: أن يكون المعنى فى مثل تلك الحالة الشديدة يتولى إليه كل محتاج مضطر.

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/٣١٥).
(٢) سورة الكهف: ٤٣.
(٣) سورة الكهف: ٤٣.
(٤) سورة الكهف: ٤٤.

يعنى أن قوله تعالى:

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ كلمة ألجئ إليها ذلك الكافر فقالها جزعًا مما ساقه إليه شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها.

الوجه الثالث: المعنى هنالك الولاية لله ينصر بها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم ويشفى صدورهم من أعدائهم، يعنى: أنه تعالى نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله فى قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

ويعضده قوله تعالى:

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾(١).

اى: لأوليائه.

الوجه الرابع: أن قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى الدار الآخرة، أى: فى تلك الدار الآخرة. ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ﴾ كقوله تعالى:

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾(٢).

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أى: فى الآخرة لمن آمن به والتجأ إليه.

﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ اى: خير عاقبة لمن رجاه وعمل لوجهه.

خسارة الآخرة:

وهذه أدهى وأمر.. فبعد أن «بيّن الله تعالى حال الأخوين فى الدنيا فى هذه السورة، بيّن حالهما فى الآخرة فى سورة «الصافات» فى قوله تعالى:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ

---

(١) سورة الكهف: ٤٤.

(٢) سورة غافر: ١٦.

﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾(١)(٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ المقصود أهل الجنة.

والمعنى: يتفاوضون فيما بينهم أحاديثهم فى الدنيا. وهو من تمام الأُنس فى الجنة.

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عمّا جرى لهم وعليهم فى الدنيا.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أى: من أهل الجنة.

﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أى: صديق ملازم.

﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أى: بالبعث والجزاء.

قال الإمام القرطبى: وقد مضى فى «سورة الكهف» ذكرهما وقصتهما والاختلاف فى اسميهما مستوفىً عند قوله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾(٣). وفيهما أنزل الله عز وجل: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ إلى: ﴿الْمُحْضَرِينَ﴾(٤).

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾(٥).

أى: مجزيون محاسبون بعد الموت.

فقال الله تعالى لأهل الجنة:

---

(١) سورة الصافات: ٥٠- ٦١.
(٢) راجع تفسير القرطبى (١٠/٣٥٨).
(٣) سورة الكهف: ٣٢.
(٤) تفسير القرطبى (١٥/ ٧٥).
(٥) سورة الصافات: ٥٣.

﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾(١).

﴿فَاطَّلَعَ﴾ أى: المؤمن. ﴿فَرَآهُ﴾ أى: رأى الكافر الذى أهلك الله جنتيه فى الدنيا. ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾(٢).

أى: فى وسط النار والحَسكُ حواليه، قاله ابن مسعود.

قال بعض العلماء:

«لولا أن الله عزّ وجلّ عرّفه إياه لما عرفه، لقد تغيَّر حِبْرُهُ وسِبْرُهُ»(٣).

قال كعب -رحمه الله تعالى-:

«إن بين الجنة والنار كُوىً، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له فى الدنيا اطلع من بعض الكوى، قال الله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ فلما رآه، قال:

﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾(٤).

أى: لتهلكنى، والردى الهلاك.

﴿وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي﴾(٥).

أى: عصمته وتوفيقه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القرين السوء.

﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾(٦).

قال الفراء: أى لكنت معك فى النار محضراً.

---

(١) سورة الصافات: ٥٤.
(٢) سورة الصافات: ٥٥.
(٣) الحبر والسبر: اللون والهيئة.
(٤) سورة الصافات: ٥٦.
(٥) سورة الصافات: ٥٧.
(٦) سورة الصافات: ٥٧.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1].

قيل: هو من قول المؤمن توبيخًا للكافر لما كان ينكره من البعث، وأنه ليس إلا الموت فى الدنيا.

ثم قال المؤمن مشيراً إلى ما هو فيه:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[3].

إنها دعوة من الله تعالى إلى العمل الصالح. . . ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ النعيم الذى لا يدركه فوت، ولا يخشى عليه من نفاد، ولا يعقبه موت، ولا يتهدده العذاب.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ فهذا هو الذى يستحق الاحتفال. وما عداه مما ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود.

فوائد وعظات من القصة

١- الإيمان والعمل الصالح. . من أسباب سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة. . وهذا «المؤمن» قد أنفق كل ماله فى وجوه الخير. . طامعًا فى رحمة الله. . راغبًا فى جنته. . خائفًا من عذابه. . فبين الله تعالى عاقبة أمره. . فأعطاه ما يرجو. . وأمَّنه مما يخاف. . وذلك الفوز العظيم.

٢- الجحود والكفران. . من أسباب تعاسة الإنسان فى الدنيا والآخرة. . وهذا «الكافر» أبطرته النعمة فكفر بالمنعم سبحانه. . وكفر بالبعث بعد الموت. . فكان عاقبة أمره خسراً. . خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين، فالسعيد من وعظ بغيره.

(١) سورة الصافات: ٥٧، ٥٨.

(٢) سورة الصافات: ٦٠.

(٣) سورة الصافات: ٦١.

«موعظة» كتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز:

«أما بعد:

فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم -عليه السلام- من الجنة إلى الأرض عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها. لها فى كل حين قتيل. تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، هى كالسّم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه، فكن فيها كالمداوى جراحه يحتمى قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء، فاحذر هذه الدار الغدّارة الختالة الخدّاعة التى قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وحلت بآمالها وسوّفت بخطابها، فأصبحت كالعروس المجلية. العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة وهى لأزواجها كلهم قالية. فلا الباقى بالماضى معتبر ولا الآخر بالأول مزدجر، ولا العارف بالله عزّ وجلّ حين أخبره عنها مدّكر. فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد، فشغل فيها لُبّه حتى زلت به قدمه، فعظمت ندامته وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغصته، وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها؛ فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السارّ فى أهلها غار، والنافع فيها غدّار ضار، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ما ولّى وأدبر، ولا يدرى ما هو آت فينتظر. أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على خطر».

[٢١] العاص بن وائل

«الكافر بآيات الله!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾(١).

فمن هو العاص بن وائل؟:

هو: العاص بن وائل السَّهمى، أحد كفار مكة.. الذين آذوا النبى -ﷺ-.. وجحدوا أمر ربّهم.. وأحد المناوئين للإسلام إلى أن أخذه الله أخذ عزيز مقتدر.. فأراح منه البلاد والعباد.

أذاه للنبى -ﷺ-!:

استطال هذا الشقى فى عِرض رسول الله -ﷺ-.. وانتقصه.. وسخر منه.. وعيَّره بالولد.. كما يفعل الجهلاء فى كل عصر.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾(٢).

قال: نزلت فى «العاص» وذلك أنه رأى رسول الله -ﷺ- يخرج من

---

(١) سورة مريم: ٧٧ - ٨٠.

(٢) سورة الكوثر: ١ - ٣.

المسجد[١] وهو يدخل فالتقيا عند باب بنى سهم وتحدّثا وأناسٌ من صناديد قريش فى المسجد جلوس، فلمّا دخل العاص، قالوا له: مَنْ الذى كنتَ تحدّث؟

قال: ذاك الأبتر[٢] -يعنى النبىّ -ﷺ- وكان قد تُوفِّى قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله -ﷺ- وكان من خديجة، وكانوا يسمّون من ليس له ابن أبتر فأنزل الله تعالى هذه السورة[٣].

قال ابن كثير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أى: إن مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو «الأبتر» الأقل الأذل المنقطع ذِكْره.

ثم ذكر -رحمه الله تعالى- الخلاف فى أسباب نزولها.. فقيل: نزلت فى العاص بن وائل.. وقيل: فى كعب بن الأشرف، وقيل: فى أبى لهب، وقيل: فى أبى جهل.. ثم قال:

«وهذا يعم جميع من اتصف بذلك مِمَّن ذُكر وغيرهم» ا.هـ.

وقال محمد بن إسحاق:

حدثنى يزيد بن رومان، قال:

كان العاص بن وائل السهمى إذا ذكر رسول الله -ﷺ- قال: دعوه فإنما هو رجلٌ أبتر لا عقب له لو هلك انقطع ذِكْره واسترحتم منه فأنزل الله تعالى فى ذلك:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ إلى آخر السورة.

وقال عطاء عن ابن عباس:

---

(١) المسجد الحرام.

(٢) قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: الذى لا ولد له.

(٣) أسباب النزول للنيسابورى (٢٥٧). وتفسير القرطبى (٢٠/١٩٧).

كان العاص بن وائل يمرّ بمحمد -ﷺ- ويقول:

إنى لأشنأك(١)، وإنك لأبتر من الرجال، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ من خير الدنيا والآخرة(٢).

إنكاره للبعث بعد الموت!!:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

إن العاص بن وائل أخذ عَظْمًـا من البطحاء ففته بيـده، ثم قال لرسول الله -ﷺ-:

أيحيى الله هذا بعد ما أرم؟

فقال رسول الله -ﷺ-:

«نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم». قال:

ونزلت الآيات من آخر «يس»:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٣)(٤).

لقد بدأت الآيات بمـواجهة الإنسـان بواقعه هو ذاته فـى خاصة نفـسه.

(١) أشنأك: أى: أبغضك.

(٢) أسباب النزول للنيسابورى (٢٥٨).

(٣) سورة يس: ٧٧ - ٨٣.

(٤) أخرجه الحاكم فى «التفسير» (٣٦٠٦). وصححه. ووافقه فى «التلخيص» وقال: صحيح على شـرط البخـارى ومسلم.. وذكـرت بعض الروايات أن الذى جـاء «أبىّ بن خلف» والصحيح ما ذكرته.

وهذا الواقع يصور نشأته وصيرورته ممّا يراه واقعًا فى حياته، ويشهده بعينه وحسّه مكرراً مُعاداً. ثم لا يتنبه إلى دلالته، ولا يتخذ منه مصداقًا لوعد الله ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره..

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾..

فما النطفة التى لا يشك الإنسان فى أنها أصله القريب؟

إنها نقطة من ماء مهين، لا قوام ولا قيمة! نقطة من ماء تحوى ألوف الخلايا.. خلية واحدة من هذه الألوف هى التى تصير جنينًا ثم تصير هذا الإنسان الذى يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل!.

والقدرة الخالقة هى التى تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم المبين.

وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير!

أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور؟

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾..

يا للبساطة! ويا لمنطق الفطرة! ومنطق الواقع القريب المنظور!.

وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت؟

أو ليس من تلك النطفة كان الإنسان؟

أو ليست هذه هى النشأة الأولى؟

أو ليس الذى حوّل تلك النطفة إنسانًا، بقادر على أن يحوّل العظم الرميم مخلوقًا حيًا جديداً؟

إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال. فما بال الجدل الطويل؟!

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

ثم يزيدهم إيضاحًا لطبيعة القدرة الخالقة، وصنعها فيما بين أيديهم وتحت أعينهم مما يملكون:

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

والمشاهدة الأولية تقنع بصدق هذه العجيبة؟ العجيبة التى يمرّون عليها غافلين.

عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الرّيان بالماء، يحتك بعضه ببعض فيولد نارًا؛ ثم يصير هو وقود النار. بعد اللدونة والاخضرار.. والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التى يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التى يمتصها، ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة؛ والتى تولّد النار عند الاحتكاك، كما تولد النار عند الاحتراق..

هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزًا فى الحسّ ووضوحًا.

والخالق هو الذى أودع الشجر خصائصه هذه.

والذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

غير أننا لا نرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحِسّ الواعى.

فلا تكشف لنا أسرارها المعجبة. ولا تدلنا على مبدع الوجود.

ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها، ولعشنا معها فى عبادة دائمة وتسبيح!

ثم يستطرد فى عرض دلائل القدرة وتبسيط قضية الخلق والإعادة للبشر أجمعين!

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾.

والسموات والأرض خلق عجيب هائل دقيق.. هذه الأرض التى نعيش عليها ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع، ثم لا نبلغ نحن شيئًا من حجمها، ولا شيئًا من حقيقتها، ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل..

هذه الأرض كلها تابع صغير من توابع الشمس التى تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها.. وهذه الشمس واحدة من مائة مليون فى المجرة الواحدة التى تتبعها شمسنا.. وفى الكون مجرَّات أخرى كثيرة.

تلك الشموس التى لا يحصيها العَدّ.. لكل منها فلك تجرى فيه. ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس.. وكلها تجرى وتدور فى دقة وفى دأب.. لا تتوقف لحظة ولا تضطرب. وإلاَّ تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة فى الفضاء الوسيع.

هذا الفضاء الذى تسبح فيه تلك الملايين التى لا يحصيها العَدّ، كأنها ذرَّات صغيرة. لا نحاول تصويره ولا تصوره.. فذلك شيء يدير الرؤوس!

وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب؟

﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾.

ولكن الله يخلق هذا وذلك ويخلق غيرهما بلا كلفة ولا جهد. ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير:

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾.

يكون هذا الشيء سماء أو أرضًا. ويكون بعوضة أو نملة. هذا وذلك سواء أمام الكلمة.. كن.. فيكون!.

لعلنا ندرك بعد هذا بلاهة «العاص بن وائل».. وضمور تفكيره عندما كذَّب بالبعث بعد الموت.. واستعظم على الخالق الأعظم أن يعيد الخلق كما بدأه!!.

فاستحق بذلك قول النبى -ﷺ-:

«نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم».

نهايته:

كان «العـاص بن وائل» من أسوأ الناس مـعاملة.. يأكل أمـوال الناس بالباطل.. ولا يؤدِّى مـا عليه مِن دَيْن -كما سـيأتى فى قصته مـع خباب بن الأرت -رضي الله عنه-!!..

فأضاف إلى عبادة الأصنام عبادة المال!! فاجتمع فيه الشرّ كله!!

وفى الحديث الصحيح:

«تعس عبد الدرهم، تعس عـبد الدينار، تعس عبد الخميـصة، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش(١)».

ذكر الإمام الطبرى فى تفسيره (٧/ ٦٠٥) عن قتادة فى قوله تعالى:

﴿إِنَّـا كَفَيْنَـاكَ الْمُسْتَهْـزِئِينَ﴾(٢) أن العاص بن وائل وطئ على شوكة فتساقط لحمه عن عظامه حتى هلك!!(٣) فعجّلت به تلك الشوكة إلى النار.. ليجد جزاء ما قدّم.. ويومها تطول حسراته!

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِـقَاءِ اللَّـهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُـمُ السَّاعَـةُ بَغْتَـةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيـهَا وَهُـمْ يَحْمِلُـونَ أَوْزَارَهُـمْ عَـلَىٰ ظُهُورِهِـمْ أَلَا سَـاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(٤).

أسباب النزول

● عن مسروق، عن خبّاب بن الأرت -رضي الله عنه-، قال:

كنتُ قينًا(٥) فى الجاهليـة وكان لى على «العاص بن وائل» دَيْن فأتـيتُه أتقاضاه، فقال:

---

(١) قوله -صلى الله عليه وسلم-: «وإذا شيك فـلا انتقش» دعاء عليه إذا دخلت شوكـة فى جسده لا تخرج حتى تهلكه.

(٢) سورة الحجر: ٩٥.

(٣) راجع قصة «الوليد بن المغيرة» من هذا الكتاب.

(٤) سورة الأنعام: ٣١.

(٥) قينًا: أى يصنع السيوف.

لا أعطيك حتى تكفر بمحمد!!.

فقلتُ: لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث.

قال: دعنى حتى أموت وأبعث فسأوتى مالاً وولدًا فأقضيك.

فنزلت:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[1][2].

● وفى «أسباب النزول» للنيسابورى (١٧١):

عن مقاتل، قال:

كان «خباب بن الأرت» -رضي الله عنه- قينًا، وكان يعمل للعاص بن وائل السَّهمى، وكان العاص يؤخّر حقّه فأتاه يتقاضاه، فقال العاص: ما عندى اليوم ما أقضيك.

فقال: لستُ بمفارقك حتى تقضينى.

فقال العاص: يا خبّاب ما لك ما كنتَ هكذا، وإن كنتَ تحسن الطلب!.

فقال خباب: ذاك أنى كنت على دينك، فأمّا اليوم فأنا على الإسلام مفارق لدينك.

قال: أولستم تزعمون أن فى الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا؟

قال خبّاب: بلى.

قال: فأخرنى حتى أقضيك فى الجنة!! -استهزاء- فوالله لئن كان ما

---

(١) سورة مريم: ٧٧-٨٠.

(٢) أخرجه البخارى (٤٤/١٠)، ومسلم (١٣٨/١٧) والترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

تقول حقًّا أنى لأفضل فيها نصـيبًا منك!! فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾(١) -يعنى: العاص-.

● وقال العوفى عن ابن عباس:

إن رجالاً مـن أصحـاب رسول الله -ﷺ- كانوا يطلبـون «العاص بن وائل» بديْن، فأتوه يتقاضونه، فقال:

ألستم تزعمون أن فى الجنة ذهبًا وفضة وحريراً، ومن كل الثمرات؟

قالوا: بلى.

قال: فـإن موعـدكم الآخرة، فـوالله لأوتين مالاً وولداً، ولأوتين مـثل كتابكم الذى جئتم به، فضرب الله مثله فى القرآن، فقال:

﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ - إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾(٢).

دروس وعبر من أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْـــتَ الَّـــذِي كَفَـــرَ بِآيَاتِنَـا﴾(٣) -يعنى: العـاص بن وائل-.

﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾(٤): تهكمًا واستخفافًا بالبعث!

قال القرطبى فى قوله تعالى:

﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ وجهان:

أحدهـما: أنه أراد فى الجنة اسـتهـزاءً بما وعد الله تعـالى على طاعتـه وعبادته.

---

(١) سورة مريم: ٧٧-٨٠.
(٢) تفسير ابن كثير (٣/٢١٨).
(٣) سورة مريم: ٧٧.
(٤) سورة مريم: ٧٧.

الثانى: أنه أراد فى الدنيا - ومال القرطبى للقول الأول-.

قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾[1].

إنكار على هذا القائل ﴿لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ يعنى يوم القيامة، أى: أعلم ما له فى الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك.

﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾[2]. أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك.

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها.

﴿كَلاَّ﴾[3] هى حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها؛ ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾[4] أى: عليه قوله فنجازيه به فى الآخرة.

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾[5]. أى: سنزيده عذابًا فوق عذاب.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾[6]. أى: نسلبه ما أعطيناه فى الدنيا من مال وولد.

وقال ابن عباس: أى نرثه المال والولد بعد إهلاكنا إياه.

وقيل: نحرمه ما تمناه فى الآخرة من مال وولد، ونجعله لغيره من المسلمين.

وقال صاحب الظلال:

«أى نأخذ ما يخلفه مما يتحدث عنه من مال وولد كما يفعل الوارث بعد موت الموروث».

﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[7].

---

(١) سورة مريم: ٧٨.
(٢) سورة مريم: ٧٨.
(٣) سورة مريم: ٧٩.
(٤) سورة مريم: ٧٩.
(٥) سورة مريم: ٧٩.
(٦) سورة مريم: ٨٠.
(٧) سورة مريم: ٨٠.

أى: منفردًا لا مال له ولا ولد ولا عشيـرة تنصره.. فما له من قوة ولا ناصر.. لا يتبعه قليل ولا كثير!!.

هكذا سيأتى «العاص» -يوم القيامـة- لا مال معه ولا ولد ولا نصير له ولا سند، مجرّدًا ضعيفًا وحيدًا فريدًا.

فهل رأيت إلى هـذا الذى كفر بآيات الله وهو يحـيل على يوم لا يملك فيه شيئًا؟

يوم يجرّد من كل ما يملك فى هذه الدنيا؟

إنه نموذج من نماذج الكفّار. نمـوذج الكفر والادعاء والاستـهتار.. فـيا تعاسة من كفر بالله.

[٢٢] مُوسى السَّامريّ

«الماكر الذى أصابته دعوةُ موسى -عليه السلام-»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾[١].

---

(١) سورة طه: ٨٣ - ٩٧.

فمن هو السامريّ؟:

هو: موسى السامرى[١]، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-:

«كان السامرى» من قوم يعبدون البقر، فوقع بأرض مصر فدخل فى دين بنى إسرائيل بظاهره، وفى قلبه ما فيه من عبادة البقر.

وقيل: كان رجلاً من القبط، وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه. وقيل: كان عظيمًا من عظماء بنى إسرائيل، من قبيلة تعرف بالسّامرة وهو معروف بالشام.

قال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان[٢].

ما هى قصته؟:

لمّا خرج موسى -عليه السلام- ومعه سبعون رجلاً للميقات على جبل «الطور»[٣]، استخلف -عليه السلام- «هارون» على بنى إسرائيل، وقال له:

﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤].

فلمّا ذهب -عليه السلام- إلى الميقات.. مكث على الطور يناجيه ربه.. ويسأله موسى عن أشياء كثيرة، وهو تعالى يجيب عنها.. وتأخّر موسى على قومه وفى هذه الأثناء -عمد «السامرى» إلى حيلة خبيثة فحواها:

أن نساء بنى إسرائيل لما خرجن مع موسى -عليه السلام- من أرض مصر، أخذن من نساء آل فرعون بعضًا من حُلِيّهم -على سبيل الاستعارة- وأوهموهن أنهن سيخرجن لعيد لهن -فانتهز السامرىّ هذا.. وقال لبنى إسرائيل حين استبطأوا موسى -عليه السلام-:

«إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلىّ!!» فجمعوه ودفعوه

---

(١) وفى البداية (١/ ٣٩٥): «هارون السامرىّ».

(٢) تفسير القرطبى (١١/ ١٤٨).

(٣) وذلك لتلقى الألواح.. وكان هذا بعد نجاتهم من فرعون وجوازهم البحر.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٢.

إلى «السامرىّ» فرمى به فى النار، وصاغ لهم منه عجلاً، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو «جبريل -عليه السلام-».

وكان الخبيث قد رأى جبريل على فرس له يسمى «الحياة» وذلك عند عبوره البحر، فأخذ قبضة من أثر الفرس.. فكان لا يلقيها على شىء إلاّ دبَّت فيه الحياة!!.

وكان يعلم مدى استعداد شعب بنى إسرائيل لعبادة البقر!.

قال قتادة:

«كان السامرىّ عظيمًا فى بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها «سامرة»، ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى، فلما مرَّت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم:

﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(١) فاغتنمها السّامرى وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل!!».

والمقصود: أنه لمّا صنع «العجل» وألقى عليه القبضة التى أخذها من أثر فرس الرسول.. جعل العجل «يخورا».. وجعل بنو إسرائيل يرقصون حوله.. ويصيحون.. وكان إذا خار سجدوا(٢)!! وقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾(٣). أى: فضلّ موسى وذهب يطلبه فلم يعلم مكانه، وأخطأ الطريق إلى ربّه. وقيل معناه: فتركه موسى هنا وخرج يطلبه. أى ترك موسى إلهه هنا!!.

هارون -عليه السلام- يُحَذِّرهم:

ولمّا رأى هارون ما أحدثه بنو إسرائيل من عبادة للعجل من دون الله.. قام بدوره فى الأمر والنهى:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ

(١) سورة الأعراف: ١٣٨.

(٢) قال ابن عباس: خار كما يخور الحىّ من العجول!!.

(٣) سورة طه: ٨٨.

فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[١]. أى: قال لهم من قبل أن يأتى موسى من ميقات ربه... إنما ابتليتم وأضللتم به -أى بالعجل- وإن ربكم الرحمن -لا العجل- فاتبعونى فى عبادته -سبحانه- وأطيعوا أمرى لا أمر السّامرىّ.

فقام إليه بنو إسرائيل.. فضربوه حتى كادوا يقتلوه.. وقالوا:

﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[٢] فاعتزلهم هارون فى اثنى عشر ألفًا من الذين لم يعبدوا العجل[٣].

كان موسى -عليه السلام- قد علم بعبادة قومه للعجل.. وهو على جبل الطور.. أعلمه بذلك ربه -سبحانه وتعالى- وإليك الحوار الذى دار بين موسى وربّه-:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أى أنهم بالقرب منى ينتظرون عودى إليهم.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ فكنّى عن ذكر الشوق وصدقه إلى ابتغاء الرضا.

وكانت عائشة -رضي الله عنها- إذا آوت إلى فراشها تقول:

«هاتوا المجيد» فتؤتى بالمصحف فتأخذه فى صدرها وتنام معه تتسلّى بذلك. رواه سفيان عن مسعر عن عائشة -رضي الله عنها-. وكان -عليه الصلاة والسلام- إذا أمطرت السماء خلعَ ثيابه وتجرّد حتى يصيبه المطر ويقول:

«إنه حديث عهد بربّى»[٤]، فهذا من الرسول -ﷺ- وممّن بعده من قبيل الشوق.

---

(١) سورة طه: ٩٠.

(٢) سورة طه: ٩١.

(٣) تفسير القرطبى (١١/ ١٥١).

(٤) عن أنس قال: أصابنا ونحن مع رسول الله -ﷺ- مطر. قال: فحسر رسول الله -ﷺ- ثوبه حتى أصابه من المطر. فقلنا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ قال: «لأنه حديث عهد بربّه تعالى». أى بتكوين ربه إياه. ومعناه أن المطر رحمة. والحديث رواه مسلم.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾: أى: دعاهم السامرى إلى الضلالة أو هو سببها.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: حزينًا على ما صنع قومه من بعده.

فلما رجع موسى -عليه السلام- إلى قومه وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال: هذا صوت الفتنة، فلمَّا رأى «هارون» أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبًا و﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[1].

والمعنى: ما منعك عن اتباعى فى الإنكار عليهم. وقيل: معناه هلاَّ قاتلتهم إذ قد علمت أنى لو كنتُ بينهم لقاتلتُهم على كفرهم.

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وفى سورة «طه»، قال:

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[3].

فتركه موسى ثم أقبل على «السّامرىّ» فـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أى: ما أمرك وشأنك، وما الذى حملك على ما صنعت؟

فقال السامرىّ:

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ يعنى: رأيت ما لم يروا؛ رأيتُ جبريل على فرس الحياة، فأُلقى فى نفسى أن أقبض من أثره قبضة، فما ألقيتُه على

---

(١) سورة طه: ٩٢، ٩٣.
(٢) سورة الأعراف: ١٥٠.
(٣) سورة طه: ٩٤.

شيء إلا صار له روح ولحم ودم؛ فلمّا سألوك أن تجعل لهم إلهًا زيَّنَتْ لى نفسى ذلك.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أى طرحتها فى العجل.

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أى زينته.

الدعاء المستجاب:

فعند ذلك دعا موسى -عليه السلام- على «السّامرى»: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ﴾ أى قال له موسى فاذهب أى من بيننا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾.

أى: لا أمسّ ولا أُمسّ طول الحياة. فنفاه موسى عن قومه وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلّموه عقوبة له.

قال الحسن: جعل الله عقوبة السّامرىّ ألا يماسّ الناس ولا يماسّوه عقوبة له ولما كان منه إلى يوم القيامة.

كأن الله عز وجل شدّد عليه المحنَة، بأن جعله لا يماسّ أحدًا ولا يمكن من أن يمسّه أحد، وجعل ذلك عقوبة له فى الدنيا.

قال الإمام القرطبى:

«هذه الآية أصل فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وألا يخالطوا، وقد فعل النبى -ﷺ- ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذى خلّفوا ومن التجأ إلى الحرم وعليه قتلٌ لا يُقْتل عند بعض الفقهاء، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى، وهو إرهاق إلى الخروج. ومن هذا القبيل التغريب فى حدّ الزّنى»[2].

---

(١) سورة طه: ٩٧.

(٢) تفسير القرطبى (١١/ ١٥٤).

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ يعنى يوم القيامة، أى: إن لك وعداً لعذابك لابد لك من أن تصير إليه.

﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾[1].

﴿ ظَلْتَ عَلَيْهِ ﴾: أى دمت وأقمت عليه.

﴿ عَاكِفًا ﴾ أى: ملازمًا.

﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾[2].

قال ابن عباس: سحله بالمبارد وألقاه على النار.

وروى ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب -رضي الله عنه-، قال:

إن موسى -عليه السلام- لمّا تعجّل إلى ربّه عمد السّامرىّ فجمع ما قدر عليه من حُلِىّ نساء بنى إسرائيل، ثم صوّره عجلاً، قال:

فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد، فبرده بها وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء مِمّن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى:

ما توبتنا؟

قال: يقتل بعضكم بعضًا»[3].

قال الإمام القشيرى:

قوله جلّ ذكره:

﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾.

قال: «كُلُّ ما تعلق به القلب من دون الله ينسفه الحق -سبحانه-

(١) سورة طه: ٩٧.

(٢) سورة طه: ٩٧.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٢).

بِمُحِبِّه[1]؛ وبهذا يُلْقى الأصنام غدًا فى النار مع الكفار، وليس لها جُرْمٌ، ولا عليها تكليف، ولا لها عِلمٌ ولا خبر.. وإنما هى جمادات»[2].

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[3].

قال مالك بن أنس -رحمه الله تعالى-:

«ما مِنْ مُبْتدع إلا وتجد فوق رأسه ذِلّة، ثم قرأ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ -حتى قال-: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أى: المبتدعين».

وبعد أن لقى «السامرىّ» الجزاء العادل فى الدنيا والآخرة.. سُقط فى أيدى عبدة العجل.. وجأروا إلى الله تعالى بالتوبة.. لكن لم يقبل الله توبتهم إلا بالقتل!! قال تعالى:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4].

قال الشيخ الشنقيطى -رحمه الله تعالى-:

«بين الله فى هذه الآية الكريمة أن عبدة العجل اعترفوا بذنبهم، وندموا على ما فعلوا، وصرح فى سورة «البقرة» بتوبتهم ورضاهم بالقتل وتوبة الله جل وعلا عليهم بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا

---

(١) الباء هنا معناها «مع».
(٢) لطائف الإشارات (٢/ ٤٧٥).
(٣) سورة الأعراف: ١٥٢.
(٤) سورة الأعراف: ١٤٩.

إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١).

فانظر أخى القارئ كيف يفعل المكر السيئ بأهله؟!

هل جنى منه السامرىّ إلا خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾(٢).

فوائد وعبر من قصة السامرى

١- دلَّت القصة على أن «الوثنية» متأصلة آثارها فى قلوب بنى إسرائيل.

٢- أن التعبد المصحوب بالرّقص.. والطبل.. والزمر.. والتواجد.. ليس من دين الله فى شىء.

سئل الإمام أبو بكر الطرطوشى -رحمه الله-:

ما يقول سيدنا الفقيه فى مذهب الصوفية؟ وأعلِم -حرس الله مدته- أنه اجتمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد -ﷺ-، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شىء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيًا عليه، ويحضرون شيئًا يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟

أفتونا مأجورين، وهذا القول الذى يذكرونه:

يا شيخ كُفَّ عن الذنوبْ ... قبل التفرُّق والزَّلَلْ
واعملْ لنفسكَ صالحًا ... ما دام ينفعك العملْ
أما الشبابُ فقد مَضَى ... ومشيبُ رأسكَ قد نزلْ

(١) سورة البقرة: ٥٤.

(٢) سورة هود: ١٠٣.

وفي مثل هذا ونحوه.

الجواب:

«-يرحمك الله- مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله، وأمّا الرقص والتواجد فأوّل من أحدثه أصحاب السامريّ، لما اتخذ لهم عجلاً جسدًا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعبّاد العجل؛ وأما القضيب[1] فأوّل من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى؛ وإنما كان يجلس النبيّ -ﷺ- مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها؛ ولا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضرُ معهم، ولا يعينهم على باطلهم هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق» ا.هـ[2].

٣- دلّت القصة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وذلك في قول موسى -عليه السلام- لأخيه:

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[3].

٤- دلَّت القصة على أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله.. ومن سلّ سيف البغي قُتل به.

٥- تعظيم عبادة الله وحده.. وخطر عبادة غيره.

---

(١) القضيب: آلة من آلات العزف كالعود ونحوه.

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ١٥٢).

(٣) سورة طه: ٩٢، ٩٣.

[٢٣] عُتْبةُ بن رَبيعة
«شيخُ الجاهلية!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[1].

فمن هو عتبة بن ربيعة؟:

هو: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب القرشيّ العبشمى.. أحد أئمة الكفر المخضرمين.. قُتل يوم «بدر» فى أول مبارزة.. فكان أسرع الناس إلى النار.

مواقفه مع الرسول -ﷺ-:

الموقف الأول: «حين بعثه المشركون لمساومة الرسول -ﷺ-»:

لمّا فشلت محاولاتُ المشركين.. من ضرب.. وأذى.. وتعذيب فى إجهاض الدعوة الإسلامية.. وأصيبوا بالإحباط التام.. لجأوا إلى اللجوء إلى «الدبلوماسية».. واستخدام الأسلوب اللين فى التعامل مع النبىّ -ﷺ- والذين آمنوا معه.. عساه أن ينجح فى تحقيق مقصدهم.. والوصول إلى غايتهم!.

---

(١) سورة الحج: ١٩-٢٢.

روى الإمام العالم عبد بن حمـيد عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-، قال: اجتمعت قريش يومًا فقالوا:

انظروا أعلمكم بالسّحـر والكهانة والشّعر فليـأت هذا الرجل الذى فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلّمه ولننظر ماذا يردّ عليه.

فقالوا: ما نعلم أحدًا غير «عتبة بن ربيعة».

فقالوا: أنت يا أبا الوليد[١].

فأتاه عتبة، فقال:

يا محمد أنت خير أم عبد الله[٢]؟

فسكت رسول الله -ﷺ-.

فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟

فسكت رسول الله -ﷺ-.

فقال: إن كنتّ تزعم أن هؤلاء خير منك فـقد عبدوا الآلهة التى عِبْتَ، وإن كنتَ تزعم أنك خيـر منهم فتكلّم حتى نسمع قـولك، وإنا والله ما رأينا سخلة قطّ أشأم على قومك منك، فرقت جـماعتنا وشتت أمرنا، وعبتَ ديننا وفضحتنا فى العرب!!، حتى طار فيهم أن فى قريش ساحراً، وإن فى قريش كاهنًا، والله مـا ننظر إلاّ صيـحة الحبلى أن يقـوم بعضنا إلى بعض بالسـيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل إن كان إنمـا بك الحاجة جمعنا لك حـتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً.

وإن كان إنما بك الباءة[٣] فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجنك عشراً.

---

(١) كان عتبة يكنى أبا الوليد.
(٢) يقصد والد النبى -ﷺ-.
(٣) الباءة: تكاليف الزواج.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«فرغت؟».

قال: نعم.

فقال رسول الله -ﷺ-:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1].

فقال عتبة: حسبك حسبك ما عندك غير هذا؟

فقال رسول الله -ﷺ-: «لا».

فرجع إلى قريش، فقالوا:

ما وراءك؟

قال: ما تركتُ شيئًا أرى أنكم تكلمون به إلا كلمتهُ.

قالوا: فهل أجابك؟

قال: نعم، لا والذى نصبها بنية[2] ما فهمتُ مِمَّا قاله غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدرى ما قال؟

قال: لا والله ما فهمتُ شيئًا مِمّا قال غير ذكر الصاعقة[3].

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق فى كتاب «السيرة» فقال:

حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى، قال:

حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيّداً، قال يومًا وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله -ﷺ- جالس فى المسجد وحده:

---

(١) سورة فصلت: ١-١٣.

(٢) يقصد: الكعبة.

(٣) تفسير ابن كثير (١٣٧/٣).

يا معشر قريش ألا أقوم إلى محـمد فأكلمه وأعْرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا؟

وذلك حين أسلم حـمـزة -رضي الله عنه- ورأوا أصـحاب رسـول الله -ﷺ- يزيدون ويكثرون.

فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه.

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله -ﷺ-، فقال:

يا ابن أخى! إنك منا حيث قـد علمتَ من السلطة فى العشـيرة والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمـر عظيم فرّقت به جماعتـهم، وسفّهت به أحـلامهم، وعِـبْتَ به آلهتـهم ودينهم وكـفّرتَ به من مـضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال: فقال له رسول الله -ﷺ-:

«قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: ابن أخى! إن كنتَ إنما تريد بما جِئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً.

وإن كنتَ تريد به شرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك.

وإن كنتَ تريد به مُلْكًا ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذى يأتـيك رئيًا تراه[1] لا تستطيع ردّه عن نـفسك طلبنا لك الأطبـاء وبذلنا فيـه أموالنا حـتى نبرّئك منه فـإنه ربّما غلب التـابع على الرجل حتى يُداوى منه. أو كما قال له.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله -ﷺ- يستمع منه، قال:

«أفرغت يا أبا الوليد؟».

---

(١) أى: تابعًا من الجن.

قال: نعم.

قال: «فاستمع منى».

قال: أفعل.

قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾[1].

ثم مضى رسول الله -ﷺ- فيها وهو يقرؤها عليه.

فلمّا سمع «عتبة» أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله -ﷺ- إلى «السجدة»[2] منها فسجد ثم قال:

«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض:

نحلف بالله لقد جاءكم «أبو الوليد» بغير الوجه الذى ذهب به.

فلمّا جلس إليهم قالوا:

ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أنى سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قطّ والله ما هو بالسّحر ولا بالشّعْر ولا بالكهانة، يا معشر قريش:

أطيعونى واجعلوها لى خَلّو بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعتُ نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم وكنتم أسعد الناس به.

---

(١) سورة فصلت: ١-٤.

(٢) أى عند قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [سورة فصلت: ٣٨].

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم(١).

الموقف الثاني: «عند رجوع الرسول -ﷺ- من الطائف»:

فى شـوال سنة عشـر من النبـوة (فى أواخر مـايو أو أوائل يونيـو سنة ٦١٩م)(٢) خرج النبىُّ -ﷺ- إلى الطائف(٣)، وهى تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سـارها ماشيًا على قدميـه جيئة وذهوبًا، ومعـه مولاهُ «زيد بن حارثة» وكـان كلَّما مَـرَّ على قبـيلة فى الطريق دعـاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليـه واحدة منها.

فلمَّا انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهـم: «عبد ياليل» و«مـسعود» و«حـبيب» أبناء عـمرو بن عمـير الثـقفى، فجلـس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم:

هو يمرط ثياب الكعبة(٤)، إن كان الله أرسلك.

وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا غيرك؟!.

وقـال الثـالث: والله لا أكلمك أبدًا!!، وإن كنتَ رسـولاً لأنت أعظم خطرًا من أن أردَّ عـليك الكلام، ولئن كنـت تكذب على الله مـا ينـبـغى أن أكلِّمك.

فقام عنهم رسول الله -ﷺ-، وقال لهم:

«إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى».

وأقام رسول الله -ﷺ- بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه.

---

(١) تفسير ابن كثير (١٣٨/٣).

(٢) الرحيق المختوم (١١٣).

(٣) كان ذلك بعد وفاة عمِّه أبى طالب.. عندما اشتد الأذى بالرسول -ﷺ- وبأصحابه.

(٤) أى: يمزقها.

فقالوا: اخرج من بلادنا.

وأغروا بهـا سفهاءهم، فلمّـا أراد الخروج تبعه سـفهاؤهم وعبـيدهم، يسبّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سماطين[1] وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السّفه، ورجمـوا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء.

وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى أصابه شجاج فى رأسه، ولم يزل به السفهاء كـذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيـبة ابنى ربيعة، على ثلاثة أميال من الطائف، فلمّا التجأ إليه رجعوا عنه.

وأتى رسول الله -ﷺ- إلى حـبلة من عنب، فجلس تحت ظلّهـا إلى جدار، فلما جلس إليـه واطمأن، دعا بالدعاء المشهـور الذى يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنًا مِمّا لقى من الشّدة، وأسفًا على أنه لم يؤمن به أحد، قال:

«اللهم إليك أشكو ضـعف قوتى، وقلة حـيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجـهمنى؟ أم إلى عدوّ ملّكتـه أمرى؟ إن لـم يكن بك علىّ غـضب فلا أبالى، ولكن عافـيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشـرقت له الظلمات، وصلح عليـه أمـر الدنيـا والآخـرة من أن تنزل بى غـضبـك، أو يحل علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلمّا رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا، يقال له «عدّاس»، وقالا له:

خذ قطفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرجل.

فلمّا وضعه بين يدى رسول الله -ﷺ- مَدّ يده إليه قائلاً:

«باسم الله»، ثم أكل.

فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد؟!

(١) سماطين: أى صفّين.

فقال له رسول الله -ﷺ-: «من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟».

قال: أنا نصرانى، من أهل «نينوى».

فقال رسول الله -ﷺ-: «من قرية الرجل الصالح يُونس بن متّى؟».

قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟

قال رسول الله -ﷺ-: «ذاك أخى، كان نبيًّا وأنا نبىّ».

فأكب عدّاس على رأس رسول الله -ﷺ- ويديه ورجليه يقبلهما.

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر:

أمّا غلامك فقد أفسده عليك.

فلمّا جاء عدّاس قالا له:

ويحك ما هذا؟

قال: يا سيدى، ما فى الأرض شىء خير من هذا الرجل، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلاّ نبىّ.

قالا له: ويحك يا عدّاس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه!!.

ورجع رسول الله -ﷺ- فى طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبًا محزونًا كسير القلب، فلمّا بلغ «قرن المنازل» بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة.

وقد روى البخارى تفصيل القصة -بسنده- عن عروة بن الزبير، أن عائشة -رضي الله عنها- حدثته أنها قالت للنبىّ -ﷺ-:

هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أُحُد؟

قال: «لقيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردتُ،

فانطلقت -وأنا مهموم- على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب -وهو المسمى بقرن المنازل- **فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا به عليك وقد بعث الله إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم. فنادانى مَلَكُ الجبال، فسلَّم علىَّ، ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين** -أى فعلت-**»**، والأخشبان: هما جبلا مكة، وأبو قبيس والذى يقابله وهو قعيقعان-، قال النبىُّ -ﷺ-:

«بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عزّ وجلّ وحده لا يشرك به شيئًا»(١).

وفى هذا الجواب الذى أدلى به الرسول -ﷺ- تتجلى شخصيته الفذّة، وما كان عليه من الخُلق العظيم الذى لا يدرك غوْره.

الموقف الثالث: «يوم بدر»:

لمَّا التقى جيش المشركين مع جيش المسلمين فى بدر(٢).. وتراءى الجمعان، قال رسول الله -ﷺ-:

«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادّك وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحنهم الغداة».

ورأى «عتبة بن ربيعة» فى القوم على جمل له أحمر فقال -ﷺ-: **«إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا».**

وكان عتبة قد أشار على المشركين بالرجوع والعودة.. بعد أن فلتت العيرُ من أيدى المسلمين.. قائلاً لهم:

يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (١/٤٥٨)، ومسلم (٢/١٠٩).

(٢) راجع سبب المعركة فى «ترجمة» «أبى جهل» من هذا الكتاب.

شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمّه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون».

فقال أبو جهل:

«انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه، كلا؛ والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكله جزور، وفيهم ابنه[1] فتخوّفكم عليه».

ولـمّا بلغ قولُ أبى جهل: «انتفخ والله سحره» قال عتبة:

«سيعلم من انتفخ سحره، أنا أم هو؟».

وتعجّل أبو جهل مخافة أن تقوى هذه المعارضة، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمى -أخى عمرو بن الحَضْرمى المقتول فى سريّة عبد الله بن جحش[2]- فقال:

هذا حليفك «أي: عتبة» يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك.

فقام عامر، وصرخ:

واعمراه، واعمراه، فحمى القوم، حقب أمرهم، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة.

وهكذا تغلّب الطيش على الحكمة، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى.

---

(١) هو: أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديمًا وهاجر.. وجاهد مع رسول الله -ﷺ-، واستُشهد يوم «اليمامة» -رضي الله عنه-.

(٢) راجع القصة فى كتابنا «رجال ونساء مبشرون بالجنة» ترجمة «عبد الله بن جحش» -رضي الله عنه-.

واصطف الفريقان.. وعدل الرسول -ﷺ- صفوف المسلمين.. أما المشركون فقد استفتح أبو جهل فى ذلك اليوم، فقال:

«اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة».

فكان هو المستفتح -لعنه الله-.

أول وقود المعركة:

وكان أول وقود المعركة «الأسود بن عبد الأسد المخزومى» -وكان رجلاً شرسًا سيئ الخلق- خرج قائلاً:

أعاهد الله لأشربن من حوضهم[1]، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه.

فلمّا خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنه-، فلما التقيا ضربه حمزة، فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجلُه دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبرّ يمينه!!، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض.

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة، وهم:

عتبة بن ربيعة الذى دفعته العصبية وأخذته الحمية فاشترك فى القتال[2].

وأخوه شيبة بن ربيعة.

---

(١) كان المسلمون قد صنَعوا حوضًا خلف الجيش.

(٢) عن أبى الزِّناد أنَّ أبا حذيفة بن عتبة -رضي الله عنه- دعا أباه يوم بدر إلى البراز، فقالت أختُه أم معاوية هندُ بنت عتبة:

الأحــولُ الأثعلُ المشـومُ طائرهُ ... أبو حـذيفـة شـرُّ النَّاس فِى الدِّين
أمـا شكرتَ أبًا ربَّاك منْ صـغـرٍ ... حتى شببتَ شبـابًا غير مَحْجُون

أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ٥٩) يقال: حَجَن العود يحجنُه حجنًا: عطفه.
والمحجن: العصا المعوّجة.

والوليد بن عتبة بن ربيعة.

فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار:

عوف ومعوِّذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء- وعبد الله بن رواحة.

فقالوا: مَنْ أنتم؟

قالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: أكفاء كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بنى عمِّنا، ثم نادى مناديهم:

يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا؟

فقال رسول الله -ﷺ-:

«قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا على».

فلمَّا قاموا ودنوا منهم، قالوا:

من أنتم؟

فأخبروهم، فقالوا:

أنتم أكفاء كرام.

فبارز عبيدة -وكان أسن القوم- عتبة بن ربيعة.

وبارز حمزة «شيبة».

وبارز على «الوليد»[1].

فأما حمزة وعلى فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما.

وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان، فأثخن كلٌّ واحد منهما

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق، وفي رواية لأحمد وأبي داود أن عبيدة بارز الوليد، وعليّ بارز شيبة، وحمزة بارز عتبة. قلتُ: وهو الصحيح.

صاحبه، ثم كر علىّ وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة، وقطعت رجله، فلم يزل صمتًا حتى مات بالصفراء[١] بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر، حينما كان المسلمون فى طريقهم إلى المدينة. ثم بدأ الهجوم العام.. والذى انتهى بانتصار ساحق للمسلمين.

والحمد لله رب العالمين.

وانتهت أسطورة «عتبة بن ربيعة» من على قيد هذه الحياة.. ليبدأ حياة أخرى أشأم وأتعس وذلك جزاء الظالمين.

أسباب النزول

● روى البخارى فى «صحيحه» (٨/ ٢٩٨):

عن أبى ذر -رضي الله عنه-، قال:

نزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[٢].

فى ستة من قريش: علىّ، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

● وعن أبى مجلز عن قيس بن عباد عن علىّ بن أبى طالب -رضي الله عنه-، قال: فينا نزلت هذه الآية وفى مبارزتنا يوم بدر:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٣][٤].

---

(١) مكان.

(٢) سورة الحج: ١٩.

(٣) سورة الحج: ١٩-٢٢.

(٤) أسباب النزول للنيسابورى (١٧٤).

دروس وعبر من أسباب النزول

يقول صاحب الظلال -رحمه الله تعالى- فى ظلال هذه الآيات:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[(١)].

يقول رحمه الله تعالى:

«إنه مشهد عنيف صاخب، حافل بالحركة، مطوّل بالتخييل الذى يبعثه فى النفس نسق التعبير.. فلا يكاد الخيال ينتهى من تتبعه فى تجدُّده.. هذه ثياب من النار تقطع وتفصّل!!.

وهذا حميم ساخن يُصَبّ من فوق الرؤوس، يصهر به ما فى البطون والجلود عند صبّه على الرؤوس!!

وهذه سياط من حديد أحمته النار..

وهذا هو العذاب يشتد، ويتجاوز الطاقة، فيهب «الذين كفروا» من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمون بالخروج من هذا «الغم» وها هم أولاء يُردّون بعنف، ويسمعون التأنيب.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى أخراها، حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج والرّد العنيف، ليبدأ فى العرض من جديد!.

---

(١) سورة الحج: ١٩-٢٣.

ولا يبارح الخيال هذا المشهد العنيف المتجدد إلا أن يلتفت إلى الجانب الآخر، الذى يستطرد السياق إلى عرضه.

فأصل الموضوع أن هناك خصمين اختصموا فى ربهم.

فأمّا الذين كفروا به فقد كنا نشهد مصيرهم المفجع منذ لحظة! وأمّا الذين آمنوا فهم هنالك فى الجنات تجرى من تحتها الأنهار. وملابسهم لم تقطع من النار، إنما فصلت من الحرير. ولهم فوقها حُلى من الذهب واللؤلؤ. وقد هداهم الله إلى الطيب من القول، والهداية إلى صراط الحميد نعمة تذكر فى مشهد النعيم.

نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق.

وتلك عاقبة الخصام فى الله. فهذا فريق وذلك فريق.. فليتدبر تلك العاقبة من لا تكفيه الآيات البيّنات ومن يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير..» ا.هـ.

[٢٤] عُقْبةُ بن أبى مُعَيْط
«وندم لا ينفع!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾[١].

فمن هو عقبة؟:

هو: عقبة بن أبى مُعَيْط بن أبى عمرو بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى.

الفاجر الشَّقىّ.. المُكذِّب الضَّال.. تعددت جرائمهُ.. وتفاقمت عداوته من بداية الدعوة الإسلامية إلى أن أخذه الله أخذ عزيز مقتدر وكان عقبة بن أبى مُعَيْط مِمَّن يؤذى رسول الله -ﷺ- ويسخر من دعوته ويُعين على خصومته.

قال ابن إسحاق:

«كان النفر الذين يؤذون رسول الله -ﷺ- فى بيته «أبا لهب» و«الحكم ابن أبى العاص بن أمية» و«عقبة بن أبى معيط» و«عدى بن حمراء الثقفى» و«ابن الأصداء الهذلى» -وكانوا جيرانه- لم يسلم منهم أحدٌ إلا «الحكم بن أبى العاص»[٢]، فكان أحدهم يطرح عليه -ﷺ- رحم الشاة وهو يُصَلِّى،

(١) سورة الفرقان: ٢٧-٢٩.
(٢) هو: أبو الخليفة الأموى «مروان بن الحكم».

وكان أحدهم يطرحها فى برمته(١) إذا نصبت له!! حتى اتخذ رسولُ الله -ﷺ- حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله -ﷺ- إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول:

«يا بنى عبد مناف! أى جوار هذا؟» ثم يلقيه فى الطريق.

وازداد عقبة بن أبى معيط فى شقاوته وخبثه، فقد روى «البخارى» عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-:

أن النبىَّ -ﷺ- كان يُصَلِّى عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجىء بسلا جزور(٢) بنى فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟

فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبى معيط)(٣) فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبى -ﷺ- لله وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغنى شيئًا، لو كانت لى منعة.

قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض (أى: يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطرًا)، ورسول الله -ﷺ- ساجد، لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: **«اللهم عليك بقريش»** ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وقال: وكان يَرون أن الدعوة فى ذلك البلد مستجابة، ثم سَمَّى: **«اللهم عليك بأبى جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط»** -وعدَّ السابع فلم يحفظه- فوالذى نفسى بيده لقد رأيتُ الذى عَدَّ رسولُ الله -ﷺ- فى القليب، قليب بدر(٤)!!.

---

(١) الإناء الذى يطهى فيه الطعام.

(٢) أى: أحشاء البعير.

(٣) صرح بذلك فى «صحيح البخارى» نفسه (١/٥٤٣).

(٤) قليب بدر: المكان الذى سُحبت فيه جثث المشركين أعقاب بدر.

ولقد انفرد هذا الشـقىّ بعمل لم يسبقْه أحدٌ ممَّن كـان على شاكلته فى الكفر.. فلقد وضع رجله على عنق الرسول -ﷺ-!!!.

وبصق فى وجهه!! فأخذه الله نكال الآخرة والأولى لم يُمْهَلْ بعدها إلا قليلاً.. ثم قصم الله ظهره ودق عنقه.

نهاية أليمة:

قال الضحاك:

«لـمّا بصق عـقبةُ فى وجـه رسول الله -ﷺ- رجع بصاقُـه فى وجهه وشوى وجهه وشـفتيه، حتى أثّر فى وجهـه وأحرق خدّيه، فلم يزل أثر ذلك فى وجهه حتى قُتل!!!»(١).

ولـمّا خرج لمحاربة الرسول -ﷺ- فى «بدر» وقع «عقبـة» أسيراً وكان الذى أسره «عبد الله بن سلمة» أحد بنى عجلان.

ولما انتهت المعركة سار الرسول -ﷺ- بالجيش ومعه الأسارى.. حتى إذا كان «بِعْرق الظَّبْيةِ»(٢) أمر النبىُّ -ﷺ- «علىَّ بن أبى طالب» أن يقتله.

فقال عقبة حين أمر رسول الله -ﷺ- بقتله:

فمن للصبيةَ يا محمد؟

قال: «النار»(٣).

وعن الشَّعْبىّ، قال:

لما أمر النبىّ -ﷺ- بقتل عقبة، قال:

أتقتلنى يا محمد، مِنْ بين قريش؟

(١) تفسير القرطبى (١٣/٢٦).
(٢) عرق الظبية: مكان بين مكة والمدينة وهو من الرّوحاء على ثلاثة أميال مما يلى المدينة.
(٣) رواه الطبرانى فى «الكبير»، و«الأوسط» ورجاله رجال الصحيح.

قال: «نعم، أتدرون ما صنع هذا بى، جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وغمزها، فما رفعها حتى ظننتُ أن عينيّ ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة، فألقاه على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى!!».

ثم قام إليه «علىٌّ بن أبى طالب»[1] فضرب عنقه ليصبح وقودًا للنار. وبئس الوِرْد المورود.

أسباب النزول

أخرج ابن مردويه، وأبو نعيم فى «الدلائل» بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما-:

أن أبا معيط كان يجلس مع النبىّ -ﷺ- بمكة لا يؤذيه وكان رجلاً حليمًا، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبى مُعَيْط «خليل»[2] غائب عنه بالشام، فقالت قريش:

صبأ أبومُعَيْط وقدم خليله من الشام ليلاً، فقال لامرأته:

ما فعل محمد مما كان عليه؟

فقالت: أشدّ مِمّا كان أمرًا.

فقال: ما فعل خليلى أبو معيط؟

فقالت: صبأ[3]!.

فبات بليلة سوء! فلمّا أصبح أتاه أبو مُعَيْط فحيّاه فلم يرد عليه التحية، فقال:

(١) ذكرت بعض الروايات: أن الذى قتله «عاصم بن ثابت» والصحيح ما أثبتناه.

(٢) الخليل: الصاحب.

(٣) قال الشّعبى: «كان عقبة خليلاً لأمية بن خلف، فأسلمَ عقبة، فقال أمية: وجهى من وجهك حرام إن تابعتَ محمدًا.. وكفر وارتد لرضا أمية!! فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [سورة الفرقان: ٢٧]. أسباب النزول للنيسابورى (١٨٩).

ما لك لا تردّ علىّ تحيّتى؟

فقال: كيف أرد عليك تحيَّتك وقد صبوت؟

فقال: أو قد فعلتها قريش؟.

قال: فما يبرئ صدورهم إنْ أنا فعلتُ؟

قال: تأتيه(١) فى مجلسه وتبزق فى وجهه وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم!!، ففعل فلم يزد النبىّ -ﷺ- أن مسح وجهه من البزاق، ثم التفتَ إليه، فقال:

«إن وجدتك خارجًا من جبال مكة أضرب عنقك صبْراً».

فلمّا كان يوم «بدر» وخرج أصحابه أبى أن يخرج، فقال له أصحابه: أخرج معنا.

قال: قد وعدنى هذا الرجل إنْ وجدنى خارجًا من جبال مكة أن يضرب عنقى صَبْراً.

فقالوا: لك جمل أحمر لا يُدْرك(٢)، فلو كانت الهزيمة طرت عليه، فخرج معهم، فلمّا هزم الله المشركين وَحَل(٣) به جمله فى جدد من الأرض فأخذه رسول الله -ﷺ- أسيراً فى سبعين من قريش، وقدم أبو مُعَيْط، فقال:

تقتلنى من بين هؤلاء؟

قال: «نعم، بما بزقتَ فى وَجْهى». فأنزل الله فى أبى مُعَيْط: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾(٤)(٥).

---

(١) يقصد: الرسول -ﷺ-.

(٢) أى: سريع السير والعَدْو.

(٣) الوحل: الطين الرقيق، ووحل الرجل أى: وقع فى الوحل.

(٤) سورة الفرقان: ٢٧-٢٩.

(٥) الدر المنثور (٥/٦٨).

دروسٌ وعِبر من أسباب النزول

قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾(١).

قال ابن عباس وغيره: إن الظالم ها هنا يُراد به «عقبة بن أبى مُعَيط»، وأن خليله «أمية بن خلف»(٢)؛ فعقبة قتله «على بن أبى طالب» -رضي الله عنه- كما تقدم- وأمية قتله النبىُّ -ﷺ-، فكان هذا من دلائل نبوَّة النبىِّ -ﷺ-؛ لأنه خبَّر عنهما بهذا فقتلا على الكفر.

ولم يُسمِّيا فى الآية لأنه أبلغ فى الفائدة، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قبل من غيره فى معصية الله عز وجل.

وها هو الظالم يندم -يوم القيامة- ولات حين مناص -حين لا ينفع الندم ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾:

لا تكفيه يد واحدة يعض عليها. إنما هو يداول بين هذه وتلك، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل فى عضه على اليدين. وهى حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيمًا.

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾.. فسلكتُ طريقه، لم أفارقْه، ولم أضل عنه.

﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً﴾.. فلانًا بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله.

---

(١) سورة الفرقان: ٢٧-٢٩.

(٢) وقيل: هو «أبىّ بن خلف» والأشهر ما ذكرناه.

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ . . لقد كان شيطانًا يضل، أو كان عَونًا للشيطان.

وكل من صدّ عن سبيل الله وأُطيع فى معصية الله فهو شيطان للإنسان، خذولاً عند نزول العذاب والبلاء.

والآيات تحذّر من قرناء السوء. . وتنهى عن مصاحبة الفجّار.

وتدعو لملازمة الأخيار. . ومصاحبة الأبرار.

ولقد أحسن من قال:

تجنَّب قرين السُّوء واصْرِمْ حبالَهُ فإن لم تَجدْ عنه مَحيصًا فداره
وأحبب حبيب الصِّدق واحْذر مراءه تنل منه صفو الودّ ما لم تُمارِهِ
وفى الشيب ما ينهى الحليم عن الصِّبا إذا اشتعلت نيرانه فى عِذارِهِ

وقال آخر:

اصحب خيار الناس حيث لقيتهم خير الصحابة من يكون عفيفا
والناس مثل دراهمٍ ميزتها فوجدت منها فضة وزيوفا

وفى «الصحيحين» من حديث أبى موسى عن النبىّ -ﷺ- قال:

«إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إمّا أن يحذيك، وإمّا أن تبتاع[1] منه وإمّا أن تجد ريحًا طيبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك وإمّا أن تجد ريحًا خبيثة»[2].

وروى أبو بكر البزّار عن ابن عباس، قال:

قيل: يا رسول الله؛ أى جلسائنا خير؟

قال: «من ذكركم بالله رؤيته، وزاد فى علمكم منطقه، وذكركم بالآخرة عمله».

---

(١) يبتاع: أى: يشترى.

(٢) أخرجه البخارى فى البيوع (٢١٠١)، ومسلم فى البر والصلة (٢٦٢٨).

وقال مالك بن دينار:

«إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص[(١)] مع الفجار»[(٢)].

﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾.. يقوده إلى مواقف الخذلان، ويخذله عند الجد، وفى مواقف الهول والكرب.

وهكذا راح القرآن يهزّ قلوبهم هزًّا بهذه المشاهد المزلزلة، التى تجسّم لهم مصيرهم المخيف، وتريهم إيّاه واقعًا مشهودًا، وهم بعد فى هذه الأرض، يكذّبون بلقاء الله، ويتطاولون على مقامه دون توقير، ويقترحون الاقتراحات المستهترة والهول المرعب ينتظرهم هناك والندم الفاجع بعد فوات الأوان.

(١) الخبيص: حلوى معروفة. تعمل من تمر وسمن.

(٢) تفسير القرطبى (٢٧/١٣).

[٢٥] قـــارون
«المغرور الذى عذّبه الله بماله!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

فمن هو قارون؟:

هو: قـارون بن يصهـر بن قـاهث. قاله ابـن جريج.. وكـان ابن عم

(١) سورة القصص: ٧٦ - ٨٣.

موسى -عليه السلام-. قال ابن جريج: وهذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى(١).

وقال قتادة: وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السَّامرى فأهلكه البغى لكثرة ماله(٢).

والمال إمّا أن يكون نعمة وإمّا أن يكون نقمة.. إما أن يكون من أسباب سعادة الإنسان.. وإما أن يكون من أسباب تعاسته.

روى البيهقى عن ابن عمر -رضي الله عنهما-، قال:

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

«الدنيا خضرةٌ حُلْوةٌ من اكتسب فيها مالاً من حلِّه، وأنفَقَه فى حَقِّه أثابه الله عليه، وأوْرَده جنته، ومن اكتسب فيها مالاً من غَير حلِّه، وأنفقه فى غير حَقِّه أحَلّه الله دار الهوان، ورُبَّ متخوِّض فى مال الله ورسوله له النارُ يوم القيامة يقول الله: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾(٣)».

وقارون -لعنه الله- أحد عُبَّاد المادة.. الذين قادتهم شهواتهم إلى الجحيم.. فما أغنى عنه ماله وما جمع.. وكم من مال.. مال بصاحبه عن الصراط.. فَضَلّ سعيه.. وخسر نفسه.. وشقى به.

والله تعالى يقول:

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾(٤).

وحب الدنيا له سكْرة.. إذا دخل الإنسان فيها لم يفق إلا فى عسكر الموتى مع النادمين.

---

(١) كذا فى الطبرى (١/ ٤٢٣). وفى تفسير القرطبى: «هو: قارون بن قاهث بن لاوى بن يعقوب» (١٣/ ٢٨٤).
(٢) البداية (١/ ٤٢١).
(٣) سورة الإسراء: ٩٧.
(٤) سورة التوبة: ٥٥.

عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، قال:

قال رسول الله -ﷺ-:

«من أُشْرِبَ حُبَّ الدنيا الْتَاطَ منها بثلاث:

شقاء لا يَنْفَدُ عَنَاهُ.

وَحِرْص لا يَبْلُغُ غِنَاهُ.

وأَمَلٍ لا يَبْلغُ مُنْتَهاهُ.

فالدنيا طالبةٌ ومطلوبة، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنيا طلبتهُ الآخرة حتى يُدْرِكَهُ الموتُ فيأخُذَهُ.

ومن طلب الآخرةَ طلبتْهُ الدنيا حتى يَسْتَوْفِى منها رِزْقَهُ»(١).

والقرآن العظيم يحكى لنا قصة «قارون» وما حدث له فيقول تعالى:

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ كان ابن عمه كما تقدم.

﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ بغيه أنه زاد فى طول ثوبه شبراً؛ قاله شهر بن حَوْشب.

وفى الحديث: «لا ينظر الله إلى الذى يجرّ إزاره بطراً»(٢).

وقيل: بغيه كفره بالله عز وجل، قاله الضحاك.

وقيل: بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده، قاله قتادة.

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾: قال خيثمة: «وجدتُ فى الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلاً غراء محجّلة، وأنها لتنوء بها من ثقلها، ما يزيد مفتح منها على إصبع، لكل مفتح منها كنز مال، لو قسم ذلك الكنز على أهل البصرة لكفاهم». وقيل غير ذلك فالله أعلم.

---

(١) حسن: قال المنذرى: رواه الطبرانى بإسناد حسن: الترغيب برقم (٤٧٢٦).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد فى «المسند» (٣/ ٩٠١٤).

والعصبة الفئام من الناس.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ أى المؤمنون من بنى إسرائيل.

﴿لا تَفْرَحْ﴾ أى لا تأشر ولا تبطر.. والمعنى: لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

قلتُ: والفرح نوعان:

الأول: فرح محمود: وهو الفرح بالهدى ودين الحق.. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أى بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به.

قال أبو سعيد الخُدْرى وابن عباس -رضي الله عنهما-: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام. وعنهما أيضًا: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

روى أبان عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-:

أن النبيّ -صلى الله عليه وسلم- قال:

«من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه -ثم تلا:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2]».

---

(١) سورة يونس: ٥٧، ٥٨.

(٢) ذكره القرطبى فى «تفسيره» (٨/ ٢٦٤) ولم يعقب عليه.

وروى ابن أبى حاتم عن «بقية بن الوليد» عن صفوان بن عمرو، سمعتُ أينع بن عبد الكلاعى يقول:

لما قدم خراج العراق إلى «عمر» -رضي الله عنه-، خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هى أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول:

«الحمد لله تعالى»، ويقول مولاه:

هذا والله من فضل الله ورحمته.

فقال عمر: كذبت ليس هذا، هو الذى يقول الله تعالى:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الآية، وهذا مِمَّا يجمعون[١].

الثانى: فرح مذموم، وهو فرح الأشر والبطر.. وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قال مجاهد: يعنى الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

ثم توالت مواعظ القوم لقارون:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أى: اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهى الجنة؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه فى الآخرة لا فى التجبّر والبغى.

﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

قال الإمام القشيرىّ:

«ليس النصيب من الدنيا جمعها ولا منعها، إنما النصيب منها ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُعْقبُ ندمًا، ولا يُوجب فى الآخرة عقوبة.

ويقال: النصيبُ من الدنيا ما يَحْملُ على طاعته بالنَّفْس، وعلى معرفته بالقلب، وعلى ذِكْره باللسان، وعلى مشاهدته بالسِّرِّ» ا.هـ.

وعن الحسن فى هذه الآية، قال:

---

(١) رواه الطبرانى وابن أبى حاتم. تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥٢).

«قدّم الفضل، وأمسك ما يبلغ».

وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف.

وقال ابن العربى[1]:

«وأبدع ما فيه عندى قول قتادة: ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا ويا ما أحسن هذا».

﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾. فهذا وعظ من القوم لقارون متصل.

قال القشيرىّ:

«والإحسان الذى أُمر به إنفاق النعمة فى وجوه الطاعة والخدمة، ومقابلتهُ بالشكران لا بالكفران».

وقال ابن العربى: فيه أقوال كثيرة -أى فى الإحسان- جماعُها.

استعمال نعم الله فى طاعة الله.

﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى لا تعمل بالمعاصى.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

فردّ قارون:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾!!.

قال ابن زيد: أى: إنما أوتيتُه لعلمه بفضلى ورضاه عنى.

قال القشيرىّ -رحمه الله-:

«ما لاحَظَ أحدٌ نَفْسَه إلا هلَك بإعجابِه».

قلت: وهذا قول يكتب بماء الذهب.

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ ﴾ أى: بالعذاب ﴿ مِنَ الْقُرُونِ ﴾

(١) أحكام القرآن (٣/ ٥١٢).

أى: الأمم الخالية الكافرة. ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أى للمال، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم.

والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾. ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: لا يسألون سؤال استعتاب كما قال ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(١) وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢).

لم تؤثِّر مواعظُ قومه فيه.. فوعظ من حُرم القبول كمثل البذر فى الأرض السَّبِخَة؛ لذا لم ينفعه نُصْحُهم إياه، ولم يكن للقبول فيه مساغ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾.

ذكر كثير من المفسّرين أنه خرج فى تجمّل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلمّا رآه من يعظّم زهرة الحياة الدنيا تمنّوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله.

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٣).

فلمّا سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزّهاد الألباء قالوا لهم:

﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى ثواب الله فى الدار الآخرة خير وأبقى وأجلّ وأعلى: ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ أى: وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمّة السّامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية، إلاّ من هدى الله قلبه وثبّت فؤاده، وأيّد لبّه وحقق مُراده، وما أحسن ما قال بعض السّلف:

(١) سورة الجاثية: ٣٥.
(٢) سورة الحجر: ٩٢.
(٣) سورة القصص: ٧٩.

«إن الله يحبّ البصـر الناقد عند ورود الشـبهات، والعـقل الكامل عند حلول الشهوات».

الـمَصْرعُ الـمَهين:

قال تعالى:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾.

لما ذكر الله تعالى خروجه فى زينته واختياله فيها، وفخره على قومه بها قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾.

كما روى البخارى عن النبى -ﷺ- قال:

«بينمـا رجل يجرّ إزاره إذ خُسِف به فـهو يتـجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة»[1].

وقد ذكر ابـن عباس وغيره: أن قـارون أعطى امرأة بغيًّا مالاً على أن تقول لموسى -عليه السلام- وهو فى ملأ من الناس: إنك فعلت بى كذا وكذا.

فيقال: إنها قالت له ذلك فأرعد من الفَرَق[2] وصلّى ركعتين. ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك وما حملك عليه؟

فذكرت أن قـارون هو الذى حملها على ذلك، واسـتغفرت الله وتابت إليه، فعند ذلك خرّ موسى لله سـاجدًا ودعا الله على قارون، فأوحى الله إليه إنى قد أمرت الأرض أن تطيـعك فيه، فأمر مـوسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك، فالله أعلم.

وقد ذكـر كثـير من المفسِّرين ها هنا إسرائيليـات كثـيرة أضربنـا عنها صفحًا، وتركناها قصدًا.

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى فى (٦٠) كتاب الأنبياء حديث رقم (٣٤٨٥).
(٢) الفرق: الخوف.

﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾.

وبعد أن كان ما كان.. قال الذين يريدون الحياة الدنيا.. بعد أن رأوا ما حلّ بقارون:

﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾.

مَنّ الله علينا فلم ننجرف فى نهجه، ولم ننخرط فى سِلْكه، وإذًا لوقع بنا الهلاك.

أمَّا المُتمنُّون مكانه فقد ندموا، وأمَّا الرَّاضون بقسمته -سبحانه- فقد سلموا؛ سلموا فى العاجل إلى أن تظهر سعادتُهم فى الآجل.

وبعد أن دمدم الله الأرض على قارون فسوَّاها.. أخبر الحق سبحانه أن الدار الآخرة وهى دار القرار وهى الدار التى يغبط من أُعطيها ويُعزّى من حُرمها إنما هى معدّة للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادًا. فالعلو هو التكبّر والفخر والأشر والبطر، والفساد هو عمل المعاصى اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم: قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

فوائد وعظات من قصة قارون

١- أن للمال ضراوة كضراوة الخمر.. إذا أسكر الإنسان.. أعانه على الإثم والعدوان كما قال عز وجل:

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾[2].

قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-:

(١) سورة القصص: ٨٣.

(٢) سورة العلق: ٦، ٧.

منهومان لا يشبعان، صاحب العلم وصاحب الدنيا ولا يستويان، فأمّا صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن.

وأمّا صاحب الدنيا فيتمادى فى الطغيان، ثم قرأ -ﷺ-:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ وقال للآخر:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١).

٢- أن المعاصى تزيل النعم (وقد رُوى) أن الله أوحى إلى نبىّ من الأنبياء: «قل لقومك لو كانت المعصية فى زاوية من زوايا الجنة لأوصلت لها الخراب!!».

٣- أن العلم النافع هو العاصم للإنسان من التردّى والسقوط ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾(٢).

٤- أن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

٥- من شكر الله على نعمه فقد قيّدها بعقالها.. ومن كفر نعمه فقد عرّضها لزوالها. قال تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(٣).
نسأل الله تعالى النجاة من الفتن.

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.
(٢) سورة القصص: ٨٠.
(٣) سورة إبراهيم: ٧.

[٢٦] سلام بن أبى الحُقَيْق
«رأس الأفعى اليهودى!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(١).

فمن هو سلام بن أبى الحُقَيْق؟:

هو: سلام بن أبى الحقيق -وكنيته أبو رافع- من أكابر مجرمى اليهود، الذين حزّبوا الأحزاب ضد المسلمين وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة(٢)، وكان يؤذى رسول الله -ﷺ-، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله -ﷺ- فى قتله، وكان قتل «كعب بن الأشرف» على أيدى رجال من الأوس، فرغبت الخزرج فى إحراز فضيلة مثل فضيلتهم؛ فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان.

وأذن رسول الله -ﷺ- فى قتله، ونهى عن قتل النساء والصبيان(٣)، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال، كلهم من بنى سلمة من «الخزرج»، قائدهم «عبد الله بن عتيك» -رضي الله عنه-.

هلاك الطاغية:

خرجت هذه المفرزة، واتجهت نحو خيبر، إذ كان هناك حصن أبى رافع

(١) سورة الأحزاب: ٢٥.

(٢) انظر فتح البارى (٧/ ٣٤٣).

(٣) انظر إلى أدب الحروب فى الإسلام وضوابطها وقارن بينها وبين ما يفعله الأعداء اليوم فى «الشيشان» و«العراق» و«البوسنة» وغيرها من ديار المسلمين.

(سلام بن أبى الحُـقَيْق)، فلمـا دنوا منه -وقد غربت الـشمس، وراح الناس بسرحهم -قال عبد الله بن عتيك لأصحابه:

اجلسوا مكانكم، فإنى منطلق ومتلطف للبواب، لعلى أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الـباب، ثم تقنّع بثوبـه كأنه يقضى حـاجتـه، وقد دخل الناس، فهتف به البواب:

يا عـبـد الله[1] إن كنت تريد أن تدخـل فـادخل، فـإنى أريد أن أغلق الباب.

قال عبد الله بن عتيك:

فدخلتُ: فكمنت، فلمّا دخل الـناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق[2] على ودٍّ[3].

قال: فقمتُ إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحتُ الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان فى علالى له.

فلمّا ذهـب عنه أهل سمره صـعدتُ إليـه، فجـعلتُ كلَّما فتـحتُ بابًا أغلقتُ علىّ من داخل.

قلتُ: إن القوم نذروا بى لم يخلصـوا إلى حتى أقتله، فانتـهيتُ إليه، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله، لا أدرى أين هو من البيت.

قلتُ: أبا رافع.

قال: من هذا؟

فأهويتُ نحـو الصوت فأضـربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فـما أغنيت شيـئًا، وصـاح، فخـرجتُ من البيت فـأمكث غيـر بعيد، ثم دخلـتُ إليه، فقلتُ:

---

(١) ينادى على من بقى خارج الحصن ولا يريد «عبد الله بن عتيك» ذاته.. فلقد كان متنكراً.
(٢) الأغاليق: المفاتيح.
(٣) الودُّ: الوتد.

وما هذا الصوت يا أبا رافع؟

فقال: لأمك الويل، إن رجلاً فى البيت ضربنى قبلُ بالسيف، قال:

فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله. ثم وضعت ظبة السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره، فعرفت أنى قتلتُه، فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا، حتى انتهيتُ إلى درجة له، فوضعت رجلى، وأنا أرى قد انتهيتُ إلى الأرض، فوقعتُ فى ليلة مقمرة، فانكسرت ساقى، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقتُ حتى جلستُ على الباب. فقلتُ:

لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلتُه؟

فلمّا صاح الديك صاح الناعى على السور فقال:

أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقتُ إلى أصحابى فقلتُ:

النجاء، فقد قتل الله أبا رافع.

فانتهيتُ إلى النبى -ﷺ- فحدّثتُه، فقال:

«ابسط رجلك».

فبسطت رجلى فمسحها فكأنها لم أشتكها قط.

هذه رواية البخارى، وعند ابن إسحاق:

أن جميع النفر دخلوا على أبى رافع، واشتركوا فى قتله، وأن الذى تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو «عبد الله بن أنيس»، وفيه:

أنهم لما قتلوه ليلاً، وانكسرت ساق «عبد الله بن عتيك» حملوه، وأتوا منهراً من عيونهم، فدخلوا فيه، وأوقد اليهود النيران، واشتدوا فى كل وجه، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم، وإنهم حين رجعوا احتملوا «عبد الله بن عتيك» حتى قدموا على رسول الله -ﷺ-. وكان مبعث هذه السرية فى ذى القعدة أو ذى الحجة سنة ٥هـ.

ولما فرغ رسول الله -ﷺ- من الأحزاب وقريظة، واقتص من مجرمى

الحروب أخذ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة(١).

وتضعضع الكفر بعد هذه الوقعات الغليظة. ورست أصول الإسلام واطمأنت دولته. فما انتهت السنة الخامسة للهجرة حتى أصبح المسلمون قوة تفرض نفسها وتذيق المعاندين بأسها.

واستيقنت قريش وأحلافها أن ردّ المسلمين إلى عبادة الأوثان ضرب من المستحيل، كما استيقن اليهود أن خصامهم الخبيث للدين الجديد والرسالة الخاتمة لم يزدهم إلا خبالاً.

وانتهت أسطورة «سلام بن أبى الحقيق».. وغاب جسده ليذوق وبال أمره وليكون لمن خلفه آية.. وذكرى..

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

أسباب النزول

لما فلَّ الله عزّ وجلّ عري الأحزاب.. وأرسل عليهم ريحًا وجنودًا من عنده.. فعادوا إلى ديارهم.. لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال..

نزلت الآيات:

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾(٣).

وإن كانت الآيات الكريمات لم تنزل فى «سلام بن أبى الحقيق» على التعين، فلقد كان أحد أكابر المجرمين الذين حزّبوا الأحزاب ضد المسلمين..

---

(١) الرحيق المختوم (٢٩٣، ٢٩٤).
(٢) سورة الأنفال: ٥٥.
(٣) سورة الأحزاب: ٢٥.

وكـان أحـد العناصـر النشطة التى شـاركت «حـيى بـن أخطب» فى الطواف بالقبائل يستجلبها إلى المدينة بغية الإتيان على الإسلام وأهله.

فهـو بلا ريب أحد الذين كـفروا.. الذين ردّهم الله على أعـقابهم.. وخـيَّب ظنونهم.. فـعادوا بخـفى حنين لم ينالوا خـيـراً. والحمـد لله رب العالمين.

دروس وعبر من أسباب النزول

إن اليـهود فى المدينة لم يهـادنوا الإسلام بعـد وفوده عليـهم إلا فـترة قصيـرة، وكان الرسول -ﷺ- -قد عقـد معهم مهـادنة أول مقدمه إلـيها- وأوجب لهم فيها النصرة والحماية مـشترطًا عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدوًا، ولا يمدوا يدًا بأذى.

ولكن اليهود -وعلى رأسهم «حيى بن أخطب» و«سلام بن أبى الحُقيق» و«كعب بن الأشرف»- مـا لبثوا أن أحسوا بخطر الدين الجـديد على مكانتهم التقليدية بوصفهم أهل الكتاب الأول.

فبدأوا فى مناوراتهم.. ومشاوراتهم.. يدبرون الكيد للإسلام وأهله.. واسـتخـدموا كل حـيل المكر والدهاء.. لا يرعـوون عن قبـيح.. فنقضـوا العهود.. وخانوا المواثيق كما وصفهم الغزالى -رحمه الله- بقوله:

«ومسلك بنى إسرائيل بإزاء المعاهدات التى أمضوها قديمًا وحديثًا يجعلنا نجزم بأن القـوم لا يدعون خسـتهم أبدًا، وأنهم يرعون المواثيق مـا بقيت هذه المواثيق متمشية مع أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم، فإذا وقفت تطلعهم الحرام نبذوها نبذ النواة، ولـو تركت الحمير نهيـقها، والأفاعى لدغهـا، ترك اليهود نقضهم للعهود» ا.هـ.

ومثل هؤلاء بين المسلمين كـمثل الأورام السرطانية.. لا عـلاج لها إلا البتر.. وإلا استفحل المرض واستعصى على العلاج.. وهذا ما فعله الرسول -ﷺ- معـهم.. صيانة للأمـة وحماية لجناب التوحـيد وحفـاظًا على وحدة المسلمين.. وردًا لأى عدوان خارجي.

[٢٧] الزبيرُ بن باطا
«هالكُ بنى قريظة!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾[١].

فمن هو الزبير بن باطا؟:

هو: الزبير بن باطا القرظى، أحد يهود بنى قريظة الذين نقضوا عهدهم مع الرسول -ﷺ- يوم «الأحزاب».. وكادت خيانتهم تعصف بالمسلمين.. وتجتث جذور أهل الإسلام.. ولكن الله سلَّم.

وقد ذكرنا فى كتابنا هذا[٢] قصة القوم وكيف نقضوا عهدهم مع رسول الله -ﷺ- فى ساعة العُسْرة.. حتى ضاقت الأرض على المسلمين بما رحبت.. وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاَّ إليه كما صور القرآن حالهم بقوله عز وجل:

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[٣].

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٦.

(٢) راجع ترجمة «حيى بن أخطب» فى كتابنا هذا، وكانت بنو قريظة لهم حصن شرقى المدينة، ولهم عهد من النبىّ -ﷺ- وذمّة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم حيى بن أخطب فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالأوا الأحزاب على رسول الله -ﷺ-، فعظم الخطب، واشتد الأمر، وضاق الحال.

(٣) سورة الأحزاب: ١٠، ١١.

وكما روى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد -رضي الله عنه-، قال:

قلنا يوم الخندق:

يا رسول الله هل من شىء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟.

قال: «**نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا**».

قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم بالريح(١).

ولما فلّ الله جمع الأحزاب.. وعادوا إلى ديارهم يجرّون أذيال الخيبة.. كان لابد من تصفية الحساب مع بنى قريظة.. فحكم فيهم «سعد بن معاذ» -رضي الله عنه- أن تقتل رجالُهم وتُسْبى نساؤهم وذراريهم وتقسم أموالُهم، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

«**لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة**».

ثم أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالأخاديد فخدّت فى الأرض، وجىء بهم مكتّفين، فضرب أعناقهم وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم.. قال تعالى:

﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾(٢).

فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم القال، وراموا العزّ فذلّوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة ولا يظلم ربك أحداً.

والمقصود: أن «الزبير بن باطا» كان أحد الناقضين للعهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيجرى عليه من الأحكام ما يجرى على غيره من رجال بنى قريظة..

(١) ورواه أحمد فى «المسند» (٣/٣).

(٢) سورة الأحزاب: ٢٦، ٢٧.

ولعله كان الوحيد الذى كانت أمامه فرصة النجاة من القتل. ولكن غلبت عليه شقوته.. وأرداه تعصبه لقومه.. فأبعده الله وأخزاه.. فلقى حتفه، وقُطعت عنقهُ جزاءًا وفاقًا.

هلاكه -لعنه الله-:

لقد حاول ثابت بن قيس -رضي الله عنه- إنقاذ «الزبير بن باطا» من القتل ليد كانت عنده، ولكن الشقى رفض عرضه.. وأبى إلا أن يلحق بإخوانه من اليهود.

وعن قصة قتله -لعنه الله- يقول ابن إسحاق:

«وقد كان ثابت بن قيس بن الشَّمَّاس -كما ذكر لى ابن شهاب الزُّهرى- أتى الزبير بن باطا القُرظى: وكان يُكنى أبا عبد الرحمن -وكان الزبير قد مَنَّ على «ثابت بن قيس بن شمّاس» فى الجاهلية، ذكر لى بعضُ ولد الزبير أنه كان مَنَّ عليه يوم بُعاث، أخذه فجزّ ناصيته، ثم خلّى سبيله - فجاءه ثابت- وهو شيخ كبير - فقال:

يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفنى؟

قال: وهل يجهل مثلى مثلك؟

قال: إنى قد أردتُ أن أجزيك بيدك عندى.

قال: إن الكريم يَجْزى الكريم.

ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله -ﷺ- فقال:

يا رسول الله إنه قد كانت للزبير علىّ مِنّة، وقد أحببتُ أن أجزيه بها، فهبْ لى دمه.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«هو لك».

فأتاه فقال: إن رسول الله -ﷺ- وهب لى دمك، فهو لك..

قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟

قال: فأتى ثابتٌ رسول الله -ﷺ- فقال:

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، هبْ لى امرأته وولده.

قال: «هم لك»!!.

قال: فأتاه، فقال:

قد وهب لى رسول الله -ﷺ- أهلك وولدك، فهم لك.

قال: أهلُ بيتٍ بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟

فأتى ثابت رسول الله -ﷺ-، فقال:

يا رسول الله، ماله.

قال: «هو لك»!!.

فأتاه ثابت، فقال:

قد أعطانى رسول الله -ﷺ- مالك، فهو لك.

قال: أى ثابت، ما فعل الذى كأنَّ وجهه مرآة صينيّة يتراءى فيها عَذَارى الحىّ، كعب بن أسد(١)؟

قال: قُتل.

قال: فما فعل سيِّد الحاضر والبادى حُيىّ بن أخطب؟

قال: قُتل.

قال: فما فعل مُقدّمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، عَزَّال بن سَمَوْأل؟

قال: قُتل.

---

(١) سيِّد بنى قريظة -لعنه الله-.

قال: فـما فـعل المجلسان؟ يعنى بنى كـعب بن قريظة وبنى عـمرو بن قريظة.

قال: ذهبوا قُتلوا.

قال: فإنى لا أسألك يا ثابت بيدى عندك إلاّ ألحقتنى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فَـتْلَةَ دَلْوٍ ناضح حتى ألْقى الأحبة!!!، فقدَّمه ثابت فضرب عنقه(١).

فلمّا بلغ أبا بكر الصديق قوله:

«ألقى الأحبة». قال:

يلقاهم والله فى نار جهنم خالداً فيها مخلداً(٢).

أسباب النزول

قال ابن إسحاق فى قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾(٣) قال:

أى بنى قريظة.

﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ الصياصى: الحصون والآطام التى كانوا فيها.

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ أى: قتل الرجال، وسبى الذرارى والنساء»(٤).

وقال الإمام القرطبى:

---

(١) رواه الطبرانى فى «الأوسط» كمـا قال الهيثمى فى «المجمع» (٦/ ١٤١) وفـيه: موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

(٢) السيرة لابن هشام (٣/ ٢١١، ٢١٢).

(٣) سورة الأحزاب: ٢٦.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢١٧، ٢١٨).

قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾، قال:

«وهم بنو قريظة»(١).

وكذا قال ابن كثير وجمهور المفسرين على أنها نزلت فى يهود بنى قريظة والذى كان «الزبير بن باطا» أحدهم فشملته الآية الكريمة.

دروس وعبر من أسباب النزول

لما ضرب النبى -ﷺ- أعناق يهود بنى قريظة -كما تقدم- وسبى من لم ينبت (كناية عن البلوغ) مع النساء والأموال.

منذ ذلك اليوم ذلَّت يهود، وضعفت حركة النفاق فى المدينة، وطأطأ المنافقون رؤوسهم، وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون.

وتبع هذا وذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون فى غزو المسلمين، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم. حتى كان فتح مكة والطائف. ويمكن أن يقال: إنه كان هناك تلازم بين حركات اليهود وحركات المنافقين وحركات المشركين. وإن طرد اليهود من المدينة قد أنهى هذا التلازم، وإنه كان فارقًا واضحًا بين عهدين فى نشأة الدولة الإسلامية واستقرارها.

فهذا مصداق قول الله سبحانه:

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾(٢).

---

(١) تفسير القرطبى (١٤/١٤٨).

(٢) سورة الأحزاب: ٢٦، ٢٧.

والصياصى: الحصون. والأرض التى ورثها المسلمون ولم يطؤوها، ربما كانت أرضًا مملوكة لبنى قريظة خارج محلتهم. وقد آلت للمسلمين فيما آل إليهم من أموالهم.

وربما كانت إشارة إلى تسليم بنى قريظة أرضهم بغير قتال. ويكون الوطء معناه الحرب التى توطأ فيها الأرض.

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾..

فهذا هو التعقيب المنتزع من الواقع، وهو التعقيب الذى يرد الأمر كله إلى الله.

وقد مضى السياق فى عرض المعركة كلها يردّ الأمر كله إلى الله. ويسند الأفعال فيها إلى الله مباشرة. تثبيتًا لهذه الحقيقة الكبيرة، التى يثبتها الله فى قلوب المسلمين بالأحداث الواقعة، وبالقرآن بعد الأحداث، ليقوم عليها التصور الإسلامى فى النفوس.

وهكذا يتم استعراض ذلك الحادث الضخم. وقد اشتمل على السنن والقيم والتوجيهات والقواعد التى جاء القرآن ليقيمها فى قلوب الجماعة المسلمة وفى حياتها على السواء.

وهكذا تصبح الأحداث مادة للتربية، ويصبح القرآن دليلاً وترجمانًا للحياة وأحداثها، ولاتجاهها، وتستقر القيم، وتطمئن القلوب، بالابتلاء وبالقرآن سواء!.

قال الإمام القشيرى -رحمه الله تعالى- فى قوله عز وجل:

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٦.

قال -رحمه الله-:

«إن الحقَّ -سبحانه- إذا أجمل أكمل، وإذا شفى كفى، وإذا وفى أوْفى. فأظفر المسلمين عليهم، وأورثهم معاقلهم، وأذلّ مُتعزِّزهم، وكفاهم بكل وجه أمْرهم، ومكنهم من قتلهم وأسرهم ونهب أموالهم، وسبْى ذراريهم»(١).

(١) لطائف الإشارات (٣/ ١٥٩).

[٢٨] عبد الله بن نَبْتـل
«قلبهُ قلبُ جَبَّار!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

فمن هو عبد الله بن نبتل؟:

هو: أحد قرناء «عبد الله بن أُبى بن سلول».. الذين تعاونوا على الإثم والعدوان ومعصية الرسول.. وأحد حلفاء اليهود.. الذين ناصبوا الدعوة الإسلامية ورسولها العداء من أول يوم فى المدينة المنورة.. وكان ابن نبتل هذا يعد عَيْنًا من عيون اليهود.. ينقل إليهم أخبار الرسول -ﷺ- أولاً بأول!!.

والمنافقون يد اليهود التى تعمل فى الخفاء داخل البلاد الإسلامية.. فيروجون باطلهم.. وينقلون إليهم أخبارهم.

لقد اتخذ أعداء الإسلام والمسلمين حيلة النفاق بشكل واسع جداً، فهم يكيدون بهذه الوسيلة كيداً عظيماً، ويمكرون بها مكراً كباراً.

(١) سورة المجادلة: ١٤ - ١٩.

فمنهم من دخل فى الإسلام نفاقًا -كعبد الله بن سبأ اليهودى- وأخذ يمكر به وبالمسلمين من داخل صفوفهم، هو أو ذريته من بعده الذين أوصاهم بذلك إمعانًا فى الإخفاء، وأوصاهم بأن يكونوا على صلة دائمة سرًّا بقومهم الأوّلين، وزعمائهم من غير المسلمين، ليأخذوا منهم مخططات المكر والكيد التى يطلب منهم تنفيذها داخل صفوف المسلمين.

وحيلة النفاق هذه حيلة مهرها يهود مهارة فائقة، وهم يعرفون كيف يوجّهون ذرارى منافقيهم داخل الأمم الأخرى، ويعرفون كيف ينتقون منهم من يقوم بدور الكيد العظيم، دون أن تنكشف يهوديته الحقيقية المخفية، وقد اتخذوا حيلة النفاق هذه بشكل واسع جدًّا ضد النصارى وضدّ المسلمين، ولأنهما الأمتان اللتان حقد عليهما يهود حقدًا كبيرًا، وأرادوا كيدهما كيدًا عظيمًا.

ولا يشترط فى المنافق أن يكون فى الأصل من أبناء غير المسلمين، فقد استطاع أعداء الإسلام أن يخرجوا فريقًا من أبناء المسلمين عن دينهم، ويجعلوهم كافرين به، مؤمنين بمذاهب أخرى وضعية، ولكن أوصوهم أن يظلّوا منتمين إلى الإسلام انتماءً ظاهرًا، وأن يظلّوا بين المسلمين ينافقونهم فى كثير من أعمالهم، ومنها الصلاة، ثم يعملوا على تنفيذ مخططات الكيد التى تنسف الإسلام من جذوره، فلا تبقى منه عقيدة ولا عملاً.

وهؤلاء يعملون بين المسلمين على أنهم مسلمون، وأبناء مسلمين، وقد يكون بعضهم متسلسل النسب الإسلامى إلى عصر الرسول -ﷺ-، وهم فى حقيقة أمرهم منافقون، انقطعوا عن الانتماء الصحيح الذى كان عليه آباؤهم وأجدادهم، وصاروا مجنّدين فى جيوش أعداء الإسلام سرًّا، ويمكرون بالإسلام والمسلمين مكرًا كبارًا. ويكون لهم بهذا أثر جسيم جدًّا، فلهم ظاهر إسلام، وهم من الأسر الإسلامية، وأهلهم وإخوانهم وعشيرتهم يناصرونهم مناصرة عصبية، ويبرّرون أعمالهم، ويسترون قبائحهم، تأثرًا بالمصالح والمنافع التى تتحقق لهم عن طريقهم.

وبأيدى أمثال هؤلاء سقطت شعوب إسلامية كثيرة فى بلاء شديد، وفتن كبرى، حتى وجدت أنفسهـا فى مخالب أعدائها، وبين أنيابهم، يمزقونهم كل ممزّق، وكان الذين سلّموهم إلى أعدائهم هم من كفرة أبنائهم، الذين حافظوا على الانتماء الظاهرى للإسلام نفاقًا وإمعانًا فى الكيد(١).

هذا بالتمام هو دور النفاق وأهله.. والله من ورائهم محيط.

والمقصود أن «عبد الله بن نبتل» صاحب هذه السطور.. هو أحد هؤلاء الأعوان الموالين لليـهود.. يعمل لحسابهم.. ويخـشى الدوائر.. ويخون الله ورسوله.. وبالرغم من أن التاريخ لم يذكر عنه شيئًا كثيرًا إلا أن موقفه الذى نعرضـه على هذه السطور شاهد على مدى تعمّـقه فى النفاق ورسـوخ قدمه فيه.. فاستحق بذلك الوعيد.. ونزول القرآن فيه.

ذكر «السدِّى»: أن عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النبى -ﷺ- ثم يرفع حديثـه إلى اليهود، فبيـنما رسول الله -ﷺ- فى حُجْرة مـن حجره إذ قال:

«يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعينى شيطان!».

فدخل «عبد الله بن نبتل» وكان أزرق، فقال له رسول الله -ﷺ-:

«علام تشتمنى أنت وأصحابك؟».

فحلف بالله ما سبّوه!!، فأنزل الله تعالى هذه الآية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٢)(٣).

ثم توالت الآيات.. لتصـور بعض أحوالهم ومـواقفهم.. وتتـوعدهم

(١) غزو فى الصميم (١٨٩، ١٩٠). لعبد الرحمن حنبكة.
(٢) سورة المجادلة: ١٤.
(٣) أسباب النزول للنيسابورى (٢٣٢).

بافتضاح أمرهم، وسوء مصيرهم، وانتصار الدعوة الإسلامية على الرغم من كل تدابيرهم:

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(١).

وهذه الحملة القويّة على المنافقين الذين يتولون قومًا غضب الله عليهم -وهم اليهود- تدل على أنهم كانوا يمعنون فى الكيد للمسلمين، ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم؛ كما تدل على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت، بحيث يخافها المنافقون، فيضطرون -عندما يواجههم رسول الله -ﷺ- والمؤمنون بما يكشفه الله من تدبيراتهم ومؤامراتهم- إلى الحلف بالكذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال؛ وهم يعلمون أنهم كاذبون فى هذه الأيمان. إنما يتقون بأيمانهم ما يتوقعونه من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم.

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أى وقاية. وبذلك يستمرون فى دسائسهم للصد عن سبيل الله!.

والله يتوعدهم مرات فى خلال هذه الآيات:

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾. ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

---

(١) سورة المجادلة: ١٥-١٩.

ويصور مشهدهم يوم القيامة فى وضع مزر مهين، وهم يحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾.. مما يشير إلى أن النفاق قد تأصّل فى كيانهم، حتى ليصاحبهم إلى يوم القيامة. وفى حضرة الله ذى الجلال. الذى يعلم خفايا القلوب وذوات الصدور!.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.. وهم على هواء لا يستندون إلى شىء. أى شىء!.

ويدمغهم بالكذب الأصيل الثابت: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

ثم يكشف عن علة حالهم هذه. فقد استولى عليهم الشيطان كلية:

﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾.. والقلب الذى ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾.. الخالص للشيطان الذى يقف تحت لوائه، ويعمل باسمه، وينفذ غاياته. وهو الشر الخالص الذى ينتهى إلى الخسران الخالص:

﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وهى حملة شديدة عنيفة تناسب الشر والأذى والفتنة التى يديرونها للمسلمين مع أعدائهم الماكرين. وتطمئن قلوب المسلمين. والله -سبحانه وتعالى- يتولى عنهم الحملة على أعدائهم المستورين![١].

وعلى أية حال فلا يخالج المؤمن شك فى أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التى لابد أن تظهر فى الوجود، وأن الذين يحادّون الله ورسوله هم الأذلون، وأن الله ورسله هم الغالبون. وأن هذا هو الكائن والذى لابد أن يكون.

ولتكون الظواهر غير هذا ما تكون!.

---

(١) الظلال (٦/٣٥١٣).

هكذا كان أهل النفاق يعملون فى صدر الإسلام بقيادة «عبد الله بن أُبىّ» و«عبد الله بن نبتل» وغيرهما.. وهكذا أهل النفاق فى كل عصر يعملون. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وعند هذا الموقف توقف التاريخ عن سيرة «عبد الله بن نبتل» فلا ندرى ماذا حدث له بعد ذلك؟! ولا فى أى البلاد هلك؟! لقد أُلقى فى «مزبلة» التاريخ. .كما أُلقى إخوانه من قبل ومن بعد.. وذلك جزاء الظالمين.. لكن يبقى موقفه من الإسلام وعداؤه لنبى الإسلام علامة سوداء فى تاريخ حياته.. وتبقى آيات الله التى نزلت فى شأنه.. علامة بارزة.. ذكرى للمجرمين.. وموعظة للمؤمنين.

فهل أغنى عن «عبد الله بن نبتل» مكرُه؟.

وهل نفعه ولاؤه لبنى إسرائيل؟.

وهل جنى عليه نفاقه إلا خزى الدنيا وعذاب الآخرة؟

فهل من مدكر؟.

أسباب النزول

● أخرج ابن أبى حاتم عن السّدِّى فى قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم...﴾[1] الآية، قال: بلغنا أنها نزلت فى «عبد الله بن نبتل»، وكان رجلاً من المنافقين[2].

● وقال الإمام الواحدى النيسابورى فى قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[3]. قال: قال السّدِّى ومقاتل:

(١) سورة المجادلة: ١٤.

(٢) الدر المنثور (٨/ ٨٥).

(٣) سورة المجادلة: ١٤-١٨.

نزلت فى «عبد الله بن نبتل» المنافق كان يجالس النبى -ﷺ- ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينا رسول الله -ﷺ- فى حجرة من حجره إذ قال:

«يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعينى شيطان!».

فدخل «عبد الله بن نبتل» وكان أزرق، فقال له رسول الله -ﷺ-:

«علام تشتمنى أنت وأصحابك؟».

فحلف بالله ما فعل ذلك!!.

فقال له النبىّ -ﷺ-:

«فعلتَ».

فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه!!.

فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

● وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- حدَّثه أن النبىّ -ﷺ- كان فى ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل، قال:

«إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينى شيطان فإذا أتاكم فلا تكلِّموه».

فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله -ﷺ- فكلمه، فقال:

«علام تشتمنى أنت وفلان وفلان؟».

نفر دعاهم بأسمائهم، قال:

فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه..

قال: فأنزل الله عزّ وجلّ:

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى (٢٣٢).

﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(١)(٢).

دروس وعبر من أسباب النزول

يقول الحافظ ابن كثير فى قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٣):

«يقول الله تعالى منكرًا على المنافقين فى موالاتهم الكفار فى الباطن، وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين كما قال تعالى:

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾(٤). وقال هاهنا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعنى اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن ثم قال تعالى:

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ﴾ أى: هؤلاء المنافقون ليسوا فى الحقيقة منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود، ثم قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعنى المنافقين يحلفون على الكذب، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهى «اليمين الغموس» ولا سيما فى مثل حالهم اللعين عياذًا بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا،

---

(١) سورة المجادلة: ١٨.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: رواه الإمام أحمد من طريقين عن سماك به، ورواه ابن جرير عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن سماك به نحوه، وأخرجه -أيضًا- من حديث سفيان الثورى عن سماك بنحوه إسناد جيد ولم يخرجوه. تفسير ابن كثير (٤/٥١٢).
وقال السيوطى فى «الدر المنثور» (٨/٨٥): أخرجه أحمد والبزار والطبرانى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مَرْدُويه والحاكم وصححه والبيهقى فى «الدلائل».

(٣) سورة المجادلة: ١٤-١٩.

(٤) سورة النساء: ١٤٣.

وإذا جاءوا الرسول حلفوا لـه بالله أنهم مؤمنون، وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به، لأنـهم يعتقـدون صدق ما قـالوه وإن كان فى نفس الأمر مطابقًا، ولهذا شهد الله بكذبهم فى أيمانهم وشهادتهم لذلك.

ثم قال تعالى:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى أرصد الله لهم على هذا الصنيع العـذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهى مـوالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين وغشّهم.

ولهذا قال الله تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة، فظن كـثير ممن لا يعرف حقيقـة أمرهم صدقهم فاغتر بهم، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس.

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى فى مـقابلة مـا امتـهنوا من الحلف باسم الله العظيم فى الأيمان الكاذبة الحانثة.

ثم قال تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى لن يدفع ذلك عنهم بأسًا إذا جاءهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أى يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحدًا ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أى يحلفون بـالله عز وجل أنهم كانوا على الهـدى والاستـقامة كـما كانوا يحلـفون للناس فى الدنيـا، لأن من عاش على شىء مات علـيه وبعث عليه، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة، ولهذا قال:

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أى حلفهم بذلك لربهم عزّ وجلّ.

ثم قال تعــالى منكراً عليهم حسـبانهم: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أى استحوذ على قلوبهم الشيطان حـتى أنساهم أن يذكروا الله عـز وجل، وكذلك يصنع بمن استـحوذ عليه.

﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يعنى الذين استحوذ عليـهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. ثم قال تعالى:

﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فى بيعـهم؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدى بالضلالة. نسأل الله تعالى السلامة.

[٢٩] امرأة نوح -عليه السلام-
«الشقيّة التى أهلكها عنادُها!!»

الآيات التى نزلت فيها:

قال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(١).

فمن هى امرأة نوح؟:

هى: زوجة نبى الله «نوح» -عليه السلام-.. قال مقاتل:

كان اسم امرأة نوح «والهة»، واسم امرأة لوط «والعة» فالله أعلم.

والمقصود أن هذه الشقـية عاشت طيلة حياتها تعـاند زوجها.. وتحرّض قومها عليه.. بل وتتهمه -وهو شيخ الأنبياء والمرسلين- بالجنون!! وليس بعد هذه الخيانة خيانة فضرب الله بهـا مثلاً للذين كفروا!!. ثم أوردها فى الآخرة دار الهوان.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

لقد ضرب الله تعـالى هذا المثل تنبيهًا على أنه لا يُـغْنى أحدٌ فى الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرّق بينهما الدين.

---

(١) سورة التحريم: ١٠.

وقوله: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ أى: نبيّين رسولين عندهما فى صحبتهما ليلاً ونهاراً يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أى: فى الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان ولا صدقاهما فى الرسالة!! فسبحانك ربى.. تهدى من تشاء.. وتضل من تشاء. ترفع من تشاء.. وتخفض من تشاء.. تعزّ من تشاء.. وتذل من تشاء..

رب إن الهـــدى هـداك وآياتك حق تهدى بها من تشاء

وليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فى فاحشة بل فى الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء.

عن سليمان بن قرم: سمعت ابن عباس يقول فى هذه الآية:

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا؛ أمّا خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون!!، وأمّا خيانة امرأة لوط[1] فكانت تدل قومها على أضيافه[2].

وقال العوفى عن ابن عباس، قال:

كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سرّ نوح -عليه السلام- فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به.

وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممّن يعمل السوء.

وقال الضحاك عن ابن عباس:

«ما بغت امرأة نبىّ قط إنما كانت خيانتهما فى الدين».

قال القرطبى: «وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكره القُشيرىّ».

---

(١) ستأتى ترجمتها بعد هذه الترجمة -إن شاء الله-.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٦١٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى: لـم يدفع نوح ولوط -عليهما السلام- مع كـرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهمـا -لـمّا عصتا- شيئًا من عذاب الله؛ تنبيهًا على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة.

﴿وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ فلا كرامة ولا شفاعة فى الكفر.. وأمر الخيانة فى العقيدة حتى لأزواج الأنبياء!.

فمن بـطأ به عمله لم يُسـرعْ به نسبـه.. وقد كـان رسول الله -ﷺ- يقول: «يا فاطمة بنت محمد اعـملى ما شئت فلن أغنى عنك من الله شيئًا».. وقال الله تعـالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾[1].

قصتها:

كان بين آدم ونوح -عليـهما السـلام- عشرة قـرون كلّهم على الإسلام كما روى البخارى عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

ثم بعد تلك القـرون الصالحة حـدثت أمور اقتـضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام.

وكان سبب ذلك ما رواه البـخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عن تفسير قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لا تَـذَرُنَّ آلِهَتَكُـمْ وَلا تَـذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُـوَاعًا وَلا يَغُـوثَ وَيَعُـوقَ وَنَسْرًا﴾[2] قال:

«هذه أسمـاء رجال صالحين من قوم نوح. فلمّـا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كـانوا يجلسون فيها أنصابًا وسمّوها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبدت».

(١) سورة المؤمنون: ١٠١.
(٢) سورة نوح: ٢٣.

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد.

وذكر الإمام ابن جرير فى «تفسيره» عن محمد بن قيس، قال:

«كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلمّا ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورّناهم كانوا أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلمّا ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم».

وروى ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال:

«ودّ ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان «ودّ» أكبرهم وأبرهم به»[1].

والمقصود: أن الفساد لما انتشر فى الأرض وعمّ البلاد بعبادة الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحًا -عليه السلام- يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه. فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.. فلمّا دعاهم كذّبوه وعاندوه.. واصرّوا على كفرهم واستكبروا استكباراً.. ويصورّ القرآن حالهم وحال نبيِّهم فيقول تعالى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ

(١) البداية (١/ ١٧٠).

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾(١).

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة فى الليل والنهار والسرّ والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا لم ينجح فيهم بل استمرّ أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان وتنقّصوه وتنقّصوا من آمن به وتوعّدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا فى أمرهم.

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾ أى: السادة الكبراء منهم.

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

أى لست كما تزعمون من أنى ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(٣).

وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا أى فصيحًا أعلم الناس بالله عز وجل.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾(٤). تعجبوا أن يكون بشراً رسولاً وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم.

وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أى: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية، وهذا الذى رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه - ﷺ - فإن

---

(١) سورة نوح: ١-١٤.
(٢) سورة الأعراف: ٦٠، ٦١.
(٣) سورة الأعراف: ٦٢.
(٤) سورة هود: ٢٧.

الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

ولهذا قال رسول الله -ﷺ- مادحًا للصّديق:

«ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم».

ثم طلبوا منه أن يطرد عنه الضعفاء والفقراء.. حتى يجتمعوا به.. فأبى عليهم ذلك قائلاً:

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾(١).

وقوله: ﴿إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أى: فأخاف إن طردتهم أن يشكونى إلى الله عز وجل ولهذا قال:

﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى:

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾(٣).

ومع هذه المدة الطويلة ما آمن به إلاّ القليل منهم.

وكان كلما انقرض جيل وصّوا من بعدهم بعدم الإيمان به، ومحاربته ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصّاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح أبدًا ما عاش، ودائمًا ما بقى.

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ولهذا قال:

﴿وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(٤).

---

(١) سورة هود: ٢٩.

(٢) سورة هود: ٣٠.

(٣) سورة العنكبوت: ١٤.

(٤) سورة نوح: ٢٧.

ولهذا قالوا:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾(١).

ثم أوحى الله تعالى إلى نوح: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٢).

وهذه تعزية لنوح -عليه السلام- فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، أى: لا يسوأنّك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب.

دعاء مستجاب:

ولما يئس نوح -عليه السلام- من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم دعا عليهم دعوة غضب فلبّى الله دعوته وأجاب طلبته.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(٥). فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيّهم عليهم.

فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير.

وقدّم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمْره وحلّ بهم بأسه الذى لا يُرَد عن

---

(١) سورة هود: ٣٢، ٣٣.

(٢) سورة هود: ٣٦.

(٣) سورة الصافات: ٧٥، ٧٦.

(٤) سورة القمر: ١٠.

(٥) سورة نوح: ٢٦، ٢٧.

القوم المجـرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجـعه فإنه لعله قد تدركـه رقّة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال: ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾(١).

واستجاب نوح -عليه السلام- لأمر ربه.. وبدأ يصنع السفينة كما علّمه ربه.

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ أى: يستهزئون به.

﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾(٢).

أى: نحن الذين نسـخر منـكم ونتعـجب منكم فى اسـتمـراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم.

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(٣).

وقد كـانت سجاياهم الكفـر الغليظ والعناد البالغ فى الـدنيا وهكذا فى الآخرة يجحدون أيضًا أن يكون جاءهم رسول.

عن أبى سعيد -رضي الله عنه-، قال:

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

«يجىء نوح -عليه السلام- وأمته فيقول الله عزّ وجلّ:

هل بلغت؟

فيقول: نعم أى ربّ.

فيقول لأمته: هل بغلكم؟

فيقولون: لا ما جاءنا من نبىّ.

فيقول لنوح: من يشهد لك؟

---

(١) سورة المؤمنون: ٢٧.

(٢) سورة هود: ٣٨.

(٣) سورة هود: ٣٩.

فيقول: محمد وأمته. فتشهد أنه قد بلَّغ»(١).

وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٢). والوسط: العدل.

وانتهى نوح -عليه السلام- من صنعه «السفينة».. قال أهل السير:

كان ارتفاعها ثلاثين ذراعًا وكانت ثلاث طبقات. كل واحدة عشرة أذرع.

فالسفلى: للدّواب والوحوش.

والوسطى: للناس.

والعليا: للطيور.

وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها(٣).

وأمره ربّه إذا جاء أمره ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾(٤).

والمراد بالتنور عند الجمهور: وجه الأرض. أى: نبعث الأرض من سائر أرجائها.

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(٥).

ثم قال له ربّه:

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾(٦).

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى فى (٦٠)، كتاب الأنبياء (٣)، الحديث (٣٣٣٩).
(٢) سورة البقرة: ١٤٣.
(٣) البداية والنهاية (١/١٧٧).
(٤) سورة المؤمنون: ٢٧.
(٥) سورة المؤمنون: ٢٧.
(٦) سورة المؤمنون: ٢٨، ٢٩.

ولما فتحت السماء أبوابها.. بماء منهمر بإذن ربِّها، وفجّر الله الأرض عيونًا.. والتقى الماء على أمر قد قُدر..

امتثل نوح -عليه السلام- لأمر ربه ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ولما استووا على ظهرها.. جرت السفينة تحت عين الله تعالى..

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[2] ويصور القرآن حالها على وجه الماء فيقول تعالى:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[3].

هلاك زوجته وولده:

جلست امرأة نوح.. أمام التنور[4].. تصنع الخبز.. وإذا بالماء يتفجّر من بين ألسنة النيران.. متدفقًا فى عنف.. فيدفعها فى صدرها.. فتكون أول الهالكين.. غرقًا.. وحرقًا فى نفس الوقت.. لأن الماء خارج من التنور ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ وفجرت الأرض عيونًا.. وفتحت أبواب السماء بماء منهمر والتقى الماء.. ماء الأرض وماء السماء.. وقيل: لم يقلع أربعين يومًا.. وقيل: كان ماء السماء باردًا كالثلج.. وماء الأرض حارًا مثل الحميم!! فالله أعلم.

قال تعالى:

---

(١) سورة هود: ٤١.

(٢) سورة القمر: ١٣، ١٤.

(٣) سورة هود: ٤٢.

(٤) هذا تفسير آخر.. للتنور.. وذكر ابن كثير فى «البداية» (١/ ١٧٧): عن ابن عباس: التنور عين فى الهند، وعن الشّعبى: بالكوفة، وعن قتادة: بالجزيرة.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾(١).

وهذا الابن هو «يام» أخو سام وحام ويافث أولاد نوح -عليه السلام-.

وقيل اسمه «كنعان». وكان كافرًا عمل عملاً غير صالح فخالف أباه فى دينه ومذهبه فهلك مع من هلك.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

أى لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممّن عبد غير الله عزّ وجلّ أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر وغيض الماء أى نقص عما كان ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أى وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره من إحلاله بهم ما حلّ بهم.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى نودى عليهم بلسان القدرة بُعْدًا لهم من الرحمة والمغفرة.

كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾(٣).

وهكذا استجاب الله لدعوة نوح -عليه السلام-.. فأهلك الظالمين.. وأباد الكافرين.. ونالت زوجته المشؤومة جزاء كفرها.. وعاقبة جحودها ولا عدوان إلا على الظالمين.

---

(١) سورة هود: ٤٢، ٤٣.
(٢) سورة هود: ٤٤.
(٣) سورة الأعراف: ٦٤.

فوائد وعظات من قصة زوجة نوح -عليه السلام-

١- درسٌ فى قوة العزيمة:

من الصفـات الكريمة التى يتـحلّى بها الإنسـان العزيمة القوية الـتى بها يتغلّب على كل ما يصادفه من عقبات ومشقات.

ونبى الله نوح -عليه السلام- يضرب لنا مـثلاً أعلى فى قوة العزيمة ومـضائها واستـمرارها عـبر دعوته التـى استمـرّت زمنًا طويلاً دون أن تهن له إرادة أو تتزعزع له عقيدة.

ومن الصور البارزة التى يعرضها القرآن لمضاء عزيمته هو ذلك الاستمرار المتواصل لدعـوة قومه إلى الله سـواء بالليل أو النهار، بالسّر والعـلانية ولكن هؤلاء القوم رفضوا دعوته جملة وتفصيـلاً حتى أنهم رفضوا الاستماع والنظر إليه وهذا نهاية الإعراض عنه والإيذاء لشعوره.

أضف إلى هذا وصمهم إياه بالجنون ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّـةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(١).

ونمشى قُدمًـا فتتراءى لنا صـورة من مضاء عزيمتـه وذلك أنه كان يتلقّى تهديدهم بشجاعة فلا ينثنى عن دعوته:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

ولكن نوحًا -عليه السلام- أمام هذا التهديد لم يتراجع بل لجأ إلى ربه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة المؤمنون: ٢٥.

(٢) سورة الشعراء: ١١٨.

وحينًا نرى صورة من قوة عزيمته حيث أنه كان يتقبّل سخرية قومه وهو يصنع السفينة بصدر رحب ونفس مطمئنة إلى نصر الله.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[1].

ولكن ما مبعث هذه العزيمة القوية وما ركائزها فى نفس نبىّ الله نوح؟

لقد كان مبعثها إيمانه القوىّ بربّه واعتماده عليه فى كل ما يصادفه من صعاب وأذى.

٢- الثورة على القرابات الفاسدة:

كانت رابطة القربى وما تزال من أهم الحوافز التى ينقاد إليها الإنسان ويخصها بقسط كبير من تضحيته وميله الشخصى.

والإسلام أعطى لصلة القرابة حظًا كبيرًا من العناية والرعاية لأن طبيعة الإنسان ومصلحته تقوم على مراعاتها والقيام بواجباتها.

ولكن مراعاة القربى لها شرط أساسى للقيام بحقها ألا وهو الإيمان بالله والسير بموجب شرعته، فالمسلم عليه أن لا يخصّ بالود من يكفر بالله ويعصيه ولو كان من أقرب الناس إليه نسبًا، جاء فى القرآن:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ...﴾[2].

وفى قصة «امرأة نوح».. يعرض لنا القرآن مثلاً حيًّا على ذلك.

فنوح -عليه السلام- تأخذه عاطفة الشفقة على ولده فيطلب من ربه أن ينجّى

(١) سورة هود: ٣٨، ٣٩.

(٢) سورة المجادلة: ٢٢.

ابنه من الهلاك، فيعاتبه الله على ذلك ويعتبر عمله من الجهل الذى لا يليق أن يتصف به.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[1].

والذى ينشده القرآن من وراء ذلك توجيه الإنسان إلى أن أعماله الصالحة هى المعوّل عليها فى نيل السعادة فى الآخرة، وإنه ليس للشفاعات والقرابات أى تأثير فى نجاته من عذاب الله إن كان عاصيًا، وهذا ما أكده القرآن أيضًا.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾[2].

ففى هلاك امرأة نوح وامرأة لوط بسبب بغيهما وانحرافهما عن الطريق المستقيم عظة قرآنية بليغة هى: أن القرابة مهما اشتدت لا يمكن أن تغنى عن الإنسان شيئًا إذا كان سيئ العمل.

وكثيراً ما ضلّ البشر فى مفهوم طريق النجاة، فظنوا أن النجاة تكون فى محاباة رجال الدين والزلفى إليهم بالهدايا والطاعة العمياء لهم، غير عابئين بإصلاح نفوسهم ومحاسبة ضمائرهم، فأدى هذا المفهوم الخاطئ إلى الإساءة إلى الدين وجعله سببًا من أسباب التأخر والجمود والفساد، بدلاً من أن يكون من أهم الدوافع للإصلاح والرُّقى والسمو[3].

(١) سورة هود: ٤٥، ٤٦.
(٢) سورة التحريم: ١٠.
(٣) مع الأنبياء فى القرآن (٨٠-٨٢) للأستاذ/ عفيف طبّارة.

[٣٠] امرأة لوط -عليه السلام-
«وعاقبة الخيانة!!»[١]

الآيات التى نزلت فيها:

قال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[٢].

فمن هى امرأة لوط؟:

هى: زوجة نبى الله لـوط بـن هـاران بن تـارح.. ابن أخـى إبراهيم -عليهما السلام-..

.. عاندت دعوة زوجها.. وأعانت قومه عليه.. وحرّضت على الإثم والعدوان.. فأهلكها الله مع الهالكين.

ما هى قصتها؟:

كان أهـل «سدوم»[٣] ذوى أخلاق رديئـة لا يستـحيـون من منكر ولا يتعففـون عن معصية يأتونها على رءوس الأشـهاد.. كانوا من الشرّ بمكان.. وكانوا يقطعـون الطريق.. ويأتون فى ناديهم المنكر.. وكانوا قد ابتـدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من خلق الله وذلك أنهم كانوا يأتون الذكران

---

(١) تقدم أن الخيانة هنا ليست خيانة زنا.. إنما هى إعانة على المنكر.

(٢) سورة التحريم: ١٠.

(٣) سدوم: هى ثلاث قرى يقال لها مجتمعة، سدوم، وهى بين المدينة والشام.

من العالمين شهوة من دون النساء يستعلنون بذلك ولا يستسرون ولا يرون فى ذلك سوءًا أو قبحًا.

وكان «لوط» -عليه السلام- قد نزح عن محلة عمه «إبراهيم» -عليهما السلام- بعد أن آمن به[١] - بأمره وإذنه.. فنزل بمدينة «سدوم»[٢].. فلمّا رأى ما هم عليه.. دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.. ونبذ عبادة ما سواه.. ونهاهم عن المنكر.. وخوّفهم من بأس الله.. فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا.. فلمّا ألحّ عليهم بالعظات والإنذار هددوه بالرجم تارة.. وتارة بالإخرج من بينهم!!.

قال تعالى:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[٣].

وبلغ من عتوهم ورسوخ ضلالهم أن استعجلوا العذاب فقالوا لنبيهم: ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[٤] فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم. فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين.

فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام، فمرّوا على الخليل «إبراهيم» وبشّروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم.

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٦].

(٢) قال كعب: كان إبراهيم -عليه السلام- يشرف على سدوم كل يوم فيقول: ويل لك سدوم يومًا هالك.

(٣) سورة الأعراف: ٨٠-٨٢.

(٤) سورة العنكبوت: ٢٩.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾(١).

وفي سورة «الذاريات»:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾(٢).

قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم -وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل- أقبلوا حتى أتوا أرض «سدوم» في صور شبان حسان، اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجّة عليهم. فاستضافوا لوطًا -عليه السلام- وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضيِّفهم أن يضيّفهم غيره، وحسبهم بشرًا من الناس و﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾(٣).

قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن إسحاق: قوله:

﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي: شديد بلاؤه. وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم، كما كان يصنع بهم في غيرهم، وكانوا -أي قومه- قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدًا، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه.

وعن جندب: قال حذيفة -رحمه الله-:

لما أرسلت الرسل إلى قوم لوط ليهلكوهم، قيل لهم:

لا تهلكوا قوم لوط حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات، وطريقهم على إبراهيم. قال:

---

(١) سورة العنكبوت: ٣١، ٣٢.
(٢) سورة الذاريات: ٣١-٣٤.
(٣) سورة هود: ٧٧.

فأتوا إبراهيم -عليه السلام- فبشـروه بما بشّروه ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[1] قال:

كان مجادلته إياهم أن قال لهم:

إن كان فيهم خمسون أتهلكونهم؟

قالوا: لا.

قال: أرأيتم إن كان فيهم أربعون؟

قالوا: لا.

قال: فثلاثون؟

قالوا: لا.

حتى انتهى إلى عشرة، وخمسة شك سليمان[2].

فأتوا لوطًا -عليه السلام-، وهو في أرض يعمل فيها فحسبهم ضيفًا، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله فأمسوا معه، فالتفت إليهم، فقال:

ما ترون ما يصنع هؤلاء؟

قالوا: وما يصنعون؟

قال: ما من الناس أحد أشرّ منهم.

قال: فانتهى بهم إلى أهله، فانطلقت العجوز السوء امرأته فأتت قومه، فقالت:

لقـد تضيّف لوطًا قـوم ما رأيت قط أحـسن وجوهًا، ولا أطيب ريـحًا منهم، فأقبلوا يهرعون إليه حتى دفـعوا الباب، حتى كادوا أن يغلبوه عليهم، فمـال مَلَكٌ بجناحه فـصفقـه دونهم، ثم أغلق الباب، ثم علوا الجـدار فعلوا معه، ثم جعل يخاطبهم:

---

(١) سورة هود: ٧٤.

(٢) أحد الرواة.

هؤلاء بناتي هـن أطهـر لكم[١] حـتى بلغ: ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[٢].

فقال حين علم أنهم رسل الله.

قال: فما بقى أحد منهم تلك الليلة إلاّ عمى[٣]. قال:

فباتوا بشر ليلة عميًا ينتظرون العذاب.

قال: وسار بأهله واستأذن جبريل -عليه السلام- فى هلكتهم فأذن له.

فارتفعت الأرض التى كانوا عليها فعلا بها حتى سمع أهل السماء الدنيا كلابهم، وأوقد تحتها نارًا، ثم قلبها بهم، قال:

فسمعت امرأته الوجبة وهى معه فالتفتت فأصابها العذاب[٤].

ويفصِّل ما تقدم حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- ولفظه:

«لما جاءت رسل الله لوطًا ظن أنهم ضيفان لقوه، فأدناهم حتى أقعدهم قريبًا، وجاء ببناته وهن ثلاث، فأقعدهن بين ضيفانه، وبين قومه، فجاء قومه يهرعون إليه، فلمّا رآهم قال:

---

(١) مسألة: كيف سمحت نفس «لوط» -عليه السلام- بابنتيه أو بناته يقدمـهن لهؤلاء الفسقة وهو نبىٌّ معصوم من المعصية؟ وهذه المسألة لها عدة أجوبة.
أولها: أن لوطًا لم يعرض عليـهم بناته الصلبيّات، وإنما عرض عليـهم بنات القرية وهن أزواجـهم لأن كل نبى أُرسل إلى قوم فـأولادهم أبناؤه ونسـاؤهم بناته مجـازًا. وردّ هذا الجواب الأستاذ/ عبـد الوهاب النجار. قصص الأنبياء (١٤٩). ثانيها: أن الملائكة الذين طمع فيهم هؤلاء الفجرة كـانوا ثلاثة. ولايعقل أن يكون كل واحد من أهل القرية الذين جاءوا إليه يزفون. يأمل أن ينال حاجته منهم. وأهل القرية يبلغون ألفًا أو يزيدون. ولكن المعقـول أنه كان هناك رئيـسان مطاعـان أو ثلاثة فى القوم هم الذين يطلبـون الملائكة.. فعرض لهم لوط ابنتيه على سـبيل التزويج لا على سبيل الزنا. ثالثها: أن لوطًا -عليه السلام- عرض على القوم بناته عرضًا لا يقصد به «الجد» ولكن اعتمادًا على أن يستحيوا منه.

(٢) سورة هود: ٨٠، ٨١.

(٣) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [سورة القمر: ٣٧، ٣٨].

(٤) صحيح: وإسناده حسن. فيه ابن أبى الدنيا، وهو صدوق. ذم اللواط. للإمام الحافظ أبى بكر الآجرّى (٣٨، ٣٩).

هؤلاء بناتى هن أطهر لكم[١]، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى.

قالوا: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[٢].

قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[٣].

فالتفت إليه جبريل، فقال:

«إنا رسل ربك لن يصلوا إليك».

قال: فطمس أعينهم فرجعوا وراءهم يركب بعضهم بعضًا حتى خرجوا إلى الذين بالباب، فقالوا:

جئناكم من عند أسحر الناس، قد طمس أبصارنا فانطلقوا يركب بعضهم بعضًا حتى دخلوا القرية، فرفعت فى بعض الليل، حتى كانت بين السماء والأرض، حتى إنهم ليسمعون أصوات الطير فى جوّ السماء، ثم قلبت فخرجت الأفكة عليهم -يريد العذاب الذى أرسل عليهم- فمن أدركته الأفكة قتلته، ومن خَرج اتبعته حيث كان حجرًا فقتلته[٤].

قال: فارتحل ببناته وهنّ ثلاث حتى إذا بلغ مكان كذا وكذا من الشام فماتت ابنته الكبرى، فخرجت عندها عين يقال لها «الورية»، ثم انطلق حيث شاء أن يبلغ فماتت الصغرى فخرجت عندها عين يقال لها «الرعونة» فما بقى منهن إلا الوسطى[٥].

---

(١) دعوة للزواج أو للحياء.

(٢) سورة هود: ٧٩.

(٣) سورة هود: ٨٠.

(٤) قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [سورة هود: ٨٢، ٨٣]. وقوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: أى: معلَّمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه. قصص الأنبياء لابن كثير (١٥٢، ١٥٣).

(٥) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٤) من حديث ابن عباس وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبى.

ذكْرُ هلاكها:

قال الله تعالى للوط -عليه السلام- قبل نزول العذاب:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(١).

قال ابن كثير:

«ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا، وقالت: واقوماه! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم، وكانت عينًا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان.

كما قال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(٢). أى: خانتاهما فى الدين فلم يتبعاهما فيه. وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة -حاشا وكلا- فإن الله لا يقدّر على نبى قطّ أن تبغى امرأته، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف:

«ما بغت امرأة نبىّ قطّ». ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأً كبيراً.

قال الله تعالى فى قصة «الإفك» لما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق، زوج رسول الله -ﷺ-، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر ووعظ وحذّر قال فيما قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ

---

(١) سورة هود: ٨١.

(٢) سورة التحريم: ١٠.

وتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[١].

أي: سبحانك أن تكون زوجة نبيّك بهذه المثابة[٢].

وهكذا أهلك الله الظالمين وأباد المجرمين.. وترك مكانهم موعظة إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[٥].

قال الأستاذ عبد الوهاب النجار:

«وأعتقد أن البحر الميّت المعروف الآن ببحر «لوط» وبحيرة «لوط» لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث، وإنما حدث من الزلزال الذى جعل عالى البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر وقد جاءت الأخبار فى السنتين الماضيتين بأنهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت»[٦].

وهكذا ترك الله مكانهم عظة وعبرة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشى الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط «ومن تشبه بقوم فهو منهم»[٧] وإن لم يكن من كل وجه، فمن بعض الوجوه، كما قال بعضهم:

---

(١) سورة النور: ١٥، ١٦.
(٢) قصص الأنبياء: ١٥٣.
(٣) سورة الحجر: ٧٦، ٧٧.
(٤) سورة الصافات: ١٣٧، ١٣٨.
(٥) سورة الذاريات: ٣٧.
(٦) قصص الأنبياء (١٤٧، ١٤٨).
(٧) حسن: أخرجه أحمد وغيره.

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم   فـمـا قـوم لوط منكم بـبـعـيـد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخـائف من ربه، يمتثل ما أمره الله به عزّ وجل، ويقبل مـا أرشده إليـه رسول الله -ﷺ- من إتيان مـا خلق له من الزوجات الحلال، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[1].

فوائد وعظات من قصة امرأة لوط -عليه السلام-

١- التحذير من الإعانة على المنكر:

فمن أعان على منكر.. أو سهّل طريق الفـاحشة.. يدخل تحت الوعيد المذكور فى آية سورة النور:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وها هى امرأة لوط -عليه السلام-.. كانت تعين قومهـا على الإثم والمعصية كما تقدم معنا.. فشملها العذاب.. قال تعالى:

﴿ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾[3].

٢- التحذير من فعل قوم لوط:

ففى القـصة اسـتهجـان لجريمة فعل قـوم لوط ووعيـد من الله بالعذاب الشديد لمرتكبها فى الدنيا والآخرة.

وهذه الجريمة من أقـبح وأشنع الفواحش، فهى تدل على فـساد ومرض

---

(١) سورة هود: ٨٣.

(٢) سورة النور: ١٩.

(٣) سورة هود: ٨١.

فى المزاج الإنسانى، خطره جسيم على المجتمع الإنسانى، فهو انحدار بالإنسان إلى ما دون الحيوانية البهيمية.

«ومما يسجل للقرآن أنه أولى هذه الجريمة كثيرًا من الأهمية، وذمّها فى عدة مواضع منه، فقوم «لوط» وصفهم القرآن بالعديد من الصفات الذميمة.

وصفهم الله بالعدوان: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾(١).

أى أنهم تعدوا على حدود الشريعة الإلهية، وتعدوا على قيم الحق والخير فأصبحوا من المجرمين الذين يجب كبح إجرامهم بالعقاب الذى يردعهم. ووصفهم الله تعالى بالجهل: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾(٢).

والجهل يشمل الجهل الذى هو ضد العلم، كما يشمل الجهل الذى هو بمعنى السفه والطيش، والسفيه الطائش لا يُترك له المجال لأن يصول ويجول، بل يجب الحَجْر على تصرفاته، ومعاقبته على سفهه وطيشه.

ووصفهم الله تعالى بالإسراف: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾(٣).

أى: أسرفوا فى الشهوات، وفى تجاوز الحدود التى رسمها الله لعباده، والمسرفون هم قرناء الشيطان الذين يفسدون مجتمعهم فيجب الوقوف فى وجوههم والحؤول دون إسرافهم.

عندما نجد استنكار القرآن الكريم لهذه الفاحشة ثم نسمع أن الإنسان المتمدن فى الثلث الأخير من القرن العشرين بدأ يزاول هذه الفاحشة علنًا فى بعض الدول الغربية متعللاً بالحرية الشخصية ومستغلاً تساهل السلطة التشريعية فيها يأخذنا العجب والاستغراب.

---

(١) سورة الشعراء: ١٦٥، ١٦٦.

(٢) سورة النمل: ٥٥.

(٣) سورة الأعراف: ٨١.

هل الحرية الشخصية تعنى إباحة هذه الشهوة التى تفسد النساء بسبب انصراف الرجال عنهن والتى تقضى على نظام الأسرة التى عمادها المسؤولية والعطف والرحمة؟!!.

هل الحرية الشخصية تعنى تعطيل النسل الذى سنّه الله لعمارة الكون وترك الشهوات بلا ضابط، مما يقضى قضاءً تامًّا على تماسك المجتمع وسلامته؟!!.

هل الحرية الشخصية تعنى التعدى على حدود الله.. وإهدار القيم.. وقتل الفضائل؟!!.

هل الحرية الشخصية تعنى أن ينسلخ الإنسان من آدميته ويتحول إلى كلب عقور وحيوان مسعور؟!!.

صدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، أن رسول الله -ﷺ- قال:

«لعن الله من تولى غير مواليه، ولعن الله من غير تخوم[2] الأرض، ولعن الله من كمّه أعمى[3] عن السبيل، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ثلاثًا، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من وقع على بهيمة»[4].

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، قال:

(١) سورة الأعراف: ١٧٩.
(٢) تخوم: جمع تخم: هو الحد الفاصل بين أرضين، والمعالم يهتدى بها فى الطريق.
(٣) كمّه الأعمى: أضله.
(٤) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٠٩، ٣١٧) ورجاله رجال الصحيح. قاله الهيثمى.

قال رسول الله -ﷺ-:

«سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ويقول: ادخلوا النار مع الداخلين:

الفاعل والمفعول به.

والناكح يده.

وناكح البهيمة.

وناكح المرأة فى دبرها.

وجامع بين المرأة وابنتها.

والزانى بحليلة جاره.

والمؤذى لجاره حتى يلعنه»[1].

٣- مضار فعل قوم لوط:

وهذه الفعلة بجانب مضارّها الاجتماعية لها آثار سيئة فى صحة الإنسان، فهى تنقل إلى الإنسان ما ينقله الزنا من الأمراض: كالزهرى، والسيلان، والقرحة الرخوة، وأمراض الجلد كالجرب وسواه.. مع ما تحدث بالشرج علامات منها:

ضعف العضلة العاصرة حتى أنها قد تفقد السيطرة على عملية التبرز فيحدث عن غير إرادة.

ومنها: تمزق الشرج وزوال الأنسجة حوله، والشرج مليء بالميكروبات التى قد تنتقل إلى عضو الجانى فتحدث فيه التهابات فى مجرى البول، وقد يصبح المجنى عليه مخنثًا إذا لازمته هذه العادة.

(١) الحديث أورده الآجرّى فى «ذم اللواط» (٧٢، ٧٣)، والذهبى فى «الكبائر» (٥٩) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.. وقال الشيخ «الغمارى» فى الاستقصاء (٣٦) هو حسن الحديث فى المتابعات.

وهكذا يظهر لنا أن الله تعالى لم يأمر الإنسان إلاّ بما فيه سلامته وسعادته وصيانته، ولم يحرِّم عليه إلا ما فيه ضرره.. فسبحان من أحلّ لنا الطيبات وحرّم علينا الخبائث.

٤- الحد الشرعى فيمن يعمل عمل قوم لوط:

الجدير بالذكر أن القرآن بيّن العقاب الشديد الذى أصاب مرتكب هذه الفاحشة وذلك لتحذر الأمم خطرها، وتتوقّى شرها.

فسدوم تلك القرية التى كانت تعمل الخبائث.. وانتشرت فيها هذه الفاحشة بيّن القرآن عاقبة أمرها.. وما أصابها:

قال تعالى:

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾[1].

وقال عزّ وجلّ:

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[2].

ويحذّر القرآن جميع الشعوب من اقتراف هذه الرذيلة والسكوت عنها حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط، فالقرآن عندما ذكر قوم لوط وما حلّ بهم من العذاب عقّب على ذلك بقوله:

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[3].

أى أن العذاب ليس بعيداً عمّن يعمل عمل قوم لوط، بل العقاب الإلهى سيحلُّ بمن يعمل عملهم.

هذا التحذير الإلهى يسرى مداه على مرّ العصور لتحذر الأمم عاقبة

---

(١) سورة النجم: ٥٣-٥٥.

(٢) سورة الحجر: ٧٤.

(٣) سورة هود: ٨٣.

الفساد وإن فى ما أصاب أخيراً بعض أمم العالم من ويلات حربين عالميتين لا تزال أهوالهما ماثلة فى الأذهان، وما أصابهم من كوارث وزلازل لعبرة لمن اعتبر(١).

ومما يسجل فى هذا المقام أن الإسلام شدّد العقوبة لمن يفعل هذه الجريمة فقد ذهب بعض العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء أكان محصنًا أم لا.

نص على ذلك الشافعى وأحمد وطائفة كثيرة من الأئمة، واستدلوا بما رواه أحمد وأهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله -ﷺ- قال:

«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى:

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٢).

وعن إبراهيم فى حد اللائط، قال:

«لو كان ينبغى لأحد أن يرجم مرتين لرجم اللوطى مرتين!!».

وعن الزهرى، قال:

«يرجم أحصن، أو لم يحصن سنة ماضية»(٣).

«نصيحة غالية.. وعظة بالغة»

قال الإمام أبو بكر الآجرىُّ -رحمه الله تعالى-:

---

(١) مماً ينبغى التنبيه له أن لهذه الزلازل أسبابًا علمية وأسبابًا شرعية؛ فأما أسبابه العلمية فيعرفها المتخصصون في هذه العلوم.. وأمّا أسبابه الشرعية؛ فقد وردت فى السنة الصحيحة. منها قوله -ﷺ-: **«سيكون فى آخر الزمان خسف وقذف ومسخ، إذا ظهرت المعازف والقينات، واستحلت الخمر»** صحيح الجامع.

(٢) سورة هود: ٨٣.

(٣) إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

«اعقلوا يا معشر المسلمين هذا الخطاب، ولأى شىء قص الله عز وجل عليكم شأن قوم لوط وقبيح ما كانوا عليه من الفسق بإتيانهم الذكران دون الإناث، مما أباح لهم التزويج والإماء بملك اليمين، تدبروا قوله عز وجل:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1].

تدبروا هذا -رحمكم الله- واعقلوا عن الله عز وجل تحذيره.

إياكم أن تكونوا مثلهم ألم تسمعوه جلّ ذكره قال:

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

تدبّروا هذا يا مؤمنون واعلموا أن مولاكم كريم إنما حذركم عمل قوم لوط، وأعلمكم أن الذى عوقب به قوم لوط آية لكم فاحذروا -رحمكم الله- عمل قوم لوط.

ألم تسمعوه جل ذكره يخبركم عمّن عصاه من بنى إسرائيل ممّن أتى ما حرّم الله عليه من الصّيد فى يوم «السبت» فلمّا فعلوا ما نهاهم عنه مسخهم قردة، ثم قال عزّ وجل:

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ثم قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ

---

(١) سورة القمر: ٣٣-٤٠.

(٢) سورة الحجر: ٧٧.

(٣) سورة البقرة: ٦٦.

الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1].

فاتقوا الله يا معشر المسلمين يا أهل الصلاة، والزكاة، والصيام، ويا حجّاج بيت الله الحرام، يا من أوجب الله الكريم عليهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

احذروا عمل قوم لوط، واقبلوا عن الله الكريم ما وعظكم به تفلحوا، واحفظوا فروجكم، أما سمعتم قول مولاكم جل من قائل:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[2].

وقال عز وجل فى سورة «سأل سائل»، وقد وصف أخلاق أهل الصلاة الذين أتوا بها، عن أخلاق أهل الفسق فقال عز وجل:

﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ثم ذكر أوصافهم وما كانوا عليه من شرف الأخلاق فقال:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[3][4].

---

(١) سورة الطلاق: ٨-١١.

(٢) سورة المؤمنون: ١-٧.

(٣) سورة المعارج: ٢٩-٣١.

(٤) ذم اللواط (٢٥، ٢٦).

[٣١] النضر بن الحارث
«المستهزئ بعذاب الله!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾(١).

فمن هو النضر بن الحارث؟:

هو: النضر بن الحارث، أحد بنى عبد الدار.

وهو أحد المعاندين للدعوة الإسلامية.. الرافضين لرسالة الرسول -ﷺ-.. المكذِّبين للوحى.. المفترين على الله كذبًا.. المستهزئين بعذاب الله!! فأبعده الله وأخزاه.. وجعل النار مثواه.

معارضته للقرآن!!:

لما بُعث النبىُّ -ﷺ-.. ونزل عليه الوحى الشريف بآيات من القرآن.. الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. حاول بعض المشركين محاكاة القرآن وتقليده.. فأتوا بعجائب وغرائب.. أصبحت مثلاً للتندر والسخرية.. ففضحوا أنفسهم فى الدنيا.. وحقّت عليهم كلمة العذاب فى الآخرة..

وكان أحد المعارضين للقرآن «النضر بن الحارث» -لعنه الله-..

فعن ابن عباس -رضي الله عنهما-:

---

(١) سورة المعارج: ١.

أن أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة، وشيبة ابنى ربيعة، وأمية، وأُبيًّا ابنى خلف استمعوا إلى رسول الله -ﷺ-، فقالوا للنضر:

يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟

قال: والذى جعلها بيته ما أدرى ما يقول إلا أنى أرى يحرّك شفتيه يتكلَّم بشىء وما يقول إلاّ أساطير الأولين مثل ما كنتُ أحدّثكم عن القرون الماضية!!.

وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأُوَل، وكان يحدِّث قريشًا فيستملحون حديثه فأنزل الله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(١)(٢).

ووصل بالنضر «الهوس» أنه ادَّعى أن يأتى قريشًا بمثل القرآن!!!

فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾(٣).

قال الإمام الفخر:

قوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: ٢٥.
(٢) أسباب النزول للنيسابورى (١٢٢).
(٣) سورة الأنعام: ٩٣.

قال المفسرون:

المراد ما قاله «النـضر بن الحارث» وهو قوله [كمـا حكى القرآن الكريم] ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾(١).

وقوله في القرآن:

إنّه من أساطير الأولين، وكل أحد يمكنه الإتيان بمثله!!

وحاصله: أن هذا القائل يدّعى معارضة القرآن(٢).

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة، قال:

لما نزلت:

﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾(٣).

قال النضر وهو من بنى عبد الدار:

«والطاحنات طحنًا.. والعاجنات عـجنًا.. وقولاً كثيـرًا!! فأنزل الله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ... ﴾(٤)(٥).

فانظر أخى القـارئ الفارق الهائل بين الثرى والثّريـا.. ليت شعرى أين كـانت عقـول الذين يستمعـون إليه؟! أم هو الحـقـد الأعمى الذى يعـمى ويصم؟!.

رحم الله الإمام الزركشى عندما قال عن القرآن:

«هو النعمة الباقـية والحجّة البالغة والدلالة الدامغـة وهو سراج لا يخبو ضياؤه، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه، وبحر لا يدرك غوره.

---

(١) سورة الأنفال: ٣١.
(٢) مفاتيح الغيب (٦/٤٣٨).
(٣) سورة المرسلات: ١، ٢.
(٤) سورة الأنعام: ٩٣.
(٥) الدر المنثور (٣/٣١٨).

قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه، وقسّم لفظه ومعناه إلى ما ينشط السامع، من تجنيس أنيس، وتطبيق لبيق، وتشبيه نبيه، وتقسيم وسيم، وتفصيل أصيل، وتبليغ بليغ، كل كلمة منه لها من نفسها طرب، ومن ذاتها عجب، ومن طلعتها عزة، ومن بهجتها درّة، لاحت عليها بهجة القدرة.

بهر النفوس بتمكّن فواصله، وحسن ارتباط أواخره وأوائله، وبديع إشاراته وعجيب انتقالاته من قصص باهرة إلى مواعظ زاجرة وأمثال سائرة، ومواقع تعجب واعتبار، ومواطن تنزيه واستغفار.

هذا، وكم فيه من مزايا، وفى زواياه مِنْ خبايا، فسبحان من سلكه ينابيع فى القلوب، وصرّفه بأبدع معنى وأعزب أسلوب، فالسعيد من صرف همّته إليه ووقف فكره وعزمه عليه»(1).

استعجاله لعذاب الله!!:

بلغ من عناد «النضر بن الحارث» وتكذيبه للقرآن.. أن دعا الله تعالى قائلاً:

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(2).

وليس بعد هذا الجحود جحود.. وليس بعد هذا الكفر كفر..

قال الإمام النيسابورى:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً... ﴾(3).

قال أهل التفسير:

---

(1) رياض الجنة للشيخ كشك (١١-١٣).
(2) سورة الأنفال: ٣٢.
(3) سورة الأنفال: ٣٢.

نزلت فى «النضر بن الحارث» وهو الذى قال:

إن كان ما يقوله محمدٌ حقًّا فأمطر علينا حجارة من السماء[1].

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال:

قال أبو جهل:

«اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم». فنزل:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[2]. رواه البخارى ومسلم.

وهذا هو قمة العناد.. وأعلى أنواع التكذيب.

وقوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-:

«كان فيهم أمانان:

النبىّ -صلى الله عليه وسلم-.

والاستغفار.

فذهب النبىُّ -صلى الله عليه وسلم- وبقى الاستغفار»[3].

وفى رواية:

«إن الله جعل فى هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقى فيكم».

---

(١) أسباب النزول (١٣٣). وقال عطاء: «ولقد أنزل الله فيه -أى فى النضر- بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل» تفسير ابن كثير (٢/٤٧٩).

(٢) سورة الأنفال: ٣٣.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٤٧٩).

فائدة: حُكى أن ابن عباس لقيه رجل من اليهود، فقال اليهودى:

ممَّن أنت؟

قال: من قريش.

فقال: أنت من القوم الذين قالوا:

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ... ﴾(١) الآية.

فهلاَّ عليهم أن يقولوا:

إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له! إنَّ هؤلاء قوم يجهلون.

قال ابن عباس:

وأنت يا إسرائيلى، من القوم الذين لم تجفّ أرجلُهم من بلل البحر. الذى أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه؛ حتى قالوا: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾(٢). فقال لهم موسى: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾(٣).

فأطرق اليهوديّ مفحمًا(٤).

وقال ابن عباس فى قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾، قال: «لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبىُّ منها والمؤمنون؛ ويلحقوا بحيث أمروا».

وقيل فى قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾: إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهر المشركين.

---

(١) سورة الأنفال: ٣٢.

(٢) سورة الأعراف: ١٣٨.

(٣) سورة الأعراف: ١٣٨.

(٤) تفسير القرطبى (٧/٣٥٦).

وقيل: إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام. وقيل: لو استغفروا لم يعذبوا.

وقال المدائنى عن بعض العلماء، قال:

كان رجل من العرب فى زمن النبىّ -ﷺ- مُسْرفًا على نفسه، لم يكن ليتحرّج.

فلمّا أن تُوفِّى النبىُّ -ﷺ- لبس الصوب[1] ورجع عمّا كان عليه، وأظهر الدِّين والنّسك!.

فقيل له: لو فعلت هذا والنبىّ -ﷺ- حىّ لفرح بك.

قال: كان لى أمانان، فمضى واحد، وبقى الآخر؛ قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فهذا أمان.

والثانى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

نهاية المعاند:

قال الحافظ ابن كثير فى قوله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[3].

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمرّدهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون:

﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا﴾ وهذا منهم قول بلا فعل وإلا فقد تحدّوا غير ما مرّة أن يأتوا بسورة مِنْ مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وإنما

(١) أى: عاد إلى الصواب.
(٢) تفسير القرطبى (٧/ ٣٥٧).
(٣) سورة الأنفال: ٣١.

هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم، وقد قيل: إن القائل لذلك هو «النضر بن الحارث» -لعنه الله- كما قد نصّ على ذلك سعيد ابن جبير والسُّدِّى وابن جريج وغيرهم فإنه -لعنه الله- كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلّم من أخبار ملوكهم «رستم» و«أسفنديار»، ولمّا قدم وجد رسول الله -ﷺ- قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن فكان -عليه الصلاة والسلام- إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدّثهم من أخبار أولئك ثم يقول: بالله أيّنا أحسن قصصًا أنا أو محمد؟

ولهذا لمّا أمكن الله تعالى منه يوم «بدر» ووقع فى الأسارى أمر رسولُ الله -ﷺ- أن تضرب رقبته صبراً بين يديه ففعل ذلك، ولله الحمد.

وكان الذى أسره «المقداد بن عمرو بن الأسود» -رضي الله عنه- كما قال ابن جرير عن سعيد بن جبير، قال:

قتل النبىّ -ﷺ- يوم بدر صبراً «عقبة بن أبى مُعَيْط»[(١)] و«طعيمة بن عدى» و«النضر بن الحارث» وكان «المقداد» أسر النضر فلمّا أمر بقتله قال المقداد:

يا رسول الله أسيرى.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«إنه كان يقول فى كتاب الله عز وجل ما يقول».

فأمر رسول الله -ﷺ- بقتله.

فقال المقداد: يا رسول الله أسيرى.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«اللهم اغن المقداد من فضلك».

فقال المقداد: هذا الذى أردتُ.

---

(١) انظر ترجمته فى كتابنا هذا.

قال: وفيه أنزلت هذه الآية:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾(١).

وألقى «النضر بن الحارث» فى مزبلة التاريخ.. ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾(٢) والحمد لله رب العالمين.

أسباب النزول

● قال الواحدى النيسابورى:

قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾(٣).

نزلت فى «النضر بن الحارث» حين قال:

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾(٤).

فدعا على نفسه، وسأل العذاب، فنزل به ما سأل يوم بدر فقُتِل صبراً ونزل فيه:

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾(٥).

● وأخرج الفريابى، وعبد بن حميد، والنسائى، وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه وابن مَرْدُويه عن ابن عباس فى قوله:

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾، قال:

---

(١) سورة الأنفال: ٣٢.
(٢) سورة الدخان: ٢٩.
(٣) سورة المعارج: ١.
(٤) سورة الأنفال: ٣٢.
(٥) أسباب النزول (٢٤٧).

هو «النضر بن الحارث»، قال:

﴿ اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾(١).

دروس وعبر من أسباب النزول

كانت حقيقة الآخرة من الحقائق العسيرة الإدراك عند مشركى العرب؛ ولقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة، وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهش والاستغراب، وينكرونها أشد الإنكار، ويتحدّون الرسول -ﷺ- فى صور شتى أن يأتيهم بهذا اليوم الموعود، أو أن يقول لهم: متى يكون.

وفى رواية ابن عباس -المتقدمة- أن الذى سأل عن العذاب هو: «النضر ابن الحارث».

وفى رواية أخرى عنه: قال:

ذلك سؤال الكفّار عن عذاب الله وهو واقع بهم.

وعلى أية حال فالسورة تحكى أن هناك سائلاً سأل وقوع العذاب واستعجله. وتقرر أن هذا العذاب واقع فعلاً، لأنه كائن فى تقدير الله من جهة، ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى. وأن أحداً لا يمكنه دفعه ولا منعه.

فالسؤال عنه واستعجاله -وهو واقع ليس له من دافع- كما قال تعالى: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾(٢).

يبدو تعاسة من السائل المستعجل، فرداً كان أو مجموعة!

---

(١) الدر المنثور (٨/ ٢٧٧).

(٢) سورة المعارج: ١-٣.

وهذا العـذاب للكافـرين. . إطلاقًا. . فـيـدخل فيـه أولئك السـائلون المستعجلون، كما يدخل فيه كل كافر.

وهو واقع من الله «ذى المعارج». . وهو تعبير عن الرفعة والتعالى. فهل يتعظ المستعجلون؟!.

وهل يفيق الغافلون؟!

[٣٢] الوليد بن المغيرة

«المعاند لآيات الله!»

الآيات التي نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[١].

فمن هو الوليد بن المغيرة؟:

هو: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن كعب القرشيّ المكيّ. العُتل، المعاند.. المكابر.. أحـد أئمة الكفر الذين يدعون إلى النار!!.

لما نزل الوحي المبـارك على رسول الله -ﷺ-.. وتتابعت عـليه آيات القرآن.. سخـر المشركون.. وتعجـبّوا.. وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٢] وكان أكبر المتعجّبين «الوليد بن المغيرة»!!.. وكان يقصد بالرجل العظيم نفسه!!!.

---

(١) سورة المدثر: ١١-٣٠.

(٢) سورة الزخرف: ٣١.

فقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما، عن قتادة، قال:

قال الوليد بن المغيرة: لو كان ما يقول محمد حقًّا، أنزل عليَّ هذا القرآن، أو على عروة بن مسعود الثقفى، فنزلت:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾.

وأخرج ابن أبى حاتم، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- فى قوله:

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾. قال:

يعنون أشرف من محمد!!، الوليد بن المغيرة من أهل مكة، ومسعود ابن عمرو الثقفى من أهل الطائف!!.

والله أعلم حيث يجعل رسالته. ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل ولعله -سبحانه- لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سندًا من خارج طبيعتها، ولا قوة من خارج حقيقتها؛ فاختار رجلاً ميزته الكبرى.. الخلق.. وهو من طبيعة هذه الدعوة.. وسمته البارزة.. التجرّد.. وهو من حقيقة هذه الدعوة.. ولم يختره زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، ولا صاحب جاه، ولا صاحب ثراء. كى لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء. ولكى لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها فى شىء. ولكى لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجرّدة. ولكى لا يدخلها طامع ولا يتنزّه عنها متعفف.

ولكن القوم الذين غلب عليهم المتاع، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء، راحوا يعترضون ذلك الاعتراض.

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾!.

فردّ عليهم القرآن مستنكرًا هذا الاعتراض على رحمة الله، التى يختار لها من عباده من يشاء، وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء؛ مبينًا لهم عن حقيقة القيم التى يعتزّون بها، ووزنها الصحيح فى ميزان الله:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(١).

أهم يقسمون رحمة ربك؟ يا عجبًا! وما لهم هم ورحمة ربك؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا، ولا يحققون لأنفسهم رزقًا حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه؛ وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة.

ثناؤه على القرآن!:

لقى النبىُّ -ﷺ- يومًا الوليد بن المغيرة فتلا عليه من كتاب الله تعالى «آية» فاهتزَّ منها كيانُه وارتجف فؤادُه.. وقال قولته المشهورة: «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمُورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر!!».

قال عكرمة:

قرأ النبىُّ -ﷺ- على الوليد بن المغيرة:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢)(٣).

فقال: يا ابن أخي أعد!

فأعاد عليه، فقال:

«والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمُورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر!!».

---

(١) سورة الزخرف: ٣٢.

(٢) سورة النحل: ٩٠.

(٣) قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: «هذه أجمع آية فى القرآن لخير يُمتثل، ولشرٍّ يُجْتنب» إسناده صحيح. ذكره الحاكم فى «المستدرك» (٣٣٥٨).

ويروى عن مجاهد وغيره أن الوليد آمن.. فلما عيَّره بعضُ أصحابه نكص على عقبيه وارتد إلى دينه الأول!! فباء بالخسران المبين.

ففى أسباب النزول للنيسابورى (٢٢٤):

فى قوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴾(١).

قال مجاهد وابن زيد:

نزلت فى «الوليد بن المغيرة» وكان قد اتبع رسول الله -ﷺ- على دينه فعيَّره بعض المشركين؛ وقال:

لم تركت دينًا لأشياخ وضلَّلتهم وزعمتَ أنهم فى النار؟

قال: إنى خشيتُ عذاب الله..

فضمن له إن هو أعطاه شيئًا من ماله ورجع إلى شِركه أن يتحمّل عنه عذاب الله سبحانه وتعالى!!!

فأعْطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية.

الكفر بعد الإيمان!:

وهكذا كفر «الوليد بن المغيرة» فأضله الله على علم.. وختم على قلبه.. وجعل على بصره غشاوة.. ثم طلب من الرسول -ﷺ- أن يأتى بقرآن غير القرآن الذى يتلوه أو يُبَدِّلَه!!

.. طلب منه أن يبدِّل القرآن الذى وصفه بأن «له حلاوة، وعليه طلاوة، وأعلاه مثمر، وأصله مُورق»!!.

قال تعالى:

---

(١) سورة النجم: ٣٣، ٣٤.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(١).

قال الإمام مجاهد:

«نزلت فى مشركى مكة».

وقال مقاتل:

«وهم خمسة نفر:

عبد الله بن أبى أمية المخزومى.

والوليد بن المغيرة.

ومكرز بن حفص.

وعمرو بن عبد الله بن أبى قيس العامرى.

والعاص بن عامر. . قالوا للنبىّ -ﷺ-:

ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعُزّى!»(٢).

ثم ازداد جُرم «الوليد» فوصف القرآن:

﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾(٣).

فحقّت عليه كلمـةُ العذاب. . وأنزل الله به بأسه الذى لا يُرد عن القوم المجرمين. . وانتقم من جميع المستهزئين الذين كانوا معه.

نهاية الضال:

عن قتادة، فى قوله تعالى:

---

(١) سورة يونس: ١٥.

(٢) أسباب النزول للنيسابورى (١٥١).

(٣) سورة المدثر: ٢٤، ٢٥.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾(١). قال:

هم:

الوليد بن المغيرة.

والعاص بن وائل.

وعدى بن قيس.

والأسود بن يغوث.

والأسود بن عبد المطلب.

مرُّوا رجلاً رجلاً على النبىّ -ﷺ- ومعه جبريل، فإذا مَرّ به رجل منهم، قال جبريل:

كيف تجد هذا؟

فيقول: «بئس عدو الله».

فيقول جبريل: كفاكه.

فأمّا «الوليد بن المغيرة»: فتردّى(٢)، فتعلّق سهم بردائه فذهب ليجلس قطع أكحله(٣)، فنزع فمات.

وأمَّا «الأسود بن عبد يغوث»: فأتى بغصن فيه شوك فضرب به وجهه، فسالت حدقتاه على وجهه، فكان يقول:

«دعوت على محمد دعوة، ودعا علىّ دعوة. فاستجيب لى، واستجيب له!!، دعا علىّ أن أعمى فعميتُ، ودعوت عليه أن يكون وحيدًا فريداً فى أهل يثرب فكان كذلك!!.

---

(١) سورة الحجر: ٩٥.
(٢) تردّى: سقط من مكان عال.
(٣) الأكحل: عِرق فى العضد.

وأمّا «العاص بن وائل»: فوطئ على الشوكة فتساقط لحمه عن عظامه حتى هلك.

وأمّا «الأسود بن المطلب»، و«عدى بن قيس»: فإن أحدهما، قام من الليل وهو ظمآن فشرب ماء من جرّة، فلم يزل يشرب حتى انفتق بطنه فمات، وأما الآخر:

فلدغته حيّة فمات(١).

كان هذا هو عقاب «الوليد» فى الدنيا.. أمّا فى الآخرة.. فإن الله تعالى سيجعل له علامة على «أنفه» تميّزه عن بقية أهل النار!!.

قال الله تعالى:

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾(٢).

واختار الله تعالى أن تكون العلامة على «الأنف» لتكون فى موضع لا يُسْتر.. والوجه أشرف ما فى الإنسان.. وليكون ذلك أبلغ فى فضيحته وعلامة على مذلته!!.

﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾(٣).

هذا هو عقاب الفجار.. ومآل الكفار.. والله غالب على أمره.

وقبل أن يتوقف القلم عن ترجمة هذا «العتل الزنيم».. أنبه القارئ الكريم إلى أن الله تعالى أخرج من صُلْب هذا «المعاند».. أكبر المجاهدين فى سبيل الله.. وأحد القادة الفاتحين.. وهو: «خالد بن الوليد» سيف الله!! فسبحان الذى يخرج الحىّ من الميت.

---

(١) تفسير الطبرى (٧/ ٦٠٥).
(٢) سورة القلم: ١٦.
(٣) سورة سبأ: ١٧.

أسباب النزول

عن ابن عباس -رضي الله عنهما-:

أن الوليد بن المغيرة جاء رسول الله -ﷺ- فقرأ عليه القرآن فكأنّه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه، فقال:

«يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً».

قال: لم؟

قال: ليعطوكه فأنت أتيتَ محمداً لتعرض ما قبله.

قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له.

قال: وماذا أقول، فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئًا من هذا. ووالله إنّ لقوله الذى يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعْلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: قف عنى حتى أفكر فيه.

فلمّا فكّر، قال:

إن هذا إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره! فنزلت:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾[(١)][(٢)]... الآيات.

(١) سورة المدثر: ١١-١٣.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٥٠٧) وقال: صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه، وأقره الذهبى.

دروس وعبر من أسباب النزول

قال تعالى:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾[(١)].

قال القاسمي:

«اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى «الوليد بن المغيرة المخزومى» أحد رؤساء قريش -لعنه الله-».

وقال الشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور:

كان الوليد بن المغيرة، يلقب فى قريش بالوحيد، لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته، وهى كثرة الولد، وسعة المال، ومجده، ومجد أبيه من قبله، وكان مرجع قريش فى أمورهم؛ لأنه كان أسنّ من أبى جهل وأبى سفيان.

فلمّا اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى «الوليد بن المغيرة» المشتهر به. وجاء هذا الوصف بعد فعل: ﴿خَلَقْتُ﴾. ليُصرف هذا الوصف عما كان مرادًا به؛ أى: أوجدته وحيدًا عن المال والبنين والبسطة، فيغير عن غرض المدح والثناء الذى كانوا يخصونه به إلى غرض الافتقار إلى الله الذى هو حالُ كل مخلوق.

---

(١) سورة المدثر: ١١ - ٢٩.

عن ابن عباس: «كان مال «الوليد» بين مكة والطائف من الإبل، والغنم، والعبيد، والجوارى، والجنان، وكانت غلة ماله ألف دينار فى السنة».

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً﴾ تيسير أموره، ونفاذ كلمته فى قومه، بحيث لا يعسر عليه مطلب. ولا يستعصى عليه أمر.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ثم للتراخى الرتبى، أى وأعظم من ذلك أنه يطمع فى الزيادة من تلك النِّعم.

﴿كَلاَّ﴾ ردع لطمعه فى الزيادة من النّعم، وقطع لرجائه.

والمقصود إبلاغ هذا إليه، مع تطمين النبىّ -ﷺ- بأن الوليد سيقطع عنه مدد الرِّزق.

من لم يشكر النعم فقد تعرَّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها. عوقب بنقيض قصده.

﴿إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ أى: بالغ العناد.

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾.

قال ابن عباس:

«صعوداً صخرة فى جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه».

وقال السُّدِّى:

«صعودًا، صخرة ملساء فى جهنم يكلّف أن يصعدها!!».

وقال قتادة:

«عذابًا لا راحة فيه!!».

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾: أى: إنما أرهقناه صعوداً لبعده عن الإيمان، لأنه فكر

وقدّر أىْ: وتروّى ماذا يقول فى القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يَختلق من المقال.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ حاد عن وجـوه الأفكار إلى أقفـائها، سكت ألفًا ونطق خلفًا.. سكت دهراً ونطق كفراً..أبعده الله وأخزاه.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾.

يقول صاحب الظلال.. فى ظلال هذه الآيات:

من قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُـهُ صَعُـودًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿لا تُبْقِـي وَلا تَذَرُ﴾. «التصعـيد فى الطريق هو أشق السير وأشـده إرهاقًا، وهو فى الوقت ذاته تعبير عن حقيقـة، فالذى ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسّر الودود، يندبّ فى طريق وعـر شاق مـبـتوت؛ ويقطع الحـيـاة فى قلق وشدة وكـربة وضيق، كأنما يصّعد فى السماء، أو يصعد فى وعر صلد لا ريّ فيه ولا زاد، ولا راحة ولا أمـل فى نهاية الطريق! ثم يرسم تلـك الصورة المبـدعة المثيرة للسخرية والرجل يكد ذهنه! ويعصر أعصابه! ويقبض جبينه! وتكلح ملامحه وقسماته.. كل ذلك ليجد عيبًا يعـيب به هذا القرآن، وليجد قولاً يقوله فيه: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾.

لمحة لمحـة. وخطرة خطرة. وحركة حركـة. يرسمها التـعبير، كـما لو كانت ريشة تصـور، لا كلمات تعبر، بل كما لـو كانت فيلمًا متحـركًا يلتقط المشهد لمحة لمحة!!!.

لقطة وهو يفكر ويدبر مـعها دعـوة هى قضـاء «فقتل!» واسـتنكار كله استهزاء «كيف قدّر» ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار.

ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء.

ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابسًا، ويقبض ملامح وجهه باسرًا، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة!.

وبعد هذا المخاض كله؟

وهذا الحَزق كله!

لا يفتح عليه بشيء.. إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق..

فيقول: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾!.

إنها لمحات حيّة يثبتها التعبير القرآني في المخيلة.. وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر، وتثبت صورته الزرية في صلب الوجود، تتملاّها الأجيال بعد الأجيال!.

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات الحية الشاخصة، عقب عليها بالوعيد المفزع: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾.. وزاد هذا الوعيد تهويلاً: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾؟ ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾.. فهي تكنس كنسًا، وتبلع بلعًا، وتمحو محوًا، فلا يقف لها شيء، ولا يبقى وراءها شيء، ولا يفضل منها شيء!.

نسأل الله السلامة.

[٣٣] فرعـونُ مصْـر
«الطاغية الذى جعله اللهُ عِبرَةً لِمَنْ يَخْشى»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾(١).

فمن هو فرعون؟:

هو: أحـد ملوك «مصـر» الطغاة.. الذيـن حكموا شـعوبهم بالحـديد والنار، وتسلطوا عليهم بالقـهر والذل.. ثم تفرّد هذا الطاغيـة بالتعالى على الذات الإلهية ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾.

بداية القصة:

كان بنو إسرائيل قد سكنوا أرض مـصر منذ ذلك الوقت الذى دخل فيه نبىُّ الله «يعـقوب» وأولاده «مـصر» حين اسـتدعـاهم «يوسف» -عليه السلام- من أرض الشام.

وعاش بنو إسـرائيل مع المصريين جنبًـا إلى جنب.. فلما جاء فـرعون تسلط على بـنى إسرائـيل بالقـهـر وتفنن فى إذلالهم.. وعـاملهم مـعـاملة العبيد.. واسـتخدمهم فى الأعمال الشاقـة.. حتى ألفوا الذل والمسكنة!!.. وظهر فيهم هذا واضحًا بعد ذلك.

---

(١) سورة النازعات: ٢١ - ٢٦.

رؤيا فرعون:

ذكر السّدّى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة:

أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضرّ بنى إسرائيل!!.

فلمّا استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن ذلك، فقالوا:

«هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه».

فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان -أى من بنى إسرائيل- حذراً من وجود هذا الغلام، ولن يغنى حذر من قدر.

والمقصود: أن فرعون احترز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذّباحون من ساعته.

وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بنى إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وهذا فيه نظر، بل هو باطل وإنما هذا فى الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾(١) ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾(٢).

فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً حذراً من وجود موسى. هذا والقدر يقول:

«يا أيها الملك الجبّار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه،

---

(١) سورة غافر: ٢٥.

(٢) سورة الأعراف: ١٢٩.

قد حكم العظيم الذى لا يُغالب ولا يُمانع ولا تخالف أقداره، إن هذا المولود الذى تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك، ولا يُغَذَّى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك، وأنت الذى تتبناه وتربِّيه وتتغذاه ولا تطلع على سرِّ معناه، ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق أن ربَّ السموات والأرض هو الفعّال لما يريد، وأنه هو القوىّ الشديد ذو البأس العظيم، والحول والقوة والمشيئة التى لا مردّ لها.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًا، وأن يتركوا عامًا، فذكروا أن هارون -عليه السلام- ولد فى عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأن موسى -عليه السلام- ولد فى عام قتلهم، فضاقت أمّه به ذرعًا، واحترزت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخاييل الحبل. فلما وضعت أُلهمت أن اتخذت له تابوتًا فربطته فى حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت فأرسلته فى البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به..

فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل فمرّ على دار فرعون:

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1].

وذكر المفسرون: أن الجوارى التقطنه من البحر فى تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسروا على فتحه حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون «آسية بنت مزاحم» فلمّا فتحت الباب وكشفت الحجاب، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية، والجلالة الموسوية، فلمّا رأته ووقع نظرها عليه أحبته حبًّا شديدًا.

---

(١) سورة القصص: ٨.

فلما جاء فرعون قال:

«ما هذا؟».

وأمر بذبحه فاستوهبته منه ودفعت عنه ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال لها فرعون: أما لك فنعم، وأمّا لى فلا -أى لا حاجة لى به- والبلاء موكل بالمنطق.

وهكذا شاءت إرادة الله أن يُربّى «موسى» فى بيت فرعون.. يغذّى بطعامه وشرابه.. وينام على فراشه!! ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾[1]. إنها الإرادة الإلهية.. والمعجزة الربانية.

أول مواجهة بين موسى -عليه السلام- وفرعون:

لـمّا بلغ موسى -عليه السلام- أشدّه واستوى -وهو احتكام الخَلْق والخُلُق وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين -آتاه الله حُكْمًا وعلمًا، دخل -عليه السلام- المدينة على حين غفلة من أهلها -قيل: نصف النهار، وقيل: بين العشاءين. وكان -عليه السلام- له صولة بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته فى بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزّوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه.

ولـمّا دخل -عليه السلام- «المدينة» وجد رجلين يقتتلان -أى: يتضاربان- أحدهما: من قومه.. والثانى: من قوم فرعون.. فاستغاثه الذى من قومه على الذى من عدوّه.. فأقبل موسى على المصرى ﴿فَوَكَزَهُ﴾ -أى: ضربه بجمع كفه -فسقط المصرى على الأرض ميتًا!![2].. ولم يرد موسى قتله بالكليّة وإنما أراد زجره وردعه ومع هذا.. ندم موسى وقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[3] ثم طلب من ربّه العفو والمغفرة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[4].

---

(١) سورة يوسف: ٢١.

(٢) قال ابن كثير: «كان القبطى -المصرى- كافراً مشركًا بالله العظيم».

(٣) سورة القصص: ١٥.

(٤) سورة القصص: ١٦.

وأصبح موسى -عليه السلام- فى «المدينة» خائفًا من فرعون وملائه أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رفع إليهم أمره.. أنه هو الذى قتله.. فبينما هو يمشى ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ إذا ذلك الرجل الإسرائيلى الذى استنصرهُ بالأمس يستصرخه -أى يستغيث به- على آخر قد قاتله، فعنَّفه موسى ولامه على كثرة شرِّه ومخاصمته، قال له:

﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى فيردعه عنه ويخلّصه منه، فلمّا عزم على ذلك وأقبل على القبطى.. ظن الإسرائيلى أنه يريده هو، فـ ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾(١)!!!.

فاشتهر بذلك أمره.. وعُرف خبره.. وعلم فرعون أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل فى طلبه، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب.. وقال:

﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾(٢).

فخرج موسى إلى مدين.. ومكث هناك.. والتقى «بشعيب» الرجل الصالح.. وتزوّج بإحدى ابنتيه.. ثم عاد.. ولمّا مرّ على جبل الطور.. أوحى الله إليه بالرسالة.. وأمره أن يذهب إلى فرعون.. يدعوه إلى الله.. ويرسل معه بنى إسرائيل.. ليخرج موسى بهم من مصر إلى فلسطين.. وطلب موسى من ربه أن يجعل له وزيرًا من أهله «هارون» -عليه السلام-..

---

(١) سورة القصص: ١٩.

(٢) سورة القصص: ٢٠.

فاستجاب الله له ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾(٢).

ولـمّا وصل «موسى» -عليه السلام- من رحلته إلى أرض الوطن.. قام بأداء الرسالة.. فأخذ «هارون» وذهبا إلى «فرعون».. ولـمّا بلغا القصر(٣) دار هذا الحوار:

قال موسى -عليه السلام- لفرعون:

﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٤).

فقال فرعون لموسى -عليه السلام-:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(٥).

فقال موسى -عليه السلام-:

﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٦)(٧).

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٨).

---

(١) سورة طه: ٣٦.
(٢) سورة مريم: ٥٣.
(٣) كان الله تعالى قد أيّده بمعجزتى «اليد» و«العصا».
(٤) سورة الشعراء: ١٦، ١٧.
(٥) سورة الشعراء: ١٨، ١٩.
(٦) سورة الشعراء: ٢٠-٢٢.
(٧) قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أى: قبل أن يوحى إلىّ وينزل علىّ.
وقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: وهذه النعمة التى ذكرت من أنك أحسنت إلىّ وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل، تقابل ما استخدمت هذا الشعب بكامله فى خدمتك!!.
(٨) سورة الشعراء: ٢٣.

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾(١).

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴾(٢).

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾(٣).

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾(٤).

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٥).

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾(٦).

﴿ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾(٧).

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٨).

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾(٩).

فقالت حاشيته:

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾(١٠).

---

(١) سورة الشعراء: ٢٤.
(٢) سورة الشعراء: ٢٥.
(٣) سورة الشعراء: ٢٦.
(٤) سورة الشعراء: ٢٧.
(٥) سورة الشعراء: ٢٨.
(٦) سورة الشعراء: ٢٩.
(٧) سورة الشعراء: ٣٠.
(٨) سورة الشعراء: ٣١.
(٩) سورة الشعراء: ٣٢-٣٥.
(١٠) سورة الشعراء: ٣٦، ٣٧.

قال ابن كثير:

«وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما وهما «العصا» و«اليد». وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذى بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين -أى عظيم الشكل بديع فى الضخامة والهول والمنظر العظيم، الفظيع الباهر- حتى قيل:

إن فرعون لـمّا شاهد ذلك وعاينه أخذه رهب شديد وخوف عظيم، بحيث أنه حصل له إسهال عظيم: وهكذا لـمّا أدخل موسى -عليه السلام- يده فى جيبه واستخرجها، أخرجها وهى كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى، ومع هذا كله لـم ينتفع فرعون بشىء من ذلك، بل استمرّ على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن فى رعيته وتحت قهره ودولته كما سيأتى بسطه وبيانه فى موضعه من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملائه وأهل دولته وملّته ولله الحمد والمنّة»(١).

استشهاد السحرة بعد إيمانهم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾(٢).

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله فى تكذيبه بآيات الله، واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى إن هذا الذى جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم،

---

(١) البداية (١/ ٣٥٣).

(٢) سورة طه: ٥٦ - ٥٩.

ومكان معلوم، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى -عليه السلام- أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس، ولهذا قال:

﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وكان يـوم عيد من أعـيادهم، ومـجتـمع لهم ﴿وَأَن يُحْشَـرَ الـنَّاسُ ضُحًـى﴾ أى من أول النهار فى وقت اشتداد ضـياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً فى ظلام كيـما يروّج عليهم مـحالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جـهرة لأنه على بصيرة من ربه، ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾(١).

يخبـر تعالى عن فرعون أنه ذهب فـجمع من كان ببلاده من الـسّحرة، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان، فاجتمع منهم خلق كثير وجمّ غفير.

فقيل: كانوا «ثمانين ألـفًا!!!»... وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنه- كانوا «سبعين رجلاً».

قلت: وهذا الذى قاله ابن عباس أقرب للصواب والله أعلم.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولتـه وأهل بلده عن بكرة أبيهم فخرجوا وهم يقولون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾(٢).

وتقدم مـوسى -عليه السلام- إلى الســحرة فـوعظهم وزجـرهـم عن تعـاطى السّحر الباطل، الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه، فقال:

﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾

---

(١) سورة طه: ٦٠-٦٤.

(٢) سورة الشعراء: ٤٠.

فاختلفوا فيما بينهم فقـائل يقول: هذا كلام نبى وليس بساحر، وقائل يقول: بل هو ساحر وأسرّوا التناجى بهذا وغيره.

﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾.

يقولون: إن هذا وأخاه «هارون» سـاحران عليمان مطبقان مـتقنان لهذه الصناعة ومـرادهم أن يجتـمع الناس عليهـما ويصولا على الملـك وحاشيـته ويستأصلاكم عن آخركم، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة.

﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾.

وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبّروا ويتواصوا، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبـهتـان. وهيهات كـذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء. أنى يعارض البهتان. والسحر والهذيان خوارق العادات التى أجراها الدّيان. على يدى عبده الكليم. ورسوله الكريم، المؤيد بالبرهان الذى يبهر الأبصار، وتحار فيه العقول والأذهان ثم حضّوا بعضهم بعضًا على التقدم فى هذا المقام، لأن فـرعون كان قـد وعدهم ومنّاهم وما يعـدهم الشيطان إلا غروراً.

ولـمّـا اصطفّ السـحـرة ووقف مـوسى وهارون -عليـهمـا السـلام- تجاههم، قالوا له: إمّا أن تلقى قبلنا، وإما أن نلقى قبلك.

قال: بل ألقوا أنتم.

وكانوا قـد عمـدوا إلى حبـال وعصى فأودعـوها الزئبق[1] وغيره من الآلات التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطرابًا، يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها. وإنما تتحرك بسبب ذلك.

---

(١) وفى «أضواء البـيان» (٣/٢٧): «وقـد قال غـير واحد: إنهم جـعلوا الزئبق على الحبال والعصى، فلمّا أصابها حرّ الشمس تحرك الزئبـق فحرك الجبال والعصى، فخيل للناظرين أنها تسعى».

فعند ذلك سحروا أعين الناس[١] واسترهبوهم، وألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[٢].

أي: خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقى ما فى يده فإنه لا يضع شيئًا قبل أن يؤمر، فأوحى الله إليه:

﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[٣].

فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال:

﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤].

فلمّا ألقى -عليه السلام- عصاه، صارت حيّة عظيمة ذات قوائم -فيما ذكره غير واحد من السلف- وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث أن الناس انحازوا منها، وهربوا سراعًا وتأخروا عن مكانها، وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى فجعلت تلقفه واحدًا واحدًا فى أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجّبون منها.

---

(١) قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطى -رحمه الله-: «والتحقيق الذى عليه جماهير العلماء من المسلمين: أن السحر منه ما هو أمر له حقيقة لا مطلق تخييل لا حقيقة له، ومما يدل على أن منه ما له حقيقة قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [سورة البقرة: ١٠٢] فهذه الآية تدل على أنه شيء موجود له حقيقة تكون سببًا للتفريق بين الرجل وامرأته وقد عبّر الله عنه «بما» الموصولة وهى تدل على أنه شيء له وجود حقيقى. وممّا يدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [سورة الفلق: ٤] يعنى السواحر اللاتى يعقدن فى سحرهن وينفثن فى عقدهن. فلولا أن السحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه... وبذلك يتضح عدم التعارض بين الآيات الدالة على أن له حقيقة، والآيات الدالة على أنه خيال» أضواء البيان (٣/ ٢٦).

(٢) سورة طه: ٦٦، ٦٧.

(٣) سورة طه: ٦٨، ٦٩.

(٤) سورة يونس: ٨١.

وأمّا السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيّرهم فى أمرهم واطّلعوا على أمرٍ لم يكن فى خلدهم ولا بالهم، ولا يدخل تحت صناعتهم وأشغالهم.

فعند ذلك وهنالك تحقّقوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعبذة ولا محال ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربّهم وخرّوا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى.

﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾(١).

قال سعيد بن جبير -رحمه الله تعالى- وغيره:

لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده، وذلك لأن فرعون لمّا رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا، ذكروا موسى وهارون فى الناس على هذه الصّفة الجميلة أفزعه ذلك، ورأى أمراً بهره وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة فى الصد عن سبيل الله، فقال مخاطبًا للسحرة بحضرة الناس:

﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾(٢). أى: هلاّ شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى، ثم تهدّد وتوعّد وأبرق وأرعد وكذّب، فأبعد قائلاً:

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾(٣). وهذا الذى قاله من البهتان يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان بل لا يروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلّهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يومًا من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السّحر. ثم هو لم

(١) سورة الشعراء: ٤٧، ٤٨.
(٢) سورة الشعراء: ٤٩.
(٣) سورة الشعراء: ٤٩.

يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كـان فرعون هو الذى استدعاهم واجتباهم من كل فجّ عميق ووادٍ سحيق، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف.

ثم هدد -لعنه الله- السحرة قائلاً:

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(١).

أى: ليجعلهم مُثلةً ونكالاً لئلا يقتدى بهم أحد من رعيته وأهل ملته.

فقال السحرة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين:

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾(٢).

وفى سورة الشعراء قالوا:

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

ويبدأ فرعون -لعنه الله- فى تنفيذ جريمته.. فأعد لهم ما وعدهم به من تقطيع لأيديهم وأرجلهم.. وصلبهم.. فلمّا عاينوا الموت قالوا:

﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٤). أى: ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد.

وقالوا أيضًا يعظونه ويخوّفونه بأس ربه العظيم:

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾(٥).

---

(١) سورة الشعراء: ٤٩.

(٢) سورة طه: ٧٢، ٧٣.

(٣) سورة الشعراء: ٥٠، ٥١.

(٤) سورة الأعراف: ١٢٦.

(٥) سورة طه: ٧٤.

يقولون له: فإياك أن تكون منهم فكان منهم.

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾(١). أي: المنازل العالية. ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾(٢). فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمانع وحكم العلي العظيم بأن فرعون -لعنه الله- من أهل الجحيم ليباشر العذاب الأليم يصبّ من فوق رأسه الحميم. ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(٣).

قال الإمام ابن كثير:

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون -لعنه الله- صلبهم وعذّبهم -رضي الله عنهم-. قال ابن عباس -رضي الله عنهما-:

«كانوا من أول النهار سحرة فصاروا في آخره شهداء بررة».

إذلاله لشعب بني إسرائيل:

لـمّا أسلم السحرة الذين استنصروا ربّهم لم يزد ذلك فرعون وقومه إلاّ كُفرًا وعنادًا.. بل وحرّض «الملأ» فرعون على موسى وشعب بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٤).

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء أنهم حرّضوا

---

(١) سورة طه: ٧٥.
(٢) سورة طه: ٧٦.
(٣) سورة الدخان: ٤٩.
(٤) سورة الأعراف: ١٢٧-١٢٩.

ملكهم فرعـون على أذية نبيّ الله مُوسى -عليه السلام- ومقابلتـه بدل التصديق بما جاء به بالفكر والرّد والأذى، قالوا:

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ يعنون قبّحهم الله أن دعوته إلى عـبادة الله وحـده لا شريك له والنهى عن عـبادة مـا سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط -لعنهم الله-.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أى: لئلا يكثر مقاتلتهم.

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أى: غالبون.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم هدد «فرعون» بقتل «موسى» -عليه السلام-:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾(١).

قال القـشيرى: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أى ليستـعن بربه، وإنى أخاف أن يبدل دينكم، وأخاف أن يُفْسدَ في الأرض، وكان المفسدُ هو فرعون، وهو كما قيل في المثل: «رَمَتْنى بدائها وانْسَلَّتْ». ولكن كـاد له الكيد، والكائد لا يتخلّص من كيده»(٢).

فاستعاذ موسى بربه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾(٣).

فأعاذه الله منه.. ونجّاه من بطشه وكيده.

---

(١) سورة غافر: ٢٦.

(٢) لطائف الإشارات (٣/ ٣٠٥).

(٣) سورة غافر: ٢٧.

استخفَّ قومَه فأطاعوه:

الشعب دائمًا يكون سببًا فى إيـجاد الباطل.. وتقوية أركان الضلال.. وأى «شعب» يصـاب بسذاجة فى العقل.. وبلادة فى الذهن.. وضـمور فى التفكير.. تنمو فى أرضـه الخرافات.. وتشيع فيه الخزعبـلات.. وتنتشر فيه الضلالات.

اقرأ:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْـتُ لَكُـم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾(١).

وفى سورة «غافر»:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَـامَانُ ابْـنِ لِـي صَرْحًا لَّعَلِّـي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾!!!.. كلمة فاجـرة كافرة، يتلقاها «الملأ» بالإقـرار والتسليم. ويعتـمد فيهـا فرعون على الأسـاطير التى كانت سائدة فى مصر مـن نسب الملوك للآلهة. ثم على القهر، الذى لا يدع لرأس أن يفكر، ولا للسـان أن يُعبِّر. وهم يرونه بشـراً مثلهم يحـيا ويموت، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب!.

ثم يتظاهر بالجد فى معرفة الحقيقة، والبحث عن إله موسى، وهو يلهو ويسخر: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَـلَى الطِّـينِ فَاجْعَـل لِّي صَرْحًا لَّعَـلِّي أَطَّلِـعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ ﴾ وبلهجة التهكم ذاتهـا يتظاهر بأنه شاك فى صدق موسى، ولكنه مع هذا الشك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة.

﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾.

---

(١) سورة القصص: ٣٨.

(٢) سورة غافر: ٣٦، ٣٧.

قال قتـادة: هو -أى فرعون- أوّل من صنع الآجرّ وبنى بـه. ولـمّا أمر فرعون وزيره «هامان» ببناء الصرح جمـع «هامان» العمال، وأمر بطبخ الآجرّ والجص، ونشر الخشب، وضرب المسامير، فـبنوا ورفعوا البناء وشيّدوه بحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السمٰوات والأرض، فكان البانى لا يقدر أن يقوم على رأسه، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه.

فحكى السُّـدِّى: أن فرعون صعـد السطح ورمى بنُشَّابة نحو السـماء، فرجعت متلطخة بدماء، فقال:

قد قتلتُ إله موسى!!!.

فروُى أن جبريل -عليه السلام- بعثه الله تعالى عند مقـالته، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع:

قطعة على عسكر فرعون.

وقطعة فى البحر.

وقطعة فى الغرب، وهلك كل من عمل فيه شيئًا(١).

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾(٢). أى: فى خسران وضلال.

آياتٌ ونُذُر:

توالت المحن.. وترادف البـلاء على فرعون وقـومه عسـاهم أن يعودوا إلى الصواب.. وتنجلى عنهم الغشاوة والغباوة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَـوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْـصٍ مِّنَ الثَّمَـرَاتِ لَعَلَّهُـمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(٣).

يخبر سبـحانه وتعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قـومه من القبط بالسنين وهى أعوام الجدب التى لا يستغلّ فيها زرع ولا ينتفع فيها بضرع.

---

(١) تفسير القرطبى (١٣/ ٢٦٥).

(٢) سورة غافر: ٣٧.

(٣) سورة الأعراف: ١٣٠.

وقوله: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وهى قلة الثمار من الأشجار.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى: فلم ينتفعوا ولم يرعوا بل تمرّدوا واستمرّوا على كفرهم وعنادهم.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(١).

فعند ذلك وهنالك.. اشتد عليهم البلاء:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾(٢).

أما الطوفان: فعن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

هو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار.

وأما الجراد: فمعروف. وقد روى أبو داود عن سلمان الفارسى، قال:

سئل رسول الله -ﷺ- عن الجراد، فقال:

«أكثر جنود الله لا آكله ولا أُحرِّمه»(٣).

والمقصود: أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعًا، ولا ثمارًا، ولا سبدًا ولا لبدًا.

وأمّا القمّل: فعن ابن عباس هو «السوس» الذى يخرج من الحنطة، ومنه أنه الجراد الصغار الذى لا أجنحة له. وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هى «البراغيث».

وفسّره «عطاء بن السائب» بهذا القمل المعروف، وقرأها الحسن البصرى كذلك بالتخفيف.

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٢.

(٢) سورة الأعراف: ١٣٣.

(٣) أخرجه أبو داود فى (٢٢) كتاب: الأطعمة، (٣٥)، الحديث رقم (٣٨١٣).

فدخل معهم البيوت والفرش، فلم يقرّ لهم قرار، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش.

وأمّا الضفادع: فمعروفة لبستهم حتى كانت تسقط فى أطعمتهم وأوانيهم، حتى أن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع!!.

وأما الدم: فكان قد مزج ماؤهم كلّه به، فلا يستقون من النيل شيئًا إلاّ وجدوه دمًا عبيطًا، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دمًا فى الساعة الراهنة.

هذا كلّه لم ينل بنى إسرائيل من ذلك شيء بالكلية. وهذا من تمام المُعْجزة الباهرة والحجّة الدامغة القاطعة. أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى -عليه السلام-، فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحد من بنى إسرائيل، وفى هذا أدلّ دليل.

ومع هذا، فلم يزدهم ذلك إلا طغيانًا كبيراً.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

رفع موسى يديه إلى ربه وأمَّن «هارون» خلفه، ودعا:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الزخرف: ٤٨.

(٢) سورة يونس: ٨٨، ٨٩.

المَصْرعُ المَهين:

أوحى الله تعالى إلى موسى -عليه السلام-:

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[1].

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب:

استأذن بنو إسرائيل فرعون فى الخروج إلى عيد لهم فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهّزوا للخروج وتأهّبوا له، وإنما كان فى نفس الوقت الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلّصوا منهم، ويخرجوا عنهم، وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعيروا حليًّا منهم، فأعاروهم شيئًا كثيراً، فخرجوا بليل فساروا مستمّرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام.

فلمّا علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق، واشتد غضبه عليهم، وشرع فى استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[2].

قال علماء التفسير: لمّا ركب فرعون فى جنوده طالبًا بنى إسرائيل يقفوا أثرهم كان فى جيش كثيف... فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى

---

(١) سورة الشعراء: ٥٢.

(٢) سورة الشعراء: ٥٢ - ٦٨.

الجمعان، ولم يبق ثَمّ ريب ولا لبس، وعاين كلٌّ من الفريقين صاحبه وتحقّقه ورآه، ولم يبق إلاَّ المقاتلة والمجادلة والمحاماة، فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه. وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهى شاهقة منيفة، وفرعون قد غالقهم وواجههم، وعاينوه فى جنوده وجيوشه وعدده وعُدده وهم مسنة فى غاية الخوف والذعر لما قاسوا فى سلطانه من الإهانة والمنكر، فشكوا إلى نبىّ الله ما هم فيه مما شاهدوه وعاينوه، فقال لهم الرسول الصادق المصدوق موسى -عليه السلام-:

﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وكان -عليه السلام- فى الساقة فتقدم إلى المقدمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ويتزايد زبدُ أُجاجه، وهو يقول:

«هاهنا أمرت». ومعه أخوه «هارون» و«يوشع بن نون»، فلمّا تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الخطب، واقترب «فرعون» وجنوده فى جدّهم وحدّهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم:

﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾!!.

﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾(١).

ويقال: إنه انفلق اثنتى عشرة طريقًا لكل سبط طريق يسيرون فيه، وهكذا كان ماء البحر قائمًا مثل الجبال مكفوفًا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشىء كن فيكون، وأمر الله ريح «الدبور»(٢) فلقحت حال البحر(٣) فأذهبته حتى صار يابسًا لا يعلق فى سنابك الخيول والدواب.

---

(١) سورة الشعراء: ٦٣.

(٢) الدّبور: الريح الغربية وهى تفرّق السّحاب.

(٣) حال البحر: أى: طين البحر.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾[١].

والمقصود: أنه لـمَّا آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال، أمر موسى -عليه السلام- أن يجاوزه ببنى إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحيّر الناظرين، ويهدى قلوب المؤمنين، فلمّا جاوزه وخرج آخرهم منه، وانفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه، فأراد موسى -عليه السلام- أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه. ولا سبيل عليه، فأمره الله تعالى أن يترك البحر على هذه الحال:

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾[٢] أى: ساكنًا على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة.

فلمّا تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون، فرأى ما رأى وعاين ما عاين هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحقّقه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم فى نفسه على خروجه فى طلبهم، لكنه أظهر لجنوده تجلّداً، وحملته النفس الكافرة والسّجيّة الفاجرة على أن قال لمن استخفّهم فأطاعوه:

«انظروا كيف انحسر البحر لى لأدرك عبيدى الآبقين من يدى، الخارجين عن طاعتى وبلدى!!».

وجعل يورى فى نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو وهيهات، ويقدم تارة ويحجم تارات.

فذكروا أن «جبريل -عليه السلام-» تبدّى[٣] فى صورة فارس راكب على

---

(١) سورة طه: ٧٧ - ٧٩.

(٢) سورة الدخان: ٢٤.

(٣) تبدّى: أى ظهر.

رمكة(١) فمرّ بين يدى فحل فرعون -لعنه الله-، فحمحم إليها وأقبل عليها، وأسرع «جبريل» بين يديه فاقتحم البحر، واستبق الجواد، وقد أجاد، فبادر مسرعًا، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضرًا ولا نفعًا، فلمّا رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا فى البحر أجمعين، حتى همّ أولهم بالخروج منه، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيم أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسان.

قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

وها هو فرعون فى وسط الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى.. ولما عاين الهلكة، وأحيط به، وباشر سكرات الموت، أناب حينئذ وتاب، وآمن حين لا ينفع نفسًا إيمانها.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾(٣).

وهكذا دعا موسى على فرعون وملائه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم أى: حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم، وقد قال الله تعالى لهما -أى لموسى وهارون -عليهما السلام- حين دعوا بهذا.

﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾(٤) فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون -عليهما السلام-.

---

(١) رمكة: فرس أو برذون تتخذ للنسل.
(٢) سورة الشعراء: ٦٥-٦٨.
(٣) سورة غافر: ٨٤، ٨٥.
(٤) سورة يونس: ٨٩.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

قال رسول الله -ﷺ-:

«لما قال فرعون ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾[1]، قال:

«قال لى جبريل لو رأيتنى وقد أخذتُ من حال البحر فدسسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة»[2].

وفى بعض الروايات:

إن جبريل -عليه السلام- قال:

ما بغضتُ أحدًا بغضى لفرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، ولقد جعلتُ أدس فى فيه الطين حين قال ما قال.

وقوله تعالى:

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

استفهام إنكار ونصّ على عدم قبوله تعالى منه ذلك والله أعلم لو ردّ إلى الدنيا كما كان، لعاد إلى ما كان عليه، كما أخبر الله تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار، وشاهدوها أنهم يقولون:

﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

قال الله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[5].

---

(١) سورة يونس: ٩٠.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذى فى (٤٨) كتاب: تفسير القرآن، بلفظ: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أن لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل. فقال جبريل: يا محمد لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر وأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة». انظر: صحيح سنن الترمذى (٢٤٨٣).

(٣) سورة يونس: ٩١.

(٤) سورة الأنعام: ٢٧.

(٥) سورة الأنعام: ٢٨.

وشك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت!! فأمر الله تعالى البحر فرفعه على مرتفع. قيل: على وجه الماء، وقيل: على نجوة من الأرض، وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه، ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه. ولهذا قال:

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أى: مصاحبًا درعك المعروفة بك ﴿لِتَكُونَ﴾ أى: أنت آية ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أى: من بنى إسرائيل، دليلاً على قدرة الله الذى أهلكه. ولهذا قرأ بعض السلف: «لتكون لمن خَلَقَكَ آية».

ويحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحبًا لتكون درعك علامة لمن وراءك من بنى إسرائيل على معرفتك، وإنك هلكت والله أعلم.

هلاك الظالم نعمة تستحق الشكر!:

كان هلاك «فرعون» -لعنه الله- وجنوده فى يوم «عاشوراء» كما روى الإمام البخارى فى «صحيحه» عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: قدم النبىّ -ﷺ- المدينة، واليهود تصوم يوم «عاشوراء»، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبى -ﷺ-: **«أنتم أحق بموسى منهم فصوموا»**. وأصل الحديث فى «الصحيحين» وغيرها والله أعلم.

وبهذا انتهت أسطورة «الإله» المزيف.. وجرى من فوقه الماء الذى كان يجرى من تحته!

قال الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٦، ١٣٧.

دروس وعبر من قصة فرعون

١- عاقبة الظلم والكفر:

يتساءل الإنسان عن الكوارث الطبيعية وغيرها التى تصيبه، فمن زلازل لا تبقى ولا تذر، ومن فيضانات تقضى على الثروة القومية وتشتت وتهلك الألوف، ومن رياح هوجاء تدمّر ما أفنى الإنسان عمره فى تشييده، ومن حروب تثيرها أطماع القادة يجىء من ورائها الخراب الشامل.

يتساءل الإنسان عن أسباب ذلك كله فى قرارة نفسه ولا يجد الجواب المقنع، ويؤدى به هذا التساؤل إلى التشاؤم والنظر إلى الحياة بمنظار أسود يفقده هناء العيش وصفاء الاستقرار النفسى.

هذا التساؤل فى أسباب هذا العذاب الذى يصيب الإنسان يجيب عليه القرآن فى عدة مواضع منه، وفى قصة موسى مع فرعون بالذات ويبيّن أن من أسبابه: الكفر والظلم واقتراف الذنوب.

ويعدّد الله أنواع الهلاك بقوله:

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

يذكر الله تعالى فى هذه الآية أنواع العذاب التى أرسلها للأمم العاصية.

وفى قصة «موسى» -عليه السلام- يقص علينا سبحانه وتعالى ما أصاب قوم فرعون بسبب ظلمهم وإعراضهم عن الإيمان بقوله:

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٠.

(٢) سورة القصص: ٣٩، ٤٠.

ويصف القرآن مـآل حالهم عندمـا غرقـوا فى البحر مـعددًا مـا خلّفوا وراءهم من بساتين وقصور وبحبوحة العيش للعبرة والعظة:

﴿ كَمْ تَرَكُوا من جَنَّات وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾(١).

انظر إلى هذه الصورة البلاغية التى ذكرها القرآن عن مآل حالهم:

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ إنها تجسّم النهـاية التعيسة المفـجعة للظالمين الذين لم يتأثروا، ولم يحـزن عليهم أى مخلوق حتى الجـماد لو كان ينطق.

٢- صمود العقيدة:

العقيدة السليمة إذا رسخت فى النفوس وحلّت فى القلوب لا تزحزحها جمـيعُ القوى المادية. هذا درس تتلقاه من سـحرة فرعون عندمـا آمنوا برسالة موسى عن اقتناع، وعندما تلقوا تهديد فرعون الذى قال لهم:

﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٢).

ماذا كان جوابهم لفرعون؟

هل أرهبهم تهديده؟

هل أخافـهم وعيده؟ كـلا.. بل أجابوه بهـذا القول العظيم الذى يثـير الرعشة فى النفوس:

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٣).

---

(١) سورة الدخان: ٢٥-٢٩.
(٢) سورة الأعراف: ١٢٤.
(٣) سورة الأعراف: ١٢٥، ١٢٦.

٣- انتصار الحق على الباطل:

وتفيد القصة: أن الباطل مهما استعلى ووجد له أنصاراً وأعوانًا فلابُدَّ من هزيمته أخيراً أمام الحق.

فهؤلاء السحرة الذين جاءوا بالباطل وسحروا أعين الناس لم يدروا أن الله سيؤيد رسوله «موسى» -عليه السلام- بمعجزة هي أقوى من سحرهم، وهذا ما يقصّه علينا القرآن:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

إنها وقفة قصيرة يُبَيّن لنا فيها القرآن جولة الحق مع الباطل الذى لم يلبث أن خرّ صريعًا.

فالسحرة كانوا أعلم الناس بباطلهم وأعرف الناس بالذى جاء به موسى لهذا كانوا أول من آمن برب موسى. فتوعدهم فرعون بالتنكيل والعذاب الأليم فما أعاروا ذلك أهمية بل أجابوه بنفوس مؤمنة أبيّة:

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[2].

قال الأخفش[3]:

«قد ألقوا حبالهم وعصيّهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الإلقاءين».

٤- حرية الشعوب:

وفى القصة: تقرير لحرية الشعوب وحقّها فى التخلص من استعباد

---

(١) سورة الأعراف: ١١٧، ١١٨.

(٢) سورة طه: ٧٢، ٧٣.

(٣) الأخفش: من مشاهير النحاة فى اللغة العربية.

الأقوياء وذلك فى قوله تـعالى عن بنى إسرائيل وفضله عليـهم عندما حرّرهم من ذُلّ الاستعباد الذى ذاقوا أهواله حينًا من الدهر:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾(١).

فهـذا النص القرآنـى يُعلن بأن لا موجب لأن تسـتضـعف أمة غـيرها وتخضعهـا لقوتها وسيطرتها وتستغل مـواردها، فإذا فعلت ذلك كان الله فى عون المستضعف فينُصره ويحرّره من ربقة الاستعباد والطغيان.

٥- تقويض الطغيان:

إن انتـصار «مـوسى» -عليه السلام- على «فـرعون» مـثل واضح لتقـويض الطغيان يعرضه القرآن لكل أمّة يطغى حاكمها كما طغى فرعون.

ولقد بين القـرآن نتيـجة هذا الطغـيان والاستكبـار والتكذيب بآيات الله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّـهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(٢).

إن فى ذلك لعبـرة للطغاة ودرسًـا للأمم المضطهدة كى تصـمد وتكافح الطغيان لأن النصر حليفها فى النهاية(٣).

---

(١) سورة القصص: ٥.

(٢) سورة غافر: ٢٢.

(٣) مع الأنبياء فى القرآن الكريم. للأستاذ/ عفيف طبارة. بتصرف.

[٣٤] ذو نُـــوَاس

«اليهودى الذى لعنه القرآن»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

فمن هو ذو نواس؟:

هو: أحد ملوك «حِميْر» وقال ابن إسحاق:

وذو نواس هذا اسمه زُرعة بن تُبَّان أسعد الحميرىّ، وكان أيضًا يسمّى «يوسف»، وكان له غدائر من شعر تَنُوس، أى: تضطرب، فسمّى «ذا نواس»(٢).. وكان -قبّحه الله- يهوديًّا.. ظالـمًا.. غاشمًا.. حرّق المؤمنين بالنار.. وعذّب الموحدين.. فكان ممَّن عناهم الله بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة البروج: ٤ - ٩.
(٢) تفسير القرطبى (١٩/ ٢٥١).
(٣) سورة آل عمران: ٢١، ٢٢.

ما هي قصته:

وقعت أحداث هذه القصة -كما رجح ابن كثير- فى زمن الفترة التى بين عيسى ومحمد -عليهما السلام-. . واختلف علماء السير فى زمن ومكان أصحاب الأخدود. . واختلفوا كذلك فى اسم الملك الظالم الذى أضرم النيران فى الموحدين. .

فقال أسباط عن السُّدِّى فى قوله تعالى:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ قال:

«كانت الأخدود ثلاثة، خدّ بالعراق، وخدّ بالشام، وخدّ باليمن» رواه ابن أبى حاتم.

وعن مقاتل قال:

«كانت الأخدود ثلاثة:

واحدة بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس حرقوا بالنار.

أمَّا التى بالشام فهو انطنانوس والرومى.

وأمَّا التى بفارس فهو بختنصّر.

وأمّا التى بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس، فأمّا التى بفارس والشام فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآنًا وأنزل فى التى كانت بنجران»[1].

قلت: وقد اخترتُ من بين الروايات الواردة رواية «مقاتل» -رحمه الله-. . فهى فى نظرى أقرب للصواب والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق:

حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى، وحدّثنى أيضًا بعض أهل «نجران» عن أهلها:

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٨١).

أن أهل «نجران» كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان، وكان فى قرية من قراها قريبًا من نجران -ونجران هى القرية العظمى التى إليها جماع أهل تلك البلاد- ساحر يعلّم غلمان أهل «نجران» السّحر، فلما نزلها «فيمون» ولم يسموهُ لى بالاسم الذى سمّاه «ابن منبه»، قالوا: نزلها رجل فابتنى خيمة بين «نجران» وبين تلك القرية التى فيها الساحر، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر. فبعث «التامر» ابنه «عبد الله بن تامر» مع غلمان أهل «نجران»، فكان إذا مرّ بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم فوحّد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام[1] حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه فكتمه إياه وقال له:

يا ابن أخى إنك لن تحمله أخشى ضعفك عنه.

والتامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان، فلمّا رأى «عبد الله» أن صاحبه قد ضن به عنه، وتخوّف ضعفه فيه عمد إلى أقداح فجمعها ثم لم يبق لله اسمًا يعلمه إلا كتبه فى قدح لكل اسم قدح، حتى إذا أحصاها أوقد نارًا ثم جعل يقذفها فيها قدحًا قدحًا، حتى إذا مرّ بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه، فوثب القدح حتى خرج منها ولم يضره شيء، فأخذه، ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى قد كتبه، فقال:

وما هو؟

قال: هو كذا وكذا.

قال: وكيف علمته؟

---

(١) الإسلام هو دين الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى محمد -ﷺ-، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٦].

فأخبره بما صنع.

فقال: أى ابن أخى قد أصبته فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل.

فجعل «عبد الله بن تامر» إذا دخل «نجران» لم يلق أحدًا به ضرّ إلا قال له:

يا عبد الله أتوحد الله وتدخل فى دينى، وأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟

فيقول: نعم.

فيوحد الله ويسلم، فيدعو الله له، فَشُفى حتى لم يبق بنجران أحد به ضرّ إلا أتاه، فاتبعه على أمره ودعا له، فعوفى حتى رفع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه فقال له:

أفسدت علىّ أهل قريتى وخالفت دينى ودين آبائى لأمثلنّ بك.

قال: لا تقدر على ذلك.

قال: فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ما به بأس!!، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يلقى فيها شىء إلا هلك فيلقى به فيها، فيخرج ليس به بأس! فلمّا غلبه قال عبد الله ابن التامر: «إنك والله لا تقدر على قتلى حتى تؤمن بما آمنت به وتوحّد الله، فإنك إن فعلت سُلطت علىّ فقتلتنى».

قال: فوحّد الله ذلك الملك وشهد شهادة «عبد الله بن التامر» ثم ضربه بعصا فى يده فشجّه شجّة غير كبيرة فقتله، وهلك الملك مكانه واستجمع أهل «نجران» على دين «عبد الله بن التامر» وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم -عليه السلام- من الإنجيل وحكمه، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران.

قال محمد بن إسحاق:

فهذا حديث «محمد بن كعب القرظى» وبعض أهل نجران عن عبد الله ابن التامر والله أعلم أى ذلك كان، قال:

فسار إليهم «ذو نُواس» بجنده فدعاهم إلى اليهودية(١) وخيَّرهم بين ذلك أو القتل فاختاروا القتل، فخدَّ الأخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف، ومثل بهم حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا، ففى «ذى نواس» وجنده أنزل الله عزَّ وجلَّ على رسوله -ﷺ-:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢)(٣).

قال الإمام ابن كثير:

«هكذا ذكر محمد بن إسحاق فى «السيرة» أن الذى قتل أصحاب الأخدود هو «ذو نواس» واسمه زرعة، ويسمى فى زمان مملكته بيوسف، وهو ابن بيان(٤) أسعد أبى كريب وهو «تبّع» الذى غزا المدينة وكسا الكعبة واستصحب معه حبرين من يهود المدينة، فكان تهود من تهوّد من أهل اليمن على يديهما كما ذكره ابن إسحاق مبسوطًا، فقتل «ذو نواس» فى غداة واحدة فى الأخدود عشرين ألفًا ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له «دوس ذو

(١) العداء بين اليهودية والنصرانية قديم. . قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ...﴾ [سورة البقرة: ١١٣].

(٢) سورة البروج: ٤-٩.

(٣) أخرجه الطبرى فى «تاريخه» (١/ ٤٣٦) وذكره ابن كثير فى «تفسيره» وسكت عليه، وفى إسناد الطبرى «محمد بن حميد الرازى» وهو ضعيف، ومسلم بن الفضل الأبرش صدوق كثير الخطأ قاله ابن حجر فى «التقريب».

(٤) هكذا فى ابن كثير. . والذى فى تفسير القرطبى «ابن تُبَّان» كما تقدم.

ثعلبان»، ذهب فارسًا وطردوا وراءه فلم يقدروا عليه فذهب إلى «قيصر» ملك الشام فكتب إلى النجاشى ملك الحبشة -أى يأمره بقتال ذى نواس-.

هلاكه:

ولـمّا قدم «دوس ذو ثعلبـان» على النجاشى بكتاب «قيصـر» بعث معه سبعين ألفًـا من الحبشة، وأمَّـر عليهم رجلاً يقال له «أرياط» ومـعه فى جنده «أبرهة الأشرم»(١)، فركب «أرياط» البـحر حتى نـزل بساحل اليمن، ومـعه «دوس بن ثَعْلبان»، وسار إليـه ذو نُواس فى «حمْير»، ومن أطاعـه من قبائل اليمن، فلمّا التقوا انهزم ذو نواس وأصحابُه، فلمّا رأى «ذو نواس» ما نزل به وبقومـه وجَّه فرسـه فى البحر، ثم ضـربه فدخل به، فـخاض به ضحـضاح البحر(٢)، حتى أفضى بـه إلى غَمْر(٣)، فأدخله فـيه، وكان آخرَ العـهد به، ودخل أرياط اليمن فملكاه(٤).

وفى ذى نواس يقول عمرو بن معدى كرب:

أتُوعدنى كأنك ذو رُعَيْن(٥) بأنعم عــيشـة أو ذو نُواسِ
وكائِن كـان قبلَك من نَـعيم ومُلْك ثابت فى النّاس راسِ
قـديم عهـدُه من عـهد عـاد عظيمَ قـاهرَ الجبـروت قاسِ
أزال الدهرُ مُلكهم فأضحىَ يُـنَقَّـل من أُنـاس فى أنـاسِ

وهكذا أباد الله مملكة الظالمين.. وأهلك عرش المجرمين.. وكـان عاقبة أمرهم خُسْرًا. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) راجع ترجمة «أبرهة» فى كتابنا هذا.
(٢) ضحضاح البحر: الماء القليل يكون فى الغدير وغيره، وقيل: هو الماء اليسير.
(٣) الغمر: الماء الكثير.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٠).
(٥) ذو رعين: ملك من ملوك حِمْير. ورُعَين حصن له.

مع الآيات الكريمات:

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ أى: لعن أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد وهى الحفر فى الأرض.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أى: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين. قال تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أى: وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجنابه المنيع الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وإن كان قد قدّر على عباده هؤلاء الذى وقع بهم بأيدى الكفار به فهو العزيز الحميد وإن خفى سبب ذلك على كثير من الناس. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أى: لا يغيب عنه شىء فى جميع السموات والأرض ولا تخفى عليه خافية.

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى حرقوا. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أى: لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن البصرى -رحمه الله تعالى-:

«انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة».

«نص القصة كما رواها الإمامان أحمد ومسلم»

عن صهيب -رضي الله عنه-، قال:

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

«كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلمّا كبر الساحر قال للملك، إني قد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إلي غلامًا لأعلِّمه السحر، فدفع إليه غلامًا كان يعلمه السّحر، وكان بين الساحر والملك راهب، فأتى الغلام الراهب فسمع من كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، وقال: ما حبسك؟

وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا:

ما حبسك؟

فشكا ذلك إلى الراهب، فقال:

إذا أراد الساحر ضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك، فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة عظيمة فظيعة قد حبست الناس، فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال:

اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أمر أم الساحر؟

قال: فأخذ حجرًا، فقال:

اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها، ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك، فقال:

أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ.

فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم(١)، وكان للملك جليس أعمى فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني. فقال: ما أنا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله عزّ وجلّ، فإن آمنت به دعوتُ الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك:

---

(١) الذي في «صحيح مسلم»: «ويداوي الناس من سائر الأدواء» بدلاً من «ويشفيهم».

يا فلان من ردّ عليك بصرك؟

فقال: ربى.

فقال: أنا.

قال: لا، ربى وربك الله.

قال: ولك رب غيرى؟

قال: نعم، ربى وربك الله.

فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الغلام، فبعث إليه فقال:

بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء!!

فقال: أما أنا لا أشفى أحداً إنما يشفى الله عزّ وجلّ.

قال: أنا.

قال: لا.

قال: أولك رب غيرى؟

قال: ربى وربّك الله.

فأخذه -أيضاً- بالعذاب حتى دلّ على الراهب فأوتى بالراهب فقيل:

ارجع عن دينك؟ فأبى، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى:

ارجع عن دينك؟ فأبى، فوضع المنشار فى مفرقه أيضًا، وقال للغلام:

ارجع عن دينك؟ فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه.

فذهبوا به فلمّا علوا به الجبل، قال:

«اللهم اكفنيهم بما شئت».

فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمّس حتى دخل على الملك، فقال:

ما فعل أصحابك؟

فقال: كفانيهم الله تعالى.

فبعث به نفرًا إلى البحر في قرقور[1]، فقال:

إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه.

فقال الغلام: «اللهم اكفنيهم بما شئت».

فغرقوا هم، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال للملك:

إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال:

ما هو؟

قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهمًا من كنانتي ثم قل: «بسم الله رب الغلام»، فإنك إن فعلت ذلك قتلتني! ففعل، ووضع السهم في قوسه ورماه به في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات!!، فقال الناس:

آمنا برب الغلام. فقيل للملك:

أرأيت ما كنتَ تحذر، فقد والله وقع بك، قد آمن الناسُ كلهم فأمر بأفواه السكك، فخدّت فيها الأخاديد وأُضرمت فيها النيران، وقال:

من رجع عن دينه فدعوه وإلاّ فأقحموه فيها!!.

قال: فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي:

«اصبري يا أمّاه فإنك على الحق».

---

(١) القرقور: السفينة.

وقد قـيل: إن الغـلام دفن فوجـد زمن «عمـر بن الخطاب» ويده على صـدغه، كلـما رُفـعت خـرج الدم من جـرحه، وإذا تُركت أعـيـدت على الجُرح!!(١).

فوائد وعظات من القصة

فى قصة «ذى نواس» وجنوده.. والغـلام المؤمن.. والتى رواها الإمام أحمد ومسلم فوائد وعظات منها:

الأول: أن السـحر بالتـعلم كمـا جاء فى قـصة الملكين بـبـابل «هاروت وماروت».

الثانى: إمكان اجتمـاع الخير مع الشر: إذا كان الشـخص جاهلاً بحال الشر، كاجتماع الإيمان مع الراهب مع تعلم السحر من الساحر.

ثالثًا: إجراء خوارق العادات على أيدى دعاة الخيـر، لبيان الحق والتثبت فى الأمر، كـما قـال الغلام: «اليـوم أعلم أمر الراهب أحـبّ إلى الله أم أمر الساحر؟».

الرابع: أنه كان أميل بقلبه إلى أمـر الراهب، إذ قال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك، فسأل عن أمر الراهب ولم يسل عن أمر الساحر؟

الخامس: اعتراف العالم بالفضل لمن هـو أفضل منه، كاعتراف الراهب للغلام.

السادس: ابتلاء الـدعاة إلى الله ووجوب الصـبر على ذلـك، وتفاوت درجات الناس فى ذلك.

السابع: إسناد الفعل كلّه لله، إنما يشفى الله.

الثامن: رفض الداعى إلى الله الأجر على عمله وهدايته ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾(٢).

---

(١) أضواء البيان (٦/١٦).

(٢) سورة الفرقان: ٥٧.

التاسع: بيان ركن أصيل فى قضية التوسل، وهو أن مبناه على الإيمان بالله ثم الدعاء وسؤال الله تعالى.

العاشر: غباوة الملك المشرك المغلق قلبه بظلام الشرك، حيث ظن فى نفسه أنه الذى شفى جليسه. وهو لم يفعل له شيئًا، وكيف يكون وهو لا يعلم؟

الحادى عشر: اللجوء إلى العنف عند العجز عن الإقناع، أسلوب الجهلة والجبابرة.

الثانى عشر: منتهى القسوة والغلظة فى نشر الإنسان، بدون هوادة.

الثالث عشر: منتهى الصبر وعدم الرجوع عن الدين، وهكذا كان فى الأمم الأولى، وبيان فضل الله على هذه الأمة، إذ جاز لها التلفّظ بما يخالف عقيدتها وقلبها مطمئن بالإيمان.

وقد جاء عن الفخر الرازى قوله:

الآية تدل على أن المكره على الكفر بالإهلاك العظيم الأولى به أن يصبر على ما خوف منه، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة فى ذلك، وقال:

وروى الحسن أن مسيلمة[1] أخذ رجلين من أصحاب النبىّ -ﷺ- فقال لأحدهما:

تشهد أنى رسول الله؟

فقال: نعم.

فتركه، وقال للآخر مثله، فقال:

لا. بل أنت كذاب.

فقتله، فقال النبىّ -ﷺ-:

---

(١) هو: مسيلمة الكذاب، وقد تقدَّمت ترجمته.

«أما الذى تـرك فأخذ بالرخـصة فـلا تبعـة عليه، وأمـا الذى قُتل فـأخذ بالأفضل فهنيئًا له»(١).

الرابع عـشر: إجـابة دعوة الغـلام ونصرة الله لـعبـاده المؤمنين: «اللهم اكفنيهم بما شئت».

الخامس عشر: التضحية بالنفس فى سبيل نشر الدعوة، حيث دلّ الغلام الملك على الطريقة التى يتمكـن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله، ولو كان الوصول لذلك على حياته هو.

السادس عشر: إبقاء جسـمه حتى زمن «عمر» -رضي الله عنه- إكـرامًا لأولياء الله.

قلت: وقد حـدث لشهـداء أُحُد مـثل هذا.. فقـد أُخرج «عـمرو بن الجمـوح» و«عبد الله بن عمـرو بن حرام» وغيـرهما من قبـورهم -بعد ست وأربعين عامًا- ليّنة أجسامهم.. تتثنى أطرافُهم!!.

السابع عشر: إثبات دلالة القدرة على البعث.

الثامن عـشر: حيـاة الشهداء لوجود الدم وعـودة اليد مكانها، بحـركة مقصودة!!.

التاسع عشر: معرفة تلك القصة عند أهل مكة حيث حدّثوا بها تخويفًا من عواقب أفعالهم بضعفة المؤمنين، كما هو موضح فى تمام القصة.

العشرون: نطق الصبى الرضيع بالحق(٢).

---

(١) إسناده مرسل.

(٢) أضواء البيان (٦/١٦، ١٧).

[٣٥] قدَارُ بن سَالِف

«أشْقَى الأوَّلين!!»

الآيات التي نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[١].

فمن هو قِدَارُ بن سَالِف؟:

هو: قـدار بن سالف بن جندع، رئيـس قبـيلة «ثمود».. وكـان -لعنه الله- أحـمـر أزرق أصهب.. وكـان يقـال: إنه ولد زانيـة وُلد على فـراش سالف، وهو ابن رجل يقـال له: «صبيـان».. وهو أول من سطا على الناقة التى أيّد الله بها «صالح -عليه السلام-» فعقـرها فأهلكه الله مع من هلك، وحقت عليه كلمةُ العذاب ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[٢].

عن عبد الله بن زمعة، قال:

خطب رسول الله -ﷺ- فذكر الناقة وذكر الذى عقرها، فقال:

«إذ انبعث أشقاها، انبعث لهـا رجلٌ عارم عزيز منيع فى رهطه، مثل أبى زَمْعَةَ»[٣].

---

(١) سورة الشمس: ١١-١٥.

(٢) سورة طه: ١١١.

(٣) رواه البخارى (٤٩٤٢) كتاب التفسير، ومسلم (٧٠٥١) كتاب: صفة الجنة والنار.

وعارم: أى كثـير الشهامة والشر. وعـزيز: أى قليل المثل. ومنيع فى رهطه: أى قوىّ ذو منعة ومطاع فى قومه. =

وعن عمّار بن ياسر -رضي الله عنه-، قال:

قال رسول الله -ﷺ- لعليّ -أي ابن أبي طالب-:

«ألا أُحدثك بأشقى الناس؟».

قال: بلى.

قال: **«رجلان أحدهما: أُحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا عليّ على هذا -يعني قَرْنه- حتى تبتل منه هذه -يعني لحيته-»**(١).

قصة أشقى الأولين:

كانت «ثمود» قبيلة تعبد «الأصنام».. وكانوا عربًا يسكنون «الحِجْر» الذي بين الحجاز وتبوك.

وكانوا خلفاء لقوم «عاد» في الحضارة والعمران والقوة والبأس، وكانوا يبنون في الأرض قصوراً.. وينحتون من الجبال بيوتًا.

أرسل الله تعالى لهم «صالح -عليه السلام-».. فدعاهم إلى «التوحيد» قائلاً:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٢).

أي: هو الذي خلقكم فأنشأكم في الأرض، وجعلكم عمّارها، أي: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، وهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه.

= وأبو زمعة: هو الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى، وكان الأسود أحد المستهزئين، ومات على كفره بمكة، وقتل ابنه زمعة يوم «بدر» كافرًا أيضًا، ووجه تشبيهه به أنه كان في عزة ومنعة في قومه كما كان ذلك الكافر.

(١) حسن: رواه أحمد (٤/ ٢٦٣)، والنسائي في «خصائص عليّ -رضي الله عنه-» (١٤٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١١، ١٢)، وانظر: السلسلة الصحيحة (١٧٤٣).

(٢) سورة هود: ٦١.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾(١).

أى: أقلعوا عمّا أنتم فيه وأقبلوا على عبادته، فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم.

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾(٢).

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾(٣).

أى: كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة، وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة، وترك ما كنا نعبده من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد، ولهذا قالوا:

﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾(٤).

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾(٥).

وهذا تلطف منه لهم فى العبارة ولين الجانب، أى فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟

ما عذركم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكننى هذا لأنه واجب علىَّ، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه ولا ينصرنى، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بينى وبينكم.

المعجزة:

لم يؤمن الثموديون بما نصحهم به «صالح -عليه السلام-»، ولم يسيروا فى

(١) سورة هود: ٦١.
(٢) سورة هود: ٦١.
(٣) سورة هود: ٦٢.
(٤) سورة هود: ٦٢.
(٥) سورة هود: ٦٣.

طريق الحق كما أرشدهم، بل راحوا يتهمونه بالهذيان وأن السحر سيطر على عقله فسوّل له أنه رسول من عند الله، وطلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة تدل على أنه رسول الله حقًّا، فأتاهم الله بالناقة التي خلقها الله غير المألوف[1] وأمرهم ألاّ يمسّوها بسوء، فلا تعـذّب ولا تطرد ولا تركب ولا تذبح، وجعل الله لها شِربًا فى يوم معـلوم، وجعل لهم شِربًا في يوم غيـره، وأوعدهم بالعذاب إن هـم اعتدوا عليها بسوء، وأن سلامتهم مقرونة بسلامتها.

قال تعالى:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[3].

تفجُّر العداوة:

مكثت الناقة بينهم زمنًا تأكل من نبات الأرض، ترد الماء يومًا وتصد عنه يومًا آخر، ولا ريب أن قيـامها على هذه الحال قد استمال إليـه كثيرًا من قوم صالح إذ رأوا فيها آية على صدق نبوته فأفزع هذا الأمر طبقة الأشراف فخافوا على دولتهم أن تبيد، وعلى سلطانهم أن يزول، فبـيّتوا فى أنفسهم شرًّا نحو الناقة، ووقفوا من صالح ومن آمن معه موقف العداوة والخصام.

وقد أحسّ صالح بما يبيّتون من شر فقال لهم:

---

(١) ذكر ابن كثير وغيره أنها خرجت من صخرة صمّاء!! والله على كل شيء قدير.
(٢) سورة الشعراء: ١٥٣ - ١٥٦.
(٣) سورة القمر: ٢٧، ٢٨.

يا قوم لم تستعجلون العذاب الذى توعدون به قبل التوبة، هلاَّ طلبتم المغفرة من ربكم ليرحمكم!!.

ولكن القوم أجابوه:

تشاءمنا بك وبمن آمن معك وقد أصابنا القحط بعد أن جئتنا بدعوتك! فقال لهم صالح: ليس هناك شىء يتشاءم منه فأسباب الخير والشرّ هى من عند الله، والله سبحانه يختبركم بهذه الشدة التى أنتم عليها لعلكم تؤمنون.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾(١).

وكان الأشراف المتكبرون يلومون المؤمنين على إيمانهم، فيؤكد لهم هؤلاء المؤمنون المستضعفون بأنهم مؤمنون برسالة صالح.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(٢).

عقر الناقة:

لم يطق الأشراف احتمال هؤلاء المؤمنين، ولا وجود الناقة بينهم، ولعلها كانت ضخمة الجسم فأرهبت أنعامهم، ولعلهم أفزعهم أن يكثر المؤمنون بسبب هذه الناقة، ولعلّ هذا كله دفعهم إلى قتلها بالرغم من تحذير نبيّهم بالعذاب وتوعده إياهم بالهلاك إن مسّوها بسوء، ولكنهم أقدموا على ذبح الناقة غير مبالين، وطلبوا من نبيّهم أن يعجّل لهم العذاب الذى هددهم به، ليثبت لهم أنه رسول الله!!(٣).

---

(١) سورة النمل: ٤٦، ٤٧.

(٢) سورة الأعراف: ٧٥، ٧٦.

(٣) مع الأنبياء فى القرآن (٩٤، ٩٥).

ذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسِّرين أن امرأتين من «ثمود» اسم إحداهما: «صدوق بنت المحيا بن زهير بن المختار» وكانت ذات حسب ومال وكات تحت رجل من أسلم، ففارقته فدعت ابن عمٍّ لها يقال له: «مصرع بن مهرج بن المحيا»، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، واسم الأخرى: «عُنيزة بنت غنيم بن مَجْلَز» وتكنى «أمّ عثمان»، وكانت عجوزًا كافرة لها بنات من زوجها «ذؤاب بن عمرو» أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على «قدار بن سالف» إن هو عقر الناقة، فله أي بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لعقرها، وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾[1]. وسعوا في بقية القبيلة وحسّنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك، فانطلقوا يرصدون الناقة، فلمّا صدرت[2] من وِرْدِها كَمَن لها مُصْرِعٌ، فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يزمرن القبيلة في قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيبًا لهم فابتدرهم «قدار بن سالف» فشدّ عليها بالسيف، فكشف عن عرقوبها فخرّت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذِّر ولدها[3]، ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقيها. وهو فصيلها، فصعد جبلاً منيعًا ودعا ثلاثًا.

وروى عبد الرَّزاق عن مُعمَّر عمَّن سمع الحسن أنه قال:

«يا ربّ أين أُمّي؟» ثم دخل في صخرة فغاب فيها!!.

ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضًا، قال الله تعالى:

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[4].

وقال تعالى:

---

(١) سورة النمل: ٤٨.

(٢) صدرت: أي رجعت، وفي القرآن: ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [سورة القصص: ٢٣].

(٣) كانت الناقة «عشراء» عندما أخرجها الله من الصخرة!!.

(٤) سورة القمر: ٢٩، ٣٠.

﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾(١).

مصرع قدار بن سالف والظالمين:

قال الإمام ابن كثير:

«وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها «قدار بن سالف» -لعنه الله- فعرقبها فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها، فلمَّا عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم، فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات، فلهذا قال لهم صالح -عليه السلام-:

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾(٢).

أى: غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضًا فى هذا الوعد الأكيد، بل لـمَّا أمسوا همُّوا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يُلْحقوه بالناقة!!.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾(٣).

أى: لنكبسنه فى داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدنّ قتله وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه. ولهذا قالوا:

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(٤).

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة الشمس: ١٢ - ١٥.
(٢) سورة هود: ٦٥.
(٣) سورة النمل: ٤٩.
(٤) سورة النمل: ٤٩.
(٥) سورة النمل: ٥٠ - ٥٣.

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل «صالح» -عليه السلام- حجارة رضختهم سلفًا وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم «الخميس» وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مُصْفرة كما أنذرهم «صالح -عليه السلام-» فلما أمسوا نادوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل. ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل. وهو يوم «الجمعة» ووجوههم محمرّة، فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان من الأجل.

ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم «السبت» ووجوههم مسودّة، فلمّا أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل.

فلمّا كان صبيحة يوم «الأحد» تحنّطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحلّ بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم، ولا من أى جهة يأتيهم العذاب.

فلمّا أشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزُهقت النفوس وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقّت الحقائق فأصبحوا فى دارهم جاثمين جثثًا لا أرواح فيها ولا حراك بها، قالوا: ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها «كلبةُ بنتُ السِّلْق». ويقال لها: «الذريعة» وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح -عليه السلام-، فلمّا رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شىء فأتت حيًّا من العرب، فأخبرتهم بما رأت وما حلّ بقومها واستسقتهم ماء فلما شربت ماتت.

قال الله تعالى:

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾[1].

أى: لم يقيموا فيها فى سعة ورزق وغناء.

﴿ أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾[2].

---

(١) سورة هود: ٦٨.

(٢) سورة هود: ٦٨.

أى: نادى عليهم لسان القدر بهذا.

وهكذا أبادهم الذى خلقهم.. وأسكتهم الذى أنطقهم..

أما صالح -عليه السلام- والذين آمنوا.. فنجّاهم الله تعالى برحمته.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾(١).

قصة أشقى الآخرين:

أشقى الآخرين هو: «عبد الرحمن بن عمرو» المعروف بابن ملجم الحميرى ثم الكندى وليد بن جبلة بن كندة المصرى -أحد رؤوس الخوارج- وكان أسمر حسن الوجه... وفى وجهه أثر السجود(٢)!!.

ظهور أمر الخوارج:

بعد قصة التحكيم(٣) التى تمت بين علىّ ومعاوية -رضي الله عنهما- والتى أسفرت عن تولية «عمرو بن العاص» لمعاوية بن أبى سفيان وخلع علىّ بن أبى طالب!!.

تفرق الناس بعدها إلى بلادهم(٤)، خرج «معاوية» إلى دمشق بأصحابه، ورجع علىّ إلى الكوفة بأصحابه، وبعد هذا التحكيم ظهر أمرُ «الخوارج».. ورفعوا شعار «لا حكم إلا لله».. ولما قارب علىّ دخول الكوفة.. اعتزل من جيشه قريب من -اثنى عشر ألفًا- وهم «الخوارج»، وأبوا

---

(١) سورة هود: ٦٦.

(٢) البداية (٥/٤٣٦).

(٣) راجع: البداية (٥/٣٧٨).

(٤) كان ذلك بعد موقعة «صفّين» التى دارت رحاها بين أهل العراق بقيادة على بن أبى طالب، وبين أهل الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان -رضى الله عن الجميع-.

أن يساكنوه فى بلده، ونزلوا بمكان يقاله له «حروراء» وأنكروا عليه أشياء فيما يزعمون أنه ارتكبها، فبعث إليهم علىّ -رضي الله عنه- عبد الله بن عباس فناظرهم فرجع أكثرهم وبقى بقيتهم، فقاتلهم على بن أبى طالب وأصحابه كما سيأتى بيانه -إن شاء الله تعالى-.

والمقصود: أن هؤلاء الخوارج هم المشار إليهم فى الحديث المتفق على صحته أن رسول الله -ﷺ- قال:

«**تمرق مارقة على حين فرقة من الناس** -وفى رواية: «**من المسلمين**» - وفى رواية: «**من أمتى**» - **فيقتلها أَوْلى الطائفتين**».

وفى رواية لأحمد ومسلم: «**تقتلهم أولى الطائفتين بالحق**».

فهذا الحديث من دلائل النبوة إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به -عليه الصلاة والسلام-، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام، من تكفيرهم أهل الشام، وفيه: أن أصحاب علىّ بن أبى طالب أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن عليًّا هو المصيب وإن كان معاوية مجتهدًا، وهو مأجور -إن شاء الله-، ولكن علىّ هو الإمام فله أجران كما ثبت فى «صحيح البخارى» من حديث عمرو بن العاص أن رسول الله -ﷺ- قال: «**إذ اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»[1].

وسيأتى بيان كيفية قتال علىّ -رضي الله عنه- للخوارج، وصفة «المخدج» الذى أخبر عنه -عليه السلام- فوجد كما أخبر ففرح بذلك علىّ -رضي الله عنه- وسجد للشكر.

قتال الخوارج:

اشتد أمر الخوارج، وقويت شوكتهم، والتف كثير من الناس حولهم، وبالغوا فى النكير على علىّ وصرحوا بكفره!!!، فجاء إليه رجلان منهم، وهما: «زرعة بن البرج الطائى» و«حرقوص بن زهير السعدى» فقالا:

(١) البداية (٥/ ٣٨٢). والحديث فى «صحيح البخارى».

لا حكم إلا لله.

فقال على: لا حكم إلا لله.

فقال له حرقوص: تب من خطيئتك واذهب بنا إلى عدوّنا[1] نقاتلهم حتى نلقى ربنا.

فقال علىّ: قد أردتكم على ذلك فأبيتم، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهودًا.

وقد قال الله تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾[2] الآية.

فقال له حرقوص: ذلك ذنب ينبغى أن تتوب منه.

فقال علىّ: ما هو بذنب ولكنه عجز من الرأى، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه، ونهيتكم عنه.

فقال له زرعة بن البرج: أما والله يا علىّ لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله لأقاتلنك أطلب بذلك رحمة الله ورضوانه!!.

فقال علىّ: تبًا لك ما أشقاك! كأنى بك قتيلاً تسفى عليك الريح.

فقال: وددتُ أن قد كان ذلك.

فقال له علىّ: إنك لو كنت مُحقًّا كان فى الموت تعزية عن الدنيا، ولكن الشيطان قد استهواكم.

فخرجا من عنده يحكمان وفشى فيهم ذلك، وجاهروا به الناس، وتعرّضوا لعلىّ فى خطبه وأسمعوه السّب والشتم والتعريض بآيات من القرآن، وذلك أن عليًّا قام خطيبًا فى بعض الجمع فذكر أمر الخوارج فذمّه وعابه فقام جماعة منهم كل يقول:

---

(١) يقصد «معاوية» وأصحابه.

(٢) سورة النحل: ٩١.

«لا حكم إلا لله».

وقام رجل منهم وهو واضع إصبعه فى أذنيه يقول:

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(١).

فجعل عليّ يقلّب يديه هكذا وهكذا وهو على المنبر ويقول:

«حكم الله ننتظر فيكم». ثم قال:

إن لكم علينا أن لا نمنعكم حتى تقاتلونا.

واجتمع الخوارج فى منزل «عبد الله بن وهب الراسبى» فخطبهم خطبة بليغة زهدهم فى هذه الدنيا ورغبهم فى الآخرة والجنة، وحثّهم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ثم قال:

فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها، إلى جانب هذا السواد إلى بعض كور الجبال، أو بعض هذه المدائن، منكرين لهذه الأحكام الجائرة!!.

ثم قام «حرقوص بن زهير» فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا يدعونكم زينتها أو بهجتها إلى المقام بها، ولا تلتفت بكم عن طلب الحق وإنكار الظلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٢).

فقال «سنان بن حمزة الأسدى»:

يا قوم إن الرأى ما رأيتم، وإن الحق ما ذكرتم، فولوا أمركم رجلاً منكم، فإنه لابد لكم من عماد وسناد، ومن راية تحفون بها وترجعون إليها، فبعثوا إلى زيد بن حصن الطائى -وكان من رؤوسهم- فعرضوا عليه الإمارة فأبى، ثم عرضوها على حرقوص فأبى، وعرضوها على حمزة بن سنان

---

(١) سورة الزمر: ٦٥.

(٢) سورة النحل: ١٢٨.

فأبى، وعرضوها على شريح بن أبى أوفى العبسى فأبى، وعرضوها على عبد الله بن وهب الراسبى فقبلها وقال:

«أما والله لا أقبلها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فَرَقًا[1] من الموت».

واجتمعوا أيضًا فى بيت «زيد بن حصن الطائى» فخطبهم وحثهم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتلا عليهم آيات من القران منها قوله تعالى:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[2] الآية.

وقوله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾[3] وكذا التى بعدها ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ ثم قال:

فأشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهوى، ونبذوا حكم الكتاب، وجاروا فى القول والأعمال، وأن جهادهم حق على المؤمنين.

فبكى رجل منهم يقال له «عبد الله بن سخبرة السلمى» ثم حرّض أولئك على الخروج على الناس، وقال فى كلامه:

«اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم، فإن أنتم ظفرتم وأُطيع الله كما أردتم أثابكم ثواب المطيعين له العاملين بأمره، وإن قتلتم فأى شىء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته».

قال ابن كثير:

«قلتُ: وهذا الضرب من الناس من أغرب أشكال بنى آدم، فسبحان

---

(١) الفرق: الخوف.

(٢) سورة ص: ٢٦.

(٣) سورة المائدة: ٤٤.

من نوّع خلقه كما أراد، وسبق فى قدره العظيم. وما أحسن ما قال بعض السلف فى الخوارج إنهم المذكورون فى قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾(١).

والمقصود: أن هؤلاء الجهلة الضلال، والأشقياء فى الأقوال والأفعال، اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين، وتواطئوا على المسير إلى المدائن ليملكوها على الناس ويتحصنوا بها ويبعثوا إلى إخوانهم -ممّن هو على رأيهم ومذهبهم- فيوافوا إليها، واجتمع الجميع بالنهروان وصارت لهم شوكة ومنعة.

وبينما على -رضي الله عنه- عازم على غزو الشام(٢) إذ بلغه أن «الخوارج» قد عاثوا فى الأرض فسادًا وسفكوا الدماء وقطعوا السبل واستحلوا المحارم.. فأرسل علىّ إلى الخوارج رسولاً من جهته وهو «الحارث بن مرّة العبدى» فقال: أخبر لى خبرهم، واعلم لى أمرهم، واكتب إلىّ به على جليّة.

فلمّا قدم عليهم قتلوه ولم ينظروه، فلمّا بلغ ذلك عليًّا عزم على الذهاب إليهم أولاً قبل أهل الشام.

ووصل جيش علىّ -رضي الله عنه- إلى «المدائن» فاجتمع الناس هنالك عليه.

وبعث -رضي الله عنه- إلى الخوارج:

أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم لنقتلهم بهم ثم أنا تارككم وذاهب إلى العرب -يعنى أهل الشام- ثم لعل الله أن يقبل بقلوبكم ويردّكم إلى خير مما أنتم عليه.

فبعثوا إلى علىّ يقولون:

---

(١) سورة الكهف: ١٠٣-١٠٥.

(٢) بعد أن ردّ حكم الحكمين.

كلنا قتل إخوانكم ونحن مستحلون دماءكم وأموالكم!!.

فوعظهم أبو أيوب الأنصارى، وقيس بن سعد بن عبادة -رضي الله عنهم- فلم ينجى، وتقدم أمير المؤمنين علىّ إليهم فوعظهم وخوّفهم، وقال:

«إنكم أنكرتم علىّ أمراً أنتم دعوتمونى إليه وأبيتم إلا إياه فنهيتكم عنه فلم تقبلوا وها أنا وأنتم فارجعوا إلى ما خرجتم منه ولا ترتكبوا محارم الله فإنكم قد سوّلت لكم أنفسكم أمراً تقتلون عليه المسلمين، والله لو قتلتم عليه دجاجة لكان عظيمًا عند الله، فكيف بدماء المسلمين؟».

فلم يكن لهم جواب إلا أن تنادّوا فيما بينهم أن لا تخاطبوهم ولا تكلّموهم وتهيؤوا للقاء الرب عز وجل، الرواح الرواح إلى الجنة!!!.

وتقدموا فاصطفوا للقتال وتأهبوا للنزال... فأمر على بن أبى طالب أبا أيوب الأنصارى أن يرفع راية أمان للخوارج ويقول لهم:

من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، إنه لا حاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا، فانصرف منهم طوائف كثيرون -وكانوا فى أربعة آلاف- فلم يبق منهم إلا ألف أو أقل مع عبد الله ابن وهب الراسبى، فزحفوا إلى علىّ يقولون:

«لا حكم إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة!!».

فحمل عليهم جيش علىّ فأناموهم فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وقتل أمراؤهم عبد الله بن وهب، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سخبرة السلمى، -قبّحهم الله-.. ولم يقتل من أصحاب علىّ -رضي الله عنه- إلا سبعة نفر، وجعل علىّ يمشى بين قتلى الخوارج ويقول: «بؤسًا لكم! لقد ضركم من غرّكم».

فقالوا: يا أمير المؤمنين ومن غرّهم؟

قـال: الشـيطان وأنفس بالسّـوء أمّـارة، غـرّتهم بالأمـانى وزينت لهم المعاصى، ونبأتهم أنهم ظاهرون(١).

قال أبو مخنف: حدثنى عبد الملك بن أبى حرة أن عليًّا خرج فى طلب «ذى الثدية» ومعه «سليمان بن ثمامة الحنفى» أبو حرة، و«الريان بن صبرة بن هوذة» فوجده الريان فى حفرة على جانب النهـر فى أربعين أو خمسين قتيلاً، قال: فلما استخرج نظر إلى عضده فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدى المرأة له حلمة عليهـا شعـرات سـود، فإذا مـدت امتدت حـتى تحاذى يده الأخرى ثم تنزل فتعود إلى منكبه كثـدى المرأة، فلمّا رآه علىّ، قال: أما والله وما كذبت لولا أن تتكلوا على غـيـر العمل لأخـبرتكم بما قـضى الله فى قـتلهم عارفـًا للحق.

يقول نافع بن مسلمة الأخنس:

كان ذو الثدية رجلاً من عرنة من بنى بجيلة، وكان أسود شديد السواد، له ريح منتنة معروف فى العسكر، وكان يرافقنا قبل ذلك وينازلنا وننازله.

ويقول الريان بن صـبرة الحنفى: شهدنا النهروان مع عـلىّ، فلمّا وجد «المخدج» سجد سجدة طويلة شكراً لله(٢).

وعن علقمة بن عامر، قال:

سُئل على عن أهل النهروان أمشركون هم؟

قال: من الشرك فرّوا.

قيل: أفمنافقون؟

---

(١) قال -ﷺ-: «يخـرج قومٌ من أمتى فى آخر الزمـان أحداثُ الأسنّان، سـفهـاءُ الأحلام، يقولون من قَـوْل خير البريـة يقرؤون القرآن لا يُجاوز حناجـرهم، يَمْرُقون من الدِّين كـما يَمْرُق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهـم فإن فى قتلهم أجراً لمن قاتلهم عند الله يوم القيامة» متفق عليه.

(٢) كان علىّ -رضي الله عنه- قد سمع رسول الله -ﷺ- يصف هذا الرجل كما سيأتى قريبًا.

قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلاّ قليلاً.

فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين.

قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا(١).

هذا وقصة «المَخْدج» وردت فيها أحاديث صحيحة منها:

ما أخرجه أحمد عن طارق بن زياد، قال:

سار علىّ إلى النهروان -قال الوليد بن القاسم الهدانى فى روايته: وخرجنا(٢) معه قتل الخوارج فقال:

اطلبوا المخدج فإن رسول الله -ﷺ- قال:

«سيجىء قوم يتكلمون بكلمة الحق لا تجاوز حلوقهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية سيماهم، أو فيهم رجلٌ أسود مَخْدَج اليد فى يده شعرات سود، إن كان فيهم قتلتم شرّ الناس، وإن لم يكن فيهم فقد قتلتم خير الناس» قال الوليد، فى روايته:

فبكينا، قال: إنا وجدنا المخدج، فخررنا سجوداً وخرّ علىٌّ ساجداً معنا.

عائشة -رضي الله عنها- تبكي!:

عن مسروق، قالت عائشة:

عندك علم عن ذى الثدية الذى أصابه علىّ فى الحرورية؟.

قلتُ: لا.

قالت: فاكتب لى بشهادة من شهدهم.

---

(١) البداية (٥/ ٣٩٣).

(٢) هكذا فى «البداية» ولعلها: «وحضرنا».

فرجعتُ إلى الكوفة وبها يومئذ أسباع فكتبتُ شهادة عشرة من كل سبع ثم أتيتها بشهادتهم فقرأتُها عليها.

قالت: أكل هؤلاء عاينوه؟

قلتُ: لقد سألتهم فأخبرونى بأن كلهم قد عاينوه.

فقالت: لعن الله فلانًا فإنه كتب إلىَّ أنه أصابهم بليل مصر، ثم أرخت عينيها فبكت، فلمّا سكنت عبرتها[1]، قالت:

«رحم الله عليًّا لقد كان على حق، وما كان بينى وبينه إلا كما يكون بين المرأة وأحمائها»[2].

مؤامرة الخوارج وقتل على بن أبى طالب:

كان أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- قد انتقضت[3] عليه الأمور، واضطربت عليه الأحوال وخالفه جيشه، من أهل العراق وغيرهم، ونكلوا عن القيام معه، واستفحل أهل الشام، وصالوا وجالوا فى البلاد يمينًا وشمالاً، زاعمين أن الإمرة لمعاوية بمقتضى حكم الحكمين فى خلعهما عليًّا وتولية عمرو بن العاص معاوية عند خلو الإمرة عند أحد، وقد كان أهل الشام بعد التحكيم يسمون معاوية الأمير، وكلّما ازداد أهل الشام قوة ضعف جأش أهل العراق، هذاوأميرهم على بن أبى طالب خير أهل الأرض فى ذلك الزمان، أعبدهم وأزهدهم، وأعلمهم وأخشاهم لله عز وجل، ومع هذا كله خذلوه وتخلوا عنه حتى كره الحياة وتمنى الموت، وذلك لكثرة الفتن، وظهور المحن والظلم والفساد، فكان يكثر أن يقول:

«ما يحبس أشقاها، أى ما ينتظر؟ ما له لا يقتل؟».

---

(١) العَبْرة: الدمعة.

(٢) البداية (٥/ ٢١٠).

(٣) انتقضت: تنغصت.

ثم يقول: «والله لتخضبن هذه -ويشير إلى لحيته- من هذه -ويشير إلى هامته-»(١).

وروى أبو داود الطيالسى فى «مسنده» عن زيد بن وهب، قال:

جاءت الخوارج إلى علىّ فقالوا له:

اتق الله يا علىّ فإنك ميّت.

قال: لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، ولكن مقتول من ضربة على هذه تخضب هذه -وأشار بيده إلى لحيته- عهد معهود وقضى مقضى، وقد خاب من افترى.

إذن، كان على -رضي الله عنه- على يقين من أن نهايته ستكون بضربة من شقى كما سمع ذلك من رسول الله -ﷺ-، وهذا دليل على يقين الصحابة -رضوان الله عليهم- بما أخبر رسول الله.

قال ابن جرير وغير واحد من علماء التاريخ والسير:

أن ثلاثة من «الخوارج» وهم «عبد الرحمن بن ملجم» و«البرك بن عبد الله التميمى» و«عمرو بن بكر التميمى» اجتمعوا فتذاكروا قتل علىّ إخوانهم من أهل «النهروان» فترحّموا عليهم وقالوا:

ماذا نصنع بالبقاء بعدهم؟ كانوا من خير الناس وأكثرهم صلاة، وكانوا دعاة الناس إلى ربهم لا يخافون فى الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم فأرحنا منهم العباد والبلاد وأخذنا منهم ثأر إخواننا؟!.

فقال ابن الملجم: أمّا أنا فأكفيكم علىّ بن أبى طالب.

وقال البرك بن عبد الله: وأنا أكفيكم معاوية.

وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص.

---

(١) البداية (٥/ ٤٣٣).

فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه.

فأخذوا أسيافهم فسمّوها واتَّعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يبيت كل واحد منهم صاحبه في بلده الذي هو فيه.

فأما ابن ملجم فسار إلى «الكوفة» فدخلها وكتم أمره حتى عن أصحابه من الخوارج الذين هم بها، فبينما هو جالس في قوم من بني تيم الرباب يتذاكرون قتلاهم يوم «النهروان» إذ أقبلت امرأة منهم يقال لها: «قطام بنت الشجنة»، قد قتل عليٌّ يوم «النهروان» أباه وأخاها، وكانت فائقة الجمال مشهورة به، وكانت قد انقطعت في المسجد الجامع تتعبد فيه، فلمّا رآها ابنُ ملجم سلبت عقله ونسي حاجته التي جاء لها، وخطبها إلى نفسها فاشترطت عليه ثلاثة آلاف درهم وخادمًا وقينة، وأن يقتل لها علي بن أبي طالب!!. فأجابها إلى ما شرطت.. قال:

فهو لك ووالله ما جاء بي إلى هذه البلدة إلا قتل عليّ!

فتزوجها ودخل بها ثم شرعت تحرّضه على ذلك، وندبت له رجلاً من قومها، من تيم الرباب يقال له «وردان» ليكون معه ردءًا، واستمال عبد الرحمن بن ملجم رجلاً آخر يقال له «شبيب بن نجدة الأشجعي الحروري».

قال له ابن ملجم: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟!!.

قال: وما ذاك؟

قال: قتل عليّ.

فقال: ثكلتك أمّك، لقد جئت شيئًا إدًّا، كيف تقدر عليه؟

قال: أكمن له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأر إخواننا، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا.

قال: ويحك لو غير علىّ دعوتنى إليه كان أهون علىَّ؟ قد عرفت سابقته فى الإسلام وقرابته من رسول الله -ﷺ- فما أجدنى أنشرح صدراً لقتله.

فقال: أما تعلم أنه قتل «أهل النهروان»؟.

قال: بلى.

قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا.

فأجابه إلى ذلك بعد لأى[1] ودخل شهر رمضان فواعدهم ابن ملجم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت منه، وقال:

هذه الليلة التى وعد أصحابى أن يقتل كل واحد منا فيها صاحبه الذى ذهب إليه، ثم جاؤوا إلى «قطام» وهى امرأة ابن ملجم فدعت لهم بعصب الحرير فعصبتهم وكانت فى المسجد، فجاء هؤلاء الثلاثة وهم:

«ابن ملجم» و«وردان» و«شبيب» وهم مشتملون على سيوفهم فدخلوا المسجد الجامع فجلسوا مقابل السدّة التى يخرج منها علىّ، فلمّا خرج علىٌّ إلى صلاة «الغداة» من يوم الجمعة جعل ينهض الناس من النوم إلى الصلاة، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه، فسال دمه على لحيته -رضي الله عنه-!!، ولمّا ضربه ابن ملجم، قال:

«لا حكم إلا لله ليس لك يا علىٌّ ولا لأصحابك» وجعل يتلو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[2]!!.

ونادى علىٌّ -رضي الله عنه-: عليكم به، وهرب «وردان» فأدركه رجل من حضرموت فقتله، وذهب «شبيب» فنجا بنفسه وفات الناس، ومسك ابن ملجم، وقدم علىٌّ -رضي الله عنه- «جعدة بن هبيرة» فصلى بالناس صلاة الفجر،

(١) بعد لأى: بعد جهد.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٧.

وَحُمل عليٌّ إلى منزله، وحمل إليه عبد الرحمن بن ملجم فأوقف بين يديه وهو مكتوف -قبحه الله- فقال له: أى عدوّ الله ألم أحسن إليك؟

قال: بلى.

قال: فما حملك على هذا؟

قال: شحذته أربعين صباحًا وسألتُ الله أن يقتل به شرّ خلقه!!.

فقال له عليّ: لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شرِّ خلق الله، ثم قال: إن متُّ فاقتلوه وإن عشتُ فأنا أعلم كيف أصنع به.

فقال جندب بن عبد الله:

يا أمير المؤمنين إن متّ نبايع الحسن؟

فقال: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

ولما احتضر -رضي الله عنه- جعل يكثر من قول:

«لا إله إلا الله» لا ينطق بغيرها حتى قبض.

أما صاحب معاوية -وهو البرك- فإنه حمل عليه وهو خارج إلى صلاة الفجر فى هذا اليوم فضربه بالسيف، وقيل: بخنجر مسموم فجاءت الضربة فى وركه فجرحت أليته ومسك الخارجى فقُتل... وجاء الطبيب فقال لمعاوية: إن جرحك مسموم فإما أن أكويك وإما أن أسقيك شربة فيذهب السّم ولكن ينقطع نسلك، فاختار الثانية، فسقاه شربة فبرأ من ألمه وجراحه وانقطع نسله وسلم -رضي الله عنه-.

وأمّا صاحب عمرو بن العاص -وهو عمرو بن بكر- فإنه كمن له ليخرج إلى الصلاة فاتفق أن عرض لعمرو بن العاص مغصٌ شديد فى ذلك اليوم فلم يخرج إلا نائبه إلى الصلاة -وهو «خارجة بن أبى حبيبة» فحمل عليه الخارجى فقتله وهو يعتقده «عمرو بن العاص»!! فلمّا أُخذ الخارجىّ قال:

أردتُ عمراً وأراد الله خارجة، فأرسلها مثلاً، وقتل -قبّحه الله-.

والمقصود: أن عليًّا -رضي الله عنه- لـمّا مات صلى عليه ابنه الحسن فكبر عليه «تسع تكبيرات»(١) ودفن بدار الإمارة بالكوفة خوفًا عليه من الخوارج أن ينبشوا عن جثته، هذا هو المشهور.

القصاص العادل:

لما مات عليّ -رضي الله عنه- استدعى «الحسن» ابن ملجم، فقال له ابن ملجم: إنى أعرض عليك خصلة.

قال: وما هى؟

قال: إنى كنتُ عاهدتُ الله عند «الحطيم» أن أقتل عليًّا ومعاوية أو أموت دونهما، وإنى أعاهدك عهداً وثيقًا إن خليتنى ذهبت إلى «معاوية» على أنى إن لم أقتله أو قتلته وبقيت فلله عليّ أن أرجع إليك حتى أضع يدى فى يدك إن أردت تقتل وإن أردت تعفو.

فقال له الحسن: كلا والله حتى تعاين النار.

ثم قدّمه فقتله.

---

(١) ثبت هذا فى السنة الصحيحة، فعن عبد الله بن الزبير: «أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر يوم أُحد بحمزة فسجّى ببردة، ثم صلى عليه فكبر تسع تكبيرات...» حسن: أحكام الجنائز للألبانى (٨٢): رجاله كلهم ثقات أخرجه الطحاوى فى معانى الآثار (١/ ٢٩٠).

[٣٦] أبو جهــل
«الشَّقى الذى مات تحت حذاء ابن مسعود!!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[1].

فمن هو أبو جهل؟:

هو: العُتل الجـهول.. المعـاند الجاحد: أبو جـهل عمـرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن مُرَّة بن كعب بن لؤى -لعنه الله-.

كان رئيـسًا لبنى مخزوم.. ولـمّـا بعث الرسول -ﷺ-.. ونزل عليه الوحى المبـارك.. أظهـر أبو جهل تكذيبـه له.. ولما التفّ الضـعـفاء حـول الرسول -ﷺ- وآمنوا به.. صبّ عليهم أبو جهل من العذاب ألوانًا.. ووقع بعضهم شـهيدًا تحت وطأة التعذيب؛ وظل أبو جـهل على عناده وتكذيبه إلى أن أخذه الله أخذ القرى وهى ظالمة.

لماذا رفض الإسلام؟:

كان أئمة الشـرك -وعلى رأسهم أبو جـهل- يوقنـون برسـالة الرسـول -ﷺ-، وكان المانع من اتباعه هو الحقد عليه كما أخبر القرآن العظيم:

(١) سورة العلق: ٦ - ١٩.

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١).

فرد الله تعالى عليهم:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾(٢). فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

يقول السُّدِّى:

«التقى «الأخنس بن شريق» و«أبو جهل بن هشام». فقال الأخنس لأبى جهل:

يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق أم كاذب فإنه ليس هاهنا من يسمع كلامك غيرى.

فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب قطّ! ولكن إذا ذهب «بنو قُصىٍّ» باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟، فأنزل الله تعالى:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٣)(٤).

أعرفتَ أخى القارئ ما هو السّر فى عدم إيمان هؤلاء؟!

إنه الحقد الأعمى الذى أصمهم وأعمى أبصارهم.

صفحات سود من تاريخ أبى جهل:

إن سجل هذا الشقى حافل بالمآسى.. والعناد والتكذيب والأذى لله ولرسوله وللإسلام.. ومواقفه التى عاند فيها الإسلام، وآذى فيها النبىَّ -ﷺ- والذين آمنوا معه كثيرة منها:

(١) سورة الزخرف: ٣١.
(٢) سورة الزخرف: ٣٢.
(٣) سورة الأنعام: ٣٣.
(٤) أسباب النزول للنيسابورى (١٢٣).

١- تعذيب الضعفاء:

كان أبو جـهل إذا سمع برجل قد أسـلم له شرف ومنعة أنَّبـه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفـادحة فى المال، والجـاه، وإن كان ضعـيفًـا ضربه وأغرى به(١).

وكان عمار بن ياسر -رضي الله عنه- مولى لبنى مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمّه، فكان المشركون -وعلى رأسهم أبو جهـل- يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء، فيعذبونهم بحرّها.

ومرّ بهم النبىُّ -ﷺ- وهم يُعذّبون، فقال:

«صبراً آل ياسر! فإن موعدكم الجنة».

فمات «ياسـر» فى العذاب، وطعن أبو جهل «سمـية» -أم عمـار- فى قُبُلهـا بحربة فماتت، وهى أول شـهيدة فى الإسلام، وشـددوا العذاب على «عمّـار» بالحرّ تارة، وبوضع الصـخر أحـمر على صـدره أخرى، وبالتـفريق أخرى. وقالوا:

لا نتركك حـتى تسب محـمداً، أو تقـول: فى اللات والعزّى خـيراً، فوافقهم على ذلك مكرهًا، وجاء باكيًا معتذراً إلى النبىِّ -ﷺ- فأنزل الله:

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾(٢)(٣).

ولعنا ندرك عـمق المأساة فـى عين «عمـار بن ياسر» -رضي الله عنه- يرى أمّـه تُقتل. وهو لا يملك لها من الأمر شيئًا.. حتى الرسول -ﷺ- نفسه لا يملك لها شيئًا إلا الوصية بالصبر. والوعد بالجنة.

ولئن مات أبوه «ياسر» تحت وطأة العذاب.. فقد كان مصيرُ أمّه جارحًا كعربى وكمسلم.. لكن المبادئ العليـا تكلّف أربابها أن يعيشوا لها ويموتوا فى سبيلها.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٢٠).
(٢) سورة النحل: ١٠٦.
(٣) الرحيق المختوم (٧٩).

ولك أن تتصوّر عمق البلاء هنا:

إن إنسانًا يسمـع اليوم كلمةً تخدش حيـاءه. ليهب دفاعًا عن كـرامته. ومن ورائه رأى عام يسانده... فإن لم يكن، فالقانون ينتقم له.

أما «عمار» فإنه يرى بعينه يد الغدر تطعنها.. ويسمع بأذنيه أنينها.. ثم لا يملك لها شيئًا!!.

بل ولا يملك الرسول -ﷺ- إلا الدعاء.. إن البلاء حينئذ أكبر من أن يتحمله إنسان.. ولكن «عمارًا» يغالب المحنة.. ويخرج منها بعقيدته.. ولئن ودَّع أباه.. وودع أمَّه.. فإن فى بقاء عقيدته عزاء وسلوى[1].

٢- النيْل من الرسول الأعظم وشَتْمه!!:

لم يسلم النبىُّ -ﷺ- من لســان أبى جـهل.. فكان أبو جـهل يسبّـه ويؤذيه!! وفى إحـدى المـرات قـيّض الله لرسـوله -ﷺ- من يدافع عنه.. ويلقن أبا جهل درسًا لا ينساه!!.

عن يعقوب بن عتبة:

أن أبا جهل اعترض لرسول الله -ﷺ- بالصّفا فآذاه[2]، وكان حمزة ابن عبد المطلب -رضي الله عنه- صاحب قَنْصٍ وصيـد، وكان يومئذ فى قَنْصه، فلمّا رجع قالت له امرأته -وكانت قد رأت ما صنع أبو جهل برسول الله -ﷺ-.

يا أبا عمارة لو رأيت ما صنع -تعنى: أبا جهل- بابن أخيك!!.

فغضب حمـزة، ومضى كما هو قبل أن يدخل بيتـه، وهو معلق قوسه فى عنقه حتى دخل المسجد، فوجـد أبا جهل فى مجلس من مجالس قريش، فلم يكلمْه حتى عـلا رأسه بقوسه فشـجَّه، فقام رجالٌ من قـريش إلى حمزة

(١) تأملات فى السيرة (٧٦).

(٢) فى أسبـاب النزول للنيسابورى (١٢٧): «أن أبا جـهل رمى رسول الله -ﷺ- بفرث»!! والفرث: أمعاء الميتة!.

يسكونه عنه، فقال حمزة: دينى دين محـمد، أشهد أنه رسول الله، فوالله لا أنثنى عن ذلك فامنعونى من ذلك إن كنتم صادقين...»[١].

وفى أسباب النزول للنيسابورى (١٢٧):

«فأقـبل حتى عـلا أبا جهل بالقـوس، وهو -أى: أبو جهل- يتـضرّع إليه!!

ويقول:

يا أبا يعلى[٢] أما ترى ما جـاء به سفَّه عقولنا، وسـبّ آلهتنا، وخالف آباءنا؟!.

قال حـمزه[٣]: ومَنْ أسفـه منكم، تعـبدون الحجـارة من دون الله!!، أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

٣- السخرية من عذاب الله!!:

كان أبو جـهل ممَّن كـذَّب بالبعـث بعد الموت ومـا بعده من حـساب وعقاب، وجنة ونار!! فكان إذا سمع شيئًا من ذلك سخر منه!.

ولما أنزل الله تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُـهْلِ يَغْلِـي فِـي الْبُطُـونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[٤] سخر أبو جهل من وعيد الله واستخفّ به!!.

فعن ابن عباس أنه قال:

لـمّا ذكر الله تـعالى «الزقوم»[٥] الذى خَوَّف به هذا الحـىَّ من قريش، فقال أبو جهل:

---

(١) رواه الطبرانى مرسلاً، ورجاله ثقات. المجمع برقم (١٥٤٦١).

(٢) كنية حمزة -رضي الله عنه-، وكان يكنى «أبا عمارة» أيضًا.

(٣) لم يكن قد أسلم بعد.

(٤) سورة الدخان: ٤٣ - ٤٦.

(٥) قال المفسرون: إن شجرة الزقـوم أصلها فى «الباب السادس» -أى من أبواب جهنم- وأنها تحيا بلهب النار كمـا تحيا الشجرة ببرد الماء، لابد لأهل النار من أن يتحـدر إليها من كان فوقها فيأكلوا منها... وقـال أبو عمران الجونى: بلغنا أن ابن آدم لا ينهش منها نهشة إلا نهشت منه مثلها!!. (التذكرة: ٤٢٠).

هل تدرون ما هذا الزقوم الذى يخوفكم به محمد؟

قلوا: لا.

قال: الثريد بالزّبد!! أما والله لئن أمكننا منها لنتزقمنها تزقمًا!!.

فأنزل الله تعالى:

﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾[(١)(٢)].

ثم أنزل الله تعالى:

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾[(٣)].

قال الإمام القرطبى:

«فمعنى ﴿ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾ أى: ذى الإثم الفاجر، وهو أبو جهل. وذلك أنه قال: يعدنا محمد أن فى جهنم الزّقوم، وإنما هو الثريد بالزّبد والتمر، فبيّن الله خلاف ما قاله» ا.هـ.

وقال الأموى فى «مغازيه»:

عن عكرمة، قال:

لقى رسولُ الله -ﷺ- أبا جهل -لعنه الله-، فقال:

«**إن الله تعالى أمرنى أن أقول لك: أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى**».

قال: فنزع ثوبه من يده، وقال:

ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شىء!! ولقد علمتَ أنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم.

---

(١) سورة الإسراء: ٦٠.
(٢) أسباب النزول للنيسابورى (١٦٤).
(٣) سورة الدخان: ٤٣، ٤٤.

قال: فقتله الله تعالى يوم «بَدْر» وأذلَّه وعيَّره بكلمته، وأنزل:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(١)(٢).

أى: يقول له الله تعالى: ذق -من الزقوم- إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص؛ أى قال له:

إنك أنت الذليل المهان.

٤- جهاده المسلح ضد المسلمين!:

علم النبىُّ -ﷺ- أن قافلة للمشركين على رأسها أبو سفيان راجعة من الشام إلى مكة فقال لأصحابه: **«هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»**(٣).

فخرج المسلمون ومعهم رسول الله -ﷺ-.. فعلم أبو سفيان.. فأرسل إلى قريش.. فجمعت جموعها.. عازمَةً على تأديب المسلمين واستئصال شأفتهم!!.. وخرجوا من ديارهم، كما قال الله:

﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٤).

وأقبلوا كما قال رسول الله -ﷺ-:

«بحدهم وحديدهم، يحادون الله ويحادون رسوله».

وتحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال فى اتجاه بدر، وسلكوا فى طريقهم وادى «عسفان»، ثم «قديد»، ثم «الجحفة» وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبى سفيان يقول لهم فيها:

إنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله

---

(١) سورة الدخان: ٤٩.

(٢) أسباب النزول للسيوطى (٦٩٦).

(٣) أى: لتكون عوضًا عمّا تركتموه لهم بمكة من مال.. وعقار وغيره.

(٤) سورة الأنفال: ٤٧.

فارجـعوا. فلمّا تلقى جيش مكة «الـرسالة» همّ بالرجوع، ولكن قام طاغـية قريش «أبو جهل» فى كبرياء وغطرسة قائلاً:

«والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم بها ثلاثًا فننحر الجزور(١)، ونطعم الطعـام، ونسقى الخـمر، وتعـزف لنا القيـان، وتسمع بنا العـرب وبمسيـرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا!».

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل.. فواصل سيره حتى نزل قريبًا من «بدر».

وعبأ الرسول -ﷺ- جيشه.. وتحـرك الجيش الإسلامى تجاه «بدر» -أيضًا- وكان تعداده «ثلاثمائة» مقاتل.

وأشار بعض أئمة المشركين على أبى جهل بالعودة والرجوع.. فقال أبو جهل: «كلا، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد!!».

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة:

أن أبا جهل قال حين التقى القوم:

«اللهم، اقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرف، فأحنه(٢) الغداة» فكان هو المستفتح.

قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وتزاحف الفريقان.. والتقى الجمعـان.. وبدأت المعركة بمبارزة أسفرت عن قتل أربعة من صناديد الكفر وهم:

الأسود بن عبد الأسد المخزومى.

---

(١) الجزور: الإبل.
(٢) فأحنه: أى اجعل حينه غدًا.
(٣) سورة الأنفال: ١٩.

وعتبة بن ربيعة.

والوليد بن عتبة.

وشيبة بن ربيعة.

ثم بدأ الهجوم العام.. وسطر المسلمون آيات الفداء والتضحية.. وترغّت جثث المشركين على أرض المعركة.. ولاحت بشائر نصر الله.

وأظهر «أبو جهل» جلدًا وصمودًا.. فجعل يصيح فى جيشه:

«لا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال، ولا ألفين رجلاً منكم قتل منهم رجلاً، ولكن خذوهم أخذًا، حتى نعرفهم بسوء صنيعهم» ولكن سرعان ما تبدى له حقيقة هذه الغطرسة، فما لبث إلا قليلاً حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين.

نعم بقى حوله عصابة من المشركين، ضربت حوله سياجًا من السيوف وغابات من الرماح، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذا السياج وأقلعت هذه الغابات، وحينئذ ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدى غلامين أنصاريين!!.

مصرع الطاغية:

قال عبد الرحمن بن عوف:

إنى لفى الصف يوم «بدر» إذ التفتُ، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السِّن، فكأنى لم آمن بمكانهما، إذ قال لى أحدهما سِرًّا من صاحبه:

يا عم، أرنى أبا جهل!!

فقلتُ: يا ابن أخى، فما تصنعُ به؟

قال: أُخبرتُ أنه يسبّ رسول الله -ﷺ-، قال:

والذى نفسى بيده لئن رأيتهُ لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا.

فتعجبتُ لذلك.

قال: وغمـزنى الآخر، فقال لى مـثلها، فلم أنشب أن نظرتُ إلى أبى جهل يجول فى الناس، فقلت:

ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه.

قال: فابتدراه بسيفـيهما فـضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله -ﷺ-، فقال:

«أيكما قتله؟!».

فقال كل واحد منهما: أنا قتلته.

قال: **«هل مسحتما سيفيكما؟»**.

فقالا: لا.

فنظر رسول الله -ﷺ- إلى السيفين، فقال:

«كلاكما قتله».

وقضى رسول الله -ﷺ- بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان: «معاذ بن عمرو بن الجموح»(1) و«معوّذ بن عفراء»(2).

ولما انتهت المعركة قال رسول الله -ﷺ-:

«مَنْ ينظر ما صنع أبو جهل؟».

فتفرق الناس فى طلبه، فوجـده «عبد الله بن مسعود» -رضي الله عنه- وبه آخر

---

(1) راجع ترجمته فى كتابنا «صور ومواقف من حياة الصحابة» ط. المكتبة التوفيقية.

(2) صحيح البخارى (1/ 444)، وإنما خصّ بالسلب واحدًا منهـما لأن الثانى قُتل شهيدًا فى نفس المعركة.

رمق، فوضع رجله على عنقه، وأخـذ لحيته ليحتـز رأسه، وقال: هل أخزاك الله يا عدوّ الله؟.

قـال: وبما أخزاني؟ أعـمد من رجل قـتلتمـوه[١]؟ أو هل فوق رجل قتلتموه؟

ثم قال: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟

قال: لله ورسـوله، ثم قال لابن مسـعود -وكان قـد وضع رجله على عنقه-[٢]:

«لقد ارتقيت مـرتقى صعبًا يا رويعي الغنم» وكان ابن مسـعود من رعاة الغنم في مكة.

وبعد أن دار بينهـما هذا الكلام احتـزّ ابنُ مسعود رأسـه، وجاء به إلى رسول الله -ﷺ-، فقال:

يا رسول الله، هذا رأس عدوّ الله أبي جهل.

فقال: «آلله الذي لا إله إلا هو؟».

فرددها ثلاثًا، ثم قال:

«الله أكبـر، الحمـد لله الذي صدق وعده، ونصـر عبـده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرينه».

فانطلقنا فأريتُه إياه، فقال:

«هذا فرعون هذه الأمة»[٣].

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى أن يموت الطاغية تحت حذاء ابن مسعود!! ولا عدوان إلا على الظالمين.

---

(١) أي: ليس عليّ عار فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه.
(٢)، (٣) الرحيق المختوم (٢٠٠).

أسباب نزول الآيات

أخرج مسلم في «صحيحه» (١٧/ ١٣٩):

عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال:

قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم[1]؟

قال: فقيل: نعم.

فقال: واللات والعزَّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، ولأعفّرنّ وجهه في التراب!!.

قال: فأتى رسول الله -ﷺ- وهو يُصلِّي زعم ليطأ على رقبته.

قال: فما فجأهم منه إلاَّ وهو ينكص على عقبيه ويتّقي بيديه!!

قال: فقيل له: ما لك؟

فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهَوْلاً وأجنحة!!!.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«لو دنا لاختطفته الملائكةُ عضواً عضواً».

قال: فأنزل الله عز وجل لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ -يعني أبها جهل- ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[2].

---

(١) يقصد: هل يسجد بين أظهركم؟!.

(٢) سورة العلق: ٦ - ١٩.

دروس وعبر من أسباب النزول

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾(١).

إن الذى أعطاه فأغناه هو الله... ولكن الإنسان فى عمومه -لا يستثنى إلا من عصمه الله- لا يشكر حين يُعْطى... ثم هو يطغى ويفجر، ويبغى ويتكبر، من حيث كان ينبغى أن يعرف ثم يشكر.

وحين تبرز صورة الإنسان الطاغى الذى نسى نشأته وأبطره الغنى، يجىء التعقيب بالتهديد الملفوف:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾.

فأين يذهب هذا الذى طغى واستغنى؟

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾(٢).

والتشنيع والتعجيب واضح فى التعبير.

﴿أَرَأَيْتَ﴾؟ أرأيت هذا الأمر المستنكر؟ أرأيته يقع؟ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾.

أرأيت حين تضم شناعة إلى شناعة؟ وتضاف بشاعة إلى بشاعة؟

أرأيت إن كان هذا الذى يصلى ويتعرّض له من ينهاه عن صلاته.. إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى؟ ثم ينهاه من ينهاه. مع أنه على الهدى، آمر بالتقوى؟

---

(١) سور العلق: ٦-٨.

(٢) سورة العلق: ٩-١٤.

أرأيت إن أضاف إلى الفعلة المستنكرة فعلة أخرى أشد نكراً؟

﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾؟

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾؟! يرى تكذيبه وتولِّيه.

ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى، وهو على الهدى، آمر بالتقوى.

وأمام مشهد الطغيان الذى يقف فى وجه الدعوة وفى وجه الطاعة، يجىء التهديد الحاسم الرادع الأخير، مكشوفًا فى هذه المرة لا ملفوفًا:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[1].

هكذا ﴿لَنَسْفَعًا﴾ بهذا اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه. والسفع: الأخذ بعنف. والناصية: الجبهة. أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر.

مقدم الرأس المتشامخ: إنها ناصية تستحق السفع والصرع: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾! وإنها للحظة سفع وصرع. فقد يخطر له أن يدعو مَنْ يعتزّ بهم من أهله وصحبه:

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾. أما نحن فإننا ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ الشداد الغلاظ.. والمعركة إذن معروفة المصير!

وفى ضوء هذا المصير المتخيل الرعيب.. تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته.

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[2].

كلا! لا تطع هذا الطاغى الذى ينهى عن الصلاة والدعوة.

واسجد لربك واقترب منه بالطاعة والعبادة.. ودع هذا الطاغى. الناهى. دعه للزبانية![3].

---

(١) سور العلق: ١٥-١٨.

(٢) سورة العلق: ١٩.

(٣) الظلال.

والآيات وإن كانت قـد نزلت فى «أبى جهل» فهى عامـة.. تشمل كل طاغية ينهى عن عبادة الله تعالى. ويأمر بعبادة من سواه.

﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾.

وفى «القصـة» دليل على حفظ الله تعالى لنبـيِّه -ﷺ-.. ودليل على صدق نبوته.. حين حُفِظ من بطش أبى جهل.

[٣٧] أبرهـة الحبشى
«الشقى الذى أهلكه غروره»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾(١).

فمن هو أبرهة؟:

هو: أبرهة الأشرم الحبشى «صاحب الفيل.. الشقى الهالك الذى قاده غرورهُ.. وساقه كِبْرُه إلى هلاك الدنيا.. وعذاب الآخرة».

ما هى قصته؟:

كان «أبرهة» أحد جنود «أرياط» ملك اليمن من قِبَل «النجاشى» ملك الحبشة(٢).. فنازع «أبرهةُ» «أرياطَ» المُلْك.. ثم قتله وخلفه على «اليمن».. وعن قصة ذلك يقول ابن إسحاق:

«أقام أرياط بأرض اليمن سنين فى سلطانه ذلك، ثم نازعه أبرهة حتى تفرّقت الحبشة عليهما. فانحاز إلى كل منهما طائفة، ثم سار أحدهما إلى الآخر. فلما تقارب الناس أرسل أبرهةُ إلى أرياط أنك لن تصنع بأن تلقى

---

(١) سورة الفيل: ١ - ٥.

(٢) راجع قصة «النجاشى» فى كتابنا «رجال ونساء مبشّرون بالجنة أنزل الله فيهم قرآنًا» ط. المكتبة التوفيقية.

الحبشـة بعضهـا ببعض حتى تفنيهـا شيئًا فـشيئًا، فـابرز لى وأبرز لك، فأيّنا أصاب صاحبـه انصرف إليه جنده، فأرسل إليه «أرياط» أنصـفت، فخرج إليه «أبرهة» وكان رجلاً قصـيراً لحيمًا، وكان ذا دين فى «النصـرانية»، وخرج إليه «أرياط» وكان رجلاً جميلاً عظيمًا طويلاً، وفى يده حربة له. وخلف «أبرهة» غلام يقال له: «عتَوْدة»[١] يمنع ظهره.

فرفع «أرياط» الحـربة فضرب أبرهة يريد يافـوخه. فوقـعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته، فبذلك سُمّى «أبرهة الأشرم» وحمل «عتَوْدة» على أرياط من خلف أبرهـة فقتله، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة. فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وَوَدَى[٢] أبرهة أرياط.

فلمّا بلغ ذلك النجـاشى «ملك الحبشة» الذى بعثـهم إلى اليمن غضب غضبًا شديدًا على أبرهة، وقال:

عدا على أمـيرى فقتـله بغير أمرى ثم حـلف لا يدع «أبرهة» حتى يطأ بلاده ويجزّ ناصـيته، فـحلق «أبرهة» رأسه وملأ جـرابًا من تراب اليمن، ثم بعث به إلى النجاشى، ثم كتب إليه:

«أيها الملك إنما كان أرياط عـبدك، وأنا عبدك، فاخـتلفنا فى أمرك وكل طاعته لك، إلا أنى كنتُ أقـوى على أمر الحبشة، وأضـبط لها وأسوس منه. وقد حلقتُ رأسى كله حين بلغنى قَسَم الملك، وبعثت جرابًا من تراب أرضى ليضعه تحت قدمه، فيبرّ قسمه فىّ!!».

فلما انتـهى ذلك إلى النجاشى رضى عنه، وكـتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى فأقام أبرهة باليمن».

«ثم إن أبرهة بنى «القُلَّيس»[٣] بصنعاء، كنيـسة لم يُرَ مثلها فى زمـانها بشىء من الأرض، وكتب إلى النجاشى:

---

(١) عتودة: ومعناه: الشدة فى الحرب.

(٢) ودى: أى دفع الدية.

(٣) القلَّيس: سمّيت بذلك لارتفاع بنائها وعلوها، ومنه القلانس: لأنّها من أعلى الرؤوس.

«إنى قد بنيت لك كنيسة، لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولستُ بمنته حتى أصرف إليها حج العرب».

فذكر «السُّهَيلى»:

أن أبرهة استذل أهل اليمن فى بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخّرهم فيها أنواعًا من السخر. وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة!!.

وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخامًا وأحجارًا وأمتعة عظيمة، وركّب فيها صلبانًا من ذهب وفضة. وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس، وجعل ارتفاعها ارتفاعًا عظيمًا جدًّا، واتساعها باهرًا.

فلمّا هلك بعد ذلك أبرهة وتفرّقت الحبشة، كان من يتعرّض لأخذ شيء من بنائها وأمتعتها أصابته الجن بسوء!! وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين -كعيب وامرأته- وكان طول كل منهما ستون ذراعًا. فتركها أهل اليمن على حالها. فلم تزل كذلك إلى زمن السفّاح أول خلفاء بنى العباس، فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجرًا حجرًا، ودرست آثارها إلى يومنا هذا[1].

قال ابن إسحاق:

فلمّا تحدّثت العرب بكتاب «أبرهة» إلى «النجاشى» غضب رجل من النسأة من كنانة الذين كانوا ينسؤون شهر الحرام إلى الحلّ بمكة أيام الموسم.. فخرج الكنانى حتى أتى القُلَّيس فقعد إليه -أى أحدث[2]- حيث لا يراه أحد، ثم خرج فلحق بأرضه، فأخبر أبرهة بذلك. فقال: من صنع هذا؟

فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجّه العرب بمكّة لـمّا سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حجّ العرب إلى بيتك هذا، فغضب فجاء فقعد فيها، أى أنه ليس لذلك بأهل.

فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه.

---

(١) البداية والنهاية (٢/١٠١).

(٢) أحدث: تغوّط.

خروجه -لعنه الله- لهدم الكعبة:

أمر «أبرهة» الحبشة فتهيأت وتجهزت. ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت بذلك العربُ فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده حقًا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام.

فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له «ذو نَفْر». فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب «أبرهة» وجهاده عن بيت الله ويردوه من هدمه وإخرابه فأجابه من أجابه إلى ذلك. ثم عرض له فقاتله. فهُزم «ذو نَفْر» وأصحابه، وأُخذ له «ذو نفر» فأُتى به أسيراً. فلما أراد قتله قال له ذو نَفْر:

«يا أيها الملك لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من القتل».

فتركه من القتل وحبسه عنده فى وثاق[١]، وكان أبرهة رجلاً حليمًا. ثم مضى «أبرهة» على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض «خثعم»[٢] عرض له «نُفيل بن حبيب الخثعمى» فى قبيلتى خثعم وهما «شهران» و«ناهس» ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأُخذ له «نُفَيْل» أسيراً فأُتى به، فلمّا همّ بقتله قال له نفيل:

«أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب، وهاتان يداى لك على قبيلتى خثعم -شهران وناهس- بالسمع والطاعة».

فخلّى سبيله وخرج به معه يدلّه. حتى إذا مَرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف فى رجال ثقيف.

فقالوا له:

---

(١) الوثاق: القيد.

(٢) خثعم: اسم جبل سُمّى به بنو عفرس بن خلف بن أتمار لأنهم نزلوا عنده، وقيل: لأنهم تخثعموا (تلطخوا) بالدم عند حلف عقدوه بينهم.

«أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف. وليس بيتُنا هذا البيت الذى تريد -يعنون اللات[1]- إنما تريد البيت الذى بمكة، ونحن نبعث معك من يدلّك عليه»!! فتجاوز عنهم.

فبعثوا معه «أبا رغَال» يدلّه على الطريق إلى مكة!!.

فخرج «أبرهة» ومعه «أبو رغال» حتى أنزله «بالـمُغَمِّس»[2]. فلما أنزله به مات «أبو رغال» هنالك، فرجمت قَبْره العرب، فهو القبر الذى يَرْجُمُ الناس[3] بالمغمِّس.

فلما نزل «أبرهة» بالـمُغمِّس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له: «الأسود ابن مقصود»[4] على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم. وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم - جدّ الرسول -ﷺ- وهو يومئذ كبير قريش وسيّدها -فهمّت قريش وكنانة وهُذيل، ومَنْ كان بذلك الحرم من سائر الناس بقتاله. ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث «أبرهة» حُناطة الحِميَرى إلى مكة، وقال له:

«سل عن سيّد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول لك إنى لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب، فلا حاجة لى بدمائكم، فإن هو لم يُردْ حربى فأتنى به».

---

(١) قال ابن إسحاق: واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظّمونه نحو تعظيم الكعبة.

(٢) المغمّس: موضع بطريق الطائف.

(٣) فى قصة «ثمود» أن أبا رغال كان رجلاً منهم.. فلما انتقم منهم.. وكان أبو رغال يمنع بالحرم، فلما خرج منه أصابه حجر فقتله!!.. والجمع بين هذا وبين ما ذكره ابن إسحاق: أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جدّه الأعلى، ورجمه الناس، كما رجموا قبر الأول أيضًا والله أعلم. «البداية ٢/١٠٣».

(٤) كان النجاشى قد بعث «الأسود» مع الفيلة والجيش، وكانت عدة الفيلة ثلاثة عشر فيلاً، فهلكت كلها إلا فيل النجاشى، وكان يُسّمى محمودًا. سيرة ابن هشام (١/ ٥٠ - وما بعدها).

فلمّا دخل حُناطة مكّة، سأل عن قريش وشريفها، فقيل له:

«عبد المطلب بن هاشم».

فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة؛ فقال له عبد المطلب:

«والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أو كما قال- فإن يمنعه منه فهو حرمُه وبيتُه، وإن يُخَلِّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دَفْع عنه».

فقال له حُناطة: فانطلق معى إليه، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك.

فانطلق «عبد المطلب» ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر، فسأل عن ذى نَفْر وكان صديقًا له -حتى دخل عليه وهو فى محبسه، فقال له:

يا ذا نَفْر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟

فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدىْ مَلِك ينتظر أن يقتله غُدوًّا أو عَشيًّا؟ ما عندى غناء فى شىء مِمّا نزل بك إلاّ أن أنيسًا سائس الفيل صديق لى؛ فسأرسل إليه وأوصيه بك، وأعظم عليك حقك، وأساله أن يستأذن لك على الملك، فتكلّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك.

فقال: حسبى.

فبعث ذو نفر إلى أُنيس فقال له:

إن عبد المطلب سيّد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل، والوحوش فى رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتى بعير، فاستأذن له عليه وأنفعه عنده بما استطعت.

قال: أفعل.

فكلّم أُنيس «أبرهة» فقال له:

أيها الملك هذا سيّد قريش ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب عين مكّة

وهو الذى يطعم الناس بالسهل، والوحوش فى رؤوس الجبال، فائذن له عليك فليكلمك فى حاجته..

فأذن له أبرهة.

قال: وكان «عبد المطلب» أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم، فلمّا رآه «أبرهة» أجلّه وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جانب، ثم قال لترجمانه:

قل له ما حاجتك؟

فقال له ذلك الترجمان، فقال:

حاجتى أن يردّ علىّ الملك «مائتى بعير» أصابها لى!!.

فلمّا قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه:

«قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلّمتنى، أتكلّمنى فى مائتى بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لأهدمه، لا تكلّمنى فيه؟».

فقال له عبد المطلب:

«إنى أنا ربّ الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه».

فقال: ما كان ليمتنع منى.

قال: أنت وذاك.

فردّ على عبد المطلب إبله.

فلما انصرفوا عنه، انصرف «عبد المطلب» إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرّز فى رؤوس الجبال.

ثم قام «عبد المطلب» فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش

يدعـون الله ويستنصـرونه على أبرهة وجنده، وقال عـبد المطلب -وهـو آخذ بحلقة باب الكعبة-:

لا هُمَّ[١] إن العـبـد يمنعُ رَحْله فـامنعْ رِحَـالَكْ
لا يغلبنّ صليـبـهم وَمحَالُهم غَدْواً محَالَك[٢]
إن كنتَ تاركُـهُم وقِبْلتُنا فـأمـر مَـا بَدا لَكْ

قال ابن هشام: هذا ما صحّ له منها.

ثم أرسل «عـبد المطلب» حلقـة باب الكعبـة وانطلق هو ومن معـه من قريش إلى شغف الجبال يتحرّزون فـيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل. فلمّا أصبح أبرهة تهيّأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً.

فلمّا وجهـوا الفيل إلى مكّة أقبل «نُفَيل بن حبـيب» حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذُنه، فقال:

«أبرُكْ مـحمـود، أو ارجع راشداً من حـيث أتيت، فـإنك في بلد الله الحرام». وأرسل أذنه. فبرك الفيل!!.

قال السُّـهيْلى: أى سقط إلى الأرض، وليس من شأن الفـيلة أن تبرك، وقد قيل: إن منها ما يبرك كالبعير فالله أعلم.

وخرج «نفيل بن حبيب» يشتد حتى أصعد[٣] فى الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين[٤] ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن[٥] لهم فى مَراقه[٦] فبزغوه[٧] بها ليـقوم فأبى، فوّجهـوه راجعًا إلى اليمـن، فقام

---

(١) لا همّ: أى اللهم.
(٢) غدواً: غدا، ومحال: القوة والشدة.
(٣) أصعد: أى علا.
(٤) الطبرزين: آلة معقوفة من حديد.
(٥) المحاجن: ج محجن: عصا معوجّة وقد جعل فى طرفها حديد.
(٦) مراقه: أسفل بطنه.
(٧) بزغوه: أدموه.

يهرول!!. ووجهّـوه إلى الشام ففعل مـثل ذلك، ووجّهوه إلى المشـرق ففعل مثل ذلك. ووجّـهوه إلى مكّة فبرك وأرسل الله عليـهم طيراً من البحـر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يـحملها، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثـال الحمّص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلّهم أصـابت. . وخرجوا هاربين يبـتدرون الطريق التى منهـا جاؤوا. ويسألون عن «نُفيل بن حبيب» ليدلّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل فى ذلك:

ألا حُـيِّـيت عـنّا يا رُدَيْنَا[1] نَعِـمْناكُم مع الإصْـباح عَـيْنا

رُدَيْنـةُ لـو تـرين ولا تَـرَيْـه لَدَى جَنْب الـمُحصَّب[2] ما رَأَيْنا

إذًا لَعَذَرْتِنـي وحَـمِـدتِ أمْـرى ولم تأسَـىْ على مـا فـات بَـيْنا

حَـمِـدتُ الله إذ أبصـرتُ طـيراً وخِـفتُ حِـجـارةً تُلْقى عَلَـيْنا

وكلُّ القـوم يـسـأل عـن نفـيلٍ كـأنّ علـىَّ للحُـبْـشـانِ دَيْنا

قال ابن إسحاق:

فخرجـوا يتساقطون بكل طريق ويهلكـون بكل مَهْلك على كلّ مَنْهل. وأُصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به مـعهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة تمث[3] قيحًا ودمًا حتى قدموا به صنعاء وهو مثل الفرْخ الطائر. . فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

وروى ابن أبى حاتم عن عبيد بن عمير، قال:

لـمّـا أراد الله أن يهلك أصحـاب الفيل بعث عليـهم طيراً أنشـئت من البحر، أمثال الخطاطيف، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة، حجرين فى رجليه، وحجراً فى منقاره.

---

(١) ردينا: اسم امرأة.

(٢) المحصّب: موضع رمى الجمرات بمنى، وقيل: هو الشّعب الذى مخرجه إلى الأبطح، بين مكة ومنى.

(٣) تمث: ترشح وتتصبب.

قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم. ثم صاحت وألقت ما فى رجليها ومناقيرها. فما يقع حجر منها على رأس رجل إلاّ خرج من دبره ولا يقع على رأس شىء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر وبعث الله ريحًا شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدّة فأهلكوا جميعًا(١).

وقد تقدم أن ابن إسحاق قال:

وليس كلهم أصابته الحجارة، يعنى بل رجع منهم راجعون إلى اليمن حتى أخبروا أهلهم بما حلّ بقومهم من النكال، وذكروا أن أبرهة رجع وهو يتساقط أنملة أنملة، فلمّا وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات -لعنه الله-.

وروى ابن إسحاق عن عائشة -رضي الله عنها-، قالت:

لقد رأيتُ قائد الفيل وسائسه بمكّة أعميين مقعدين يستطعمان(٢).

قال السُّهيلى: وكانت قصّة الفيل فى المحرم سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذى القرنين.

ثم ذكر ابن إسحاق ما قالته العرب من الأشعار فى هذه الكائنة العظيمة التى نصر الله فيها بيته الحرام الذى يريد أن يشرّفه ويعظّمه ويطهرّه ويوقّره ببعثة محمد -ﷺ- وما يشرع له من الدين القويم الذى أحد أركانه الصلاة، بل عماد دينه، وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرّة، ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة، فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب حالاً من مشركى قريش، وإنما كان النصر للبيت الحرام وإرهاصًا وتوطئة لبعثة محمد -عليه الصلاة والسلام-.

قال أميّة بن أبى الصلت:

إن آياتِ ربِّنا ثاقباتٌ لا يُمَارِىْ(٣) فيهن إلا الكَفُورُ

---

(١)، (٢) البداية والنهاية (٢/ ١٠٧)، وفى سيرة ابن هشام «مقعدين يستطعمان الناس» وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٣/ ٢٨٥) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(٣) لا يمارى: أى لا يشك.

خلق الليلَ والنهارَ، فكُلٌّ مُستبِينٌ حسابُهُ مقدُورُ
ثم يجلُو النهار ربٌّ كريمٌ بمَهاة[(١)] شعاعُها منشورُ
حبسَ الفيل بالمُغمَّس[(٢)] حتى ظلَّ يَحْبُو كأنَّهُ مَعْقُورُ
لازمًا حلْقةَ الجران[(٣)] كما قُطِّر من صَخرِ كَبكَب مَحْدُورُ[(٤)]
حَوله من مُلوك كِنْدةَ أبطالٌ مَلاَويث[(٥)] فى الحُروب صقُورُ
خلَّفوه ثم ابذعرُّوا[(٦)] جميعًا كلُّهمُ عظمُ ساقه مكْسُورُ
كلُّ دين يوم القيامة عند الله إلا دينَ الحنيفَة بُورُ[(٧)]

وقال عبد الله بن قيس الرقيَّات، يذكر أبرهة والفيل:

كادَهُ الأشْرمُ الذى جاء بالفيل فولَّى وجيشُهُ مهزومُ
واستهلَّتْ عليهمُ الطيرُ بالجَنْدل حتى كأنَّه مَرْجُومُ
ذاك مَنْ يَغْزُه من الناس يَرْجعْ وهو فَلٌّ(٨) من الجيوش ذَميمُ

قال ابن إسحاق:

فلما هلك أبرهة، ملك الحبشة ابنهُ يسكوم بن أبرهة، وبه كان يكنى، فلمّا هلك يسكوم بن أبرهة، ملك اليمن فى الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة.

وبالقضاء على «أبرهة» طويت صفحةٌ من صفحات الظلم فى تاريخ البشرية.. لتبقى آثارها ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

(١) المهاة: الشمس، ومن أسمائها: الغزالة.
(٢) المغمَّس: هو موضع قرب مكة فى طريق الطائف مات فيه أبو رغال الذى تقدم ذكره.
(٣) الجران: باطن العنق. والقطر بالضم: الناحية والجانب. وكبكب: اسم جبل.
(٤) محدور: اسم مفعول من حدرة والحُدر من كل شيء تحدره من عُلو إلى سُفل.
(٥) ملاويث: اللوث بالفتح القوة والشدة.
(٦) ابذعرُّوا: أى تفرَّقوا.
(٧) بور: البوار الهلاك.
(٨) الفل: الجيش المنهزم.

دروس وعبر من قصة أبرهة

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

قال ابن كثير:

«هذه من النعم التى امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود فأبادهم الله وأرغم أنافهم، وخيّب سعيهم، وأضل عملهم، وردّهم بشر خيبة، وكانوا قومًا نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله -ﷺ- فإنه فى ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذى سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبى -ﷺ- خاتم الأنبياء»(١).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أى: ألم تُخبر. وقيل: ألم تعلم. وقال ابن عباس: ألم تسمع؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير. والخطاب للنبى -ﷺ-، ولكنه عام؛ أى: ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأصحاب الفيل؛ أى قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع مِنَّتى عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟

قال الإمام القرطبى:

«قال علماؤنا: كانت قصة الفيل فيما بعد من معجزات النبىّ -ﷺ-، وإن كانت قبله وقبل التحدّى؛ لأنها كانت توكيداً لأمره، وتمهيداً لشأنه. ولما تلا عليهم رسول الله -ﷺ- هذه السورة، كان بمكة عدد كثير مِمّن شهد تلك الوقعة؛ ولهذا قال:

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٧٤).

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ . ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس.

وقالت عائشة -رضي الله عنها- مع حداثة سنها:

«لقد رأيتُ قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس!».

وقال أبو صالح:

رأيتُ في بيت أمّ هانئ بنت أبي طالب[1] نحوًا من قفيزين من تلك الحجارة، سودًا مخططة بحمرة!![2].

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في إبطال وتضييع.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.

قال سعيد بن جبير: كانت طيرًا من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلها.

وقال عكرمة: كانت طيرًا خُضْرًا، خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع. ولم تُر قبل ذلك ولا بعده.

وقال عكرمة: «أبابيل» أي: مجتمعة. وقيل: بعضها في إثر بعض.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾.

في الصحاح: ﴿حِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قالوا:

حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً﴾[3].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

---

(١) البيت الذي أسرى منه رسول الله -ﷺ- ليلة الإسراء والمعراج.
(٢) تفسير القرطبي «٢٠/١٧٥».
(٣) سورة الذاريات: ٣٣، ٣٤.

أى جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدَّواب، فرمت به من أسفل. شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه.

ويقول صاحب الظلال -رحمه الله تعالى-:

«ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزَّقة. كما يحكى عنهم القرآن الكريم.. وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به «صنعاء» فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات.

وتختلف الروايات هنا فى تحديد نوع هذه الجماعات من الطير، وأشكالها، وأحجامها، وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها. كما أن بعضها يروى أن الجدرى والحصبة ظهرا فى هذا العام فى مكة.

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدرى والحصبة أقرب وأولى. وأن الطير قد تكون هى الذباب والبعوض التى تحمل الميكروبات، فالطير هو كل ما يطير.

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره للسورة فى جزء عم:

«وفى اليوم الثانى فشا فى جند الجيش داء الجدرى والحصبة.. قال عكرمة: وهو أول جدرى ظهر ببلاد العرب.

وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث:

إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام. وقد فعل الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله. فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين، وأصيب الجيش، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة، وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات فى صنعاء.

هذا ما اتفقت عليه الروايات، ويصح الاعتقاد به. وقد بيّنت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح.

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامه، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وأن كثيرًا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير -الذى يسمونه الآن بالميكروب- لا يخرج عنها. وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها.. ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين، على أن يكون الطير فى ضخامة رؤوس الجبال، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها... فلله جند من كل شيء».

وفى كل شىء له آية　　　تدل على أنه الواحد

«وليست فى الكون قوة إلا وهى خاضعة لقوته. فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت، أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة، فأهلكته وأهلكتْ قومه، قبل أن يدخل مكة. وهى نعمة غَمَرَ الله بها أهل حرمه -على وثنيّتهم- حفظًا لبيته، حتى يرسل من يحميه بقوة دينه -ﷺ-».

هذا ما يصح الاعتماد عليه فى تفسير السورة. وما عدا ذلك فهو ممّا لا يصح قبوله إلا بتأويل، إن صحّت روايته. ومما تعظم به القدرة أن يؤخَذ من استعزّ بالفيل -وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسمًا- ويهلك، بحيوان

صغـير لا يظهر للنظر، ولا يدرك بالبـصر، حيث ساقـه القدر. لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر!!».

ونحن لا نرى أن هذه الصـورة التى افتـرضها الأسـتاذ الإمـام -صورة الجدرى أو الحصـبة من طين ملوث بالجراثيم- أو تلك التى جـاءت بها بعض الروايات من أن الحـجارة ذاتها كـانت تخرق الرؤوس والأجـسام وتنفـذ منها وتمزق الأجساد فتدعها كـفتات ورق الشجر الجاف وهو «العصف».. لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدلّ على قدرة الله، ولا أولى بتفسير الحادث.. فهذه كتلك فى نظرنا مـن حيث إمكان الوقوع، ومن حـيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره، ويـستوى عندنا أن تكـون السنة المألوفة للناس، المعـهودة المكشـوفة لعلمهم، هى التى جـرت فأهلكت قومًـا أراد الله إهلاكهم. أو أن تكون سنة الله قد جرت بغيـر المألوف للبشر، وغير المعهود المكشوف لعلمـهم، فحققت قدره ذاك.

إن سنة الله ليست فـقط هى ما عهده البـشر وما عرفـوه.. وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفًـا يسيراً يكشفه الله لهم بمقدار مـا يطيقون، وبمقدار ما يتـهيأون له بتجـاربهم ومداركهم فى الزمـن الطويل، فهذه الخوارق -كـما يسـمونهـا- هى من سنة الله. ولكنها خـوارق بالقيـاس إلى مـا عهـدوه وما عرفوه!.

ومن ثم فنحن لا نقف أمـام الخارقـة مـترددين ولا مـؤولين لها -مـتى صحت الرواية- أو كان فـى النصوص وفى ملابسات الحادث مـا يوحى بأنها جرت خارقـة، ولم تجر على مألوف الناس ومعـهودهم. وفى الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأمـر على السنة المألوفة أقل وقعًـا ولا دِلالة من جريانه على السنة الخارقة للمألوف.

فالسنة المألوفة هى فـى حقيقتهـا خارقة بالقياس إلى قـدرة البشر.. إن طلوع الشمس وغـروبها خارقة -وهى معـهودة كل يوم- وإن ولادة كل طفل خارقة- وهى تقع كل لحظة، وإلا فليجرب من شاء أن يجرب!.

وإن تسليط طير -كائنًا ما كان- يحمل حجارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدرى والحصبة وإلقائها.. فى هذه الأرض، فى هذا الأوان، وإحداث هذا الوباء فى الجيش، فى اللحظة التى يهم فيها باقتحام البيت.. إن جريان قدر الله على هذا النحو خارقة بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير. وليست بأقل دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيرًا خاصًا يحمل حجارة خاصة تفعل بالأجسام فعلاً خاصًا فى اللحظة المقررة.. هذه من تلك.. هذه خارقة وتلك خارقة على السواء..

فأما فى هذا الحادث بالذات، فنحن نميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة، وأن الله أرسل طيرًا أبابيل غير معهودة، تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود فقد كان الله -سبحانه- يريد بهذا البيت أمرًا. كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنًا، وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة، فى أرض حرة طليقة، لا يهيمن عليها أحد من خارجها، ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة فى محضنها، ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار فى جميع الأجيال، حتى ليمتن بها على قريش بعد البعثة فى هذه السورة، ويضربها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها.

كذلك توحى دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدّر لأهل الكتاب -أبرهة وجنوده- أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة. حتى والشرك يدنسه، والمشركون هم سدنته، ليبقى هذا البيت عتيقًا من سلطان المتسلطين، مصونًا من كيد الكائدين. وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة، لا يهيمن عليها سلطان، ولا يطغى فيها طاغية، ولا يهيمن على هذا الدين الذى جاء ليهيمن على كل الشرائع وعلى العباد، ويقود البشرية ولا يقاد. وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبى هذا الدين قد ولد فى هذا العام!.

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية، ولاتنى أو تهدأ فى التمهيد الخفى اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة. فالله الذى حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون، سيحفظه -إن شاء الله-، ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين! . والله غالب على أمره.

[٣٨] كعب بن الأشرف
«الرأس الـمُدَبِّر لليهود!»

الآيات التى نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾(١).

فمن هو كعب بن الأشرف؟:

هو: أحد الأعـداء الألداء لله ولرسوله وللإسلام.. حـاك المؤامرات.. وتفنن فى القضاء على دين الإسلام.. وهجا الرسول -ﷺ- بشعره وأذاه.. وتشبّب بنساء المسلمين.. وبسط لسانه بالسوء.. فأخذه الله تعالى أخذ القرى وهى ظالمة.

مواقفه العدائية ضد الإسلام:

تعددت مواقـف هذا المشئوم ضد الإسـلام -وقد تقدم بعضـها- ونذكر على هذه السطور بعضها:

الموقف الأول: محاولة تضليل المسلمين:

استخـدم «كعب بن الأشرف» كل الحـيل.. وتفنن فى كل الوسائل.. واتبع كل الطرق من أجل تضليل المسلمين.. ومـحاولة تقويض عقـيدتهم.. وإزالتهم عن دينهم!! فأنزل الله تعالى فيه وفى غيره ممّن ساعدوه وعاونوه:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ

---

(١) سورة الكوثر: ٣.

أنفُسهم مِّنْ بَعْد مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

قال الزهرى فى قوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، قال: هو «كعب بن الأشرف»(٢).

وقال ابن عباس:

نزلت فى نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة أُحد:

ألم تروا إلى ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم!.

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه:

أن كعب بن الأشرف اليهودى كان شاعراً، وكان يهجو النبى -ﷺ-، وفيه أنزل الله:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾(٣).

وكان «كعب» -قبحه الله-.. يدعو الناس إلى اليهودية.. ويتهم دين الإسلام بالضلال!!!.

فأنزل الله تعالى فيه وفى أشياعه وأعوانه:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-:

---

(١) سورة البقرة: ١٠٩.
(٢) تفسير ابن كثير (٢٢٨/١).
(٣) تفسير ابن كثير (٢٢٩/١)، أسباب النزول للنيسابورى (٢٣).
(٤) سورة البقرة: ١٣٥.

«نزلت فى رؤوس يهود المدينة «كعب بن الأشرف» و«مالك بن الصيف» و«أبى ياسر بن أخطب» وفى نصارى أهل نجران وذلك أنهم خاصموا المسلمين فى الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها، فقالت اليهود: نبيّنا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان!، وكفرت بعيسى والإنجيل ومحمد والقرآن!.

وقالت النصارى: نبيّنا عيسى أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد -ﷺ- والقرآن!.

وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين:

كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك ودعوهم إلى دينهم(١).

الموقف الثاني: تكوين جبهات معادية للإسلام:

قال محمد بن إسحاق:

لما أصاب رسول الله -ﷺ- قريشًا ببدر فقدم المدينة جمع اليهود، وقال:

«يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر، وأسْلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أنى نبىّ مرسل تجدون ذلكَ فى كتابكم وعهد الله إليكم».

فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة، أما والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس!!.

فأنزل الله تعالى:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾(٢).

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى (٢٥، ٢٦).

(٢) سورة آل عمران: ١٢، ١٣.

قالوا هذا للرسول -ﷺ- وهم يضمرون تصديقه، وتصديق ما جاء به!!.

قال ابن عباس -رضي الله عنه-:

أن يهود أهل المدينة قالوا لـمَّا هزم الله المشركين يوم «بدر»:

«هذا والله النبى الأمى الذى بشّرنا به موسى ونجده فى كتابنا بنعته وصفته وأنه لا تُرَدّ له راية! فأرادوا تصديقه واتباعه، ثم قال بعضهم لبعض:

لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة له أخرى، فلمّا كان يوم «أُحد» ونكب أصحاب رسول الله -ﷺ- شكّوا وقالوا:

«لا والله ما هو به».

وغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا وكان بينهم وبين رسول الله -ﷺ- عهد إلى مُدَّة فنقضوا ذلك العهد، وانطلق «كعب بن الأشرف» فى ستين راكبًا إلى أهل مكة أبى سفيان وأصحابه فوافقوهم وأجمعوا أمرهم وقالوا:

«لتكونن كلمتنا واحدة».

ثم رجعوا إلى المدينة، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾(١)(٢).

الموقف الثالث: هجاؤه للرسول -ﷺ-:

كان «كعب بن الأشرف» شاعرًا.. فكان يهجو رسول الله بشعره ويؤذيه به.. ويُحرّض الكفار عليه!!.

فعن الزهرى، قال:

---

(١) سورة آل عمران: ١٢، ١٣.

(٢) أسباب النزول للنيسابورى (٥٥، ٥٦).

أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم:

أن كعب بن الأشرف اليهودى كان شاعراً وكان يهجو النبىّ -ﷺ- ويحرّض عليه كفار قريش فى شعره، وكان النبىّ -ﷺ- قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون ومنهم المشركون ومنهم اليهود فأراد النبىّ -ﷺ- أن يستصلحهم فكان المشركون واليهود يؤذونه ويؤذون أصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى نبيّه -ﷺ- بالصبر على ذلك وفيهم أنزل الله تعالى:

﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[(١)][(٢)].

وذكر «البخارى» عند تفسير هذه الآية عن الزهرى، قال:

أخبرنى «عروة بن الزبير» أن أسامة بن زيد، حدّثه أن رسول الله -ﷺ- ركب على حمار عليه قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود «سعد بن عبادة» ببنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة «بدر»، حتى مرّ على مجلس فيه «عبد الله بن أُبىّ بن سلول» وذلك قبل أن يسلم ابن أُبىّ؛ وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود، وفى المجلس عبد الله بن رواحة، فلمّا غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمّر عبد الله بن أُبى أنفه بردائه، وقال:

لا تغبّروا علينا!!.

فسلم رسول الله -ﷺ- ثم وقف، فنزل، ودعاهم إلى الله عز وجل، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أُبىّ:

«أيها المرء، إنه لا أحسن مِمّا تقول إن كان حقًّا فلا تؤذنا به فى مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه».

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٦.

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٢٨٤) عن الزهرى: هو كعب بن الأشرف نزلت بسببه.

فقال عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-: بلى يا رسول الله، فاغشنا به فى مجالسنا، فإنا نحب ذلك».

فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبىّ -ﷺ- يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبىُّ -ﷺ- دابته فسار حتى دخل على «سعد بن عبادة»، فقال له النبى -ﷺ-:

«**يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب**» يريد عبد الله بن أُبى، قال كذا وكذا؛ فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلمّا أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله، شرق بذلك، فذلك الذى فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله -ﷺ-، وكان رسول الله -ﷺ-، وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى. قال الله تعالى:

﴿ ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ﴾.

اغتياله -لعنه الله-:

الظاهر أن طوائف اليهود التى عاشت بين العرب كانت عصابات من المرتزقة اتخذت الدين عنوانًا لمطامع اقتصادية بعيدة. فلما تُوُهِّم أن هذه المطامع مهددة بالزوال، ظهر الكفر المخبوء فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين.

ولم يعرف أولئك شرفًا فى حرب الإسلام. ولم يقفهم حدٌّ أو عهد فى الكيد له فلم يكن بُدّ من إجلائهم، وتنظيف الأرض منهم وقد تعقب المسلمون كل غادر بعهده، مجاهر بحرب الله ورسوله، مؤيد لقريش ورأيها، مظهر للعطف والأسف على ما أصابها يوم بَدْر.

تعقب المسلمون هؤلاء الطغام من زعماء يهود بالقتل.

ومن أولئك الذين نفذ فيهم العقاب العادل «كعب بن الأشرف».

فإن كعبًا هذا -كما تقدم- سافر إلى مكة -من المدينة- يواسى مشركيها المهزومين فى بدر. ويحرِّضهم على إدراك ثأرهم من محمد -ﷺ- وصحابته!.

وهو الذى سأله أبو سفيان:

أناشدك الله.. أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى إلى ربك وأقرب إلى الحق؟

قال له كعب: أنتم أهدى منهم سبيلاً!!.

وعاد كعب إلى المدينة سافر العداوة، بعيد الجراءة، حتى صاغ قصائد الغزل فى بعض النساء المسلمات. وليس بعد ذلك صبر، فأهدر المسلمون دمه.

وبعث إليه النبىّ -ﷺ- من استنزله من حصنه ليلقى جزاءه الحق وتفيد الراويات فى قتل «كعب بن الأشرف» أن رسول الله -ﷺ- قال: «مَن لكعب ابن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله».

فقام محمد بن مسلمة -رضي الله عنه-، فقال:

أنا يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟

قال: «نعم».

قال: فأذن لى أن أقول شيئًا..

قال: «قل».

فأتاه محمد بن مسلمة، فقال:

إن هذا الرجل قد سألنا صدَقه، وإنه قد عنانا.

قال كعب: والله لتملنه.

قال محمد بن مسلمة: فإنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقًا أو وسقين.

قال كعب: نعم أرهنونى.

قال ابن مسلمة: أى شيء تريد؟

قال: ارهنونى نساءكم.

قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فترهنونى أبناءكم.

قال: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم، فيقال:

رهن بوسق أو وسقين. هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة[1].

فواعده أن يأتيه.

وصنع أبو نائلة[2] مثل ما صنع محمد بن مسلمة، فقد جاء كعبًا فتناشد معه الأشعار سويعة، ثم قال له:

ويحك يا ابن الأشرف، إنى قد جئتك أريد ذكرها لك فاكتم عنى.

قال كعب: أفعل.

قال أبو نائلة: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا.

ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة، وقال أبو نائلة أثناء حديثه:

---

(١) اللأمة: السلاح.

(٢) كان الرسول -ﷺ- قد انتدب لقتل «كعب» خمسة نفر هم: عباد بن بشر، وأبو نائلة واسمه «سلكان بن سلامة» وهو أخو كعب من الرضاعة، والحارث بن أوس، وأبو عبس ابن حبر، ومحمد بن مسلمة وكان أميرهم.

إن معى أصحابًا لى على مثل رأيى، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك.

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة فى هذا الحوار إلى ما قصدا، فإن كعبًا لن ينكر معهما السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار.

وفى ليلة مقمرة -ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣هـ- اجتمعت هذه المفرزة إلى رسول الله -ﷺ-، فشيعهم إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم قائلاً:

«انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم».

ثم رجع إلى بيته، وطفق يُصلِّى ويناجى ربَّه.

وانتهت المفرزة إلى حصن «كعب بن الأشرف» فهتف به أبو نائلة، فقام لينزل إليهم، فقالت له امرأته -وكان حديث العهد بها-:

أين تخرج هذه الساعة؟ أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم.

قال كعب: إنما هو أخى «محمد بن مسلمة!»، ورضيعى «أبو نائلة»، إن الكريم لو دعى إلى طعنة أجاب، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفح رأسه.

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه:

إذا ما جاء فإنى آخذ بشعره فأشمه، فإذا رأيتمونى استمكنت منه من رأسه فدونكم فاضربوه.

فلمّا نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة، ثم قال أبو نائلة:

هل لك يا ابن الأشرف أن تتماشى إلى شِعْب العجوز فنتحدث بقية ليلتنا؟

قال: إن شئتم.

فخرجوا يتماشون، فقال أبو نائلة وهو فى الطريق:

ما رأيتُ كالليلة طيبًا أعطر قط!.

وزهى «كعب» بما سمع، فقال:

عندى أعطر نساء العرب.

قال أبو نائلة: أتأذن لى أن أشم رأسك؟

قال: نعم.

فأدخل يده فى رأسه فشمه وأشم أصحابه.

ثم مشى ساعة ثم قال:

«أعود؟».

قال كعب: نعم.

فعاد لمثلها، حتى اطمأن.

ثم مشى ساعة ثم قال:

«أعود؟».

قال: نعم.

فأدخل يده فى رأسه، فلما استمكن منه، قال:

دونكم عدو الله، فاختلفت عليه أسيافهم، لكنها لم تغن شيئًا!!، فأخذ محمد بن مسلمة معولاً فوضعه فى ثنته، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته، فوقع عدو الله قتيلاً، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران. ورجعت المفرزة وقد أصيب «الحارث بن أوس» بذباب بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم، فلما بلغت المفرزة حرة العريض، رأت أن الحارث ليس معهم فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم، فاحتملوه، حتى بلغوا بقيع الغرقد كبّروا، وسمع رسول الله -ﷺ- تكبيرهم، فعرف أنهم قد قتلوه، فكبّر، فلمّا انتهوا إليه، قال: «**أفلحت الوجوه**».

قالوا: ووجهك يا رسول الله.

ورموا برأس الطاغية بين يديه، فحمد الله على قتله، وتفل على جرح الحارث فبرأ[(١)]، ولم يؤذ بعده[(٢)].

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها «كعب بن الأشرف» دب الرعب فى قلوبهم، وعلموا أن رسول الله -ﷺ- لن يتوانى فى استخدام القوة حين يرى أن النصح لا يجدى نفعًا لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق، فلم يحركوا ساكنًا لقتل طاغيتهم، بل لزموا الهدوء، وتظاهروا بإيفاء العهود، واستكانوا، وأسرعت الأفاعى إلى جحورها تختبئ فيها[(٣)].

وبهذا سقطت إحدى رؤوس الكفر المدبرة للمؤامرات، المشعلة للفتن، ولا عدوان إلا على الظالمين.

أسباب النزول

● عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

لما قدم «كعب بن الأشرف» مكة فقالت له قريش:

أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية.

فقال: أنتم خير منه!!

قال: فنزلت:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[(٤)(٥)].

---

(١) فبرأ: أى شفى.

(٢) راجع سيرة ابن هشام (٢/ ٥١-٥٧)، وصحيح البخارى (١/ ٣٤١) وسنن أبى داود مع عون المعبود (٢/ ٤٢، ٤٣)، وزاد المعاد.

(٣) الرحيق المختوم (٢٢٠ - ٢٢٢).

(٤) سورة الكوثر: ٣.

(٥) قال الحافظ ابن كثير: هكذا رواه البزار وهو إسناد صحيح. تفسير ابن كثير (٤/ ٨٩١).

قال الشيخ مقبل الوادعى:

«الحديث أخرجه ابن جرير (٣/ ٣٣٠) من طريق شيخه محمد بن بشار ثنا ابن أبى عدى به. وزاد فيه: وأنزلت عليه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ إلى قوله:

﴿ نَصِيراً ﴾[١].

وقد تقدم فى سورة النساء ذكر بعض مخرجيه.

ثم ترجّح لى أن الصحيح إرساله كما أوضحته فى تخريج «تفسير ابن كثير» فى سورة النساء[٢].

دروس وعبر من أسباب النزول

هذه السورة «سورة الكوثر» هى سورة خالصة لرسول الله -ﷺ- كسورة «الضحى»، وسورة «الشرح» يُسرّى عنه ربّهُ فيهما، ويعده بالخير، ويوعد أعداءه بالبتر، ويوجهه إلى طريق الشكر.

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾.

ومن ثم فهى تمثل صورة من حياة الدعوة، وحياة الداعية فى أول العهد بمكة. صورة من الكيد والأذى للنبى -ﷺ-، ودعوة الله التى يبشر بها، وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه.

كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان. وحقيقة الضلال والشر

---

(١) سورة النساء: ٥١، ٥٢.

(٢) الصحيح المسند من أسباب النزول (٢٣٧).

والكفران.. الأولى كثرة وفيض وامتداد. والثانية قلة وانحسار وانبتار. وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك..

ورد أن سفهاء قريش ممّن كانوا يتابعون الرسول -ﷺ- ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء.. كانوا يقولون عن النبى -ﷺ- أنه «أبتر». يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده.

وقال أحدهم:

دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهى أمره!.

وكان هذا اللون من الكيد اللئيم يجد له فى البيئة العربية صدى ووقعًا.

ولعلها أوجعت قلب النبىّ -ﷺ-.

ومن ثمّ نزلت هذه السورة تمسح على قلبه -ﷺ- بالرّوح والندى وتقرر حقيقة الخير الباقى الممتد الذى اختاره له ربه؛ وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه.

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر. فهو ممتد الفروع عميق الجذور. وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر مهما ترعرع وزها وتجبّر.

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر.

ولكن البشر ينخدعون ويغترّون فيحسبون مقاييسهم هى التى تقرر حقائق الأمور!.

وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد.. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد -ﷺ-. قولتهم اللئيمة، وينالون بها من قلوب الجماهير، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق؟.

أين هم؟

وأين ذكراهم، وأين آثارهم؟ إلى جوار الكوثر من كل شىء، ذلك الذى أوتيه من كانوا يقولون عنه: الأبتر؟!.

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر، وكيف وهى موصولة بالله الحى الباقى الأزلى الخالد؟.

إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله، مهما بدا فى لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور.

وصدق الله العظيم.. وكذب الكائدون الماكرون..

قال ابن كثير:

«إن الأبتر الذى إذا مات انقطع ذِكْرُه، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلا بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد».

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

[٣٩] أبـو لهــب
«خاسر الدنيا والآخرة»

الآيات التي نزلت فيه:

قال تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[١].

فمن هو أبو لهب؟:

هو: أحد أعمام النبيّ -ﷺ- ، واسمه: «عبد العزّى بن عبد المطلب»، وكنيته أبو عتبة.

وسمى أبو لهب؛ لإشراق وجهه، ولتلهب وجنتيه، وكأن كنيته من جنس عمله ومآله إلى ذات اللهب، فوافقت حاله كنيته فحسن ذكره بها.

وامرأته «أم جميل» واسمها: أروى بنت حرب بن أمية، وهى أخت أبى سفيان[٢].

وكان «أبو لهب» أحد الأعداء الألداء لرسول الله -ﷺ- ولدعوته بدأ حقده على الإسلام مع بداية ظهوره.. فأظهر عداوته السافرة.. وحاول بكل ما يستطيع الصدّ عن سبيل الله.. وتكذيب ابن أخيه!!!.

فحق عليه الوعيد ﴿وما ربّك بظلام للعبيد﴾.

---

(١) سورة المسد: ١-٥.

(٢) ستأتى ترجمتها مستقلة -إن شاء الله-.

وجعله الله سلفًا ومثلاً للآخرين: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾.

مواقفه العدائية للدعوة الإسلامية:

لقد بدأ «أبـو لهب» بهجوم شـامل على دعوة الإسـلام.. منذ أن بزغ فجرُها فى مكة!!.

فلقـد روى الإمام أحـمد، عن ربيـعة بن عـبّاد من بنى الديل -وكـان جاهليًا فأسلم- قال:

رأيتُ النبىّ -ﷺ- فى الجاهلية، فى سوق ذى المجاز، وهو يقول:

«يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».

والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين، يقول:

«إنه صابئ كاذب!! يتبعه حيث ذهب، فـسألتُ عنه، فقالوا: هذا عمّه أبو لهب!».

وروى محمد بن إسحاق عن ربيعة بن عبّاد الديلى -أيضًا- قال:

إنى لمع أبى غـلام شاب، أنظر إلى رسـول الله -ﷺ- يتـبع القبـائل، ووراءه رجل أحول وضـىء ذو جمّة، يقـف رسول الله -ﷺ- على القـبيلة فيقول:

«يا بنى فلان، إنـى رسول الله إليكم، آمركم أن تعـبدوا الله لا تشـركوا به شيئًا وأن تصدّقونى وتمنعونى، حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به».

وإذا فرغ من مقالته قال الآخر، من خلفه:

يا بنى فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزّى، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن قيس، إلى ما جاء به من البـدعة والضلة، فلا تسمعوا له وتتبعوه!!.

فقلت لأبى: من هذا؟

قال: عمّه أبو لهب[١].

وروى البخارى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبىّ -ﷺ- خرج إلى البطحاء فصعد الجبل، فنادى:

«يا صباحاه».

فاجتمعت إليه قريش، فقال:

«أرأيتم إن حدثتكم أن العدوّ مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى؟».

قالوا: نعم.

قال: «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد».

فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبًّا لك[٢]!!. فأنزل الله:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾.

وفى رواية:

«فقام -أى أبو لهب- ينفض يديه وهو يقول:

تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾».

اشتراكه فى الحصار الظالم:

لما أسلم «حمزة بن عبد المطلب» -رضي الله عنه-، ثم أسلم «عمر بن الخطاب» -رضي الله عنه-، حاول المشركون مساومة الرسول -ﷺ- على دعوته.. فى محاولة للنيل منها.. وتثبيطه عنها.. فرفض مساومتهم.. وثبته الله تعالى من الركون إليهم.. فلمّا يأسوا.. لجأوا إلى سياسة التجويع والحصار

(١) رواه أحمد والطبرانى (تفسير ابن كثير ٤/ ٩٠١).
(٢) يدعو على ابن أخيه بالهلاك والخسران!!.

الاقتصادى.. فى محاولة للضغط عليه وعلى أصحابه.. وهى نفس خطة أعداء اليوم فى إذلال أى شعب لا يسير فى ركابهم.. ولا يرضخ لأوامرهم.. وهكذا الباطل عملة واحدة وإن تعددت الوجوه!!.

قال الشيخ محمد الغزالى -رحمه الله تعالى-:

«تمخض حقد المشركين عن عقد معاهدة تعتبر المسلمين ومن يرضى بدينهم أو يعطف عليهم، أو يحمى أحدًا منهم حزبًا واحدًا دون سائر الناس، ثم اتفقوا ألا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئًا وألا يزوّجوهم أو يتزوّجوا منهم، وكتبوا ذلك فى صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة[1]، توكيدًا لنصوصها.

ولا شك أن المتطرفين من ذوى النزق والحدّة نجحوا فى فرض رأيهم وإشباع ضغنهم. فاضطر الرسول ومن معه إلى الاحتباس فى شِعْب بنى هاشم، وانحاز إليهم بنو المطلب كافرهم ومؤمنهم على سواء ما عدا أبا لهب فقد آزر قريشًا فى خصومتها لقومه!.

وضُيِّق الحصار على المسلمين، وانقطع عنهم العون، وقلّ الغذاء حتى بلغ بهم الجهد أقصاه، وسُمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب، وعضتهم الأزمات العصبية حتى رثى لحالهم الخصوم.

ومع اكفهرار الجوّ فى وجوههم فقد تحمَّلوا فى ذات الله الويلات. ولم تفتر حدّة الوثنيين فى الحملة على الإسلام ورجاله، وفى تأليب العرب عليهم من كُلِّ فج.

قال السهيلى:

كانت الصحابة إذا قدمت عيرٌ إلى مكة، يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئًا من الطعام قوتًا لعياله فيقوم «أبو لهب» فيقول:

---

(١) قال ابن القيم فى «زاد المعاد» (٢/٤٦): «يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: النضر بن الحارث، والصحيح أنه «بغيض بن عامر بن هاشم»، فدعا عليه رسول الله -ﷺ- فشلت يده!».

يا معشر التجّار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئًا. وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى فأنا ضامن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم فى السّلعة قيمتها أضعافًا حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع. وليس فى يده شىء يطعمهم به.

ويغدوا التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعًا وعريًا.

وروى يونس عن «سعد بن أبى وقاص» -رضي الله عنه-، قال:

خرجتُ ذات ليلة لأبول فسمعتُ قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها ورضضتها بالماء، فقويتُ بها ثلاثًا.

فانظر كيف انتهى الحصار بالمسلمين. وكيف أضناهم الحرمان وألجأهم أن يطعموا ما لا مساغ له؟؟.

وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوى الرحمة من قريش. فكان أحدهم يوقر البعير زادًا ثم يضربه فى اتجاه الشِّعْب ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين فيخفف شيئًا مما بهم من إعياء وفاقة.

كم بقيت هذه الضائقة؟ ثلاث سنين كالحة كان رباط الإيمان وحده هو الذى يمسك القلوب ويصبر على اللأواء.

ومن الطبيعى أن يستعجل المسلمون الخروج من هذه المآزق.

لطالما وُعدوا بالنصر والتمكين، فما وجدوا إلاّ الرّوع والشغب!

وها هم أولاء مخرجون فى أرض تنكرت لهم، واقشعرت تحت أقدامهم.

ولا ريب أن قلوبهم امتلأت غيظًا على أولئك المشركين الذين سخروا من جميع القيم الفاضلة، وكفروا بانتصارها فى الدنيا كفرهم بمجىء اليوم

الآخر ولو لم يطلب أولئك المعذّبون النصر لينقذهم من بأسائهم لطلبوه، كى يخزوا به المكذبين ويؤبوا المتوقحين، بيد أن الوحى كان ينزل فيطالب المسلمين باليقين والثبات دون ارتقاب لهذه النتائج المتوقعة، يجب أن يحمدوا على حقائق الإيمان التى عرفوها، وأن يستمدوا من سموّها وصدقها ما يراغمون به الأيام والأحداث.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾(١).

وكان المشركون أيضًا يتعجّلون خاتمة الصراع بينهم وبين أولئك المسلمين؛ يتعجّلون لأنهم يضحكون منها فما يثقون ببعث أو جزاء، ولا يظنون أبدًا أن يومًا قريبًا أو بعيدًا سينشق فجره، فإذا مكة خالية من الأصنام، وإذا أذان التوحيد يرن فى أرجائها، وإذا المحصورون فى الشّعب هم أصحاب الأمر والنهى.

والسادة الحاكمون بأمرهم اليوم أسرى يرجون العفو!!.

وكان يقينهم من أن اليوم والغد لهم يزين لهم الاستهزاء بهذا الوعد والتعريض به.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾(٢).

وكان الدخول فى الإسلام والبقاء عليه أبعد ما يكون عن التهمة.

---

(١) سورة يونس: ٤٦، ٤٧.

(٢) سورة يونس: ٤٨ - ٥١.

ربما اعتنق فريـق من الناس مبدأ ما -عن صدق واقـتناع- وليس يمنعهم ذلك من التماس النفع به والتقدم من ورائه.

أمَّا أولئك السابقون الأولون فقد علموا أن فقدان المنافع وهلاك المصالح الخاصة أول ما يلقون من تضحية فى سبيل عقيدتهم.

ولا أحسب شـيئًا يربى النفـوس على التجـرد كهذا التـفانى فى الحق، للحق ذاته، ثم إن القرآن كان صارمًا فى قمع المتاجرة بالعقائد.

والإثراء على حسابها، والعلو فى الأرض باسمها.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

وقد أفاد الصحابة من ذلك عفة ونقاءً وإخلاصًا لا يعرف لها فى التاريخ نظير، فلمّا تعثّرت تيجان الملوك بأقـدامهم، واستسلمت الأقطار المكتظة بالخير لجيـوشهم، كانت دوافع العـقيدة وأهدافهـا هى التى تشغل بالهم قـبل الفتح وبعده.

فلم يكتـرثوا بذهب أو فضـة. إنما عناهم -أولاً وآخـراً- إقام الصـلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وفى أيَّام الشّـعب كان المسلمـون يلقون غـيرهم فى مـوسم الحج، ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضـها على كل وفد، فإن كان الاضطهاد لا يقتل الدعوات بل يزيد جذورها عمقًا وفروعها امتداداً، وقد كسب الإسلام أنصاراً كُثُراً فى هذه المرحلة، وكسب -إلى جانب ذلك- أن المشركين قد بدأوا ينقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا.

وشرع فريق منهم يعمل على إبطال هذه المقاطعـة ونقض الصحيفة التى تضمنتها.

---

(١) سورة هود: ١٥، ١٦.

وأول من أبلى فى ذلك بلاءً حسنًا «هشـام بن عمرو» فقـد ساءته حال المسلمين ورأى ما هم فيـه من عناء، فمشى إلى «زهير بن أُميـة» وكان شديد الغيرة على النبىّ -ﷺ- والمسلمين، وكانت أمّـه «عاتكة بنت عـبد المطلب» فقال:

يا زهيـر، أرضيتَ أن تأكل الطعـام، وتلبس الثـياب، وتنكح النسـاء، وأخوالك حيث قد علمتَ؟

أمـا إنى أحلف بالله: لو كان أخـوال أبى الحكم -يعنى أبا جـهل- ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبدًا!، فقال:

قد وجدت رجلاً.

قال: ومَنْ هو؟

قال: أنا.

قال زهير: أبغنا ثالثًا.

فذهب إلى «المطعم بن عدى» فقال له:

أرضيت أن يـهلك بطنان من بنى عبـد مناف وأنت شاهد ذلك مـوافق فيه؟ أما والله لو أمكنتموهـم من هذه لتجدنهم إلى مثلها منكم أسرع!!.

قال: ما أصنع؟ إنما أنا رجل واحد.

قال: قد وجدت ثانيًا.

قال: من هو؟

قال: أنا.

قال: أبغنا ثالثًا.

قال: قد فعلت.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبى أمية.

قال: أبغنا رابعًا.

فذهب إلى أبى البخترى بن هشام، وقال له نحواً مِمّا قال للمطعم.

قال: وهل من أحد يعين على هذا؟

قال: نعم.

قال: من هو؟

قال: أنا وزهير والمطعم.

قال: أبغنا خامسًا.

فذهب إلى «زمعة بن الأسود» فكلّمه وذكر له قرابته، قال:

وهل على هذا الأمر مُعين؟

قال: نعم. وسمي له القوم.

فاتعدوا «خطم الحجون» الذى أعلى بمكة، فاجتمعوا هنالك وتعهدوا على القيام فى نقض الصحيفة.

فقال زهير: أنا أبدؤكم.

فلمّا أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير فطاف بالبيت. ثم أقبل على الناس، فقال:

يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلكى لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!!.

قال أبو جهل: كذبت والله لا تشق.

قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا بها حين كُتبت!!

قال أبو البخترى: صدق والله زمعة لا نرضى ما كتب فيها.

قال المطعم بن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك!!

وقال هشام بن عمرو نحواً من هذا.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل!

فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا كلمة «باسمك اللهم».

وكانت العرب تفتتح بها كتبها»[1].

فانظر أخى القارئ كيف تحالف «أبو لهب» مع قريش ضد ابن أخيه «محمد» -ﷺ-. . وخالف بنى هاشم حنقًا وغيظًا وحقدًا على الرسول -ﷺ-!! أبعد هذا الكفر كفر؟!!.

وتم نقض الصحيفة، وخرج رسول الله -ﷺ- ومن معه من الشّعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم كما أخبر الله عنهم.

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[2].

أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفراً إلى كفرهم!!.

موقف عدائى آخر:

كان لأبى لهب من الأولاد «معتب» و«عتبة» و«عتيبة». . وكان «عتبة» و«عتيبة» قد عقدا على ابنتى الرسول -ﷺ-، فلمّا بعث الرسول -ﷺ-، قال أبو لهب لابنيه:

رأسى من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد!.

وقالت أمّهما «أم جميل»: طلقاهما يا بنى، فإنهما صبأتا، فطلقاهما، ولمّا طلق عتيبة أم كلثوم جاء إلى النبىّ -ﷺ- حين فارقها، فقال: كفرتُ بدينك، وفارقت ابنتك لا تحبّنى ولا أحبّك!.

---

(١) فقه السيرة (١٢٦ - ١٣١).

(٢) سورة القمر: ٢.

وفي رواية لابن عساكر عن هبّار بن الأسود:

أن عتيبة(١)، قال:

والله لأنطلقـن إلى محمـد، ولأوذينه فـي ربّه، فانطلق حتى أتى النبيّ -ﷺ- فقال:

يا محمد، هو يكفر بالذي دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى.

فقال النبيُّ -ﷺ-:

«اللهم ابعث إليه كلبًا من كلابك».

وفي رواية:

أنه قال: يا محمد، هو كـافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، ثم تفل في وجه رسول الله -ﷺ- وردّ علـيه ابنتـه وطلقـهـا، فـقال رسول الله -ﷺ-:

«اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك».

وكان أبو طالب حاضرًا، فوجم لها وقال:

ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة.

فرجع «عتيبة» إلى أبيه فأخبره، قال:

يا بني والله ما آمن عليك دعاءه.

هلاك أبي لهب وولده:

يحكي أبو رافع مولى رسول الله -ﷺ- قصة هلاك أبي لهب فيقول:

---

(١) في بعض الروايات: أن الذي دعـا عليه الرسـول -ﷺ- هو «عـتبـة» ولا يصح، قـال القاسمي: قال الشهاب: والذي صـححه أهل الأثر أن أولاده -لعنه الله- ثلاثة: معتب، وعتبـة وهما أسلما، وعتيـبة -مصغرًا- وهذا هو الـذي دعا عليه النبيّ -ﷺ- لما جاهر بإيذائه وعداوته.

رماه الله «بالعدسة»[١] فقتلته، فلقد تركـه ابناه بعد موته ثلاثًا، ما دفناه حتى أنتن، وكانت قريـش تتقى هذه العدسة، كما تتقـى الطاعون، حتى قال لهم رجل من قريش:

ويحكما، ألا تستحيان أن أباكما قد انتن فى بيته لا تدفنانه؟

فقالا: إنا نخشى عَدْوة هذه القرحة.

فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلاّ قذفًا بالماء عليه من بعـيد ما يدنـون منه، ثم احتـملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جـدار، ثم رخموا عليه بالحجارة.

عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-:

أنهـا كانت لا تمرّ على مكان أبى لهب هذا، إلا تـسترت بثـوبها حـتى تجوز!

أما ولده «عتيـبة» الذى تفل فى وجه الرسول -ﷺ- فيحكى لنا شاهد عيان قصة مصرعه بالشام[٢] فيقول:

«فسرنا حـتى نزلنا الشراة[٣]، وهى مأسدة -أى كثـيرة الأسود- فنزلنا إلى صومعة راهب، فقال:

يا معـشر العرب ما أنزلكم هذه البـلاد، فإنها تسرح الأُسْـدُ فيها كـما تسرح الغنم!!.

فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفـتم كبر سنى وحقّى وإن هذا الرجل -يقصد النبى -ﷺ- قد دعا على ابنى دعـوة، والله ما آمنها عليه، فاجـمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابنى عليها ثم افرشوا حولها!.

(١) العدسة: من الأمراض المعدية.
(٢) كان قد خرج مع أبيه فى تجارة.
(٣) موضع بالشام بين دمشق والمدينة.

ففعلنا، فجاء الأسد فشمّ وجوهنا، فلمّا لم يجد ما يريد. فقبض، فوثب فإذا هو فوق المتاع فشم وجهه -أى وجه عتيبة- ثم هزمه هزمة[1]، ففضخ[2] رأسه!!.

فقال أبو لهب: قد عرفتُ أنه لا ينفلت عن دعوة محمد!.

وهكذا انتقم الله عزّ وجلّ لرسوله -ﷺ- من أبى لهب وولده ﴿جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾[3].

أسباب النزول

أخرج البخارى فى «صحيحه» (١٠/١١٨): عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: لما نزلت:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[4]. صعد النبىُّ -ﷺ- على الصفا فجعل ينادى:

«يا بنى عدى» لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو.

فجاء أبو لهب وقريش، فقال:

«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ؟».

قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

---

(١) هزمه: أى ضربه.
(٢) فضخ: أى شج وشدخ.
(٣) سورة النبأ: ٢٦ - ٣٠.
(٤) سورة الشعراء: ٢١٤.

قال: «إني نذير لكم بين يدى عذاب شديد».

فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[1].

دروس وعبر من أسباب النزول

سورة «المسد» فيها دلالة ظاهرة على صدق نبوة الرسول -ﷺ- إذ نزلت وأبو لهب حيٌّ يُرزق.. فبشرته بالهلاك والخسارة.. وكان بإمكانه أن يتظاهر بالإسلام واتباع الرسول.. ليكذب الوعيد المذكور في السورة!! ولكنه لم يستطع ذلك.. ولم يمكنه الله تعالى من ذلك.

قال الحافظ ابن كثير:

«قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطنًا ولا ظاهرًا، لا مسرًا ولا معلنًا، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة»[2] اهـ.

وفي السورة الكريمة دليل على أن الجزاء من جنس العمل.

فإن أبا لهب لما قال لرسول الله -ﷺ- «تبًا لك» أنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.. دعاء بدعاء، ولفظٌ بلفظ وذكرت الآية: يدى أبي لهب.. لأنه نفض يديه عندما قال: تبًا لك!! فجاء ذكر اليدين.. واحدة بواحدة.. يداك أوكتا وفوك نفخ أبا لهب.

---

(١) سورة المسد: ١، ٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٩٠٢).

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ يعنى ولده.

والمعنى: ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من مال، ولا ما كسب من جاه.

وقال مجاهد: من الولد؛ وولد الرجل من كسبه.

قال ابن عباس:

لما أنذر رسول الله -ﷺ- عشيرته بالنار، قال أبو لهب:

إن ما يقول ابن أخى حقًّا فإنى أفدى نفسى بمالى وولدى؛ فنزل:

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾(١)(٢).

لقد تبت يداه وهلكتا وتب هو وهلك. فلم يغن عنه ماله وسعيه ولم يدفع عنه الهلاك والدمار.

ذلك -كان- فى الدنيا.. أما فى الآخرة فإنه:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.. ويذكر اللهب تصويرًا وتشخيصًا للنار وإيحاء بتوقدها وتلهبها.

وهكذا خسر أبو لهب نفسه وخسر أهله.. وما أغنى عنه ماله وما كسب.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾(٣).

---

(١) سورة المسد: ٣.
(٢) تفسير القرطبى (٢٠/٢١٣).
(٣) سورة الزمر: ١٥، ١٦.

[٤٠] أُمُّ جَمِيــل
«حمَّالة الحطَب!»

الآيات التى نزلت فيها:

قال تعالى:

﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾(١).

فمن هى أمّ جميل؟:

هى: أروى بنت حرب بن أميّة، أخت أبى سفيان.. وزوجة أبى لهب.. وكانت هذه الشقيّة من ألدّ الناس عداء للإسلام.. ومن أشدهم عداوة للرسول -ﷺ-.. فلقد كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده.. فبئست الصاحبة كانت لزوج أثيم.

شدة عداوتها للرسول -ﷺ-:

انفردت هذه الشقية بعدة مواقف ضد رسول الله -ﷺ-.. واستخدمت كل الطرق فى محاربة الدعوة الإسلامية والانتقاص من رائدها الكريم -ﷺ- وظلت على عداوتها إلى أن أخذها الله أخذ عزيز مقتدر.

فلقد كانت تعيّر النبى -ﷺ- بالفقر.. وكان تضع الشوك فى طريق رسول الله -ﷺ-.. وكانت تنفق من مالها للصد عن سبيل الله!!.

قال سعيد بن المسيب:

«كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأنفقنها فى عداوة محمد!!، فأعقبها الله منها حبلاً فى جيدها من مسد النار»(٢).

---

(١) سورة المسد: ٤، ٥.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٩٠١).

وكانت -عليها لعنة الله- «عوراء».. تمشى بالنميمة.. وتشعل النار فى قلب زوجها على ابن أخيه محمد -ﷺ-.. ولقد حاولت جاهدة قتل رسول الله -ﷺ-!!.

روى ابن أبى حاتم عن أسماء بنت أبى بكر -رضي الله عنها-، قالت:

لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة وفى يدها فهر[1] وهى تقول:

مـــــذمَّــــمًـــــا أبيـنا

وديـــنــــه قـــلـــيـــنـــا

وأمــــره عـــصـــيـنا

ورسول الله -ﷺ- جالس فى المسجد[2]، ومعه أبو بكر، فلمّا رآها أبو بكر، قال:

يا رسول الله لقد أقبَلتْ وأنا خائف عليك أن تراك.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«إنها لن ترانى!!».

وقرأ قرآنًا اعتصم به كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[3].

فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر ولم تر رسول الله -ﷺ-!!، فقالت:

يا أبا بكر إنى أخبرتُ أن صاحبك هجانى.

---

(١) أى: حجر.

(٢) المسجد: هو: المسجد الحرام.

(٣) سورة الإسراء: ٤٥.

قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك.

فولّت وهى تقول:

قد علمت قريش أنى ابنة سيّدها.

قال: وقال الوليد فى حديثه أو غيره:

فعثرت أم جميل فى مرطها وهى تطوف بالبيت، فقالت:

تعس مذمم[1]!!.

فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب:

إنى لحصان فما أكلم، وثقاف فما أعلم، وكلتانا من بنى العم، وقريش بعد أعلم.

وروى الحافظ أبو بكر البزار، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال:

لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ جاءت امرأة أبى لهب ورسول الله -ﷺ- جالس ومعه أبو بكر، فقال له أبو بكر:

لو تنحّيتَ لا تؤذيك بشىء.

فقال رسول الله -ﷺ-:

«إنه سيُحال بينى وبينها».

فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر، فقالت:

يا أبا بكر هجانا صاحبك.

فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشّعر ولا يتفوه به.

فقالت: إنك لمصدق.

فلمّا ولّت، قال أبو بكر:

ما رأتك؟!.

---

(١) تقصد: النبيّ -ﷺ-.. وهو المبرأ من كل عيب.

قال: «ما زال مَلَك يَسْترنى حتى ولَّتْ!!»(١).

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق، من سيرورة هذا القول الذى حسبته شعراً [وكان الهجاء لا يكون إلا شعراً] ممّا نفاه أبو بكر وهو صادق! ولكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التى شاعت فى آياتها، قد سجلت فى الكتاب الخالد، وسجلتها صفحات الوجود أيضًا تنطق بغضب الله وحربه لأبى لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله، والتباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله فى الدنيا، والنار فى الآخرة جزاء وفاقًا، والذل الذى يشير إليه الحبل فى الدنيا والآخرة جميعًا..

هلاكها:

تقدم معنا قصة أبى لهب وولده وكيف أهلكهما الله تعالى.. وهنا تأتى قصة هلاك زوجته:

قال مُرَّة الهَمْدانى:

«كانت أم جميل تأتى كل يوم بإبالة(٢) من الحَسَك(٣)، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هى حاملة ذات يوم حُزْمة أعْيَتْ، فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها المَلَك من خلفها فأهلكها»(٤).

أى: خنقها بحبلها كما قال الضحاك وغيره:

كانت تُعيِّر النبى -ﷺ- بالفقر وهى تحتطب فى حبل تجعله فى جيدها(٥) من ليف، فخنقها الله عزّ وجلّ به فأهلكها؛ وهو فى الآخرة حبل من نار(٦). وذلك جزاء الظالمين.

---

(١) قال البزار: لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبى بكر -رضي الله عنه- «تفسير ابن كثير» (٤/ ٩٠٢).

(٢) الإبالة: الحزمة الكبيرة.

(٣) الحسك: نبات ذو شوك تعلق بأصواف الغنم.

(٤) تفسير القرطبى (٢٠/ ٢١٤).

(٥) الجيد: العنق.

(٦) تفسير القرطبى (٢٠/ ٢١٥).

أسباب النزول

أخرج ابن جرير، عن ابن زيد:

أن امرأة أبى لهب كانت تلقى فى طريق النبى -ﷺ- الشوك، فنزلت:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

فلمّا نزلت، بلغ امرأة أبى لهب أن النبىّ -ﷺ- يهجوك.

قالت: علام يهجونى؟ هل رأيتمونى كما قال محمد أحمل حطبًا فى جيدى حبل من مسد؟[1].

فمكثت ثم أتته، فقالت:

إن ربك قلاك وودّعك، فأنزل الله:

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2][3].

دروس وعبر من أسباب النزول

لما أجمع بنو هاشم بقيادة أبى طالب على حماية النبى -ﷺ- أيام المقاطعة العامة والحصار الذى فرضته قريش كما تقدم على النبى وأصحابه ومن تعاطف معهم -ولو لم يكونوا على دينه، تلبية لدفع العصبية القبلية، خرج أبو لهب على إخوته، وحالف عليهم قريشًا، وكان معهم فى الصحيفة التى كتبوها بمقاطعة بنى هاشم وتجويعهم كى يسلموا لهم محمدًا -ﷺ-.

---

(١) هكذا كانت تكابر، وتخفى حقيقتها.. ففضح الله تعالى أمرها عند موتها كما تقدم معنا -فخنقت بحبلها!!-.

(٢) سورة الضحى: ١-٣.

(٣) الدر المنثور (٨/٦٦٧)، وانظر: أسباب نزول السورة فى أسباب النزول للسيوطى.

وكان قد خطب بنتى رسول الله -ﷺ- رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة رسول الله -ﷺ- فلمّا كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد بهما!.

وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حربًا شعواء على النبى -ﷺ- وعلى الدعوة، لا هوادة فيها ولا هدنة.

وكان بيت أبى لهب قريبًا من بيت رسول الله -ﷺ- فكان الأذى أشد.

وقد رُوى -كما مَرّ معنا- أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه فى طريق النبىّ -ﷺ-؛ وقيل: إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة.

نزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ تردّ على هذه الحرب المعلنة من أبى لهب وامرأته. وتولى الله سبحانه- عن رسوله -ﷺ- أمر المعركة!.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾.. والتباب الهلاك والبوار والقطع.

«وتب» الأولى: دعاء. «وتب» الثانية: تقرير لوقوع هذا الدعاء.

ففى آية قصيرة واحدة فى مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق، وتنتهى المعركة ويسدل الستار!.

فأما الذى يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ أى: ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أى: ذات شرر ولهب وإحراق شديد.

ثم تنتقل السورة إلى عذاب زوجته فيقول الله:

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.

قال صاحب الظلال -رحمه الله تعالى-:

«وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة للحطب.. وحالة كونها: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.. أى من ليف.. تشد هى به فى النار. أو هو الحبل الذى تشد به الحطب. على المعنى الحقيقى إن كان المراد هو الشوك. أو المعنى المجازى إن كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر والسعى بالأذى والوقيعة.

وفى الأداء التعبيرى للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوّها، نقتطف فى بيانه سطوراً من كتاب «مشاهد يوم القيامة» نمهد بها لوقع هذه السورة فى نفس أم جميل التى ذعرت لها وجن جنونها:

«أبو لهب. سيصلى ناراً ذات لهب.. وامرأته حمالة الحطب. ستصلاها وفى عنقها حبل من مسد».

تناسق فى اللفظ، وتناسق فى الصورة. فجهنم هنا نار ذات لهب. يصلاها أبو لهب! وامرأته تحمل الحطب وتلقيه فى طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقى أو المجازى).. والحطب مما يوقد به اللهب.

وهى تحزم الحطب بحبل. فعذابها فى النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد ليتم الجزاء من جنس العمل، وتتم الصورة بمحتوياتها: الحطب والحبل. والنار واللهب. يصلى به أبو لهب وامرأته حمّالة الحطب!.

«وتناسق من لون آخر فى جرس الكلمات، مع الصوت الذى يحدثه شد أحمال الحطب وجذب العنق بحبل من مسد. اقرأ:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ تجد فيها عنف الحزم والشد! الشبيه بحزم الحطب وشدّه. والشبيه كذلك بغل العنق وجذبه.

والشبيه بجو الحنق والتهديد الشائع فى السورة..

هذا التناسق القوى فى التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول -ﷺ- قد هجاها بشعر. وبخاصة حين انتشرت هذه السورة وما تحمله من تهديد

ومذمّة وتصوير زرى لأم جمـيل خاصة تصوير يثير السخرية من امـرأة معجبة بنفسها، مدلة بحسبها ونسبها. ثم ترتسم لها هذه الصورة:

﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾! فى هذا الأسلوب القوى الذى يشيع عند العرب![1].

وقال الإمام القرطبى فى قوله تعالى:

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾: «قيل: إن ذلك إشارة إلى الخذلان؛ يعنى أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشـقاء، كالمربوط فى جيده بحبل من مسد» ا.هـ.

نسأل الله تعالى العافية فى الدنيا والآخرة.

(١) الظلال (٦/ ٤٠٠٠ - ٤٠٠١).

خاتمة نسأل الله تعالى حسنها

أخى القارئ:

وبعد هذه الترجمة لحياة بعض الأشقياء.. الذين حقت عليهم كلمةُ العذاب وبعد أن بينا أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم التى كانت سببًا فى إبعادهم من رحمة الله.. وطردهم من رضوانه.. بقى أن نبتهل إلى الله تعالى وندعوه بدعاء القرآن:

﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].. ونسأله سبحانه أن يُجيرنا من خزى الدنيا ومن عذاب الآخرة.. وأن ينجينا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وندعوه سبحانه -بما دعا به الرجل الصالح «عمرو بن ذر» -رحمه الله-، عندما تعلق بأستار الكعبة -وهو يحج- ثم بكى وقال:

«إلهى.. إلى هنا أمرتنى.. وهنا وعدتنى -أى: المغفرة- أفتعذبنى وفى قلبى توحيدك؟!!.. ما أظنك تفعل.. ولئن فعلتَ.. فلا تجمع بينى بين قوم عاديتُهم فيك».

اللهم إنك تعلم أننا نكره الشرك وأهله.. والظلم وأهله.. فلا تجمع بيننا وبين قوم نكرههم فيك.

هذا، وأذكر القارئ الكريم أن ما قيدناه فى هذا الكتاب هو جهد المقل ووسع الطاقة، والخطأ لازم والعصمة ممنوعة عن مثلى، والتحصيل متفاوت،

(١) سورة المؤمنون: ٩٤.

فمن اطلع على خلل سـدَّده وأصلح خطأه، ومن رأى نقصًا أكـمله لا إظهارًا لنقص ولا تظاهرًا بعلم، ولكن ابتغـاء لوجه الله، فله منى حسن الثناء، ومن الله أحسن الجزاء.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

كتبــه/

سعد يوسف محمود أبو عزيز

أول ربيع آخر ١٤٢١هـ

٣ يوليه ٢٠٠٠م

أهم المراجــع

١ - جامع البيان فى تأويل القرآن. للإمام الطبرى.

٢ - الجامع لأحكام القرآن. للإمام القرطبى.

٣ - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. للإمام الفخر الرازى

٤ - أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن. للشيخ/ محمد الأمين الشنقيطى

٥ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطى

٦ - تفسير القرآن العظيم. للحافظ ابن كثير

٧ - تفسير المنار. للشيخ/ محمد رشيد رضا

٨ - التحرير والتنوير. للطاهر بن عاشور

٩ - تفسير الخازن. للإمام الخازن

١٠ - فى ظلال القرآن. للأستاذ/ سيد قطب.

١١ - التفسير الواضح. دكتور/ محمد محمود حجازى

١٢ - لطائف الإشارات. للإمام القشيرى

١٣ - التفسير القيم. للإمام ابن القيم

١٤ - أحكام القرآن. للإمام أبى بكر بن العربى

١٥ - كشف اللثام عما فى كتب التفسير من الأوهام د/ أبو عمر نادى الأزهرى

١٦ - فتح البارى شرح صحيح البخارى.

١٧ - صحيح مسلم بشرح النووى.

١٨ - صحيح سنن أبى داود. للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى

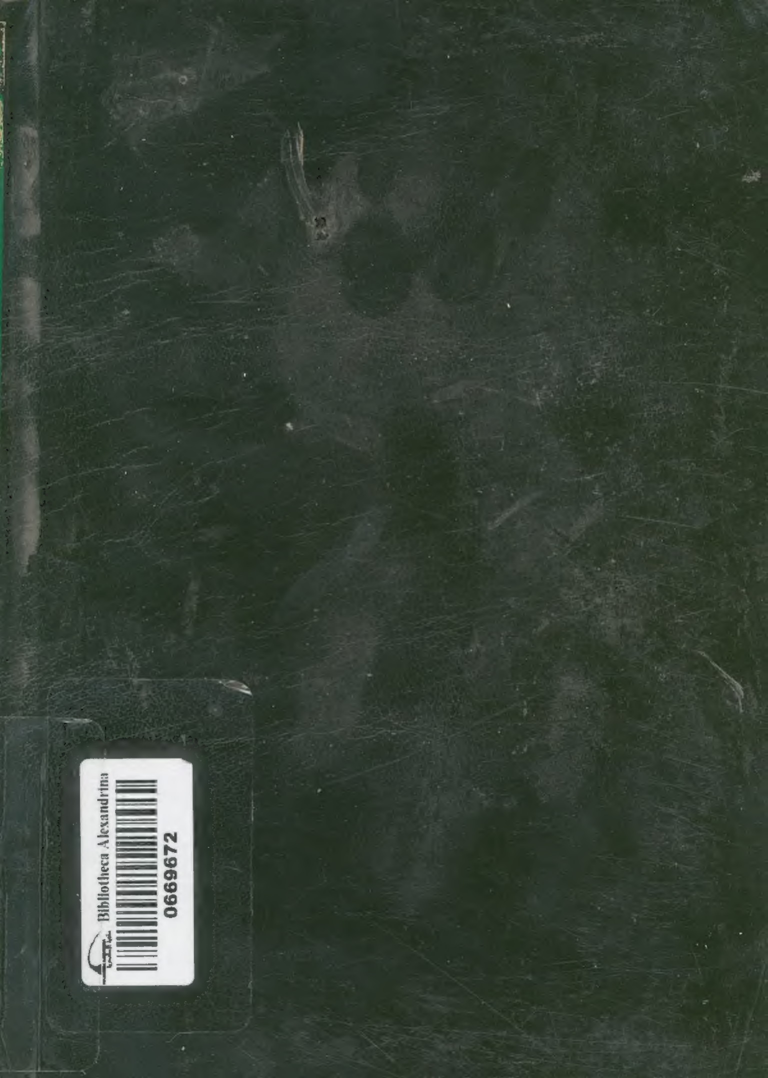
١٩ - صحيح سنن الترمذى.	» » » » »
٢٠ - السلسلة الصحيحة.	» » » » »
٢١ - صحيح الجامع.	» » » » »
٢٢ - ضعيف الجامع.	» » » » »
٢٣ - سنن النسائى.	
٢٤ - مسند الإمام أحمد.	
٢٥ - دلائل النبوة.	للإمام البيهقى
٢٦ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.	للإمام الهيثمى
٢٧ - الترغيب والترهيب.	للإمام المنذرى.
٢٨ - أسباب النزول.	للإمام السيوطى
٢٩ - أسباب النزول.	للإمام النيسابورى.
٣٠ - الصحيح المسند من أسباب النزول.	للشيخ/ مقبل بن هادى الوادعى
٣١ - البداية والنهاية.	للحافظ ابن كثير
٣٢ - إحياء علوم الدين.	للإمام الغزالى
٣٣ - سيرة ابن هشام.	
٣٤ - فقه السيرة.	للشيخ الغزالى. تحقيق الألبانى
٣٥ - قصص الأنبياء.	للحافظ ابن كثير.
٣٦ - قصص الأنبياء.	للشيخ/ عبد الوهاب النجار.
٣٧ - مع الأنبياء فى القرآن الكريم.	للأستاذ/ عفيف عبد الفتاح طبّارة
٣٨ - قصص القرآن.	للشيخ/ محمد بيومى.
٣٩ - الرحيق المختوم	لصفى الرحمن المباركفورى

٤٠ – تأملات فى السيرة.	د. محمود محمد عمارة
٤١ – زاد المعاد.	للإمام ابن القيم
٤٢ – التذكرة.	للإمام القرطبى
٤٣ – أحكام الجنائز.	للشيخ الألبانى
٤٤ – رياض الجنة.	للشيخ كشك
٤٥ – ذم اللواط.	للحافظ أبى بكر الأجرّى
٤٦ – الكبائر.	للإمام الذهبى
٤٧ – الإصابة فى تمييز الصحابة.	للحافظ ابن حجر
٤٨ – المحلى.	للإمام ابن حزم
٤٩ – العواصم من القواصم.	لأبى بكر بن العربى
٥٠ – فقه السنة.	للشيخ/ السيد سابق
٥١ – غزو فى الصميم.	للأستاذ/ عبد الرحمن حنبكة
٥٢ – مكايد يهودية عبر التاريخ.	» » » »
٥٣ – الصحيح من قصص النبى.	للأستاذ/ مجدى فتحى السيد
٥٤ – أبغض الأعمال إلى الله.	» » » »

فهرس الكتاب

الموضـــــــوع	الصفحة


المكتبة التوفيقية
المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠


Bibliotheca Alexandrina
06669672